منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

Novel

Labyrinth of forgotten souls Burhan Shawi

متاهة الأرواح المنسية

رواية

بُرهان شاوي



الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1240-4

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 009613223227
هاتف الرياض: 0096650933772

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 676179 21 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

متاهة الأرواح المنسية

Labyrinth of forgotten souls

رواية

بُرهان شاوي

BURHAN SHAWI





المحتويات

بدأت الكلمات الأولى تنهمر في لندن مساء

يوم 24-5-2014

في فندق كوينز بارك هوتيل.

تمت مواصلة كتابتها في الأماكن التالية:

إيطاليا - ليمونا – غارده زي- 2014

ألمانيا - برلين..هوهنشتاوفن شتراسه 8

تركيا – استنبول - في فندق ماربال – ميدان تقسيم

تم الانتهاء منها في برلين مساء يوم 7-1-2015

(كـــم قـصـيـــر هـــو الـطـــريـــق،

لـقـــد آمـــن بالـحـكـمــــة...أي حـمـــاقـــة !)

قسطنطين كفافي

(نعم.. الحجرة مـظلمـة جداً، وهذا يخيفنـي، لكن لابُـد من أن ندخل)

فـرنانـدو آرابـال

من مسرحية (الجلادان)

مدخـل

قطار في الضباب

انطلق القطار من محطة القطارات الكبرى في فلورنسا متجهاً إلى باريس، في أصيل ذلك اليوم الغريب. كانت الغيوم الرمادية الداكنة قد غطت السماء، مصحوبة برعـدٍ مـدوّ، منذرة بليلة عاصفة. كانت السماء أحيانا تنشق في لحظات مذهلة في قصرها لتكشف عن أغصان البرق الساطع، فترتجف الأرض من هول رعدها.

المساء بدا مسرعا في تمرير ريشته الخفية على الوهاد والسهول والبراري ليغيبها شيئا فشيئا تحت طبقات ألوانه المعتمة الكثيفة، أما الأشجار فبدت كأشباح ناحلة، لاسيما وأن القطار كان يعبرها سريعاً سريعاً.

دخل القطار في نفق مظـلم..نفق مظلم طويـل..طويل.. لكن قبيل أن يدخل القطار إلى النفق المظلم الطويل الذي يخترق جبلاً عالياً، إنفتحت الأنوار في مقصورات العربات التسع بتتابعٍ حسب التسلسل.

في العربة السادسة، وفي إحدى مقصورات الدرجة الثانية كانت امرأتان جميلتان وأنيقتان جداً تتحدثان بمودة وانسجام..وبرغم ذلك كان واضحاً على ملامحهما شيء من التوتر الخفي. على مبعدة منهما، وفي نهاية المقصورة نفسها كان رجل أشقر وسيم يجلس في الزاوية وحده، لا أحد يشاركه في الجوار أو في المقاعد المقابلة، أمامه الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ونسخة من القرآن الكريم. لم يكن في المقصورة غير هؤلاء الثلاثة رغم كون القطار دولياً.

انتبه الجالسون إلى انعكاس وجودهم في زجاج نوافذ المقصورة. انتبهت المرأتان إلى صورتيهما المنعكستين على زجاج النافذة. نظرتا إلى نفسيهما للحظات، إلا أن كلاً منهما انتبهت إلى ملامح القلق البادية عليها، لذلك تجنبتا النظر إلى زجاج

النافذة، وابتسمتا، ثم واصلتا حديثا أشبه ما يكون بحديث المجاملات. كانت كل منهما تفكر بما سيأتي وما سينتظرهما.

نظر الرجل الأشقر الوسيم بدوره إلى زجاج النافذة، لكنه لم يرَ شيئاً، ولم تكن صورته منعكسة على زجاج النافذة. كان زجاج النافذة الذي تحول إلى ما يشبه المرآة لا يعكس سوى صورة النافذة المقابلة في الجهة الأخرى، التي كانت بدورها تعكس زجاج النافذة الأخرى ولم يكن ثمة أحد يجلس في تلك الزاوية. كان الفراغ يملأ المكان، وكأن ليس هناك من أحد يجلس على المقعد إلى جانب النافذة، على الرغم من وجود الرجل الأشقر الوسيم..!.

اهتزت عربات القطار السريع.. وكُتم هديره إلى درجة كبيرة، بل تحول الهدير إلى نوع من الضجيج المخنوق. ضجيج مخنوق لكنه يتردد بإيقاع. ولم تكن هناك نهاية لهذا النفق..كان النفق طويلا طويلا..وكان مظلماً.

ايقاع الهدير المخنوق والرتيب دفع المرأتين إلى أن تقتربا من زجاج النافذة، لا لتنظرا إلى نفسيهما وإنما لتتأكدا من المكان الذي يسير القطار فيه. كان واضحا لهما أنهما داخل نفق مظلم، لكن شعوراً عميقاً راودهما و كأن القطار يسير داخل النفق منذ الأزل، وأن رتابته وانسيابه السريع في الظلام يبدو مألوفاً.

مر وقت طويل والقطار يسير داخل النفق. أحستا أنهما لن تخرجا من هذا النفق أبداً. لقد مرَّ وقت طويل..طويل وهما داخل النفق. لا تعرفان بالضبط كم من الساعات مرت والقطار يسير فيه.

في لحظة مفاجئة صمت الهدير المخنوق للقطار. أحستا أن القطار يسير في مكان كاتم للصوت أو كأنه صار خفيفاً ومحلقاً في الهواء ولا يسير على قضبان، ثم، بدأ هديره الاعتيادي، وكأنما القطار قد خرج من قمقم سحري.

وبرغم أن الوقت كان عصراً حينما انطلق القطار من المحطة الكبرى في فلورنسا، ووصل إلى النفق مساءً، إلا أنهما انتبهتا أيضا، من خلال النوافذ، إلى أن القطار قد خرج من النفق المظلم، حيث وجدتا أن ضباباً أبيض غمر القطار من الخارج.. ليست هناك أية معالم تبدو، لاشيء سوى الضباب الذي يغطي كل شيء، بل حتى القطار اختفى في الضباب، ولم يدل على وجوده سوى حركتهما في الضباب، وهما تنظران من النافذة.

* * *

في ذلك القطار المتجه إلى باريس، وفي إحدى مقصوراته كانت امرأتان أنيقتان جداً وجميلتان تجلسان متقابلتين وعلى وجهيهما ملامح توتر خفي. في طرف المقصورة نفسها كان رجل أشقر وسيم يجلس وأمامه الكتاب المقدس الذي يضم الأناجيل والعهد القديم وكتاب آخر هو القرآن الكريم.

ثمّ اختفى القطار المتوجه إلى باريس. في الضباب الكثيف.

الفصل الأول

الوصول إلى باريس

دخل القطار إلى محطة (غار دي إيست) عصراً. توقف إلى جانب الرصيف رقم (6). أخذ المسافرون ينزلون من عرباته.

من المقصورة السادسة نزلت المرأتان الجميلتان والأنيقتان. استغربت حواء ذوالنورين من زحمة الناس الذين نزلوا من القطار، فقد كانت مقصورتهم فارغة طوال الرحلة من فلورنسا إلى باريس، وقد كان لديها إحساس غامض وكأن القطار كان فارغاً إلاّ منهما.. وعلى الرغم من أنهما لم تنتبها لوجود الرجل الأشقر الوسيم في مقصورتهما، إلا أنه لم ينزل من القطار..! لم تكن لديهما حقائب كثيرة. حقيبة واحدة صغيرة لكل منهما..

حينما دخلتا باحة محطة غار دي إيست الرحبة كان الإزدحام أكبر. راحت حواء ذوالنورين تتأمل المحطة بدهشة وإعجاب واضحين..أخذت تتأمل بناء المحطة وسقفها العالي، زحام الناس من كل الأجناس، المطاعم المنتشرة التي تقدم كل أنواع الطعام لمختلف الشعوب، المحلات التجارية ذات الماركات العالمية، المقاهي والمكتبات ومكاتب السفر والبنوك.. كان كل ما يحيطها يملؤها بهجة وثقة واسترخاءً رائقاً..وأحست في أعماقها بأنها مدينة بذلك لصديقتها إيفا سميث.

سارتا على مهل..فجأة توقفت إيفا سميث عن المشي فوقفت حواء ذو النورين أيضا. نظرت إيفا سميث إلى ساعة المحطة التي كانت تشير إلى السادسة إلا ربعا. فتحت حقيبتها اليدوية وأخرجت جهاز الهاتف. وبينما أخذت إيفا سميث تتحدث بجمل فرنسية مطعمة بالعربية، كانت حواء ذوالنورين تواصل تأملها لهذا العالم الجديد الذي وجدت نفسها فيه.

أحست بالخوف يداهمها حينما رأت إثنين من الشرطة الفرنسيين يقبلان نحوها وهما مدججان بالأسلحة والهراوات. أحست برعشة في أعماقها، وتيبست عضلات ساقيها. التفتت إلى صديقتها التي كانت تقول كلمات ما بالفرنسية، وفي اللحظة التي وصل الشرطيان فيها إلى حيث تقفان كانت إيفا سميث قد أغلقت جهازها. انتبهت الى وجه صديقتها الذي لم يخف مشاعر الخوف. مرَّ الشرطيان من أمامهما بعد أن ألقيا عليهما نظرات.إعجاب واضحة. نظرت إيفا سميث لصديقتها لحظة وقالت لها:

- ما بك يا حواء..؟ نحن في باريس وليس في العراق؟ لِمَ تخافين..؟
- خفت حينما رأيت الشرطيين مقبلين. أحسست وكأنهما مقبلان نحوي.. خاصة وهما يحملان سلاحا وهراوات..
- نعم..هم هكذا هنا.. ثم هما شابان لطيفان ألقيا نظرات الإعجاب علينا.. لا أكثر.

أحست حواء ذوالنورين بشيء من الإحراج، فأرادت أن تغير سياق الحديث فسألت:

- بمن اتصلتِ؟
- بأمي..

لم تعلق حواء ذوالنورين على جواب صديقتها إذ وجدت نفسها أكثر حرجاً من سؤالها لصديقتها عن أمر خاص بها، إلا أن إيفا سميث ابتسمت لها برقة وقالت:

- وهي في البيت تنتظرنا. بالمناسبة..يمكن أن تسكني معها..هي تعيش وحدها.. في البناية المجاورة لنا..

اجتاح حواء ذوالنورين ارتباك كبير، فقالت لها وهما تتجهان إلى خارج المحطة من البوابة التي تقود إلى موقف سيارات التاكسي :

- ألا يوجد فندق مناسب..؟ لا أريد مضايقة أحد..
- ماذا تقولين..؟ تضايقيننا..؟ ما هذا الكلام يا حواء..؟ يجب أن ترتاحي لبضعة أيام أولاً.. ثم ألم نقرر بأن تطلبي اللجوء السياسي..؟ أي أنك لو نزلت الليلة في أي فندق فسيأخذون جواز سفرك ويستنسخونه.. وبالتالي ستذهب نسخة منه إلى الأجهزة الأمنية المختصة..وحينما ستقدمين طلب

اللجوء كعراقية فربما ستتعرضين إلى مشاكل..لذلك ستبقين عندنا إلى أن نرتب أمورك..

لم تستطع حواء ذوالنورين أن تجد الكلمات التي يمكن أن تجسد كثافة مشاعر الشكر والمودة التي شعرت بها نحو إيفا سميث سوى أن تحضنها. ارتبكت إيفا سميث من حركة الاحتضان المفاجئة فقالت لها:

- هوني عليك يا حواء. أنت صديقتي..وأنا التي اقترحت عليك المجيء إلى باريس..ولن أرتاح إلى أن أراك مستقرة ومرتاحة..لقد وعدتك بأن أقف إلى جانبك..

في تلك اللحظة اقتربت منهما فتاة جميلة الشكل في العشرين من العمر ترتدي ملابس الغجر مادة كفها، فتجاوزتاها وهما تخرجان من باب المحطة إلى موقف سيارة التاكسي. كانت حواء ذوالنورين قد انتبهت الى المتسولين الغجر في المحطة، فعلقت قائلة:

- لقد انتبهت إلى وجود الكثير من الغجر المتسولين في المحطة..
- نعم ..هم كثيرون هنا فعلاً..لاسيما في محطات القطارات..احترسي.. المحطات هنا غير آمنة من اللصوص..والآن دعينا نخرج..أمي تنتظرنا.. سنذهب بالتاكسي..

حين وصلتا إلى موقف سيارات التاكسي وجدتا طابورا ليس بالطويل. حين صار الدور لهما استقبلهما شاب يبدو من بلدان شمال أفريقيا. أخذ الحقيبتين منهما ووضعهما في الصندوق الخلفي للسيارة. حين جلستا قالت له إيفا سميث بالفرنسية :

- لا ديفونس..افينيو غوتنبيرغ..

كانت الدهشة والانبهار قد شتتا تفكير حواء ذوالنورين. لم تتحدث خلال الطريق الطويل نسبياً. إيفا سميث انتبهت للحالة التي هي فيها، فلم تلح عليها بالسؤال والحديث. كانت حواء تحس بدفق من المشاعر المتضاربة وهي ترى شوارع باريس النابضة بالحياة. الحياة التي افتقدتها منذ سنوات عديدة..هنا فيوض من الأضواء..الأضواء..الأضواء..

الفصـــل الثـانـــي

شمعة في دهليز مظلم

فتحت أم إيفا سميث الباب فشعرت حواء ذوالنورين برجفة تهز كيانها. أحست أنها أمام امرأة قوية الشخصية، باردة المشاعر، ذات عيون جامدة، غامضة، ونظرة باردة لا تشي بأية مشاعر، لا حباً ولا كراهية..لا اهتماماً وفضولاً ولا لامبالاة ولا حياداً. انقبضت نفسها. راودها خلال ثوان إحساس بأن الوقت الذي ستقضيه في هذه الشقة سيكون ثقيلاً عليها، لاسيما وأن صديقتها إيفا سميث ستتركها، بعد قليل بالتأكيد، لتذهب إلى شقتها.

كانت أم إيفا سميث امرأة على مشارف السبعين من العمر، أنيقة، تبدو وكأنها مغلقة العينين أو تنظر للأسفل..بحيث يبدو على ملامح وجهها الذي يشي ببقايا جمال وكأنها تفكر بشيء ما ولا تريد لنظراتها أن تفضحها.

جلست حواء ذوالنورين على الصوفا الجلدية في صالون الشقة المؤثث بأناقة واضحة، بينما ذهبت إيفا سميث مسرعة إلى غرفة الحمام. سمعت حركة تأتي من الغرفة المجاورة. لم يستمر الأمر طويلاً إذ ارتفعت جلبة صبيان وفتاة من الغرفة المجاورة. عرفت أنهم أبناء صديقتها. في تلك اللحظة خرجت إيفا سميث من الحمام فتوجهوا إليها. احتضنتهم ، قبلتهم واحداً واحداً وضمت الصغيرة إليها. انتبهت إلى وجه صديقتها المتألق لرؤية أبنائها، وذلك الرضا الذي ارتسم على وجه الجدة، ففكرت سريعا مع نفسها بأن هذه المرأة الصارمة الملامح ربما تحمل قلباً حنونا.

قامت إيفا سميث بمهمة التعارف بين أمها وحواء ذوالنورين، ثم قدمت أبناءها واحداً واحداً. لم يمض سوى عشرين دقيقة حتى انتبهت حواء ذوالنورين إلى أن أم إيفا سميث لم تكن تشبه النساء الأخريات اللاتي عرفتهن في حياتها. لقد بهرها هذا

الهدوء الطاغي حتى وهي في أوج حماسها للحديث عن الأطفال وشقاوتهم البريئة..

هادئة كانت في حركاتها، وكأنها تهمس في كلامها..وكانت واضحة وضوحاً غريباً وغامضاً..صافياً..وصارماً..وهي تجيب على أي سؤال تطرحه ابنتها إيفا ببساطة وتلقائية واسترخاء واضح أقرب إلى اللامبالاة..لكنها انتبهت إلى أنها في الوقت نفسه كانت تسعى جاهدة إلى الإجابات الواضحة..بل كانت تصر في حديثها على أن يفهمها الآخر..وحينما تتناقش أو تسأل ابنتها، كانت تصغي باهتمام وجدية تجبر ابنتها، التي كانت تداعب في الوقت نفسه أبناءها وتجيب على أسئلتهم البريئة، أن تتكلم هي الأخرى بجدية حتى وإن كان الموضوع أو الجواب ليس مهما..لكن برغم كل هذا الوضوح لم تكن الأم عفوية بالكامل في كلامها.. فقد كان واضحا بأنها لا تقول ما يخطر في بالها بسهولة، وإنما كانت تفكر في ما تريد قوله وتتهيأ للكلام..وكان واضحا بأنها في كل حديثها وإجاباتها يهمها أن تعرف كيف سيكون وقع كلامها على الآخر، حيث كانت تحدق في وجه الآخر، بل وتحملق في عينية دون أن يطرف لها جفن وكأنها تتابع وقع كلماتها من خلال وجه المقابل وإيقاع ألفاظها على ذهنه ومشاعره.

تحدثت إيفا مع أمها بعض الجمل بالفرنسية، وانتبهت حواء ذوالنورين إلى أنها المقصودة من خلال نظرات الأبناء الذين أخذوا ينظرون إليها بانتباه. أحست ببعض الاهتمام الذي ارتسم على وجه الأم. فكرت مع نفسها بأنها كما يبدو أثارت اهتمامها، ولم تكن تعرف اللغة الفرنسية كي تفهم ما قالته صديقتها عنها. بعدها التفتت إيفا سميث إليها قائلة :

- لقد تحدثت مع أمي..ستبقين هنا إلى أن نرتب لك أمورك..لقد هيأت لك أمي غرفتك..أنا مضطرة للذهاب لأن آدم، زوجي، على وشك الوصول.. وربما سنمر عليك معاً لنتعشى في مطعم قريب.

قاطعتها الأم قائلة بنبرة من يريد أن يستدرك شيئاً:

- لقد أعددت العشاء فلماذا تذهبون للمطعم..؟ ستجدين كل شيء جاهز في مطبخك..
- إذن.. سنتعشى معاً..ستأتين مع أمي..سنتصل بكم حينما نستعد للعشاء.. نحن نسكن قريبا..في البناية المجاورة.

أحست حواء ذوالنورين ببعض الارتباك فقالت:

- أنا لست جائعة..

ابتسمت إيفا سميث وقالت لها:

- أنا الجائعة..وستأتين لأعرفك بزوجي آدم الذي سيساعدنا في ترتيب وضعك فلديه بالتأكيد بعض المعارف..

قالت ذلك ونهضت خارجة يسبقها أولادها. عند الباب انتبهت لارتباك حواء ذوالنورين وعلامات الوحشة التي ارتسمت على وجهها، وأدركت أنها مرتبكة من وجودها مع أمها وحدهما..فابتسمت قائلة:

- لا تخافي من أمي..فرغم أنها تبدو صارمة..متجهمة..إلا أن قلبها من ذهب.. مليئة بالحنان..والعطف.. وستحبينها.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه الأم. انتبهت إلى قوة العلاقة التي تربط ابنتها بهذه المرأة العراقية الجميلة.. وإلى ارتباكها..فأرادت أن تلطف الأجواء..فقالت بصوت خافت لكنه مرح قليلاً :

- لا تخافي..فأنا لست جنية أو ساحرة كما في الأساطير..هل تحبين القهوة..؟

فوجئت حواء ذوالنورين بنبرة صوت الأم الذي كان فيه نبرة مصالحة خفية، وبسؤالها، فقالت:

- نعم..أموت على القهوة..

- طيب ستشربين من يدي أطيب فنجان قهوة..

كانت إيفا تصغي إلى الحوار بفرح غامر..نظرت إلى أمها نظرة مليئة بالعرفان لمبادرتها بالتخفيف النفسي عن صديقتها المرتبكة. قالت لهما وهي تغلق الباب خلفها خارجة:

- سأتصل بكما..كونا جاهزتين..

- حسنا..

* * *

شربتا القهوة الممزوجة بالهيل..تحدثتا بمودة. فاضت أم إيفا سميث بدفقات من الحنان الذي بث الطمأنينة في نفس حواء ذوالنورين. حكت لها عن تأريخ العائلة في لبنان..عن زوجها المتوفي الذي يزورها بين فترة وأخرى..عن حضوره

الدائم والمحسوس في الشقة..عن إيفا وقوة شخصيتها..وعن انغلاقها على نفسها بحيث وهي أمها لا تعرف الكثير عن أسرارها ..

كانت حواء ذوالنورين تحاول التركيز لكي تفهم كل ما تقوله أم إيفا، خاصة وأنها كانت تتحدث بلهجة لبنانية مطعمة ببعض المفردات الفرنسية .

كانت الأم تظن أن حواء ذوالنورين تعرف عن ابنتها أكثر مما هي تعرف..ثم أنهت حديثها بالشكوى من وحدتها على الرغم من أنها تعيش بالقرب من ابنتها وعلى تواصل دائم معها ومع أحفادها..وبعد أن اتصلت إيفا هاتفيا مبدية استعدادها لاستقبالهما قامت الأم منصرفة لغرفتها لتغيير ملابسها استعداداً للذهاب إلى شقة ابنتها، بينما ظلت هي وحدها في الصالة.

سألت حواء ذوالنورين نفسها: يا للغز الإنسان..كم كنت أخافها وأتوجس منها، بينما هي امرأة كل نظرة منها، وكل التفاتة لها، وكل حركة حتى لو كانت عفوية وبلا قصد أو اكتراث، تتحول إلى ما يشبه السحر في رقتها وحنانها.

* * *

فُتح الباب. قابلهما وجه إيفا سميث الجميل مبتسما..ركضت ابنتها الصغيرة لتحتضن جدتها. حين صارت حواء ذوالنورين في صالة الاستقبال التي تحتل المائدة جانباً منها واجهتها قامة رجل وسيم، طويل القامة، مفتول العضلات، متقد النظرات، ترتسم ابتسامة طيبة على وجهه الذي بدا لها وكأن ثمة قناعاً يغطيه.

نظرا لبعضهما البعض ثوانيَ معدودة..نظرات مليئة بالفضول وكأنهما من خلالها يحاولان معرفة بعضهما بسرعة خارقة. اقتربت إيفا بحيوية ومرح لتتم التعارف بينهما. رحب هو بها بتحفظ لكن بإحتفاء دافئ يليق بصديقة زوجته. لم يطل الأمر إذ دعتهم إيفا جميعاً إلى المائدة التي كانت معدة.

لاإراديا كانت حواء ذوالنورين تدرس كل ما يخص آدم سميث زوج صديقها إيفا. انتبهت، برغم أنهم كانوا يتناولون العشاء، لكل تفاصيله الخارجية، إلى حذائه الجلدي الأنيق الذي كانت قد انتبهت إليه منذ أول دخولها إلى الصالة..قميصه السماوي اللون والمفتوح الأزرار من الأعلى قليلا..جسده متناسق العضلات..طوله الواضح..رأسه الأصلع بسبب حلاقته لشعره على طريقة جنود المارينز الأميركان.. كما انتبهت لمحاولاته تجنب النظر إلى وجهها مباشرة.. نعم ..نعم..إنه يتجنبها..

أثناء العشاء كان طبيعيا في حديثه واحتفائه بها وكأنه يعرفها منذ فترة طويلة أو كأنها صديقة العائلة المقربة..لكنه برغم ذلك كان يتجنب النظر إليها..فحتى حينما كان يسألها أو يعلق على كلامها كان لا ينظر إليها وإنما ينظر في صحنه أو إلى أولاده متجنبا النظر إليها..انتبهت إلى أنه كان يتحدث بسخرية أقرب إلى الاحتقار عند مخاطبته الآخرين..لاسيما حماته..وكان برغم مرحه موجزاً في الكلام.. يجيب على أي سؤال بكلمة واحدة تقريباً..وكأنه بذلك يحاول مصارعة نفسه أو يبين لامبالاته للآخر ولسؤاله.. وكان يبدي احتقاره للألقاب، لكنه في الوقت نفسه كان يتحدث بزهو وفخر عن اجتماعه مع شخصيات مهمة قد التقاهم في سفرته الأخيرة..استغرق العشاء أطول فترات الأمسية..وكأن الجلوس على المائدة جزء من سهرة العائلة.

بعد العشاء.. جلسوا على الصوفا الجلدية في الصالة..وبقوا ثلاثتهم، هي وإيفا وآدم، بعد أن ذهبت الجدة مع أحفادها إلى غرفة نومهم. أخذوا يرتشفون النبيذ.. كانت هي مرتبكة لأنها لم تكن تعرف بماذا حدثت إيفا زوجها عنها..لذلك كانت تحس ببعض الضيق في أن تقول شيئاً ربما لا ينسجم مع ما روته إيفا عنها، لذا تجنبت الحديث عن نفسها.

بعد دقائق سألت إيفا زوجها:

- كيف يمكنك أن تساعد حواء ياآدم..؟

كان آدم قد شرب كأسه وصب لنفسه كأساً ثانياً. نظر إلى زوجته وإلى حواء ذوالنورين، ثم نظر إلى نقطة ما بعيدة خارج المكان، إذ بدا أنه يفكر في أشياء تمر في ذهنه في تلك اللحظة..وقال لزوجته:

- لقد أخبرتني عن نيتها تقديم اللجوء في فرنسا..لكن كما تعرفين أنا مشغول.. ومن غير المستحسن أن أذهب أنا معها إلى مركز الشرطة أو دوائر تقديم اللجوء..والأفضل أن أتحدث قبل كل شيء مع محامي الشركة..ومن المؤكد أنه سينصحنا بما يمكن علينا أن نعمله بشكل متقن..

نظرت إيفا إلى زوجها نظرات دافئة وكأنها تشكره على اهتمامه بموضوع صديقتها، وقالت مبتهجة:

- هذا أفضل سبيل..

إلا أن هذه البهجة قُطعت حينما أكمل آدم سميث جملته معلقا:

- لكن المحامي حالياً غير موجود..سيظل ليومين آخرين في مدريد..مساء غد سألتقيه هناك..وبعد غد سنرجع أنا وهو معاً إلى باريس..وستلتقيه مدام حواء هنا..

نظرت إيفا إليه بدهشة وسألت:

- أذاهب أنت إلى مدريد غداً..؟

فقال بطريقته اللامبالية:

- نعم..

- لكنك لم تقل لي ذلك..؟

ابتسم لها برقة وقال:

- نسيت..الآن أقوله..علينا إنجاز الصفقة بأسرع وقت ..

ثم التفت إلى حواء ذوالنورين وسألها بشكل مفاجئ:

- لماذا قررت اللجوء إلى باريس..؟

ارتبكت حواء ذوالنورين..لم تعرف كيف تجيبه على هذا السؤال غير المتوقع.. نظرت إلى صديقتها إيفا وكأنها تطلب النجدة. نظرت إيفا إلى زوجها مندهشة قالت باستنكار:

- ما هذا يا آدم..؟هل أنت المحقق..؟ أترك هذا السؤال للشرطة الفرنسية..

ابتسم آدم سميث دون أن يبدو عليه تأثر من ارتباك حواء ذوالنورين أو الهجوم الرقيق لزوجته، وقال :

- أرجو أن يُفهم سؤالي بشكل بريء..أنا أعرف أن مدام حواء مضطرة للجوء إلى بلد ما هرباً من الجحيم في بلادها.. لكني قصدت أن هناك بلدانا توفر للاجئين تسهيلات كثيرة كالبلدان الإسكندنافية..لأن الفرنسيين متشددون في هذا المجال..

ردت عليه إيفا قائلة:

- تلك بلدان ثلاثة أرباع يومها ليل، وثلاثة فصول منها شتاء...هناك ستصاب بالكآبة..عليها أن تقضي حياتها في المنزل..فهناك البرد والليل والشتاء المستديم..

- ربما.. هذ صحيح..لكننا جميعنا كذلك بهذا الشكل أو ذاك..البشر ليسوا

سوى مخلوقات بائسة..فانية..حياتهم كثيرة الشبه بحياة الحيوانات..البشر سواء هناك أو في أية بقعة من العالم ليسوا سوى خفافيش تلوذ بالبيوت.. ليسوا سوى كلاب منزلية..فحتى في البلدان الدافئة..لا يعيش الناس في العراء..وإنما يسكنون الشقق في العمارات العالية..لو تأملت البنايات في آخر الليل ستشعرين بأن البشر لا يختلفون عن الخفافيش..إنهم متعلقون في فضاء من الإسمنت.. ما رأيك أنت مدام حواء..؟.

أحست حواء بأن لديه آراء غريبة.لم تسمعها سابقاً..وأنه الآن قد حاصرها، فقد وجه إليها سؤاله بشكل مباشر.لا يمكنها أن لا تجيبه.لاسيما وأن صديقتها إيفا نظرت إليها منتظرة ردها..صمتت لحظات ثم قالت:

- ربما أنت محق من جانب..البشر ليسوا سوى مخلوقات بائسة..فانية..حياتهم كثيرة الشبه بحياة الحيوانات..وهم يتأقلمون مع كل شيء..حتى مع الجحيم.. لكن الإنسان يبقى يبحث عن السعادة..
- وما هي سعادة الإنسان في رأيك..؟
- لا أعرف..أقصد ليس لدي تعريف محدد للسعادة..وهي لا تُحدد بشيء ما..لكل إنسان مفهومه عن السعادة..يجدها في تلك الأشياء التي تحقق له تلك المشاعر الجميلة التي نسميها السعادة..لا أعرف كيف أشرح لك ذلك...أحيانا أجد أن سعادتي تكمن في ألاّ أفكر في أي شيء..أو ألاّ أرغب في أي شيء.. ببساطة أن أكون لاشيء..أن أكون عدماً..ذاك أحيانا ذروة سعادتي..لكن البعض يرى أن السعادة تكمن في إسعاد الآخرين.. التفاني من أجلهم..أن يكون الإنسان شمعة في دهليز مظلم..

كان آدم سميث ينظر إليها محاولا أن يكبت الإعجاب في نظراته، لاسيما وأن زوجته إيفا، الذكية، كانت تتنقل بنظراتها بينهما لترى تأثير كلامها عليه عبر تعابير وجهه..لكنه لم يكن يستطع أن يكبح طبيعته الساخرة فقال بنبرته اللامبالية والساخرة:

- شمعة في دهليز مظلم..شيء جميل..استعارة جميلة..لكن كل ذلك هراء.. كبرياء فارغة..الإنسان الذي يدعي التفاني من أجل الآخرين هو إنسان حسود.. يحسد السعداء من الناس دون أن يدرك حسده.. ربما هذا الإنسان هو طيب في أعماقه..لكنه حسود..وهو لا يدرك حسده..بل ربما أحيانا يدركه..

لذلك هو يهرب من وعيه لحسده سعادة الآخرين إلى فكرة التفاني من أجل الآخرين..أن يكون شمعة في دهليز..المتفاني في جوهره إنسان أناني.. بالمناسبة..أنا لا أخاف أن تأخذي عني فكرة سيئة منذ أول لقاء..لأني أولا لا أحقد على أي إنسان..بل أشفق على البشر..ولأني أحيانا أفكر بالبشر وسعيهم إلى السعادة بشكل آخر..فالبشر وحوش..وحوش ضارية..بل هم وحوش ضارية وناعمة في الوقت نفسه..البشر..بل الشعوب كلها تشعر بالفخر حينما تقتل أكبر عدد من أبناء الشعوب المعادية لها..وكل شعب يعتبر قتلاه شهداء..وكل شعب يعتبر الشعب الآخر عدواً. الشعوب تحتفل بأعياد النصر..وفي الحقيقة أعياد النصر ليست سوى احتفالات بقتل أكبر عدد من الآخرين..من الأعداء..أعياد النصر، أحيانا هي أعياد للجريمة.. مهرجانات للهروب من الوعي بالمأساة وبالجريمة..هروب من الذاكرة المليئة بالأشباح والدم..هروب الإنسان والشعوب من نفسها..

نظرت إيفا سميث إلى زوجها آدم بدهشة، واستغربت حين سمعته يدلي بآراء غريبة عليها، فقد سبق وأن تحدث في مناسبات أخرى، ومع ضيوف آخرين، عن مفهومه للسعادة..وعن التضحية من أجل العائلة والوطن..وعن نكران الذات والتفاني في العمل..وتضحيات الشعوب ونضالها من أجل الحرية..على عكس هذه الآراء التي يتحدث بها الآن..والتي أعجبتها..لكنها لا تثق أنه صادق في تبنيها.. فكرت للحظة..وسألت نفسها: ربما يسعى أن يستفز صديقتي..؟.. أو أن يثير أعجابها بطريقة استفزازية..؟..لكن لماذا..؟. وجدت في نفسها رغبة في مشاكسته، فقالت:

- الشعوب لا تهرب من نفسها..أو من ذاكرتها..الإنسان الفرد يمكنه ذلك.. لكن الشعوب!! أشك في ذلك..
- بلى..الشعوب مثل الفرد أحيانا..تهرب من خوائها..وتفاهتها..وجريمتها..تهرب إلى التاريخ..إلى التاريخ المزيف..لأن تاريخ البشرية وذاكرة البشرية منخوران ومحترقان مثل شجرة ضربتها صاعقة..

في تلك اللحظة عادت الأم من غرفة حفيدتها. وجدتهم يتناقشون..نظرت للوجوه.. لمحت شيئاً من الإنزعاج الخفي في وجه إبنتها.. نظرت إلى آدم سميث فرأته لامباليا كعادته..لكنها لمحت شيئاً من الارتباك مرتسما على وجه حواء ذوالنورين..

لم تجلس.. فهمت ابنتها بأن أمها تريد المغادرة..نهضت..فنهضت حواء ذوالنورين أيضا..إذ عرفت بأن عليها أن تذهب مع الأم..الزوج آدم سميث بقي جالساً..نظرت زوجته إيفا إليه نظرة خاطفة ذات معنى..مليئة بالعتاب والاستنكار الخفي.. نهض متثاقلاً وكأن الأمر مفروض عليه..قال لحواء ذوالنورين على غير انتظار منها:

- تشرفنا بمعرفتك..وحضورك..لا تقلقي..سنجد حلاً لوضعك..كما قلت لك.. بعد يومين سأعود من مدريد..وأكلف المحامي بتمشية معاملة طلب اللجوء..

- ألف شكر لك

قالت حواء ذوالنورين مرتبكة، ولا إراديا مدت يدها مصافحة. أخذ يدها وأبقاها لثوان بين يديه. كانت الأم تنظر لكفيهما نظرات ذات مغزىً غامض..وعند باب الشقة احتضنتها إيفا قائلة:

- غداً سأوصل الأولاد إلى المدرسة.. وأعود إليكم لنفطر معاً .

عند الباب التفتت حواء ذوالنورين بشكل عفوي إلى آدم سميث فالتقت نظراتهما بضع ثوانٍ ..لم يلحق أي من الأم وابنتها إيفا أن ينتبها لهما.

الفصل الثالث

قبضة العزلة

دخل آدم بانوروتي إلى الفندق الذي يقع في شارع السابع والعشرين من أبريل سائلاً عن حواء ذوالنورين، في أصيل ذلك اليوم الذي غادرت هي فيه مع صديقتها الباريسية إيفا سميث مدينة فلورنسا في قطار الليل. صُدم حينما أخبرته فتاة الإستعلامات بأنها غادرت الفندق نهائيا إلى جهة غير معروفة بمعية امرأة أخرى. استفسر منها محاولاً معرفة الجهة التي توجهت إليها لكنه لم يحصل على جواب شاف يدله عليها.

مشى في الشارع قلقاً، وكان يشعر بوحشة خانقة تقبض على نفسه، وكأنه كان يعرف حواء ذوالنورين منذ سنوات، بحيث أحس بالضياع لرحيلها المفاجئ الآن. أخذ يسأل نفسه عن سر هذا التعلق بها، ألم يكن يعتقد قبل لقائه بها، بأنه إنسان سعيد لحد ما..؟.

بدأت الأسئلة تتراكم في ذهنه منبثقة من منطقة معتمة في أعماقه، سأل نفسه: أكنت في ما مضى سعيداً حقاً..؟ أتراني كنت خلال تلك السنوات التي سبقت لقائي بها قبل أسبوعين أعيش تحت قناع كبريائي الفارغة هارباً من تعاستي..؟ تعاستي التي هي الوجه الآخر للغيرة من سعادة الآخرين..، كسعادة زوجتي الراحلة بعد أن بدأت علاقة جديدة مع مديرها في العمل مثلاً..! أو سعادة الناس السيّاح الذين أرسمهم في الساحات..؟..هل أنا أناني إلى هذه الدرجة بحيث أن سعادة الآخرين تبث في روحي ذلك الشعور الخانق الذي لا أجد له اسما سوى التعاسة..؟ ألم أكن أؤمن في أن نكران الذات هو الذي يوقظ مشاعر السعادة في الإنسان..؟ فلِمَ تكشّفَ لي الآن، الآن بالذات، بعد اختفاء حواء ذوالنورين، زيف ذلك الإيمان..؟

ألا يمكن أن يكون تعلقي بهذه المرأة وإحساسي بفقدانها الآن هو الذي يبث هذه المشاعر التعيسة في نفسي..؟ أتراني أحببتها دون أن أعلم..؟ لا..لا..لايمكن ذلك..لم أكن أريد منها شيئاً محدداً..لم أفكر أن أرتبط بها..لأني أعرف أن ذلك مستحيل..؟ ماذا كنت أريد منها إذن..؟ أكنت أريد أن أجعلها تحبني وتتعلق بي كي أشعر برجولتي، وأُرضي غروري..وأداري عجزي الأبدي..؟ لا..لا..كيف حصل كل ذلك..؟ ثم..أين اختفت فجأة..؟ فهي لم تقل لي أي شيء عن سفرها حينما كانت عندي البارحة..؟ ومن يا تُرى تلك المرأة التي رافقتها..؟ آه لو أعرف أين هي الآن..؟

كان آدم بوناروتي يسأل نفسه ويجيبها، ثم يسألها مرة أخرى باحثاً دون أن يجد جواباً. انتبه لنفسه أنه صار قرب (باب الفردوس). تلفت إلى ما حوله وكأنه صحا من غفوة. الناس يتموّجون أفواجاً..يأتون من كل الدروب المحيطة بالكنيسة البيضاء المقابلة والتي يقف الناس أمام أبوابها المغلقة في مثل هذه الساعة وكأنهم ينتظرون خلاصاً غامضا.

وبينما كان ينظر للجموع التي تقف أمام بوابات الكنيسة، جاء فريق سياحي ياباني يضم مجموعة، النساء فيها أكثر من الرجال.. كانت المجموعة مبهورة بجمال (باب الفروس). وبرغم أن الشمس قد اختفت من أفق السماء إلا أن الضوء كان يغمر المدينة، لذا كان اليابانيون يلتقطون الصور التذكارية لبعضهم البعض. تأملهم للحظات، وبلا إرادة منه انهمرت كل تصوراته ومعارفه عن اليابان..فكر في الساموراي.. الفرسان الذين هذبوا قساوتهم وعنفهم فطلوها بذهب الأخلاق وقيم الشرف وقواعد الفروسية الصارمة.. تذكر فيلم (راشمون) الذي لا يمكنه نسيانه للمخرج كوروساوا الذي عُرض في تلفزيون بغداد حينما كان في بلاده.. توقف مركزاً بصره على فتاة يابانية في مقتبل العمر، ضئيلة الجسد وهي تقف باسمة أمام كاميرا صديقها ضئيل الجسد أيضا..انتبه إلى أن جميع أفراد المجموعة قصار في الطول وضئيلو الأجساد..لماذا هم هكذا..؟ لماذا يختلف البشر في تركيب أجسادهم، وكأنهم جاءوا من كواكب مختلفة وليس لديهم أصل واحد..؟..لكن ألديهم اصل واحد حقاً..؟.

فجأة..، انقطع سيل أفكاره حينما وجد نفسه يندفع إلى الأمام حتى كاد يتعثر ويسقط..وحينما التفت ليعرف السبب.. رأى امرأة على الأرض والآخرين يحاولون

أن يساعدوها على الوقوف، فعرف أنها قد فقدت توازنها بسبب كعبها العالي الذي انكسر فلم تتمالك نفسها.

المرأة على مشارف الأربعين من العمر. جميلة الشكل. ذات وجه باسم دون أن تسعى لذلك، ناعم التقاسيم ومتناسق التقاطيع، ذات شعر يميل إلى الشقرة، ثبتت عليه نظارّاتها السوداء..نظراتها حائرة، قلقة، وفي أعماق عينيها يرقد حزن كثيف. كانت ترتدي ثوبا أسود مرقطاً بنقاط دائرية بيض وعليه لبست جاكيتة سوداء.. ويلتف على عنقها الرقيق عقد من الخرز الأحمر كبير الحجم.. تعلق على كتفها حقيبة جلدية سوداء.

بدت خجلة من وقوعها على آدم بوناروتي ثم على الأرض. نظرت إلى ما حولها بارتباك..فقد أربكتها نظرات الناس إليها لما حصل لها.. التفتت نحوه قائلة بخجل وارتباك، وبلغة انكليزية ممزوجة بمفردات ألمانية وفرنسية:

- أعذروني رجاء (بالألمانية)..آسفة (بالفرنسية)..أنا آسفة لقد انكسر كعب حذائي فجأة ولم أستطع السيطرة على نفسي.. أنا آسفة..(بالإنكليزية).. أنا آسفة جداً..

- ليست هناك مشكلة..ليست هناك مشكلة..

رد عليها بالإنكليزية. اقترب منها حينما لاحظ ارتباكها، فقد كانت لا تعرف ماذا تفعل بحذائها ذي الكعب المكسور. قال لها:

- يوجد على مقربة من هنا اسكافي..يمكنه أن يصلح الحذاء..

بدا أن لغتها الإنكليزية ليست جيدة جداً..لأنها نظرت إليه وكأنها تحاول أن تفهم ما يقول، ثم قالت:

- أوكي...لكن أين..؟

وأشارت بيدها للسؤال عن المكان. نظر إليها..أحس بإنجذاب إليها..لوجهها الرقيق الذي يشبه تلك الوجوه التي يعرفها جيداً في بعض تخطيطات فن عصر النهضة. راودته فكرة أن يقودها إلى المحل ويساعدها، فقال لها:

- تعالي معي..سآخذك إليه..

نظرت إليه حائرة لثوان، وكأنها ترتاب من دعوته، ثم حسمت أمرها، ابتسمت برقة وقالت له:

- أوكي...هذا لطف منك..

مشى أمامها ليمنحها بعض الوقت كي تستعيد ثقتها بنفسها.. ويذهب عنها ارتباكها..مشت خلفه. توجه هو إلى شمال الشارع، وحين التفت كانت تعرج في مشيتها، بسبب الحذاء مكسور الكعب. أبطأ السير..صارت محاذية له، ابتسمت له ابتسامة شكر ومودة. سألها بالإنكليزية :

- من أين أنت ؟
- أنا من لبنان..؟
- ماذا..؟ هل أنت عربية؟

كان الحوار بينهما يجري بالإنكليزية. توجست هي قليلا، لكنها أجابت بلغة إنكليزية غير مضبوطة:

- نعم..أنا عربية من لبنان..لكني أعيش في ألمانيا..

فسألها بالعربية بنبرة فيها مودة :

- يعني عربية ألمانية..؟

توقفت. نظرت إليه بدهشة للحظات، ثم ابتسمت وسألته:

- من أين تعرف العربية..؟
- أنا عراقي..عراقي إيطالي..أو إيطالي من أصل عراقي..

وبدون أن يتوقع مدت يدها مصافحة وقدمت نفسها:

- حواء الحلــو..
- آدم بوناروتي..
- ما هذا..؟ لقبك إيطالي..!!
- نعم..هو لقب زوجتي المتوفية..

ارتبكت قليلا خوفا من أنها اثارت مشاعر حزينة في نفسه، لذلك قالت:

- آسفة..لكن أليس هذا لقب الفنان العظيم ميكائيل أنجلو..الذي كان لقبه أيضا بوناروتي..؟

ارتسمت ملامح الدهشة على وجهه وقال مبتسماً:

- نعم...هذا صحيح..معلوماتك الفنية جيدة..

ابتسمت حينما شعرت بأن ذكر زوجته لم يثر أية ملامح حزن على وجهه،

فقالت مبتسمة وبجرأة أكبر:

- شكراً..كنت معلمة رسم..

- ماذا..؟

استغربت هي من دهشته، فنظرت إليه بتساؤل وكأنها تريد أن تعرف سبب هذه الدهشة، ثم سألت:

- ماذا..؟ أتستغرب من كوني معلمة رسم..؟

نظر إلى وجهها الجميل الرقيق، وركز نظراته نحو عينيها وكأنه يريد أن يعرف سرّها من عينيها، وقال بهدوء وبنبرة ودودة:

- لا أبداً.. فأنا شخصياً رسام..

تألقت عيناها فرحا ودهشة، وقالت:

- شيء رائع..إذاً ستكون دليلي في فلورنسا..

- على الرحب..يسعدني ذلك..

أحس آدم بوناروتي بدفقات من الفرح تغمره، وانتبه إلى أنه نسيَ تعاسته لرحيل حواء ذوالنورين، واستغرب أنه نفسيا لا يريد أن يتذكرها الآن، وكأن حضورها في ذهنه يعكّر عليه بهجة تعرفه على هذه المرأة الجميلة التي تختلف بجمالها عن حواء ذوالنورين..وكأنهما من عالمين مختلفين..وأحس برغبة في أن يتعرف عليها أكثر فسألها بعفوية خطط لها:

- أين تسكنين هنا في فلورنسا..؟

- في فندق رووم ماتا لوكا ...

فقال مستغرباً:

- ماذا..؟ الفندق الذي في شارع السابع والعشرين من أبريل..؟

- أعتقد ذلك..نعم..نعم.. مضبوط..

- يا لها من مصادفة غريبة..

- لماذا..؟

- لأني أعرف صديقاً كان يسكنه أيضا..وكنت أزوره في الفندق..لكنه غادره اليوم..بينما أنت تسكنين الفندق نفسه..وألتقيك في اليوم نفسه الذي غادر هو فيه الفندق ذاته.. !!.

انتبه آدم بوناروتي إلى أنه لم يقل الحقيقة بأنه كان يعرف (صديقة) وليس (صديقاً)..أحس بخجل داخلي لهذه الكذبة..لكنه أدرك بأنه قد أعجب بهذه المرأة.. ولم يود أن تنفر منه إذا ما ذكر بأنه كان يعرف امرأة أخرى..فربما سيحدث ذلك لو قال بأن (الصديق) الذي كان يسكن الفندق هي امرأة..!

في منعطف الشارع كان ثمة دكان صغير، وضيق جداً، لإسكافي يقوم برتق الحقائب الجلدية، ويصلح الأحذية ويلصقها بأنواع من الصمغ القوي. وقفا عند باب الدكان وتحدث هو معه بالإيطالية، فأشار الإسكافي إليها بأن تنزع الحذاء مكسور الكعب وتسلمه إليه.. بقيت هي حافية القدم..نظرا لبعضهما لحظات قصيرة فيها دفء الصداقة والفرح باللقاء.

فكر للحظات مع نفسه..أي قدر قاده إلى أن يقف عند (باب الفردوس) هذا المساء..؟ فهو يعيش في هذه المدينة لأكثر من عقدين من الزمان، ونادرا ما يتوقف عند هذا الباب، إلا لمصاحبة صديق زائر..!! أم ترى هو قدر حواء الحلو الذي قادها إلى فلورنسا..لكي تصطدم به عند (باب الفردوس) هذا المساء..؟ وجد لنفسه جواباً سريعاً: إننا جياد والقدر يضع الأعنة في رقابنا ويقودنا إلى المجهول. ابتسم لنفسه داخليا لهذا الجواب..ثم انتبه إلى حواء الحلو فرآها تنظر إلى الإسكافي وهو منهمك في عمله، فراودته فكرة مفاجئة، إذ سألها:

- هل أنت جائعة..؟

- نعم..

- إذاً أدعوك على العشاء..

سرتها الدعوة، فقد كان واضحاً أنها استلطفته وأمنت له، لكنها لم تشأ أن تبدي موافقتها السريعة كي لا ياخذ عنها نظرة بأنها تسعى إليه، أو أنها امرأة سهلة، فقالت بطريقة مراوغة:

- لكني لا أريد أن أزاحمك..فربما أنت مشغول..؟

ابتسم لها قائلاً، بنبرة تمزج الجد بالمزاح:

- أنا مشغول بك..؟

فوجئت..نظرت إليه بارتباك وسألت:

- ماذا..؟ ماذا تقصد..؟

ابتسم لها بطيبة وقال بطريقة مسرحية:

- أنت أنقذتينني من قبضة العزلة..

نظرت إليه بتردد وقالت بدهشة:

- أنا..؟

- نعم أنت..

أحست بالارتباك، وقالت بنبرة قلقة ناعمة:

- غريب..

نظر آدم بوناروتي إليها متأملاً وجهها الجميل القلق وكأنه يدرس ما تفكر فيه وقال:

- ما هو الغريب..؟

- تقول إنني أنقذتك من قبضة العزلة..بينما أنا شخصياً أعيش في عزلة نفسية خانقة.. وأنت أيضا أنقذتني من قبضة العزلة القوية ..كنت أدور وحدي في هذه المدينة التي توقظ فيك كل أحاسيس الجمال وتبث في روحك دفق الحياة..وبرغم ذلك كنت وحدي...منعزلة..مومياء تمشي..

كان جوابها مفاجئا، فقال:

- أنت..؟

- نعم أنا..

أحس بأنه أمام امرأة لغز، فأحب أن يتوغل أكثر، فقال:

- كيف هذا..؟ من يراك بهذه الأناقة والجمال يظن أنك امرأة مقبلة على الحياة..تعيش محاطة بالمعجبين والأصدقاء..

نظرت إليه بحزن..ارتعش جانب شفتيها رعشة خفيفة.. وقالت:

- المظاهر خداعة..

نظر إليها لثوان..وأحس أن عليه التقدم خطوة أخرى نحوها، فقال بنبرة متعاطفة:

- لا أخفيك..لقد انتبهت إلى كثافة الحزن في عينيك..

صمتت للحظات، وأخذت تنقل نظراتها بين يدي الإسكافي الذي كان على وشك الإنتهاء من تصليح الحذاء، وبين زحمة الناس وكأنها تهرب من شيء ما، لكنها وجدت نفسها تنظر إليه وتقول:

- عموما..لا أدري إن كان بإمكاني أن أروي لك شيئا من عزلتي..

- لا ما نع لدي من أن أروي أنا لك شيئاً من عزلتي..

نظرت إليه للحظات..ابتسمت له بحزن..كانت نظراتها قلقة، ولم تعلق بشيء. في تلك اللحظات ألقى الإسكافي بفردة الحذاء أمامها. لبستها. دفع آدم بوناروتي له دون أن يسأله عن أجره. ارتبكت حواء الحلو من مبادرته..لم تجد ما تقول، ماتت الكلمات على شفتيها بحيث لم تستطع حتى أن تشكره..لكنها استدركت نفسها، وقالت له على استحياء:

- إنك تحرجني.. لا أعرف كيف أشكرك..

ابتسم آدم بوناروتي لها بطيبة وقال:

- تشكريني بأن تحدثيني عن عزلتك..عن نفسك.. ولكن قبل كل شيء..هل جئت سياحة أم لديك عمل هنا..؟

انتبهت إليه وقالت بعفوية :

- جئت للقاء صديقة ما هنا..

- للقاء صديقة..؟

لم تقل شيئا. نظرت إلى الأرض وكأنها تفكر في شيء ما..فتحت حقيبتها.. فتشت فيها..ثم أغلقتها مطمئنة.. كان هو ينظر إليها وهي تفتش في حقيبتها..فكر في أنها تتهرب منه بإشغال نفسها فسألها:

- هل فقدت شيئاً..؟

- لا..كنت أبحث عن البرقية التي وصلتني من صديقتي..ظننت أنني فقدتها.. ستصل غدا إلى فلورنسا..وأبرقت لي أن التقيها هنا..

واصلت حواء الحلو بحثها للحظات ثم استرخت ملامحها. فسألها:

- هل وجدتها..؟

- نعم..

- جيد..والآن..ماذا تحبين أن تأكلي..؟

- بتزا..أنا احب البيتزا مع الباذنجان والبندورة..

- إذاً ..هيّا إلى البيتزا..

ابتسمت له بمودة. واتجها نحو الشارع العام. كان المساء قد حل على المدينة.. تألقت الشوارع بمطاعمها منيرة المصابيح، وازدحمت الطاولات الخارجية لبعض المطاعم الصيفية.. بينما كانت العتمة تزحف شيئا فشيئاً.

الفصـــل الــرابـع

حـواء الحـلو.. كوكب الوحشـة

في فناء مطعم مفتوح محاط بعوارض حديدية قصيرة، يقع في الباحة المفتوحة خلف باب الفردوس حيث الشوارع التي تتفرع إلى جهات مختلفة، جلسا هناك وسط زحمة من الرواد. كان آدم بوناروتي يتنقل بنظرته إلى جموع الناس المتدفقة حول المكان والمتحركة بشكل عشوائي لكنه يمضي إلى غايته..فكر مع نفسه بأنه اليوم لم يأخذ عدته معه ليرسم..ثمة كآبة غامضة لا يعرف سببها تسربت إلى روحه برغم أنه سعيد في الوقت نفسه لتعرفه على هذه المرأة الجميلة..كان عامل المطعم قد جاء إليهما بصحني البيتزا بالبانجان..مع كوبين من عصير الليمون الطازج.. أكلا شيئا من الطعام الذي أمام كل منهما..التفتا إلى مجموعة من السائحين، رجالاً ونساء، وهم يتجهون إلى الساحة وكانهم يقتربون من مكان أثير ومهم..نظر إليها وقال بنبرة لا مبالية:

- لماذا يرهق الإنسان نفسه في البحث عن السعادة التي لا وجود لها..لماذا..؟

نظرت حواء الحلو إليه بتساؤل للحظات ثم قالت برقة:

- لا وجود لها..؟ كيف..؟ لا أدري ما هي تفاصيل حياتك..ولا أستطيع الحكم إن كانت حياة سعيدة أم لا..لكني أستطيع السؤال: ألا تجد السعادة في الفن مثلاً..؟..

كانت تحس بإطمئنان ودفء داخلي استمدته من هدوء آدم بوناروتي ورزانته، ومن أجواء المطعم الرومانسية برغم زحمة رواده، فقد أوقدت شموع داخل دوارق زجاجية ووزعت على جميع الطاولات، بينما كانت الإضاءة خفيفة جداً مما يسمح لضوء الشموع أن ينعكس على وجوه الجالسين حول طاولاتهم. وكانت ثمة موسيقى

هادئة تكاد تكون غير مسموعة تأتي من أجهزة مركزية مثبتة في جوانب المطعم تبث في النفس استرخاءً ونشوة..وهناك في الساحة ينتشر السواح..

نظر إليها لثوان، كان ضوء الشمعة قد منحها شحوباً جميلاً. أخذ يتأمل وجهها وكأنه يريد أن يحفظ ملامحه في أعماقه. صمت للحظات ثم قال بنبرة خافتة ومتوترة:

- الفن هو أحد تجليات الحقيقة والجمال..هو ومضة للروح المطلق كما يقول هيغل..على الرغم من أنه يعتقد بأن الجمال يزداد كلما ارتقينا على سلم التطور العضوي البايولوجي..إذ لديه أن الزهرة أجمل من الجدول.. والحيوان أجمل من الزهرة..والإنسان أجمل من الحيوان..لكن الجمال في النهاية هو جمال الروح..

نظرت إليه بتأمل..فقد كانت قليلة الإطلاع على آراء الفيلسوف هيغل، لذلك ابتسمت له وقالت بمرح:

- أتمنى لو أني قطرة ماء في جدول..أو حبة رمل في الصحراء..ولست بشراً.. لا أريد مثل هذا التطور العضوي..لا أريد مثل هذه الحياة المليئة بالمعاناة.. أحس وكأن الحياة عاقبتني بتجاهلي..
- بتجاهلك..؟ كيف..؟
- هذه قصة طويلة..سأرويها لك في ما بعد..

بدت له هادئة في كل حركة تقوم بها، هدوءا أقرب إلى اللامبالاة..وكأنها مستعدة للحديث عن أي شيء بلا وجل..وفي الوقت نفسه مغلقة على أسرارها.. أحسها غريبة الأطوار، فيها شيء من المكر النسوي العفوي، وأن وراء هذا الهدوء ثمة أسراراً وربما معاناة وألماً..لكنها تكابر وتحاول أن تبدو قوية ومرحة ومتزنة.. ودون أن ينتبه لنفسه وجد نفسه يفكر عن سر وجودها هنا في فلورنسا وحدها.. وسرعان ما أجاب على نفسه بأنه غير متأكد من أنها وحدها هنا في فلورنسا..لكنه رد على نفسه مرة أخرى بأنها لو لم تكن وحدها لما لبت دعوته وجلست للعشاء معه هنا. ولكي يتخلص من هذه الحوارية الداخلية وجد نفسه يسألها:

- هل أنت وحدك هنا في فلورنسا.. أم مع زوجك..؟

السؤال صدمها وكأنه مرآة وضعت أمام وجهها فرأت نفسها على حقيقتها، ارتبكت للحظات وقالت:

- أنا هنا وحدي..لو كان معي أكنت أجلس معك..؟

أحس بفرح خفي يسري في أعماقه، لكنه لم يكن واثقاً من هذا الفرح فسألها :

- وزوجك..أين هو..؟

نظرت إليه باستنكار هادئ، ثم انطلقت تتحدث بتدفق لغوي وبحرقة قائلة:

- هو رجل محافظ جداً، و(دقة قديمة) مثلما نقول بالعامية..بيني وبينه وديان وجبال.. فهو يكره الفن والرسم بالذات، وليس من محبي المطالعة، ويكره الكتب والمثقفين والفنانين..سابقاً كنت مخطوبة لمهندس من ضيعتنا، طلب مني أن أتوقف عن دراسة الفنون..والكتابة..كان يريدني جارية..أطبخ له وأمتعه وأنجب له الأولاد..ففسخت الخطبة وقلت له: الله معك..بعد سنوات تزوجت.. زوجي الحالي.. لكنه تكشف لي في ما بعد عن رجلٍ معادٍ للفن والثقافة..يرفض أن أقرأ أيضاً..بل هو يحطم معنوياتي ويهز ثقتي بنفسي من خلال سخريته مما أقرأ..ولكنه يتابع كل ما أقوم به من نشاطات وزيارات للمعارض بطريقة سرية وكأنه مخبر سري..لكني لا أخاف من أي شيء، أريد فقط أن أكون نفسي..أتمنى أن أنقلب مثل عصى موسى إلى ثعبان هائل..أن أتحول..أن أخلق نفسي من جديد..

كان يتأملها حينما كانت تتحدث. فكر مع نفسه بأنها امرأة محرومة..ووحيدة.. ولا تخفي حاجتها لرجل..لكنها رومانسية..وستتعبه.. فالرومانسيات نساء متعِبات.. لذا عليه أن يتعرف على أعماقها..وعلى رؤيتها للأشياء، فقال:

- لا أعرف لمن قرأت رأياً ذات مرة..ربما لمرسيا إلياد.. يقول فيه بأن الإنسان يستطيع أن يخلق نفسه، لكنه لا يصل إلى خلق نفسه تماماً إلا بمقدار ما يتجرد من القداسة ويجرد العالم منها، فالمقدس هو العقبة بإمتياز أمام حريته، ولن يصير الإنسان هو نفسه إلا أن يثوب إلى رشده جذرياً، بل ولن يصير حراً حقاً إلاّ أن يقتل الإله الأخير..أن يحطم المقدس..

- يحطم المقدس..؟ أتمنى ذلك..لكني لا أستطيع..ليس لدي القدرة على مواجهته..ثم كيف يمكن للإنسان أن يعيش بلا مقدسات..؟ بدونها تختلط الأشياء..الخير والشر..لا أدري...أحيانا..في لحظات محددة أحس أني أعيش مثل مومياء..مثل جثة حية..وفي تلك اللحظات بالذات أحس برغبة في

أن أمزق كفني..أتحرر منه..وأعرف أني سأكون عارية بدون الكفن..وبرغم ذلك تجتاحني موجات التمرد فأحاول مع نفسي أن أتحرر من كفني.. لكني قصيرة النفس..لأني بعد لحظات التمرد الداخلي تلك أشعر بالخوف من تفكيري بالتمرد.. فتضعف مقاومتي.. بل وأبدأ بانتقاد نفسي على تلك اللحظات الجامحة..وأعتبرها نزوات..ولحظات ضعف.. ولا أعرف إن كان ذلك الكفن هو المقدس الذي تتحدث عنه أم لا..؟

كان يستمع إليها مثلما يستمع رجل الكنيسة إلى اعترافات إحدى رعاياه، فسألها بمودة:

- ماذا تعتقدين أنت..؟

لم تجب على سؤاله، وإنما قاطعته بسؤال مفاجئ:

- هل أنت ملحد..؟

فوجئ..لم يفهم قصدها من وراء السؤال، فأجاب وكأنه يقدم تبريراً:

- لا..

- لكنك ترفض المقدس..؟ لا تعترف بأي مقدس..

"إذن، هي تعقب على كلامي عن المقدس" فكر آدم بوناروتي مع نفسه، ثم ابتسم لها وقال بنبرة توضيحية:

- الإلحاد ليس نفي المقدس ..ولا هو نفي لشكل محدد وسائد للمقدس.. وإنما هو نفي مطلق لكل شيء..

- لم أفهم..؟

- أنا مؤمن.. لكن لا مقدسات عندي حتى أنفيها.. لذلك أنا لستُ ملحداً..ليس هناك مقدسات..ما ينفيه الملحد باعتبارها مقدسات أنظر إليها كتراث بشري.. كمحاولات بشرية لفهم لغز الوجود.. أرى أن البشر هم الذين ينتجون المقدس.. وبالمناسبة..ليست المقدسات دينية بالضرورة..هناك مقدسات وثنية..طواطم.. وهناك مقدسات علمانية مثل قادة الأحزاب الثورية، وقادة الثورات..وقادة الجيوش والإمبراطوريات..المقدس دائما متعالٍ على حياة الناس..ومهيمن عليها..وغير قابل للنقد..وهو الذي يضع الحدود أمام إرادة الإنسان الحرة..

نظرت إليه بتساؤل للحظات وكأنها مكتظة بكلام يزدحم في ذهنها..ثم قالت بنبرة فيها شيء من التوتر:

- أنا ليست لدي مشكلة مع المقدس..أنا لدي مشكلة مع نفسي..

فقال وعلى وجهه ابتسامة وديعة:

- لديك مشكلة مع نفسك فقط..؟

نظرت إليه بقلق مخفية استياءها من نظرته الأبوية وابتسامته التي برغم طيبتها تخفي إدعاء سيطرة خفية عليها، وقالت:

- نعم مشكلتي مع نفسي فقط..وأنا أعاني منذ أكثر من سنتين معاناة شديدة..؟ أنا شخصية عنيدة جداً، ومتمردة جداً.. ومع ذلك كنت كجارية خاضعة وتابعة لزوجي فترة طويلة..!!..كنت أعيش شخصية ليست لي..ليست شخصيتي..لكن لا يزال في أعماقي هناك ترسبات من خوف غامض..أنا أريد وأسعى إلى أن أخرج من شرنقة الخوف الغامض..أريد أن أتجاوز ترددي..أن أستعيد مكامن قوتي..أن أُخرجَ كل ما بداخلي من صراخ.. لكني أحس نفسي مشلولة.. لا أعلم لماذا أرسلك القدر لي في هذا الوقت بالذات..؟ أقصد قابلتك..

التقط آدم بوناروتي بحسه الذكوري جملتها الأخيرة..لكن كبرياءه، برغم معرفته بلاجدوى ذلك، دفعته، دون إرادة منه، إلى استثمارها في التقرب إليها، فقال لها بنبرة مشحونة بالمودة :

- أحس أنك وحيدة..

كان يرصد تأثير سؤاله على وجهها. أحس بمعاناتها..صمتت لثوان وقالت بنبرة مشحونة بالألم :

- نعم..أنا وحيدة جداً..وخائفة من الوحدة..مترددة جداً..ربما أخاف من الفشل.. أحتاج إلى استعادة ثقتي بنفسي.. أحتاج إلى أن أكون نفسي..أتمنى أن ينتشلني أحد ما من خوفي وعتمتي..سوف أكون صريحة جداً معك.. أريد أن أحب..أن أعيش..أن يحبني رجل على قدر ما أحب..لقد افتقدت مشاعر الحب..افتقدتها جداً..وبرغم كل ذلك أجد نفسي في قمة التناقض..

فاجأته بصراحتها وببوحها ذي النبرة العالية، أحس برغبة في التوغل أكثر إلى أعماقها، فسألها بهدوء مشحون بالترقب:

- كيف..؟

لم تجب مباشرة. تلفتت حولها. كانت مشتتة..نظرت إلى الطاولة المجاورة التي كان يجلس حولها رجل وسيم وامرأة حسناء..مع عجوزين خمنَت أنهما والدا أحدهما.. التفتت إلى آدم بوناروتي وقالت:

- هل تصدق أنني أشعر بالإعياء عندما يحدثني أحدهم عن الحب، كما أشعر بالغثيان حين يتجرأ أحدهم فيكتب لي قصيدة غزل..لا أعرف لماذا..؟ حقا لا أعرف..أحس أني فقدت إيماني بالمحبين..وليس بالحب نفسه..أتمنى أن ألتقي بالحب..أتمنى أن أعيش قصة حب أسطورية خالدة..تماما كحب مي وجبران..لكنني خائفة، مترددة، ضائعة، ومشتتة..ولا أعرف السبب..؟

صمتت للحظات وكأنها انسحبت إلى عالمها كالحلزون..أحس آدم بوناروتي برغبة عارمة في أن يقترب من عالمها، لكنه كان خائفاً في الوقت نفسه، لأنه كان يرى مصير أية علاقة يقيمها مع أية امرأة مسبقاً..وبرغم ذلك وجد في هذه المغامرات تأكيدا لوجوده ولرجولته المفقودة.. نظر إليها بتركيز، وقال بتعاطف وبنبرة واضحة:

- على الأقل يجب أن تعرفي لماذا أنت خائفة.. ومِمَ..؟

تاهت بنظراتها في المكان، أحست أنه يحاصرها..عادت بنظراتها بعد لحظات لتنظر إليه وتقول:

- لقد قلت لك..ربما أنا خائفة من الفشل..؟ من الوحدة..؟
- أي فشل..؟ هل تقصدين تخافين الفشل اذا ما انفصلتِ عن زوجك..؟

فأجابت بإنكسار واضح:

- نعم..

نظر إليها بإرتباب خفي وكأنه يريد التأكد من ادعائها الخوف، فسألها:

- لكنك تريدين الانفصال..أليس كذلك..؟

دب فيها نشاط مفاجئ، وقالت بحماس:

- نعم..أريد الانفصال..لكني أريد قبل ذلك أن أتحرر من خوفي..

لم ينظر إليها..إنهمك في تقطيع بقايا البيتزا التي في صحنه..خمنت هي أنه يغور في أعماقه باحثاً عن سؤال جديد أو جواب. توقف عن تقطيع البتزا وأخذ يتلفت إلى ما حوله وكأنه يفر من شيء ما أو يبحث عن شيء ما..صمت لثوان..ثم سأل:

- أين يكمن خوفك بالتحديد..؟ من أي شيء تخافين..؟

ردت مباشرة وكأنها كانت تنتظر مثل هذا السؤال، فجهزت إجابته مسبقاً:

- من المواجهة..

- مواجهة من..؟ زوجك..؟

نظرت إليه بخيبة حينما سمعت رده، أدركت أنه لم يفهمها، فقد فكر كرجل فقط.. فقالت موضحة:

- مواجهة الحياة ..خائفة من مواجهة الحياة وحدي..

فوجئ من نبرتها الحازمة قليلاً..نظر إليها بقلق ثم علق بهدوء:

- لكنه خوف غير مبرر..

بدا لها أنه يحاورها مجاملة وليس عن اهتمام حقيقي، وربما هو كأي رجل يقابل امرأة تقبل أن تذهب معه إلى العشاء فهو لا يفكر سوى في مضاجعتها، لذلك أرادت أن توضح موقفها أكثر فقالت بطريقة حالمة لا تتناسب مع تفكيرها عنه:

- أريد أن أشق طريقي نحو الشمس..

- وحدك..؟

- لا أعرف..

توقف قليلاً عن الأكل وعن تقطيع البيتزا التي أمامه. نظر إليها متفحصاً، ثم قال في هدوء ومودة:

- هل أنت قادرة على السير وحدك..؟ ألا تحسين أنك بحاجة لرجل يقف الى جانبك..؟ لرجل يشاركك مشاعرك ومخاوفك.. ويساعدك على أن تتجاوزي خوفك..؟

نظرت إليه متفاجئة من سؤاله الذي يشي بوضوح غامض..وقالت:

- ربما..

أعجبته طريقته في استدراجها..كان يحس بمتعة الرحلة نحوها..هو يعرف ان مهمته تنتهي لحظة وصوله..إذ سيهرب منها..لكن ها هو يستمتع بهذا الحوار الشيق في استدراج هذه المرأة الذكية..نظر إلى صحنه وقال دون أن يرفع رأسه إليها:

- وهل لديك ممن يحيطونك من معارفك مثل هذا الرجل..

تمتمت لاإراديا وبحزن:

- لا..

توقف عن الأكل وكأنه فوجئ من جوابها، فسأل بقلق:
- أليس لديك أي صديق..؟
نظرت إليه نظرة متفحصة وكأنها تقرأ أفكاره وأجابت:
- لا.. هل تعتقد أنه من الضروري أن يكون لدى المرأة صديق غير زوجها..
- لا..لا أقصد ذلك بالضرورة..على الرغم من أني أعتقد بأنك تحتاجين إلى رجلٍ يكون أقرب من الصديق.. إلى رجل أكثر حميمية..وأكثر قربا من عالمك الداخلي وأعماقك..إلى رجل تستطيعين أن تثقي به ولا ترددي من أن تكشفي له براري أعماقك، خوفك، ترددك، ضعفك، قوتك..أحلامك طموحاتك. مشاكلك همومك..مشاعرك..
كانت تستمع لكلامه صامتة وهي تنظر في صحنها مقطعة البيتزا إلى شرائح صغيرة..أدركت أنه يشير بوضوح إلى وجود عشيق أو حبيب..توقفت عن تقطيع البتزا.. نظرت إليه..إلى عينيه مباشرة، وسألته بهدوء:
- وهل تعتقد أن مثل هذا الرجل موجود في أيامنا هذه؟
أجاب بحماس على الرغم من محاولته أن تكون نبرة صوته محايدة:
- نعم موجود.. لكن هل تريدين مثل هذا الرجل..؟
وبرغم تصوراتها عن مقاصده من هذا الحديث إلا أن ابتسامة يائسة ارتسمت على وجهها، وقالت بيأس حزين:
- أنا لا أؤمن بوجوده..
نظر إليها نظرة خاطفة. أحس أن الأمر لن يكون سهلاً مع هذه المرأة القلقة..، فقال بنبرة إحباط:
- يبدو لي أن تجربتك مع الرجال قاسية جداً ..أليس كذلك..؟ لكن كوني على ثقة بأن مثل هذا الرجل موجود..
نظرت إليه وكأنها تنظر إلى مخلوق غريب ينطق بشيء مستحيل ، فقالت بحزم:
- لا..لا.. لا أثق بجود مثل هذا الرجل مطلقاً...اعذرني..
هزّ جوابها ثقته بنفسه، وأحس أن هذه المرأة التي تجلس أمامه يائسة جداً، فقال وكأنما يلقي موعظة:
- ثقي بنفسك قبل أن تثقي بالآخر، هل أنتِ واثقة من تعطشك للحرية..؟

هل أنتِ واثقة من طموحاتك..؟ هل أنتِ واثقة من نفسك في كل ما تطمحين اليه..؟ لو كنتِ واثقة من نفسك ستثقين بالآخر..

وضعت الشوكة والملعقة على جانبي صحن البيتزا ونظرت في وجهه ثم قالت بصراحة وحزم:

- أنا واثقة من كل هذه النصائح والحكم..لكنني لست واثقة من وجود رجل يحمل الصفات التي أريدها..

أحس بغضب خفي أمام نفيها وجود رجل جدير بها، وكأنها بذلك تنفيه وتغلق الأبواب في أي تواصل خاص معها، فسأل بنبرة فيها بعض التحدي:

- وما هي الصفات التي تريدينها في الرجل..؟

- كل الذي ذكرته أنت سابقا.. رجل أكثر قرباً من عالمي الداخلي وأعماقي.. رجل أستطيع أن أثق به ولا أتردد من أن أكشف له عن براري أعماقي، خوفي، ترددي، ضعفي، قوتي..أحلامي طموحاتي. على العموم..ليس هناك أي شك في أن هذا الانسان موجود..ما أقصده بالشخص الذي لا أثق بوجوده هو الحبيب..الذي يمكنني أن أمارس جنوني وأحلامي معه..أنا كما قال نزار قباني : إني لا اؤمن في حب لا يحمل نزق الثوار..أنا لا أرتضي حباً وعلاقة أقل من حب وعلاقة مي زيادة وجبران..أو غادة السمان وغسان كنفاني..لذا لم أعد اؤمن بوجود مثل هذا الحبيب..هل تعرف..أنا منذ أن فتحت عيني على الدنيا وفي داخلي أسئلة لا تنتهي..

أحس أنه أمام امرأة عصابية..حالمة..مهووسة بأحلام يقظة رومانسية..ابتسم في أعماقه من ذكرها لمي زيادة وجبران..وغادة السمان وغسان كنفاني.. فقال بنبرة فيها بعض اللامبالاة:

- مثلاً..؟ ما هي الأسئلة التي كانت تراودك..؟

بدت أمامه مشتتة، ضائعة..لا تستطيع التركيز..بل كانت تعاني من أجل أن تجد الجواب..بعد لحظات سمعها تقول:

- أسئلة كثيرة منها مثلاً: لماذا خلقت؟..وما المعنى من وجودي؟

أحس بالسأم من هذا التحذلق الفكري..وقال لنفسه إنها تحاول أن تطرح نفسها كمفكرة وفيلسوفة أمامي..فقاطعها بسؤال مفاجئ:

- هل لديك أولاد..؟

نظرت إليه بدهشة خفية لهذه الانتقالة في السؤال..أحس أن سؤاله صدمها، إذ أجابت بحزن:

- لدي ابنة واحدة..في الثانية والعشرين..
- لكن لا يبدو عليك بأنك أم لفتاة في الثانية والعشرين..

ابتسمت بحزن وقالت:

- شكراً لك..هذا لطف منك..
- ومن أين أنت في لبنان..؟
- ليس مهما من أين أنا..
- وزوجك..؟
- من بيروت..
- يبدو أنك تعانين حقاً.. وكأنك في دوامة..؟

انتبهت إلى أنه يواصل أسئلته من باب المجاملة أكثر مما هي من باب الفضول الشخصي للتعرف عليها، لكنها برغم ذلك لم تشعره بذلك، بل واصلت الإجابة عن أسئلته بكل جدية:

- أنا تعبت من كل شيء صدقني..تعبت حتى من الكلام..تعبت من نفسي ومن خلجات قلبي ومن أسئلتي التي لا تنتهي..أحس برغبة في البكاء.. أريد أن أبكي.. لكن ليته كان يجدي..حتى البكاء لم يعد يجدِي..نعم أنا في دوامة..

أحس أنها في دوامة فعلا..فهي تقترب منه ثم تبتعد فجأة، ثم تقترب، فسألها بنبرة واضحة:

- ماذا تريدين بالضبط..؟ أحسك وكأنك صرت في متاهة..لا تعرفين بالضبط ما تريدين..ربما تأتيك لحظات تتصورين فيها شيئا ما بأن هذا ما تريدينه بالضبط، وعندما تجدين صعوبة تحقيقه تنقلبين وتريدين شيئا آخر حتى صرت غير واثقة مما تريدين..تريدين التحرر لكنك تخافين أية خطوة جريئة نحو الحرية..في أفكارك مع نفسك أنت متحررة لكنك في تفاصيل حياتك أنت محافظة..

نظرت إليه متأملة وقالت بإحباط واضح لنبرة الهجوم غير المفهوم في كلامه:

- نعم..أنا كذلك..

انتبه لنبرة الإحباط والإنكسار في إجابتها، لكنه أحس بمتعة خفية في مخاطبتها بهذه النبرة الهجمومية، فواصل كلامه قائلاً:

- أنت فياضة بالمشاعر والرغبات لكنك تحاصرين نفسك بالأسوار..تودين أن تعيشي لحظات الحب ويرتوي جسدك باللذة والمتعة لكنك ترتعبين من الإقتراب ولو بالحديث عن ذلك..وكأنما ثمة أسرار تخافين البوح عنها.

توترت ملامح وجهها حينما قال لها بأنها تخاف أن تكشف أسرارها..ودون أن تنطق بأية كلمة..لملمت أشياءها، أخذت حقيبتها ..وغادرت..كان هو يراقب ما تقوم به..لم يعلق على شيء..

* * *

حين وصلت إلى غرفتها في الفندق ألقت بالحقيبة على السرير..توجهت إلى النافذة..وقفت أمامها طويلاً وهي تحدق إلى اللاشيء..كانت تموج بالمشاعر..كانت مترددة..تخاف أن تعترف لنفسها بما كان يحصل في أعماقها..كان كل شيء غامضاً.. لم تفهمه على حقيقته..ولم يكن واضحا..حتى جملتها التي كررتها أمامه مرات: (أريد أن أكون نفسي).. كانت غير واضحة بالنسبة لها..ولا تستطيع إدراك كنهها.. ما الذي تريد أن تكونه..؟ ما هي (النفس) التي تريد أن تكونها..؟.

لم تكن تفهم ما كان يجري في داخلها..هي تعرف بأنها طوال سني عمرها كانت تخاف الحياة..لاسيما بعد أن تزوجت وانتقلت إلى العيش في ألمانيا..كانت تعيش في شخصية غير شخصيتها..شخصية ساكنة.. مترددة..مكبلة..شخصية مرعوبة من حدوث أي شيء يحطم سكون عالمها وتكراره وركوده..فهذا العالم، على سكونه.. ورماديته..وتكراره..لا يشعرها بالضياع..اكتشفت أنها برغم سعيها وتمردها الداخلي تخاف أي تغيير في حياتها لأنه سيشعرها بالضياع الحقيقي..لذلك عاشت سني عمرها لا تهتم بأحلامها..فما الذي جرى الآن..؟

كان الشارع تحت نافذتها مضيئا..لكنه كان خالياً إلا من بعض السيارات التي تقطعة بين فترة وأخرى..فجأة لمحت ستة رجال بملابس غريبة يسيرون في طابور وكل منهم يمسك بيده عصا وبالأخرى يمسك كتف الشخص الذي يمشي أمامه..

عرفت أنهم عميان..لكنها أحست أنها تعرف هؤلاء العميان..هي رأتهم في مكان ما..لكن أين..؟

مرق العميان من أسفل نافذتها على الجهة المقابلة..فجأة تذكرتهم..هؤلاء هم عميان الفنان بيتر بورغل الكبير الذين رسمهم في إحدى لوحاته..حينما اقتربت من النافذة لتتابعهم لم تر أي عميان يمشون في الشارع..أين اختفوا..؟ مدت رأسها من النافذة لتتأكد من وجودهم..لكن لا أثر لهم..تراجعت عن النافذة..وخافت من هذه الرؤيا الغريبة..اتجهت إلى داخل الغرفة..ألقت بنفسها على السرير.. وأخذت تحدق إلى السقف.

الفصل الخامس

اللوج لرينوار..

كان صباحاً باريسياً مشمساً. إيفا سميث و حواء ذوالنورين تتمشيان في تلك المسافة الرحبة التي تمتد أمام قوس النصر الجديد والذي يحمل اسم المنطقة (قوس لا ديفونس LA DEFENSE). كانتا قد تجولتا في الأسواق ودخلتا بعض المخازن، وحينما صارتا أمام قوس النصر أخذت إيفا سميث تشرح لصديقتها عن تاريخ النصب الذي تم افتتاحه بمناسبة مرور مائتي سنة على الثورة الفرنسية، وأن مهندسته الرئيسة هي دنماركية لكنها ماتت فواصل شريكها الفرنسي إتمامه..وعلقت قائلة بمرارة:

- إن الناس يموتون بطريقة بشعة من أجل أن يحتفل الآخرون بموتهم تحت شعار بائس اسمه النصر..

نظرت حواء ذوالنورين إلى صديقتها بحزن وقالت:

- ليس هناك منتصر في الحروب..فحتى الذي يعد نفسه منتصراً هو خاسر أيضاً..

نبرة صوت حواء ذوالنورين الحزينة أثرّت في نفس إيفا سميث فنظرت إليها وقالت بنبرة تأكيد على كلام صديقتها:

- نعم.. نعم..ما تقولينه صحيح..مرة شاهدتُ مسرحية تقول البطلة فيها بأن الذين يمرون تحت أقواس النصر، هم أولئك الذين فروا من الموت..لكن دعينا من هذا الكلام الحزين..فنحن النساء خاسرات أبداً..لنستمتع بضوء الشمس الباهر..ولنتأمل جمال الفن..

- أنت على حق..

قالت حواء ذوالنورين ذلك وكأنها تخلصت من عبء ذكريات أليمة حاصرتها فجأة، فأخذت تتأمل قوس النصر الجديد..لكنها وبرغم الإنبهار الواضح بنصب (قوس لا ديفونس) كانت تحس بشيء ما ينقصها..تحس بخوف مجهول..وكأنها تنتظر كارثة ما، لا تعرف ما هي أو متى ستنقض عليها..لذلك ظلت صامتة لثوان ولم تعلق.

حينما صارتا على مقربة من برج (أريفا AREVA) في المنطقة السياحية التي تحمل اسم (هوت دوسين Hauts de Seine) أشارت إيفا سميث إلى البرج قائلة:

- هناك في الطابق السادس يعمل زوجي آدم..مكتبه وشركته هناك. يمكننا الذهاب إليه..بعدها نذهب إلى وسط باريس..أعرّفك على أهم أماكنها.. وربما سنلتقي صديقتي حواء دمشقية..

انتبهت إيفا سميث إلى ملامح الاستغراب وعدم التذكر على وجه صديقتها، فقالت مواصلة:

- حواء دمشقية.. صديقتي التي رأيتني معها في مطار دمشق..ألا تتذكرين..؟
- نعم..نعم..تذكرت الآن..لقد حدثتني عنها آنذاك في الفندق..وأتذكر أنني رأيتك بشكل خاطف من خلال الحاجز الزجاجي في المطار..بينما كنت متجهة على عجل للدخول إلى الطائرة..كيف حالها..؟
- لا بأس بها..لم أتواصل معها منذ عودتنا معاً إلى باريس.. هل أنت متعبة..؟
- لا أبداً..
- إذن..سنمر على زوجي آدم..ثم نذهب بعد ذلك إلى أعماق باريس..

أحست حواء ذوالنورين بشيء من الارتباك حين أصرّت صديقتها على زيارة زوجها في مكتبه..كان يغمرها عدم ارتياح خفي، لكنها لم تستطع أن تتبينه بوضوح، لذا قالت لصديقتها بتردد:

- ربما هو مشغول..؟ ألا يزعجه زيارتنا له بشكل مفاجئ أثناء العمل..؟

ابتسمت إيفا سميث وقالت بمرح:

- على العكس.. هو مدير فرع الشركة في فرنسا.. يعني أنه سيجد لنا الوقت.. ثم أنه معجب بشخصيتك..ليلة أمس بعد خروجكما سألته عن انطباعه عنك..فقال إنك شخصية متميزة..

أحست حواء ذوالنورين بإرتياح لسماع أنه يراها شخصية متميزة..وسرت في

جسدها رعشة ارتياح باردة..لكنها انتبهت لنفسها فقالت بطريقة مراوغة:

- لكننا اختلفنا في وجهات نظرنا..؟.

ابتسمت إيفا سميث وقالت بمرح:

- برغم ذلك..فهو رآك شخصية متميزة..ربما لأنك عارضته واختلفت معه..؟

أحست حواء ذوالنورين بشعور غريب هو مزيج من الاستغراب لرأيه فيها والرضى لهذا الرأي، وحين فكرت بأنها ستقابله بعد قليل اجتاحها ارتباك لا تعرف مصدره..لقد أدركت بحسها الأنثوي، ومن خلال نظراته إليها مساء أمس، وكأنه يخفي رغبته فيها..لكنها أجابت نفسها في حينها بأن ذلك ربما من أوهامها، فمن غير المعقول أنه رغب فيها من أول نظرة..لاسيما وأن زوجته إيفا جميلة جداً.

بينما كانت صديقتها إيفا سميث تتصل بزوجها من خلال الهاتف النقال، كانت حواء ذوالنورين تسأل نفسها:" هل يستطيع الإنسان أن يكون طيباً وخبيثاً في الوقت نفسه..؟ هل يمكن أن يكون خائنا خسيساً وفي الوقت نفسه عاشقاً رقيقاً..؟..لا.. لا..لا يمكن ذلك.."..

شعرت بهاجس خوف يجتاحها فجأة. هي تخاف نفسها..فهي تعرف أنها لا تستجيب للإغراء في البداية..بل تكره أية محاولة لإغوائها..لكنها تعرف نفسها جيداً، أنها بعد ذلك تندفع بحماس مجنون وراء غاويها، وتسعى بكل الطرق كي لا تفقده.. لذا كانت تكره ضعفها وتهورها.. كانت تحس أن جسدها مسكون بجوع أبدي للذة ولرعشة النشوة المذهلة.

- إنه ينتظرنا..

قالت لها إيفا سميث مبتسمة. أحست أنها تبالغ في مخاوفها، فابتسمت هي بدورها ابتسامة فاترة أقرب إلى المجاملة. انتبهت إليها صديقتها وقالت لها وهما تمشيان نحو مبنى البرج:

- ما بك يا حواء...بِمَ تفكرين..؟

- أنا محرجة..فربما سنعطله عن عمله..؟

- لا تقلقي..لو كان مشغولا لقال لي ذلك..على العكس..لقد رحب بمجيئنا..

أخذتا تتحدثان عن أشياء مختلفة..كانت تشعر وكأنها ممثلة تؤدي دوراً كاذباً ليس له علاقة بها، لكنه أيضاً دورها الذي يهيمن على وجودها ويوميات حياتها

ما دام عرض المسرحية مستمر. ضايقها هذا الشعور. كانت تتحدث بشكل طبيعي لكن نفسها كانت مثل البندول الذي يتأرجح ما بين الرغبة والتوجس.

* * *

حين توقف المصعد عند الطابق السادس وخرجتا منه واجهها باب زجاجي كهربائي الحركة، ما أن اقتربتا منه حتى انفتح لهما، فدخلتا. نهضت الفتاة التي في استعلامات الشركة مستقبلة إيفا سميث، فهي تعرفها وسلمتا على بعضهما بالفرنسية. دهشت حواء ذوالنورين من أناقة القاعة الكبيرة التي تضم معظم موظفي الشركة، ومن أناقة الموظفين والموظفات فيها.. ومن بعيد لمحت آدم سميث عبر الزجاج في مكتبه وهو يتحدث مع موظفة أنيقة ذات ملامح عربية..في تلك اللحظة رآهما هو.. فرفع يده محييا..فوجدت نفسها لا إراديا ترد على تحيته برفع يدها أيضاً. ارتبكت قليلاً من حركتها العفوية..أحست بالحرج أمام صديقتها إيفا سميث التي لم ترد على تحية زوجها وإنما سبقت حواء ذوالنورين في التوجه إلى مكتب زوجها المدير.

قبل أن تصلا إلى مكتبه خرجت الموظفة التي كانت عنده، والتي خمنت أنها السكرتيرة، فتقابلن قرب باب المكتب الزجاجي..سلّمت المرأة على إيفا سميث بالعربية وبلهجة لم تستطع أن تعرف إن كانت مغربية أو جزائرية، بإحتّرام ممزوج بلطف ورزانة، فردت عليها إيفا التحية.. ودخلتا المكتب..

نهض آدم سميث من وراء مكتبه مستقبلاً إياهما بفرح واضح. قبّل زوجته على وجنتها قبلة تقليدية، ومد يده مصافحاً حواء ذوالنورين، ضاغطا قليلاً على كفها.. داعياً إياهما إلى الجلوس على الصوفا الجلدية الأنيقة الموجود في جانب من المكتب.

وعلى الضد من ارتباك حواء ذوالنورين وهدوئها المفتعل كان آدم سميث مبتهجاً لحد الانفعال، مرحبا لحد المبالغة، يفيض لطفاً، مما أثار استحساناً لدى زوجته، إذ كان لحفاوته تأثير على صديقتها، التي استرخت شيئا فشيئا متخلية عن ارتباكها. خلال ذلك أتى أحد المستخدمين بفناجين من القهوة العربية لهما..

حاول آدم سميث أن يشغل نفسه كي يمنحهما وقتا لارتشاف شيئا من قهوتهما.. أحست حواء ذوالنورين بأن عليها أن تبدي شيئاً من المجاملة أيضاً..وبعد أن ارتشفت شيئا من القهوة سألت بحيوية مفتعلة:

- كما فهمت من إيفا بأنكم جئتم إلى فرنسا بسبب الوظيفة..

ابتسم آدم سميث لها وقال لها بطريقته اللامبالية:

- أحيانا تجدين أن الوظيفة هي التي تحدد قدرك ووضعك البشري، وتحدد حركتك، ويوميات حياتك بشكل حاسم.. وبدون أية مبالغات أرى أن وظيفة الإنسان ومهنته تحدد الكثير من ملامح شخصيته ونفسيته أحيانا..

ابتسمت حواء ذوالورين بحزن ونظرت إلى صديقتها ثم عقبت:

- والإنسان العاطل..الذي لا مهنة لديه ولا وظيفة..؟
- إنه إنسان بلا ملامح..تائه..

أجاب آدم سميث بسرعة وبحزم..نظرت زوجته إليه نظرة ساخرة ممزوجة بشيء من المرح وقالت:

- وربة البيت..الزوجة أو الأم التي مهنتها تربية الأطفال..والطبخ..وتنظيف البيت، غسل الملابس..السهر مع الأطفال.. رضاعتهم..الذهاب اليومي معهم الى الأطباء عند مرضهم..أو متابعة وضعهم الصحي..متابعة مواعيد تلقيحهم ضد الأمراض..التدبير المنزلي وكل التفاصيل المرتبطة به..ألا يُعد ذلك مهنة.. أترى ربة البيت إنسانة بلا ملامح..؟

انتبه آدم سميث لنبرة السخرية في تعليق زوجته أكثر مما انتبه للمرح فيه، فارتبك وكأنه كان يتجنب أن يثير أي توتر بينهما أمام حواء ذوالنورين، فقال باستسلام :

- نعم ..هي مهنة أيضاً..عمل مرهق..لكنه ليس بلا ملامح..ألم تقرئي جبران حين يقول: وجه أمي وجه أمتي..العمل المنزلي مهنة أيضاً..
- لكنها مهنة بلا مرتب بالنسبة للزوجات.. مهنة مجانية..

انتبهت حواء ذوالنورين للتوتر الخفي في الحوار بينهما، فقالت بطريقة محايدة أقرب إلى اللامبالاة:

- الأمهات والزوجات يقمن بالعمل المنزلي سواء كن يعملن خارج المنزل أم قبعن فيه كربات بيوت..وكأنه قدر المرأة أن تقوم بالعمل المنزلي..

أحس آدم سميث بالحرج من تدخل حواء ذوالنورين وانحيازها المبطن إلى جانب زوجته، فقال بمرح ليغيّر من اتجاه الحديث:

- ما هذا..؟ تحالفتما ضدي..؟ مقبول منكما..أعترف..لولا المرأة لصارت الحياة جحيماً..

ردت زوجته وكأنها لا تريد أن تحرج زوجها أمام صديقتها، وكي لا تنتبه صديقتها لما بينهما من فجوة غامضة وغير مفهومة حتى لها شخصيا، فأسرعت بالقول:

- أنتم الرجال تضحكون علينا بالكلمات اللطيفة..ونحن برغم معرفتنا بأنها مجرد كلمات لا أكثر، إلا أننا نقبلها وكأنها الثمن لتعبنا..نحن النساء مخلوقات غريبات حقاً..

ضحكوا جميعا محاولة من الجميع لتغيير اتجاه الحديث وإخماد التوتر الذي كان مخفيا في ثنايا الحوار..وساد جو المرح الذي اخترقه رنين التلفون على المكتب.. فالتفت إليهما معتذرا وأخذ سماعة الهاتف..تبادل كلمات بالفرنسية مع الطرف الآخر من الهاتف..نظرت المرأتان لبعضهما..فنهضتا..أبدى هو استغرابه من محاولاتهما المغادرة..وقال بنبرة تتقنع بالدهشة:

- ما هذا..؟ تغادران بهذه السرعة..؟ لا..لا..هذه لا تُعد زيارة..خاصة من قبلك مدام حواء..

ارتبكت حواء ذوالنورين..أنجدتها إيفا سميث مازحة وهي تقول:

- لا عليك..نحن ذاهبتان الى وسط باريس..أليس هذا أفضل من الجلوس في مكتبك..؟..ثم ألم تقل البارحة إنك مسافر إلى مدريد اليوم..؟

ارتبك آدم سميث لثوانٍ، لكن لم تنتبها إلى ذلك، وقال بمرح مستسلماً:

- بالتأكيد التجول في قلب باريس أفضل لكما من الجلوس في مكتبي..أما عن السفر، فسيكون اليوم مساء..علي أن أكون في المطار الساعة الثامنة.. يعني سأغادر المكتب بعد الرابعة، وسأمر إلى البيت لآخذ حقيبتي..وفي الخامسة والنصف أتجه إلى المطار..يعني سنلتقي لاحقاً وإذا ما تأخرتما في المدينة فسأذهب وحدي..خذا راحتكما..

ثم التفت إلى حواء ذوالنورين وقال لها بتعاطف وبنبرة دافئة:

- وأنت..مدام حواء..لا تقلقي..سأتحدث الليلة مع المحامي..وحينما نرجع غداً أو بعدها سأدعك تجتمعين به..وأنا متأكد من أنه سيقوم بمتابعة الأمر على أحسن ما يمكن..

أحست حواء ذوالنورين بالحرج وغمرتها موجة من الشعور بالعرفان فقالت:

- أنا أشكرك جداً..لا أعرف كيف يمكنني رد جميلكم وفضلكم عليّ..

قالت ذلك بصوت مرتعش وبنبرة احترام مليئة بالشكر ، فابتسمت إيفا سميث بتأثر، بينما شعر زوجها بفرح غامض لم يستطع أن يفسره، وشعر بإرتباك تجلى في إحمرار أذنيه، حتى صارتا كعرف الديك، فقال لها، محاولا أن يخفي ما ولدته نبرتها في نفسه من تعاطف وإثارة:

- لا تشكرينا..ما نقوم به هو شيء طبيعي..المهم أن تنتهي هذه المسألة وتستقرين..لتعيشي حياتك بسلام وأمان..

غمر الجمع دفء إنساني جميل..توجهت المرأتان نحو الباب فالتف هو من وراء مكتبه ليوصلهما إلى خارج الشركة.

توجهتا نحو باب الخروج.. كانتا تمشيان أمامه..أخذ هو يتأمل جسد حواء ذوالنورين من الخلف..وحينما أوصلهما إلى المصعد وعاد إلى مكتبه كانت السكرتيرة الجميلة وإثنان من الموظفين ينتظرونه عند باب المكتب للإجتماع به.

* * *

مشتا على ضفة نهر السين الغربية، بعد أن ركنت إيفا سميث سيارتها في مرآب للسيارات على مقربة من شارع "دي ليل " حيث متحف أورسيه. على الجهة المقابلة كانت حديقة التويلري وميدان الكونكورد يبدوان في الأفق.

التفتتا إلى يمين الشارع بشكل عفوي.. واجههما إعلان هائل الحجم ينزل على جهة بناية كاملة يعلن عن متحف للثياب والأزياء يقام في متحف الأورسيه. توقفتا عند الإعلان المبهر والملفت للإنتباه..قرأت إيفا سميث الإعلان..وشرحت لصديقتها مضمونه، فأجابتها الأخرى بأنها قرأت النص الإنكليزي من الإعلان أيضاً..سألتها إيفا عن رغبتها في زيارة المتحف، فوافقت..تمشيتا قليلاً عند الركن حيث مدخل المتحف الذي ازدحم عنده عشرات من السائحين. وقبل أن تصلا إلى هناك لمحتا امرأة بالزي العربي الخليجي المتميز بالعباءة الطويلة السوداء وحجاب الرأس. حين وصلتا كانت المرأة قد دخلت إلى المتحف.

طبيعة المتحف وتوزيع قاعاته وممراته كانت غير عادية وغريبة بالنسبة لحواء ذوالنورين، فشرحت لها صديقتها بشكل مكثف تاريخ المتحف الباريسي الشهير الذي يأتي بعد متحف اللوفر..حيث كان مبنى المتحف في الأساس محطة قطار، وكيف تم في نهاية الثلاثينات من القرن الماضي تحويل جزء منه إلى مركز للبريد أثناء الحرب

العالمية الثانية، ثم صارت بعد الحرب موقعاً لتصوير أفلام سينمائية شهيرة..وكيف قررت الحكومة الفرنسية في زمن ميتران تحويل المحطة إلى متحف ليتحول إلى واحد من المتاحف العالمية، وثاني متحف فرنسي بعد اللوفر.. وكيف وضعت في مدخل المتحف ست مجموعات من التماثيل تمثل القارات الست، وهي تماثيل قديمة كان قد تم نحتها كي توضع في المعرض العالمي الأول في باريس العام ..و.و.

استمتعت حواء ذوالنورين بهذا الشرح المكثف، وانبهرت بمعلومات صديقتها عن تأريخ المتحف، وكأنها كانت تقرأ في كتاب مفتوح.

حين كانت إيفا سميث عند شباك التذاكر كانت حواء ذو النورين تنتظرها في الفسحة الموجودة قبل الدخول إلى القاعات..في تلك اللحظة تراءى لها بين زحمة الداخلين وجه رجل تعرفه..رجل أشقر وسيم، وملفت للإنتباه..لم تستطع أن تتذكره مباشرة. التفت هو إليها. التقت نظراتهما. أحست بقشعريرة تسري فيْ كامل جسدها. تذكرته..هو الرجل الأشقر الوسيم الذي رأته في فندق الشام بدمشق وكذلك في فلورنسا. التفتت نحو إيفا سميث لتناديها، فرأتها تقف في الطابور..نادتها بصوت خافت نسبياً إلا أن إيفا سميث لم تسمعها. أحست بالارتباك حينما التفتت مرة أخرى نحو الرجل الأشقر الوسيم فلم تجده. فكرت مع نفسها بأن الأمر ليس سوى وهم من أوهامها..حين أقبلت صديقتها وهي تحمل البطاقات بيدها، لم تشأ أن تخبرها بما تراءى لها.

نزلتا على السلّم المؤلف من درجات قليلة..ودخلتا القاعة الكبرى التي تُقسم المتحف إلى جانبين. تجولتا بداية في الجانب الأيمن من المتحف، واستعرضتا بشكل سريع اللوحات الموجودة بشكل دائم في القاعات التي هي أشبه بممرات ضيقة، حيث أن متحف الأزياء الذي هو الهدف من زيارتهما كان في قاعات وممرات الجانب الأيسر من المبنى..

شاهدتا تجمعا كبيراً من الزوار يقفون أمام لوحة لم تستطيعا أن ترياها مباشرة.. انتظرتا قليلاً إلى أن ابتعد الحشد عنها..فجأة، أحستا بدهشة محرجة. كانت اللوحة تجسد امرأة مستلقية على سريرها، مرفوعة الثوب إلى الأعلى، لا يتبين وجهها في اللوحة فهو خارج حدودها، عارية بالكامل من الأسفل..وفرجها المشعر يحتل مركز اللوحة..أحستا وكأن اللوحة تكشف عن فرجيهما..ارتبكتا..اقتربت إيفا سميث من

بطاقة المعلومات المرافقة للوحة لتقرأ فيها اسمي الفنان واللوحة..(أصل العالم) غوستاف كويربيت 1866. لم ينقذهما من حرجهما سوى وصول مجموعة من اليابانيين ومعهم دليلهم السياحي الذين تجمعوا أمام اللوحة وعلى وجوههم علامات الإنبهار، حيث أخذت المرشدة السياحية تتحدث لهم باليابانية..انسحبتا بهدوء لتواصلا سريعا تجولهما في قاعات الجانب الأيمن وممراته.

حينما كانتا في الممر الشمالي الذي يربط الجانب الأيسر بالأيمن، ويرتفع قليلاً على القاعة الوسطى، لمحت حواء ذوالنورين الرجل الأشقر الوسيم يجلس وحده على طاولة جانبية وضعت لإستراحة الزائرين..ارتبكت..أرادت أن تخبر صديقتها، لكنها أرادت أن تتأكد بالكامل من وجوده. حينما التفتت نحو القاعة مرة أخرى لم تجد الرجل الأشقر الوسيم..أحست بالخوف، لكنها سرعان ما فكرت مع نفسها بأنها متعبة..وكل ما تراه ليس سوى أوهامٍ ، فهي لم تتخلص من كوابيس بغداد ودمشق بعد.

حينما صارتا في الجانب الأيسر من المبنى أخذتا تتجولان في قاعاته المتداخلة. كانت حواء ذوالنورين في حالة ذهول ودهشة.. كانت تحس بتدفق الألوان إلى أعماقها..وكانت تنتبه لكل تفصيل تمر به..اللوحات الهائلة الحجم..جمال النساء وأناقة الرجال..كثرة السيّاح الأجانب..زحمة الناس..إعجابهم الذي يشبه التعبد والتقديس للفن..وكأنهم في نعمة لا تتكرر..وكأنهم واقفون في محراب أمام بعض اللوحات العالمية الشهيرة..أحست بما يشبه الاستفزاز العصبي غير المؤذي..أحست بلهفة وشغف لا تعرف مصدرهما..بل ولا تعرف لأي شيء تحس باللهفة والشغف.

وجدت نفسها تتسمر أمام لوحة كبيرة لإمرأة مذهلة الجمال..عارية بالكامل.. وحولها رجال ونساء عاريات لا يقلن جمالاً عنها..اقتربت بشكل منفرد من اللوحة لتقرأ اسم اللوحة واسم الرسام..(ولادة فينوس) لوليم بوغيرو. فجأة، انتبهت إلى المرأة في العباءة العربية تقف إلى جانبها..التفتت المرأة إليها مبتسمة فالتقت نظراتهما. أحست بنظراتها المتقدة والتي تشع جمالاً وتحدياً..وخُيل لها أن المرأة في العباءة السوداء ودت أن تفتح معها حديثاً لكنها فجأة غيرت رأيها، ثم انسحبت منصرفة إلى القاعات الأخرى.. التفتت حواء ذوالنورين إليها متتبعة إياها، ناظرة إلى أذيال عباءتها وهي تمسح أرضية القاعة الخشبية، إلى أن اختفت عن نظرها. اجتاحها

إحباط، فقد كانت لديها رغبة في أن تتحدث معها وتتعارفا.

إيفا سميث التي كانت قد زارت المتحف مرات عدة، لم تكن متوترة مثل صديقتها ولم تتوقف كثيراً عند اللوحات الفنية، فقد كانت تمر بها عابرة دونما اهتمام خاص، لكنها تركت صديقتها تتأمل اللوحات بهدوء، وشغلت نفسها بالبحث عن قاعات معرض الأزياء، فاقتربت من موظفة المتحف التي تقوم بحراسة القاعة وسألتها عنه، فوضّحت الأخرى لها مشيرة إلى القاعة التالية.

حين التفتت إيفا سميث نحو الجهة التي كانت تقف عندها حواء ذوالنورين لم تجدها. فتشت بنظرها بين الزائرين فلم تجدها. تجولت في القاعة مفتشة عنها فلم تجد لها أثراً..أحست بقلق خفي..وحينما دخلت إلى قاعة جانبية صغيرة نسبيا قياساً إلى بقية القاعات، وجدتها وحدها تقف أمام لوحة صغيرة الحجم تتوسط جداراً عريضا خالياً من أية لوحة أخرى.

كانت حواء ذوالنورين تنظر إلى اللوحة بذهول حتى أنها لم تنتبه لوقوف إيفا سميث إلى جانبها.. كانت إيفا تتنقل ببصرها بين اللوحة على الجدار وبين وجه صديقتها..فجأة انتبهت حواء ذوالنورين لها، ابتسمت بحزن وقالت لها:

- هذه الصورة هائلة..هذه المرأة العجوز تشبه أمي بشكل عجيب..وكأنها هي

- إنها لوحة اسمها (أم الفنان)..رسمها الفنان جيميس ويستلير..لوحة مضى عليها أكثر من قرن ونصف تقريبا..لكنها تبدو نابضة بالحياة..أليس كذلك..؟

- بلى..إنها تبدو وكأنها تجلس هناك وحدها..

تمتمت حواء ذوالنورين بدهشة ممزوجة بنبرة حزينة، ثم واصلت:

- في أواخر أيامها كانت أمي عاجزة..وكانت تجلس ساعات دون أن تنطق بكلمة وكأنها في عالم آخر..تحدق في ما وراء الأشياء مثل أم الفنان هذه..

تأملت إيفا سميث اللوحة مرة أخرى وكأنها تريد أن تربط ما بين كلام صديقتها واللوحة، ثم قالت بإعجاب عميق:

- نعم بالفعل إنها لوحة هائلة..لكنها كئيبة..

تحركت إيفا سميث لتغادر القاعة الصغيرة فتبعتها حواء ذوالنورين لا إرادياً، لكنها وقبل أن تغادر القاعة التفتت إلى اللوحة وكأنها تودع المرأة العجوز.

كانت قاعات معرض الأزياء الضيقة مكتظة بالزائرين..من الفرنسيين والأجانب. توقفتا مع جموع أخرى أمام واجهات زجاجية عرضت فيها ثياب وأزياء وموديلات من عصور مختلفة، بعضها يعود لملكات وأميرات أوروبيات..أما القاعات الأخرى فقد علقّت على جدرانها لوحات فنية متنوعة قد استعارها متحف الأورسيه من متاحف عالمية أخرى لتجسد تطور الأزياء والموديلات عبر العصور الأوربية.

ضاعتا وسط الزحمة..كان من الصعب المرور بين القاعات الضيقة..فجأة، توقفت حواء ذوالنورين أمام لوحة لإمرأة تجلس في شرفة يبدو أنها شرفة لمسرح أو قاعة موسيقى وبيدها منظار صغير يستخدم لتقريب المشاهد في القاعات الكبيرة، وخلفها يجلس رجل بدا أنه ينظر من خلال منظاره إلى الأعلى متجها بجسده جانباً. شدّها جمال المرأة وبشرتها المضيئة، بل أحسّتْ أن وجه المرأة وبشرتها يكادان يضيئان اللوحة وما يحيطها، على الرغم من أن مساقط الإنارة الخفيفة المسلطة على سطح اللوحة كانت تنيرها من زوايا مختلفة.

اقتربت من اللوحة وأخذت تتأملها بدهشة وانتباه كامل. قرأت اسم اللوحة (اللوج) واسم الرسام بيير – أوغست رينوار. بقيت مسمّرة أمامها لا تتزحزح وكأنها تحت تأثير سحر خاص.. وقف إلى جانبها بعض الأشخاص..مرت دقائق..ذهبوا..بقيت هي تتأمل اللوحة، وكأن هذه المرأة في اللوحة تبتسم لها أو تود أن تقول لها شيئاً.

كانت إيفا سميث قد مرت على معظم الأزياء المعروضة. انتبهت لغياب حواء ذوالنورين..فتشت عنها، لكنها بدورها توقفت عند لوحة كبيرة بحجم أكبر قليلا وأطول من قامة إنسان..لوحة لإمرأة في ثوب أسود وبقفاز واحد..لم تقترب منها كثيراً لأن بعض الزائرين كان يقف بينها وبين اللوحة..تلفتت حواليها فرأت حواء ذوالنورين تقف أمام إحدى اللوحات..اقتربت منها وسألتها:

- أين كنت..؟ فتشتُ عنك..لقد كانت هناك أزياء جميلة حقاً..لكنها متعبة عند اللبس جداً..كيف كانت النساء يلبسن هذه الأشياء والكورسيهات سابقا..؟.. يبدو كان لديهن الكثير من الوقت..صحيح حينما قيل بأن الثورة الصناعية غيرت تاريخ البشرية وعاداتها اليومية..

استمعت حواء ذوالنورين لها..ابتسمت وقالت دون أن تعلق على كلامها بصدد الأزياء:

- انظري لهذه اللوحة..كم هي جميلة هذه المرأة..؟
- هي لوحة (اللوج) الشهيرة لرينوار.. نعم أنها جميلة..خاصة لون بشرتها.. لكن تعالي لنرَ بقية الأزياء في القاعة المجاورة..

سحبتها من يدها وكأنها لا تريد أن تفقدها في الزحمة ومضت، وقبل أن تغادرا القاعة حانت التفاتة من حواء ذوالنورين باتجاه اللوحة فرأت، برغم الزحام، ما أذهلها، إذ كانت المرأة في اللوحة تنبض بالحياة بكل جمالها الآخاذ، تنظر إلى حواء ذوالنورين أيضاً وعلى وجهها إبتسامة غامضة.

الفصل السادس

الابتسامة المرمرية

رن الهاتف في غرفة الغرفة رقم 606 في الطابق السادس حينما كانت حواء الحلو في تلك اللحظات بالذات تقوم بفتح الباب داخلة إلى الغرفة..أسرعت إلى سماعة الهاتف..وقالت بالإنكليزية:

- نعم..من المتحدث رجاء..؟

أحست بالصدمة حينما جاء صوت رجل يحدثها بالعربية، لكنها عرفت فوراً من هو، فسألته بعد أن قدم لها نفسه :

- كيف عرفت مكاني..ورقمي..(لحظات صمت)..صحيح.. صحيح..نعم ذكرت لك اسم الفندق....(لحظات صمت)..كنت اليوم أتجول وحدي.. أنا آسفة عن تصرفي مساء أمس.. أنا عندي طباع غريبة أحياناً..ماذا..أنا حزينة..؟

جلست على الكرسي المجاور للطاولة الصغيرة المجاورة للنافذة والتي كان جهاز الهاتف عليها، إذ بدا واضحا أن الحديث يعجبها..فقالت وكأنها تواصل حديثها:

- حياتي.. عزلتي..؟ طبعا لم أتمكن مساء أمس أن أتحدث شيئا عن نفسي وحياتي..وعزلتي..نعم..أنا آسفة..ماذا..؟ (لحظات صمت).. تسألني عن حياتي..؟..(لحظات صمت)..تريد أن أروي لك شيئاً عن نفسي وحياتي بالتلفون..؟ هل هذا معقول..؟ (لحظات صمت طويل)..طيب..إذا كان لديك الوقت والاستعداد لسماعي فلك ذلك..(وبنبرة فيها بعض المرح واصلت).. هذا تعويض واعتذار عما بدر مني مساء أمس..(لحظات صمت)..لكن كيف أصف حياتي لك..؟ حياتي دوامات هائلة من اليأس والخيبة..والأفراح

العابرة..هل رأيت الانهيارات التي تجري في جبال الثلج..؟..ثمة انهيارات للأحلام في أعماقي مثل تلك الانهيارات الهائلة لجبال الثلج..أحيانا أفتش عن بعض النور الخفي لروحي..أجده في الرسم..في الألوان..لا ألوان في حياتي سوى الأصباغ التي أرسم فيها لوحاتي..أحس وكأن في أعماقي حواء أخرى..حواء مفترسة..ذئبة تفترس روحي ومشاعري.. ماذا..؟ ماذا تقول..؟ (لحظات صمت).. هل تراني جميلة حقاً أم تجاملني..؟..هل تصدقني يا أستاذ آدم لو قلت لك بأن زوجي لا ينظر إليّ..لم ينظر يوماً إلى جسدي.. ماذا..؟ لم تفهم..؟ أوه..إنها قصة طويلة..هل أخبرك بسر..؟..سأخبرك به لأني ربما لا أستطيع أن أقوله لك وجها لوجه..زوجي جعلني أشعر بأني أبشع امرأة في الكون..جعلني أخجل من جسدي..قتل كل ثقتي بنفسي كامرأة..(لحظات صمت)..كان يهزأ بي..في كل لحظة.. كان يشعرني بأنني عديمة الفائدة..ولم يشعرني بأنوثتي مطلقاً..(لحظات صمت)..هل تصدق أنه كان ينام معي في الظلام الدامس..؟ لا أعرف السبب الذي يدفعه لممارسة الجنس معي في الظلام..؟ (لحظات صمت).. نعم..فكرت في الأمر..فكرت أنه ربما يعاني من عاهة جسدية ولا يريد أن أرى جسده..أو أنه لا يرى في جسدي غير الرجس..أو أنه لا يرى جسدي جميلاً ومثيراً ومغرياً كي يداعبه ويستمتع به..؟..(لحظات صمت)..ماذا تقول..؟ ماذا.. هناك نساء يستمتعن بالممارسة حينما تكون في الظلام..؟ لا أعرف..ربما هؤلاء النسوة يحلمن برجال آخرين وهن يحتضنَّ أجساد أزواجهن..وربما هن يستحين من مشاعرهن..؟ لا أعرف..بالنسبة لي كان ذلك شيئاً مؤلماً.. أنا لا أقصد الممارسة الجنسية..وإنما أقصد أنه لمؤلم أن تكتشف جمال جسدك وهيئتك لكن بعد أن تنقضي سنوات شبابك..(لحظات صمت).. كان يمكنني أن أتحمل ذلك لو أنه كان يحسسني بعاطفته نحوي..(لحظات صمت)..ماذا أريد..؟ لا أعرف كيف أعبر لك..لكني سألخص الأمر لك بجملة واحدة..أريد أن أتحرر.. ماذا..؟ (لحظات صمت).. أتسألني إن كنت أريد التحرر فعلاً..؟ (لحظات صمت).. أعرف..أعرف أن التحرر عملية مثل المخاض..وأنا امرأة..وأعرف معنى ذلك..لكن مشكلتي ليست في معرفة

ما أريد..فأنا أعرف ما أريد بالكامل..وإنما المشكلة في ترددي..وتشتتي.. وخوفي من اتخاذ أية خطوة..فالحرية مسؤولية..الحرية مسؤولية والحرية موقف..وأنا أريد لحريتي أن تكون مثل الشمس..الكل يتدفأ بنورها وأشعتها.. دون أن يلحق بها الأذى..أريد لحريتي أن تكون محصنة من السقوط إلى الأسفل..أن أحلّق بها عالياً كالنسر..هل تفهمني؟..(فترة صمت طويلة)..أنا أريد أن أدرس خطواتي كي لا أتعثر وأقع..أريد أن أكون واثقة من كل حركة أقوم بها..ماذا..؟ (لحظات صمت)..ماذا تقول..؟ هل تعتقد أنني شخصية درامية ومعقدة بشكل مذهل وأصلح كي أكون موضوع لوحة حزينة جداً..؟ أعرف هذا..وأعرف أنني بطلة خيبات مريرة..بل وأنني أكبر خائبة في الحب.. وأني في الحب لن أكون سعيدة أبداً..(لحظات صمت)..نعم..كانت لي تجربة في الحب..ويا ليتني ما أحببت..لأني في كل مرة أكون الضحية..أجرجر أحزاني وحدي..أتألم بصمت وحدي..مشكلتي أنني أحببت أكثر مما ينبغي..وأحبني الذي أحببته أقل مما ينبغي..ولأني لا أرتضي حباً عادياً لذلك جنيت الخيبة..ماذا..؟(لحظات صمت طويلة).. ماذا تقول..؟ وجهت مشاعري للإنسان الخطأ..أو أنه هرب مني لأنه لم يستطع أن يمتلك جسدي..؟..لا..أنا لم أعط جسدي لأحد..ربما سأروي لك ذلك في ما بعد..قصتي طويلة..أوف..ماذا أحكي..أتريد أن أحكي لك قصة حياتي بالتلفون..؟..ماذا..؟ (لحظات صمت)..لا..لا..خيبتي الأولى كانت منذ أكثر من 22 سنة..قبل زواجي..في مدينتي الأولى..أول نبض.. لكن خيبتي أنه كان متزوجاً..وعلمت بعدها أنه فقط كان يريد علاقة عاطفية عابرة..(لحظات صمت)..ماذا..؟ كيف تزوجت زوجي هذا..؟ ماذا أقول.. تزوجته هربا من واقع مرير..لم أحبه قط..فقط استسلمت لقدر أحمق..ماذا تقول..؟(لحظات صمت)..تعتقد أني كنت مدفوعة برغبة جسدية..أو أني كنت أهرب من حب فاشل..لا..لا..لا هذا ولا ذاك..فأنا لم أخض أية تجربة جسدية قبل الزواج.. ولا بعده..بل أشعر بأنني مازلت عذراء..أشعر بأنني تائهة وممزقة..لا شيء يتحرك في حياتي..الدقائق تمر بطيئة ثقيلة.. (لحظات صمت)..ماذا أريد..؟ لا أريد شيئاً سوى أن تحل الطمأنينة على

قلبي..ولا أعرف السبل إليها..(لحظات صمت)..نعم أنها حيرة حقيقية..كمن يقف في حجرة مظلمة ويريد الخروج لكنه لا يدري أين هي الباب..لأنه لا وجود لهذا الباب أصلاً....تصور أنا أتواصل مع الآخرين..لكني لا أشعر بالسعادة..(لحظات صمت)..المشكلة تكمن في داخلي أنا..أنا من تجلس في زنزانتها ورغم ذلك لا تعرف كيف تخرج، مع علمها أن باب الزنزانة مفتوح والحارس خارج المكان..(لحظات صمت)..نعم..نعم..أحتاج لمن يأخذ بيدي..لمن يدفعني دفعا..لكني أحتاج إلى أن أعيد ترميم حواسي.. وذاتي المثقوبة..أحتاج إلى أن أنفض عني غبار الموروثات..أحتاج أن أفتح نافذتي على عالم جديد لا يحمل في أصدائه ثقل العادات والتقاليد..أنا أتوجع منذ سنين طويلة..أحمل آلامي على كتفي..أتمنى أن أخرج من هذه الشرنقة..أني أكاد أنظر إلى أعماقي مثلما أنظر إلى بئر عميقة..مظلمة.. لكنها صافية..(لحظات صمت طويلة)..تساعدني..؟ كيف ستساعدني؟.. (لحظات صمت طويلة).لماذا تريد أن تستفز أعماقي وتفجر الدمامل في نفسي لتترك ظلامها يسيح..(لحظات صمت).. أنت تتحدث كطبيب نفسي.. لماذا أنا مترددة..؟ لا أدري..لكني أريد الخروج من هذا القبر..أريد أن أخلق من جديد..أحس وكأني وردة تفتحت في غير موسمها..(لحظات صمت)..ماذا..؟ ماذا تقول..؟ لدى ميكائيل انجلو بوناروتي تمثال من المرمر لماريا..ابتسامتها تشبه ابتسامتي..؟ ماذا تقول..؟ (لحظات صمت طويلة).. ابتسامة حزينة..جميلة يائسة، ومليئة بالأمل..يا إلهي..أتدري هكذا كنت أُلقب في الجامعة..؟ صدقني..(لحظات صمت)..ماذا..؟ أتهرب منك..؟ لا أعرف لماذا ..أحس أنك تجرني إلى مناطق أخاف من الدخول إليها برغم رغبتي العارمة والهائلة في ذلك..؟ (لحظات صمت..) أنا لا أهرب منك..أنا أهرب من كل الناس..

فجأة انتبهت حواء الحلو إلى أن لا أحد على الخط..وأنها كانت تتحدث مع نفسها..استغربت..سألت نفسها " هل كان هناك اتصال من آدم بوناروتي أصلاً، وأنها لم تكن تتحدث مع نفسها..؟..لا.لا.. هل أنا مجنونة كي أتحدث كل هذه

الأشياء عن نفسي..ومع نفسي.. هذا غير ممكن..فقد سمعت صوته..كان يسألني.. ويحاول أن يتوغل في أعماقي.. ربما انقطع الخط..؟..ربما..فليس من المعقول أن تتحدث كل هذه التفاصيل عن نفسي وأرد على كل أسئلته ويكون كل ذلك وهماً..!! علي التأكد.."..

ألقت نظرة في الدفتر الذي يحتوي على تعليمات الفندق وارشاداته فوجدتْ رقم مكتب الاستعلامات..اتصلت..سألتْ إن كان بالإمكان معرفة رقم الشخص الذي اتصل بها قبل قليل..كانت المفاجأة صاعقة، فقد أخبرتها موظفة الاستعلامات بأنه لم يتصل بها أحد اصلاً..! سألت بدهشة كبيرة بأنها تلقت إتصالاً قبل قليل من شخص ما..من صديق..فأجابتها موظفة الاستعلامات بأنه لم يتصل بها عبر الفندق أي شخص.

وضعت السماعة على الجهاز..أحست برجفة خوف تسري في أعماقها..ما الذي يجري معها..؟ من تراه آدم بوناروتي هذا..؟ ربما هي لم تلتق به أصلاً ..؟ ربما هو وهم من أوهامها..؟ كيف لها أن تتأكد من ذلك..؟ كيف لها ذلك وهي لا تعرف تليفونه ولا عنوانه..كما أنها غادرت بطريقة غير مهذبة..؟.. كيف لها أن تتأكد..؟.

قامت عن الكرسي..قطعت الغرفة ذهاباً وإياباً..دخلت غرفة الحمام..لم تكن تعرف ماذا تريد بالضبط..كانت قلقة..ومستنفرة الأعماق..نظرت إلى نفسها في المرآة.. تأملت وجهها..فكرت بالكلمات التي سمعتها من الصوت الذي كان يحدثها عبر الهاتف، والذي يفترض أن يكون آدم بوناروتي..انتبهت إلى أن طبيعة فمها وشفتيها تشبهان فم ماريا لدى ميكائيل أنجلو حقاً..ابتسمت لنفسها لا عن فرح، وإنما لترى ابتسامتها في المرآة..انتبهت إلى أن فمها افترّ عن إبتسامة حزينة تشبه لحد ما الإبتسامة الحزينة الغامضة لدى ماريا أم المسيح في لوحات هذا الفنان الإيطالي العظيم.. لكن آدم بوناروتي قال لها إنه تأمل أحد تماثيله المرمرية فوجد الشبه بينهما ولم يقل تأمل لوحاته..! يعني أن الشبه في الإبتسامة المرمرية.

ظلت تتأمل نفسها..ثم تأملت قوامها..اقتربت من المرآة لترى بعض التهدلات الخفيفة جداً تحت جفنيها..أحست برضا خفي عن نفسها وقوامها..وبدون قصد أو فكرة مسبقة رفعت إصبعها ورسمت علامات X على صورتها في المرآة.. ظلت تنظر إلى صورتها في المرآة وآثار إصبعها واضحة على صورتها..في تلك اللحظات

رن هاتف الغرفة..لم تتحرك..أرادت أن تتأكد من أن هناك هاتفاً يرن حقاً وليس توهماً للرنين..بقيت للحظات واقفة..ثم خرجت من غرفة الحمام لترد.

كانت دهشتها كبيرة حينما جاء صوت آدم بوناروتي من الطرف الآخر للخط. اعتذر بداية على إتصاله لها في الفندق، لكنه اضطر لذلك لأنها غادرت مساء أمس المطعم بشكل مفاجئ..ولم يكن أمامه سوى الإتصال بالفندق..فسألته إن كان قد اتصل بها قبل قليل..فنفى أن يكون قد اتصل بها..صمتت للحظات..فسألها إن كان قد حدث شيء ما..فنفت ذلك، لكنها قالت له بأن هاتف الغرفة رن قبل قليل، ولم تستطع أن تلحق بأخذ السماعة لترد، فظنت أنه هو الذي اتصل..فكرر لها بأنه يتصل بها لأول مرة..وسألها إن كانت لا تمانع بأن يدعوها للتجول في فلورنسا..واقترح عليها زيارة ضريح آل ميدتشي..وافقت..لكنها طلبت منه أن يكون ذلك عصرا..فقد تجولت قرب الفندق والأسواق الشعبية القريبة منه..وتشعر بالإرهاق قليلا..لاسيما وأنها لم تنم جيداً ليلة أمس..وتريد أن تغفو قليلاً.. واتفق معها على أن يمر عليها عصراً في الفندق ليقوما بجولتهما.

حينما وضعت السماعة على الجهاز أحست بأن ثمة شيئاً غريباً يجري معها.. سألت نفسها: مع من كنت أتحدث قبل هذا الاتصال..؟ ..كانت متأكدة من أنها ردت على آدم بوناروتي حينما اتصل قبل هذا الاتصال..بل تحدثت معه عن نفسها طويلا..بينما موظفة الاستعلامات تنفي تحويل أي اتصال إلى غرفتها..وها هو آدم بوناروتي ينفي اتصاله بها..؟ ماذا يجري..؟

أحست بتعب مفاجئ..ألقت بنفسها على السرير. ظلت تفكر بما جرى..أخذت تحدق إلى سقف الغرفة الذي بدا لها وكأنه وجه حجري يحدق بها.. وغفت .

* * *

لم تطل إغفاءة حواء الحلو إذ فزت فرأت نفسها في بيتها، وسريرها في شقتها بألمانيا في (هيرمان شتراسه).. كان الوقت يقارب الثانية والنصف بعد الظهر..لكنها كانت متعبة..وتحس بنعاس شديد..حدقت في سقف غرفتها..تذكرت الحلم الذي رأته في غفوتها..رأت نفسها أنها كانت في فلورنسا.. لكنها لم تكن هي بهيئتها الحالية، وإنما كانت امرأة جميلة، ولم تكن عراقية وإنما لبنانية..بيد أنها كانت تعرف أنها هي حواء الحلو العراقية..رأت أنها كانت هناك في فلورنسا أمام باب

ذهبي يُسمى (باب الفردوس)..وتعثرت..فوقعت على ظهر رجل..اتضح في ما بعد أنه عراقي يعيش في إيطاليا لأكثر من عشرين عاما..اسمه آدم بوناروتي..وذهبت معه إلى مطعم للعشاء..لكنه قال شيئا ما أزعجها ..فتركت المطعم..ثم رأت نفسها في فندق يقع في شارع اسمه السابع والعشرون من أبريل..وأنها هناك رأت ستة رجال عميان يرتدون ملابس غريبة وكأنها من القرون الوسطى يسيرون في طابور..وأنها كانت في غرفتها في الفندق حينما رأتهم يمرون من أمام نافذتها..وحينما أرادت أن تتبعهم ببصرها اختفوا فجاة..ثم أن الهاتف رن في غرفتها فكان على الطرف الآخر ذلك الرجل العراقي الايطالي.. وتحدثت معه طويلا عن حياتها ومشاكلها.. ووحدتها..وسعيها إلى التحرر.. وكيف أنه قال لها بأن ابتسامتها تشبه ابتسامة ماريا أم المسيح..ثم فجأة انقطع الخط..فطلبت الاستعلامات لتوصيلها بالشخص المتصل فنفت موظفة الاستعلامات أن يكون هناك متصل أصلا..ثم بعد ذلك جاء اتصال آخر فكان هو آدم بوناروتي فعلا..واتفقت معه للتجوال في المدينة عصرا..وأنها ألقت بنفسها على سريرها..فغفت..وفي غفوتها في الحلم ..رأت حلماً بأنها تستيقظ لتجد نفسها في سريرها الحقيقي بشقتها في برلين والتي تقع في شارع (هيرمان شتراسة)..وأنها، في حلمها الذي هو داخل الحلم الأول تذكرت أنها حلمت بأنها كانت في فلورنسا وكانت أمام باب ذهبي...وأحست حواء الحلو بأنها لا تستطيع مواصلة التذكر..كانت نعسانة جداً..وبدون أن تسيطر على نفسها غرقت في النوم مرة أخرى.

* * *

فزّت حواء الحلو العراقية من نومها مرعوبة..استغفرت الله واستعاذت به من الشيطان الرجيم..أحست بشيء من الأمان حينما وجدت نفسها في سريرها العريض بغرفتها المعتمة والمُسدلة الستائر..إذن ما رأته كان كابوساً..!! لا..هي ليست متأكدة من أن ما رأته كان كابوساً..إذ أنها في اللحظات الأولى من استيقاظها شعرت وكأن بعض ما رأته في المنام يجري أمام عينيها.. نعم.. نعم..فجأة..انتبهت إلى أن هناك نساء كن في الصالة وصفقن الباب خارجات..لقد استيقظت على صوت غمغمة حديث في شقتها..وصلتها أصوات متداخلة بين الألمانية والعربية..نعم.. إنها تتذكر الآن هي كانت نائمة في سريرها..ورأت أحلاماً متعددة..رأت نفسها في

أماكن غريبة لم تزرها سابقاً.. فقد كانت في مدينة فلورنسا..نعم..نعم..لكنها كانت هي حواء الحلو وفي الوقت نفسه ليست هي..!!

نعم..نعم..رأت نفسها في الحلم امرأة جميلة..ورشيقة..وكانت لبنانية وليست عراقية،كما هي جنسيتها الحقيقية، لكن كيف يمكن ذلك..؟ كما أنها كانت في الحلم رشيقة، بينما هي في الواقع ليست سوى كتلة هلامية من اللحم المترهل بالكاد تستطيع الحركة..؟..

تذكرت الآن أنها كانت في فندق ما بفلورنسا..وقبل ذلك تعرفت على رجل عراقي..رسام..عند مكان يُسمى (باب الفردوس)..وذهبت معه إلى المطعم..ثم انتقل بها الحلم مثلما في السينما إلى مشهد وهي بغرفتها في الفندق.. وأن الرجل إتصل بها على هاتف الغرفة..تحدثت معه..ثم فزت من من نومها لتكتشف أنها في سريرها بالفندق..وأنها لم تتحدث مع الرجل العراقي وإنما حلمت بأنها تتحدث مع الرجل العراقي..ولتتأكد من ذلك اتصلت بإستعلامات الفندق وسألتهم إن كان هناك من اتصل بها تليفونياً..لكنهم نفوا ذلك.

تتذكر أنها حلمت بأن الرجل العراقي اتصل بها في ما بعد فعلاً.. وأنها عادت للنوم مرة أخرى..ثم استيقظت مرة أخرى لتجد نفسها في سريرها العريض بالفندق الفلورنسي، وأنها غفت لترى حلماً بأنها ترقد في سرير عريض بغرفة معتمة في برلين..في شقة بشارع هيرمان شتراسه..ثم فزت مرة أخرى مرعوبة..لتجد نفسها، مرة أخرى، في السرير في الفندق الفلورنسي..وبعد أن أخذت حماماً ساخناً..عادت للنوم..

ولا تدري كيف غطت حواء الحلو العراقية في قيلولتها العميقة..

* * *

فزت حواء الحلو مرة أخرى مذعورة على صوت حديث يأتي من الصالة..هي الآن في سرير عريض في الغرفة المعتمة في شقة ما ببرلين. بقيت للحظات لتتأكد من أنها ليست نائمة أو تحلم..نهضت بحذر..كانت خائفة..مشت على أصابع قدميها على مهل، لتتأكد من وجود النسوة..بينما اختفت حواء الحلو اللبنانية بالكامل من ذهنها وكأنها لم تكن..سمعت أصوات نساء يتحدثن همساً، لكنه همس مسموع.. التصقت بالجدار..ومدت رأسها بطريقة مواربة بحيث لا يرينها..رأت خمس نساء.. إثنتان كانتا تلبسان ملابس الراهبات..راهبة متقدمة في السن يشع وجهها طيبة..

والأخرى راهبة فتية، جميلة جداً..كانت الراهبتان تتحدثان بالألمانية..بينما كانت النساء الثلاث الباقيات يجبنهما بالعربية وباللهجة العراقية..إثنتان كانتا تضعان شالاً خفيفا على الرأس..بينما انزاحت عباءتاهما عن كتفيهما وتكومتا على الصوفا..أما المرأة الأخرى فكانت سافرة الوجه..

إحدى النساء كانت الأكثر نشاطاً بينهن وكانت تشد رأسها بطرحة..قالت بحزن:

- كنت أعيش في الشقة..حينما انتقلت مع زوجي آدم اللبناني من مدينة إيسن إلى هنا..ثم تعرضت لحادث اصطدام حينما كنت مع زوجي وصديقه.. مات كلاهما..وأنا صرت عمياء..كنت حاملاً فأجهضت..

نظرت الراهبتان إليها بمودة، وقالت الراهبة المسنة بحنان:

- لقد زرناك هنا..نعم..نذكر ذلك..لكن كانت لديك جارة روسية مرت بكل أهوال الجحيم..كانت مومساً فاضلة.. أكان اسمها إيفا أومسك إليس كذلك..؟

التفتت الراهبة المسنة إلى الراهبة الشابة، فقالت تلك موافقة على ما قالته وأكدت:

- نعم..كان اسمها إيفا أومسك..لقد أثقلتنا باعترافها الرهيب الذي قدمته هنا في هذا المكان أمامنا..
- أين هي الآن..؟

سألت الراهبة المسنة..فقالت الراهبة الشابة وهي تشير نحو المرأة التي تشد رأسها بطرحة:

- ربما حواء المؤمن تعرف ذلك..

ارتسمت ملامح القلق على وجه المرأة التي تضع شالاً على رأسها والتي اسمها حواء المؤمن وقالت:

- لا أعرف أين هي الآن..ربما هي لا تزال موجودة في الشقة المقابلة نفسها..؟ آخر مرة رأيتها فيها حينما كنت أنا ميتة على سريري في الغرفة المجاورة.. ثم في المشرحة..ثم حينما نقلوني إلى المقبرة..لم أرها بعد ذلك..ربما علينا زيارتها أيضاً فهي امرأة فاضلة على الرغم من أنها تعاني كثيراً في عملها كمومس..

كانت المرأة السافرة والمرأة الأخرى المعصوبة الرأس تنظران لبعضهما وكأن

الأمر لا يخصهما..ردت الراهبة الشابة قائلة:

- نعم...علينا زيارتها..
- لكن تعالوا لنلقي نظرة على غرفتي وعلى السرير الذي مت عليه..

انتبهت إلى أن النساء نهضن..تأهبن لرؤية الغرفة..وفي تلك اللحظات أسرعت حواء الحلو برغم سمنتها الهائلة وترهلها إلى السرير وألقت نفسها عليه..سحبت البطانية لتغطي جسدها، بل ورأسها أيضا..تتذكر الآن أنها كانت ترتجف مرعوبة.. اصطكت أسنانها لاإراديا..لكنها ضغطت على فكيها كي تسيطر على اصطكاك الأسنان..كانت تفكر بما سمعت، كيف تقول هذه المرأة أنها ماتت..ومن هي هذه المرأة إذن إذا كانت ميتة..؟.

سمعت ما يشبه الحفيف قرب سريرها..وأحست دون أن تكشف الغطاء عن رأسها بأن النساء الخمس يقفن حول سريرها..وسمعت إحدى الراهبتين تقول بالألمانية:

- هذه امرأة مسكينة..روح منسية..طوبى للنساء الوحيدات المسكينات..طوبى للناس الضعفاء.. طوبى للنساء الوحيدات.. طوبى للأرواح المنسية..
- آمين...

رددت بقية النساء..مرت لحظات كالساعات الطوال..وبرغم أنها كانت قد غطت رأسها بالبطانية إلا أنها أغلقت عينيها أيضا خوفاً..فلم تستطع أن ترى شيئاً..لكنها حينما أحست أنه لا يوجد أحد..وبحركة بطيئة جداً..أزاحت البطانية عن وجهها.. فلم تجد أحداً حقاً..بقيت متمددة على سريرها..تذكرت ذلك جيداً..لكنها لا تتذكر كيف عادت إلى النوم..غطت في نومها مرة أخرى..وفي منامها رأت النساء الخمس مرة أخرى قرب الباب..فزّت من نومها..لكنها أحست بصوت الباب وهو يُغلق.. ثم سمعت وقع خطاهن على السلّم..تنفست الصعداء.

ما الذي يجري لها..؟ ما هذه الأحلام المتداخلة..؟ مرة تحلم بأنها امرأة لبنانية..وتلك اللبنانية تنام لتحلم في النوم بأنها حواء الحلو العراقية التي تفز في سريرها في برلين..من هي الآن..؟ أهي حواء الحلو العراقية، السمينة..المترهلة.. جبل الشحم..التي تعيش في برلين.. وتحلم بحواء الحلو اللبنانية الجميلة.. أم أنها حواء الحلو المرأة اللبنانية المثيرة التي تتجول في فلورنسا..وتحلم بأنها حواء الحلو العراقية، السمينة ، المترهلة، التي تعيش في برلين..والتي تقفز من نومها لترى خمس

نساء غريبات في شقتها..واحدة منهن تدعي بأنها ماتت في هذه الشقة؟..

هي الآن مستيقظة..و لديها شعور غامض بأنها هي حواء الحلو العراقية..؟ لكن هل هي مستيقظة فعلاً؟ أو أنها حواء الحلو اللبنانية النائمة..وهي تحلم الآن بأنها حواء الحلو العراقية المستيقظة من النوم..؟ لا.لا. إنها حواء الحلو العراقية.. جبل الشحم المترهل..نعم..هذا مؤكد..وبلا شعور مدت يدها لتقرص نفسها بشدة.. فأحست بالألم..إذن..هي حواء الحلو العراقية..!.

فجأة، أحسّت بالشقة، وبالمبنى يهتز مع صوت مفاجئ لطائرة هليوكوبتر واطئة، أحسّت بها وكأنها تريد الهبوط على سطح المبنى..بعد لحظات ابتعدت الطائرة محلقة..فهجمت أصوات صافرات الإنذار التي تتميز بها سيارات الشرطة وسيارات الإسعاف.. كان عدد السيارات كثيراً..أحست بأن شيئاً ما قد حدث في هذا الجانب من المدينة والذي يسكنه الأجانب. هبط عليها نعاس قوي مفاجئ.. غطت في النوم ثانية.

كان ثمة ظـلام يغطّي كل شيء.. العالم كله غارق في الظلام..مثل ذلك الظلام الذي يحتضن الكون والمجرات والوجود كله.. ثم تكشف الظلام شيئا فشيئا.كانت هناك غرفة شبه معتمة..الستائر مسدلة لتمنع الضوء من التسلل إلى الغرفة..غير أن أشعة الضوء تسربت برغم ذلك من خلال الفجوات التي بين الستائر فكسرت شيئاً من عتمة الغرفة.

ظلت حواء الحلو..العراقية..راقدة في سريرها..وحين استيقظت مرة أخرى وفتحت عينيها..نظرت إلى سقف الغرفة..أعجبتها الإطارات الجصية التي تحيط بالسقف من كل جوانبه..حانت التفاتة جانبية من رأسها فرأت على الطاولة شريطا من الحبوب ونصف كأس ماء.. سمعت أصوات أشخاص تأتي من بعيد..تعالى عليها صوت سيارة مرت بسرعة..هدأت الأصوات..واختفى صوت السيارة المسرعة..سمعت صوت حفيف أغصان أشجار..لكن أين هي الأشجار..؟ تذكرت أنها تركت نافذة الصالون المطلّة على الشارع وعلى المقبرة المقابلة لبنايتها مفتوحة..المقبرة التي هي أشبه بحديقة كبيرة أو غابة صغيرة..

أحست براحة نفسية..إذن هي وحدها في الشقة..لكنها تذكرت أنها سمعت صوت إغلاق باب الشقة..إذن لقد غادر الغرباء المجهولون الذين رأتهم قبل غفوتها

الأخيرة..هي تتذكر أنهم رحلوا..وأنها عادت مرة أخرى إلى النوم..لكن من هم..؟ وكيف كانوا يتفاهمون..؟ فكرت مع نفسها..بأنها ربما هي ليست هي..؟ ثم من هي حواء الحلو..اللبنانية.. التي ظنّتها في الحلم أنها نفسها..؟ وإذا كان الأمر مجرد حلم ، وفي الأحلام كل شيء ممكن..فكيف رأت نفسها تحلم بحواء الحلو اللبنانية، وهذه بدورها تنام لتحلم بها، هي حواء الحلو الحالية، العراقية، وهي نائمة في شقتها ببرلين..؟؟

هل جُنّت..؟ ولكي تتأكد من ذلك تحركت مثل خنفساء هائلة مقلوبة على ظهرها..إلى أن استطاعت الجلوس على حافة السرير ..وبعد أن أنزلت رجليها إلى الأرض، نهضت بصعوبة. مشت إلى الصالة..لم يكن ثمة أحد هناك..لكنها كانت تحس بشيء غريب يقبض على نفسها..إحساس بالتيه والضياع..وبمرارة وظلام يكبسان على نفسها..أحاسيس ومشاعر لا تعرف مصادرها..أحست بأنها لا تستطيع الجزم بحقيقة ما يجري..فهي لا تستطيع التأكد من حقيقة وجودها..صحيح أنها قرصت نفسها لكن هذا ليس جواباً..فهل هي التي حلمت بحواء اللبنانية أو أنها الآن في حلم تراه الآن حواء الحلو اللبنانية وهي راقدة في سريرها بفندق ما في فلورنسا..؟.

اقتربت من الجدار حيث المرآة المعلقة..نظرت إلى وجهها في المرآة..انتبهت إلى نفسها وكأنها سقطت في الشيخوخة فجأة..وبدأت الإنحدار على الجهة الثانية من جبل الحياة..هناك حيث يستقر الموت في الوادي..فكرت بأن الإنسان مع الأسف قبل أن يستقر في أحضان الموت وسط الوادي، فأنه يصطدم بصخور المرض والحزن والخوف والضجر المسننة والجارحة..تأملت جانباً من وجهها..الجانب الطبيعي من وجهها..بدتِ لنفسها متعبة، يكسو جانب وجهها شحوب مرضي، وتحت عينيها ظل من السواد..أهذه هي حقاً..؟ أوصل بها الحال من الكبر والشيخوخة إلى هذا الحد دون أن تنتبه لنفسها..؟ قالت لنفسها:

- إن المرآة رمز للخداع..

فسمعت وكأن المرآة تخاطبها بصمت:

- أنا رمز لإكتشاف الذات..أتوصمينني بالخداع لأنك اكتشفت فيّ بشاعتك..؟

أحسّت وكأن المرآة تحاورها من أعماقها وليس حقيقة، لذا ردت على نفسها قائلة، وكأنها بذلك تجيب على صوت المرآة :

- لكن الوجه الآخر لكْ أيتها المرآة معتم دائماً..فكيف يمكنني أن أثق بك..؟
- أنا التي أشكّل صورتك ..أنا الوجه الزئبقي..؟
صمتت مع نفسها وهي واقفة أمام المرآة وسألت:
- ومن يؤكد لي ذلك..؟
فسمعت الصوت الفضي يخاطبها بمرح:
- وهل للحقيقة وجه معتم..؟
- في الظلام لا تختلفان..الوجه الزئبقي أم الوجه المعتم..كلاكما واحد..
لاإراديا حركت وجهها..فارتعبت واقشعر جسدها حينما رأت النصف الآخر من وجهها..النصف الذي احترق في مقلاة الزيت أثناء نوبة صرع عندما كانت تحضر وجبة سمك لزوجها.

أحست بالتعب من هذه الحوارية مع المرآة التي عاقبتها بالكشف عن بشاعة الجانب الآخر من وجهها. توجهت إلى المطبخ..فتحت الثلاجة..أخرجت قنينة من الماء وأخذت تشرب منها بشراهة وكأنها لم تشرب منذ فترة طويلة..نظرت من خلال نافذة المطبخ المطلة على باحة المبنى الداخلية، فأحست بأن الوقت لايزال عصراً..ملأت الدورق بالماء..ووضعته على الطباخ الكهربائي..ضغطت على زر.. فاتقدت نقطة حمراء صغيرة على جانب الطباخ. مضت إلى الصالة..ثم اتجهت إلى الغرفة الثانية التي يفترض أن تكون غرفة ابنها الذي هو مسجّل رسمياً باعتباره يسكن معها في الشقة، لكنه يعيش مع صديقته في منطقة ليست ببعيدة.

نظرت إلى صف الكتب العربية القليلة الموجودة على جانب من الغرفة..هذه كتبها..فابنها لا يقرأ عادة، وإذا ما قرأ فهو يقرأ باللغة الألمانية..هي روايات اشترتها في فترات متباعدة من أماكن مختلفة..بعضها حملته معها من دمشق قبل وصولها إلى ألمانيا..وبعضها اشترته من مكتبة ألمانية تبيع الكتب العربية في برلين..وبعضها أعطته لها صديقة لبنانية غادرت إلى كندا..فكرت مع نفسها بأن هذه الكتب عزيزة عليها..فهي التي رافقتها في ليالي وحدتها، وخففت عن وحشتها في هذه المدينة الغريبة طوال سنوات..وقد قرأتها مرات عديدة..كل سنة تعيد قراءتها..حتى صارت شخصيات الروايات..ومؤلفو الكتب أصدقاء لها.

نظرت إلى رف الكتب نظرة حانية ورقيقة وكأنها تلقي التحية عليها..وكأن

الكتب مخلوقات حية تنظر إليها..لكن فجأة راودتها فكرة مشاكسة ساخرة..صوت ما لا تعرف مصدره يقول لها: لقد ضيعت عمرك في القراءة..ما الذي قالته لك الكتب..؟ ألم تقل لك بألاّ تهدري لحظات عمرك، وأن تستمتعي بكل لحظة من الوقت، بينما أنت ضّيعت الكثير من أيامك في القراءة..لكنها أجابت هذا الصوت الداخلي بأنها لم تبتعد عن هذه الحكمة، فالقراءة بالنسبة لها متعة أيضاً..وليست مضيعة للوقت.

وبينما هي في وقفتها تلك سمعت صوت صفير أطلقه دورق الماء..عرفت أن الماء أخذ يغلي في الدورق..مشت ببطء وتثاقل إلى المطبخ لتعد لنفسها الشاي.. فقد اعتادت أن تشرب الشاي عصراً بعد القيلولة..لكن إعداد الشاي بحد ذاته يُعد بالنسبة لها طقساً خاصاً، فهي تتفنن في إعداده..بل واشترت عدة خاصة به..دورقاً من الخزف الصيني..قاعدة صغيرة يتوسطها موضع لشمعة صغيرة توقد هناك لتحفظ الشاي ساخناً..أنواعاً مختلفة من أوراق الشاي..الأسود والأخضر..الإنكليزي والهندي والتركي.. ومن مصادر مجهولة ومختلفة.

أخذت تنقل عدّة الشاي إلى الصالة على مراحل..السكرية وكوب الشاي.. القاعدة الفضية والشمعة الصغيرة التي أوقدتها..دورق الماء المغلي الى النصف.. وحين كانت تقوم بالذهاب والإياب حاملة العدة..فكرّت بطقوس الشاي اليابانية التي قرأت عنها ذات مرة..حيث صارت لها فلسفة ومدارس مميزة وطقوس للتحضير..بل وصار لطقس شرب الشاي بيت خاص به يُسمى "بيت الشاي" الذي عادة ما يُبنى من الخشب والحجر ويتم اختيار أجمل مكان له في حديقة البيت..لكنها لا تميل لكل هذه الطقوس..إنها تحن إلى الطريقة العراقية في شرب الشاي بعد القيلولة.. لاسيما في الصيف..لكن هنا في ألمانيا صار الأمر بالنسبة لها عادة يومية ليس لها علاقة بفصل الصيف، ولا بأي من الفصول..فأيامها متشابهة وفصولها متشابهة..لا تعرف تغيرها إلا من خلال النافذة..ومن خلال حديقة المقبرة المقابلة حيث ترى تبدل الفصول من خلال الأشجار..

فجأة..انتقل تفكيرها إلى المقبرة..كيف لمقبرة أن تكون وسط شارع سكني وعام..؟ بل هي تمتد بين شارعيْ كارل ماركس شتراسه وهيرمان شتراسه حيث تعيش..لكنها بحق أجمل ما موجود في هذه الزاوية من المدينة..!!..صحيح أنها

صغيرة وليست مقبرة عامة..لكن هناك صومعة، ربما تعود لعائلة ما..وثمة شواهد مرمرية مدفونة في الأرض تشير للراقدين أمامها..بينما تعلو أشجار الصفصاف عالية، وتحيط بسياجها أشجار قصيرة تغطي سورها الحديدي الواطئ..بيد أن هناك شيئاً غرائبياً يرافق هذه المقبرة..فكثيراً ما كانت تسمع في الليل هسهسة وأصداء حديث يأتي من هناك..وتذكر أنها تجرأت ذات ليلة، فتركت سريرها..وجاءت إلى الصالون..وأطلت من النافذة إلى المقبرة..رأت هناك ما يشبه الخيال..أو ما تشاهده في أفلام الرعب..كانت هناك راهبتان تظهران وتختفيان..وكانت هناك بعض القبور تُفتح فينهض منها الميتون..تجمعوا قرب الراهبتين..ثم غادروا المقبرة منتشرين في المدينة. بعضهم ظل واقفا..ربما لم يجد مكاناً يذهب إليه..أخذوا يتجولون في دروب المقبرة القصيرة..ثم بعد أن ملوا رجعوا إلى قبورهم وأغلقوها على جثثهم.. بينما ظلت الراهبتان واقفتين..وبعد لحظات رفعتا رأسيهما ونظرتا إليها من بعيد.. ابتسمتا..ولوحتا بكفيهما تحية..ارتعبت هي فانسحبت حينها إلى الصالة..وتدحرجت بكل ثقلها نحو سريرها..وألقت بنفسها عليه..نعم..تتذكر ذلك وكأنه حصل الآن وليس قبل ستة شهور تقريباً..؟

وضعت حواء الحلو دورق الشاي على القطعة الفضية..ثم جلست على الصوفا.. في تلك اللحظات بالذات..وبشكل مفاجئ..وكأنما انزاحت ستارة أمام نافذة زجاجية.. اكتشفت مرعوبة..بأن الراهبتين اللتين رأتهما مع النساء الأخريات في الصالون هما الراهبتان نفسهما اللتان كانتا في المقبرة في تلك الليلة المرعبة..!حاولت أن لا تفكر في هذه التفاصيل المخيفة..شغلت نفسها بطقس شرب الشاي.. تذكرت أنها لا تشرب الشاي دون قطع من الكيك والكعك المحلى..مثلما لا تستطيع الإستغناء عن الآيس كريم..الذي تمتلئ ثلاجتها به، وكذلك الشكولاته التي تشتري منها بكمياتٍ كبيرة..فنهضت بتثاقل شديد متجهة إلى المطبخ.

عادت وهي تحمل صحناً فيه قطعة كبيرة من الكيك المطلي بالشكولاته..جلست بكل ثقلها على حافة الصوفا..صبت لنفسها شاياً في الكوب..وضعت ملعقتين كبيرتين من السكر..حركت المعلقة..تراجعت إلى الخلف وهي تحمل صحن الكيك وبدأت تلتهم قطعة الكيك بنهم واضح..شربت على أثره كوب الشاي..بعد أن انتهت من كوبها..نهضت مرة أخرى واتجهت إلى المطبخ..عادت بصحن فيه قطعتان كبيرتان

من الكيك المطلي بالشكولاته وبالزبد المخفوق..كانت عيناها تتقدان نهما.. مدت يدها وأخذت قطعة الكيك إلى فمها وأخذت تلتهمها بشراهة وتطلق فحيحاً يعبر عن تلذذها..وما أن دفعت بما تبقى من قطعة الكيك إلى فمها، حتى مدت يدها إلى القطعة الأخرى التي كانت طرية فانهرست بين أصابعها، إلا أن نهمها وشراهتها لم تمنعاها من أن تأخذ تلك القطعة وتزدردها ملوثة أصابعها وأطراف فمها بالزبد المخفوق وبعض الشكولاته.. صبت لنفسها كوباً آخر من الشاي..

نهضت حواء الحلو من مكانها..راودها شعور خفيف من الندم بأنها أكلت الكثير من الكيك الذي سيزيد من سمنتها..فهي تأكل كثيراً، وترقد كثيراً، ولا تتحرك سوى بضع خطوات في اليوم الواحد..حركة محددة ما بين السرير والصالة..ثم المطبخ..والصالة.. والمرحاض..وغرفة النوم مرة أخرى..بل هي أحيانا تضع قرب سرير نومها على الطاولة بعض أنواع الكرزات والبطاطا المقلية وقناني الكوكاكولا.. والغريب أنها تقنع نفسها بأنها تحافظ على صحتها وذلك من خلال شراء البيبسي كولا اللايت المخفف من سعرات الكالورين الذي تشربه مع قطع الكاتو..لذلك نهضت الآن متجهة إلى غرفة النوم..لكنها قبل أن تدخل إلى غرفة النوم وقفت.. كانت قريبة من باب غرفة ابنها المجاورة لغرفتها..فكرت للحظة بأن تأخذ كتاباً ما لتعيد قراءته..فليس بين هذه الكتب كتاب لم تقرأه لأقل من ثلاث مرات.. دخلت غرفة ابنها..اقتربت من رف الكتب..وبدون قصد منها مدت يدها على رواية (المسخ) لفرانز كافكا..أخذتها..قرأت عنوان الكتاب..ابتسمت مع نفسها..ربما ستستيقظ ذات يوم لترى نفسها في السرير وقد تحولت إلى حشرة كبيرة كريهة.

خرجت من الغرفة..وعند عتبتها بالضبط..تفجرت أضواء هائلة بيضاء..أضواء ساطعة جداً مثل البرق..ارتج العالم..أطلقت حواء الحلو اصرخة حيوانية مرعبة.. صرخة ارتجت لها الشقة..والبناية والمدينة كلها..أخذت ترتجف بينما استمر ذلك الخوار المرعب ينطلق منها.. سقطت على الأرض بقوة..ارتطم رأسها ببلاط الأرضية المرمري..تشنجت وراحت ترفس برجليها ويديها مثل بقرة ذبيحة..اختفت الحدقات ولم يبق من عينيها سوى بياضهما المرعب..أخذ الزبد يسيل من فمها..استمرت على هذه الحالة لدقيقتين..ثم همدت مثل ذبيحة عانت أهوال الذبح قبل أن تهمد.

* * *

في تلك اللحظات بالذات كانت حواء الحلو اللبنانية تتقلب مرعوبة في سريرها بغرفتها 606 في فندق رووم ماتا لوكا في شارع السابع والعشرين من أبريل في فلورنسا. فزت مرعوبة..كان مشهد نوبة الصرع التي انتابت المرأة الغريبة يرعبها. أحست أنها مبتلة بالعرق..ظلت في سريرها مشلولة لدقائق..، إلى أن هدأت نفسها واطمأنت إلى أن ما رأته لم يكن سوى كابوسٍ ثقيل..لكنها سألت نفسها: ما معنى هذا الذي يجري معها..؟ من هي هذه المرأة السمينة التي تحمل اسمها نفسه..؟ لقد أحستها في الحلم وكأنها هي نفسها..؟ لكن كيف ذلك وتلك المرأة جبل من الشحم..ومشوهة..؟ نصف وجهها محروق..مشوي..ولديها ولد في التاسعة عشرة من العمر..وتأكل ثلاث قطع من الكيك والتورتا في لحظات، بينما هي تبتعد عن هذه الحلويات الخطيرة تجنباً للسمنة، ومن أجل أن تحافظ على رشاقة جسدها..!!

أحست بشفقة غامضة على هذه المرأة ومصيرها العجيب..لكنها لم تفهم لِمَ تراودها في الحلم لمرات ومرات..؟ من هي..؟ إنها لم تقابلها في الحياة قط..؟ ولم تعرف حتى في طفولتها امرأة شبيهة لها..فمن أين جاءت إليها في الحلم..؟ إلى أي شيء ترمز..؟..لم تستطع أن تجد لكل ذلك أي تفسير منطقي..

ألقت نظرة على ساعتها اليدوية التي كانت قد وضعتها على الطاولة قرب رأسها..انتبهت إلى أنها نامت طويلا..لأكثر من ساعتين ونصف..لكنها لم تكن مرتاحة في النوم كما هو واضح..إذن عليها الخروج ..تذكرت أنها اتفقت مع آدم بوناروتي على أن يقضيا هذا المساء معاً..إذن..عليها أن تستعد للخروج. وبرغم أنها كانت قد استحمت قبل أن تدخل إلى السرير إلا أنها انزعجت من تعرقها الكثير في النوم نتيجة الكابوس المرعب..لذا قررت ان تأخذ دشاً سريعا قبل نزولها إلى لوبي الفندق.

فجأة.. رن الهاتف في غرفتها..لم تكن متأكدة من نفسها: " هل أنا اسمع الرنين في النوم أم هو يرن في الواقع.."! بعد ثوان تأكدت من أن الهاتف يرن في غرفتها..قامت بتكاسل..أخذت السماعة فجاء صوت موظفة الاستعلامات ليخبرها بأن هناك رجلاً ينتظرها في صالة الاستقبال..أخبرت الموظفة بأنها ستنزل بعد قليل.. وضعت السماعة..أحست بأنها فارغة..وكأنها لاشيء.. فكرت مع نفسها..هل هي حواء الحلو فعلاً..أم أنها لا تزال تعيش في الحلم..؟ تلمست جسدها لتتأكد من وجودها..لا..هي موجودة..وما كان في رؤيتها أنها في السرير بشقة غريبة في برلين

ليس سوى حلم كئيب..قررت فورا أن تأخذ حماماً دافئا لتعيد أحساسها بوجودها..
وتستمع بحياتها..سواء كانت حلما أم كابوساً.

الفصل السابع

دفتر الألم

دخلت حواء ذو النورين وإيفا سميث القاعة الكبيرة فوجدتا مجموعة أخرى من لوحات الرسام الفرنسي رينوار.. كان زوار المتحف يتحركون بشكل هادئ وكأنهم في مكان مقدس، في كنيسة أو ضريح قائد سياسي شهير.. بعضهم كان يجلس على المصاطب الخشبية التي وضعت بطريقة مدروسة بحيث لا تعيق المارين، وفي الوقت نفسه تتيح للجالسين تأمل اللوحات المعلقة على الجدران.

أخذتا تتأملان اللوحات..بعضها مرّتا عليه بسرعة لتشابه الموضوع أو الموديل لكن بحركات مختلفة قليلاً. انتهيتا من مشاهدة اللوحات..توقفتا عند كابينات زجاجية داخلها ملابس تعود لأزمان بعيدة..وحينما اقتربتا من الجموع المزدحمة أمام الكابينات انتبهت حواء ذوالنورين إلى أن المرأة العربية كانت تقف في المقدمة..وحينما أرادت أن تقترب منها انشقت صفوف الزوار المتجمهرين..ورأت المرأة بالعباءة العربية تتوجه نحو باب الخروج..وبدون اتفاق بينها وبين صديقتها إيفا وجدتا نفسيهما تتجهان لباب الخروج أيضا..إلا أن إحساساً غامضاً راود حواء ذوالنورين بأنها وهي تغادر المتحف تركت شيئا من نفسها هناك، أو حملت منه شيئاً في نفسها..نعم صار المتحف بلوحاته المذهلة في أعماقها..خاصة تلك المرأة الجالسة في اللوج.

لم تكن حواء ذوالنورين وحدها التي راودها مثل هذا الإحساس وإنما إيفا سميث أيضاً، برغم الإختلاف في طبيعة الإحساس، فقد شعرت إيفا سميث أنها أقرب لعالم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر منها إلى امرأة تعيش في نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، بل وراودها ما يشبه الرؤيا بأنها كانت تعيش فعلاً في تلك الأزمنة، لكنها لم تتبين نفسها في الكيفية التي كانت فيها حينما كانت

تعيش آنذاك..وهذا ما جعلها تعيش ما بين عالمين في آن واحد، عالمها الداخلي وعالمها الواقعي حيث أنها الآن مع صديقتها حواء ذوالنورين وهما تخرجان من المتحف وعليهما أن تلتقيا بصديقتها حواء دمشقية.

بعد أن صارتا في الشارع العام توجهتا نحو شارع (دي ليل) الذي يقع في الجهة الخلفية من المتحف حيث يقع مرآب السيارات. من مسافة غير بعيدة لمحتا المرأة العربية قد وصلت إلى مدخل المرآب .دخلت فيه واختفت عن ناظريهما.

حين صارتا في الطابق الذي تقف فيه سيارتهما انتبهتا إلى أن السيارة المجاورة لسيارتهما قد تحركت من موضعها، وحين مرت من جنبهما لمحتا المرأة العربية هي التي تقودها. نظرتا لبعضهما البعض بتساؤل، إلا أن تساؤلهما انقلب إلى دهشة كبيرة حينما وجدتا في المساحة الفارغة التي تركتها السيارة دفتراً ملقى على الأرض. لم يشكا أبداً أنه يعود لصاحبة السيارة التي غادرت للتو.

انحنت حواء ذوالنورين إلى الأرض وأخذته.. قلبته..وقرأت على صفحته الأولى عنواناً بخط يدوي بارز: دفتر الألـــم....للكاتبة حواء الذهبي..نظرت إلى صديقتها إيفا دون أن تقول شيئا، إذ كانت الدهشة هو ما عبرت عنه، فسألتها إيفا سميث باستغراب وبنبرة فيها قلق مبطن:

- ما هذا..؟

لم تجب حواء ذوالنورين مباشرة..كانت تريد أن تستوعب ما قرأته..لكنها وجدت نفسها تجيب لا إرادياً قائلة:

- لا أعرف..؟ دفتر مكتوب عليه : دفتر الألـــم..للكاتبة حواء الذهبي.
- دفتر الألـــم.. حواء الذهبي..؟

قالت إيفا سميث باستغراب مشوب بفضول.

- نعم..يبدو أنه للمرأة العربية التي مرت بسيارتها قبل قليل..التي ربما هي حواء الذهبي..وقد سقط منها دون أن تنتبه إليه، فالدفتر مكتوب بخط اليد..لكنه خط واضح وجميل..

وقفت إيفا سميث إلى جانب صديقتها وأخذت تتفحص الدفتر الأنيق الجلد قبل أن تصعدا إلى السيارة. وحين صارتا في السيارة أخذت حواء ذوالنورين تقلب الدفتر عسى أن تجد اسماً غير ما قرأت أو رقما يفيدهما للتوصل لصاحبته لأرجاعه إليها، فلم تجد.

كانت إيفا سميث تدير محرك السيارة حينما رن هاتفها النقال.. ألقت نظرة سريعة على شاشة الهاتف فقرأت اسم حواء دمشقية، فأخذت الهاتف لترد عليها، بينما كانت حواء ذوالنورين تتصفح الدفتر الأنيق..بعد حوار لم تفهم منه شيئا إذ كان معظمه بالفرنسية، التفت إيفا سميث قائلة:

- من حسن حظنا أننا لم نذهب إلى حيث اتفقنا مع حواء دمشقية..فها هي قد اتصلت معتذرة عن موافاتنا إلى مكان الموعد لأنها الآن مع صديقها.. وقد أجلت الموعد إلى السابعة مساءً في المقهى نفسه..من حسن حظنا أنها اتصلت وإلا كنا سنُحصر في الزحام بمثل هذا الوقت...وأقترح أن نذهب إلى البيت الآن..ونعود مساء ..مارأيك؟

كانت حواء ذوالنورين منشغلة بالدفتر الذي بين يديها، فقالت بعفوية:

- كما ترين..الرأي لك..وأعتقد أن هذا اقتراح جيد..لنذهب إلى البيت فأنا متشوقة لقراءة ما مكتوب في هذا الدفتر الغريب..

ابتسمت إيفا سميث وقالت لها، وهي تتحرك بالسيارة متجهة نحو الشارع :

- بعد أن تنتهي منه..سأقرؤه أنا أيضا..لكن كيف لم تنتبه هي إليه عند سقوطه منها..؟
- نعم..هذا أمر غريب..فحجمه الكبير وسمكه يحدث صوتا عند السقوط..لاسيما أنه كان من جهة القيادة..أي سقط منها.. ولا أعتقد أنها لم تنتبه إليه ..

نظرت إيفا سميث إليها مستفسرة وسألت:

- ماذا تقصدين..؟
- لا أعرف..

كانت حواء ذوالنورين تريد الوصول إلى الشقة العائدة لأم إيفا سميث لأنها تريد الاختلاء مع نفسها، ومع دفتر الألـم الذي عثرتا عليه، فهي تشعر بشكل غامض بأن هناك لغزاً ما وسرّاً في عثورها على هذا الدفتر، فهو لم يكن ملقى على الأرض مصادفة لأنه سقط عن صاحبته دون علمها، وإنما هي على شبه يقين بأن صاحبته تقصدت كي يسقط هذا الدفتر ويأتي مجهول ليعثر عليه ويقرؤه، أو أنها تعمدت إسقاطه لتعثرا عليه هما بالذات..أو هي بالذات.

* * *

استغرق الوصول إلى منطقة سكناهم وقتا ليس بالقصير. اتجهتا إلى شقة الأم حيث نامت حواء ذوالنورين ليلة البارحة، فاستقبلتهما الأم بالترحاب، وأعدت لهما القهوة، إلا أن إيفا أعتذرت من أمها وانسحبت لتذهب كي تأتي بالأطفال إلى البيت. بقيت حواء ذوالنورين وحدها مع الأم التي كان واضحا أن شهوة الكلام لديها قد استيقظت، فهي لم تجد من تتحدث معه منذ ساعات، إلا أن حواء ذوالنورين كانت متلهفة إلى قراءة دفتر الألم واستكشاف ما فيه من أسرار، لذا لم تنسقْ مع فضول الأم ورغبتها في الحديث إذ أكدت لها بأنهما قد تعبتا جداً اليوم، لأنهما زارتا الكثير من المحلات التجارية والمتاحف..ولم تصدقا بأنهما وصلتا إلى البيت، فانتبهت الأم إلى أن حواء ذوالنورين متعبة ولا ترغب في مواصلة الحديث فلم تلح عليها، بل بادرتها بأن ترتاح قليلاً في غرفتها، فانتهزت هي الفرصة ولم تجاملها بل نهضت مؤكدة بأنها فعلا تحتاج لبعض الراحة.

حين صارت في غرفتها نزعت عنها حذاءها. فتحت حقيبتها..استلقت على السرير.وفتحت الدفتر لتغوص بلهفة بين صفحاته.

دفـتـــــر الألـــم

من أنا؟؟؟

أنا إيفا ماريا الذهبي.. سأكتفي الآن بذلك..وسأوضح أكثر في ما بعد..

ما يشغلني الآن هو السؤال..كيف أبدأ في الكتابة..؟ لا أعرف..أنا قارئة..قارئة وحسب..لكني قارئة استثنائية..عندي طريقة غريبة في القراءة..أحب أن أضع خطوطاً تحت الأسطر التي تلامس وجداني وعقلي.. بل أحيانا أتجاوز بعض السطور عند القراءة، وأحيانا أخرى أتوقف عند بعضها وأبكي..نعم أبكي من الكلمات والجمل المؤثرة..

أكتب هوامشي على طرف الكتاب الذي أقرأ..وكثيراً ما أعود لذلك الكتاب بعد مدة من الزمن، وأعيد النظر بتلك الهوامش ..حينها أفرح عندما أحس برغبة في تغيير بعض الهوامش التي كتبتها.. فأعيد صياغتها حسب الحالة النفسية والجسدية

والعمرية التي كنت فيها لحظة القراءة الأولى..

بدأ حبي للقراءة منذ أن كنت في الصف الرابع الإبتدائي..كنت أدخّر مبلغاً كبيراً من مصروفي اليومي لأشتري الكتب..ومازلت أقرأ..ولن أتوقف..وأستمتع بالقراءة أكثر من استمتاعي بالطعام والنوم والخروج واللقاء مع الصديقات.. إنها نوع من التوحد الكامل..العزلة التي أنسى نفسي فيها..وبالمناسبة..أنا أقرأ بسرعة..إذ يمكنني أن أنهي قراءة الكتاب في غضون ساعات.

عائلتي مكونة من عشرة أشخاص. خمسة أولاد وخمس بنات، لا تربطني بهم سوى البطاقة العائلية.. نعم.. هذا هو الشعور الصادق بدون نفاق أو مبالغة.... أبي، رحمة الله على روحه، هو الوحيد الذي كان يفهمني في العائلة..وقد توفي حينما كنتُ في الثالثة عشرة من عمري..أمي لم تكن بالنسبة لي أو أنا لها سوى رحم أنجبني، وقذف بي إلى هذه الحياة.

ليس لأمي سوى هذا الدور في حياتي.. عائلتي غنية جداً، ومتشددة في الدين.. تعود أصولنا إلى الدولة العثمانية..حتى صكوك البيت عندنا بالدونق والدانق العثماني..لدي ذاكرة كريستالية مذهلة..أتذكر بيتنا القديم وحجراته الغريبة..بل بيوتنا العديدة..تلك البيوت التي هُدمت وبُنيت في موضعها بنايات وأبراج عالية.. حين يرد ذكر الطفولة..أتحدث عن بيوتنا تلك..أخواني وأخواتي يستغربون..ويقولون لي: كيف تتذكرينها وأنتِ كنت بعمر ثلاث سنوات..؟ لابد أن شخصاً ما قد وصفها لكِ..؟.. شخصيا..ذاكرتي تحتفظ بدفء تلك البيوت..أحن إلى تلك المنازل العتيقة.. علماً أن بيوتنا الآن قصور..لدينا قصر كبير جداً بطوابق عديدة..لا نزال نعيش فيه كعائلة كبيرة حتى بعد زواج معظم أبناء وبنات العائلة..

الترابط والتواجد الأسري موجود كقانون عائلي..وثمة مراقبة سرية وعلنية على كل حركات وسكنات أفراد هذه العائلة الكبيرة..يقوم بها الجميع بدءاً من الخدم ومرورا بسائق العائلة..

لا أدري كيف أشرح ذلك..؟! فأنا الآن إذ أكتب هذه الأسطر، أشعر بغربة ووحشه هائلة..؟ لا أشعر بهذه الجوقة العائلية التي تحيط بي ليل نهار..ربما أنا مصابة بمرض التوحد ؟؟ كنت كمَن مسه الجن..كما كانت بعض أخواتي تعلق.. كانت شخصيتي مختلفة عن باقي أفراد العائلة..فأنا متمردة على كل التقاليد الدينية

والأجتماعية..لا أخاف من أي شيء..حتى من الجن الشياطين لا أخاف..أذكر أن سبب خروج أهلي من المنزل القديم كان بسبب خوفهم من الأرواح التي تسكنها.. كانوا يقولون إنه مسكون بالجن والعفاريت..أنا الوحيدة التي تحن لتلك المنازل لأني مسكونة بالشياطين حسب قولهم !!

القرآن والدروس الدينية كانت إلزامية عندنا..أذكر أنني حفظت جزء (عمَّ) كاملاً حين كنت في سنواتي الأولى..حضرتُ جميع الدروس والمحاضرات الدينية الأسبوعية الإلزامية..كنت أخاف من الربّ..أتصوره جباراً..مرعباً..مستبداً..يحب الانتقام وتعذيب البشر..!!.

لعبة الحيـــاة

الحياة لدي ليست سوى لعبة ولعنة..قرأت الكثير من الكتب السماوية والأرضية آخذة منها ما يوافق فكري وروحي..الآن لا أتذكر سوى رواية لباولو كويلو اسمها (إحدى عشرة دقيقة)..من خلال هذه الرواية تعرّفت على أجزاء جسدي الأنثوي، وبدايات المداعبة الجسدية.. وكما قلت إن قراءتي غريبة..فأحياناً أبدأ الرواية من منتصفها لأصل إلى نهايتها..ثم أعود إلى البداية..يمكن القول إنني مجنونة..عندي هذا الجنون أعترف.. قرأت الكتب السماوية..وتركتها..بل حرقت بعضها بمتعة.. رقصتُ حول النار وأنا أحرق مجلدات كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير، وذلك بعد خلاف مع أخي الأكبر.. فقد كنت ذات يوم أكتب في دفتر خاص بي عن الأنبياء وتناقض حيواتهم ورسالاتهم.. وصلت ذات يوم إلى النبي موسى..وكتبت كيف يقتل هذا وذاك دون رأفة..؟ وكيف أنه غاضب على الدوام، ويطلب العون من الرب كي يرسل أخاه هارون لأنه أفصح لساناً منه..؟ وكيف لم يعرف الرب أن موسى ألثغ..غير فصيح اللسان..ويتأتئ ؟؟ ..وغير ذلك من التناقضات..

فجأة، دخل أخي..أخذ دفتر المذكرات..قرأ ما كتبت..بدأ يضربني بشدة..حتى أنه كسر ضلعاً من أضلاعي.. وبعد أن تعب من ضربي..خرج..فقمت أنا إلى المكتبة المنزلية..أخذت مجلدات أمهات الكتب..وكانت مجلدات (البداية والنهاية) لابن

كثير وكتب المغازي النبوية جميعها..وضعتها في برميل كبير في الحديقة، وأشعلت فيها النار..حرقتها..وأخذت أدور راقصة بمتعة حول النار المتأججة في البرميل مثلما يرقص الهنود الحمر حول نيرانهم..

بعدها تعلمت أن لا أكتب شيئاً في دفتر مذكرات ورقي..بل أكتب كل شيء في الكمبيوتر..ولدي كلمة سر لا يعرفها غيري..كما لدي صفحة على الفيسبوك لا يعلم عنها أحد من العائلة ولا أية صديقة من صديقاتي..وهكذا من حوالي العام وإلى الآن يعرف خمسة أشخاص فقط من الرجال يعرفون من أنا وكذلك كاتبة مغربية..ربما سيستغرب البعض إذا ما قلت إنني لم أجرب الحب..ولم أكوّن أية علاقة حب سواء في الحياة أم من خلال أقنعة الفيسبوك.. كنت حريصة على عدم تعذيب قلوبهم أو قلبي الصغير، ومع هذا الحرص فثمة مصادفات في حياتنا تصنع المعجزات..على الصفحة الرئيسة في الفيسبوك قرأت منشوراً لكاتبٍ.. وضعت إشارة إعجاب له..وكتبت تعليقاً بسيطاً، ووجدت نفسي أطلب صداقته..علماً بأني لا أطلب صداقة أحد أبداً..ليس غروراً، وإنما تجنباً للسؤال: من أنتِ ..؟ وغيرها من الأسئلة والشروحات والتبريرات الكاذبة..بقيت أتابع صفحة هذا الصديق، ومع الوقت صار جزءاً من روحي وكياني..أرسل إليه رسائل وصباحات فيروزية..بدأت أعيش حالة الحبّ..لا أعلم كيف حصل ذلك..؟ كان إنساناً محترماً، لا يكتب لي غير (الغالية إيفا..)..وهكذا مرت الشهور أعلن حبي وهيامي وأشواقي يومياً وهو لا يرد سوى بعبارات قصيرة جداً..فصار الأمر بالنسبة لي هوساً..ظننته حباً..ولكن كما يبدو كان هوساً لأنه لم يستجب لي بسهولة..أردت اغتصاب روحه وحياته..قال لي ذات مرة: أنا لا أثق بأصدقاء الفيسبوك، فربما تكونين رجلاً..؟ ربما تكونين من هؤلاء الرجال الذين يدخلون هذا العالم الإفتراضي بأسماء أنثوية وصور نساء..؟.. إلى أن طلب الحديث معي مباشرة..بالهاتف..أخذت هاتف خادمتي وأتصلت به.. صرنا بدل تبادل الكلمات والجمل القصيرة نتحدث ساعات في كل شؤون الحياة.. توحد مع روحي وهو يعلم إننا لن نلتقي جسدياً ..!.

الممسوسة..

عائلتنا عشرة أفراد..وكما كتبت سابقاً..كنا خمس بنات وخمسة أولاد..رحل إثنان منهم عن عالمنا..الباقون منهم على قيد الحياة أربع أخوات وأربعة أخوة.. أبي مات وأنا في عمر الثالثة عشرة.. كنت مرافقة له في المشفى أثناء مرضه الذي استمر لمدة سنة..تركت المدرسة ولم أرجع لمتابعة الدراسة..قيل لي إن أختا ماتت قبل ولادتي..لا أعرف السبب ..ولم أسأل عنه !!! كما توفي أخي الذي كان يعاني من مرضٍ نفسي قبل سنتين..وبعد موت أخي بثمانية شهور تبعته أمي..

نحن عائلة غنية جداً بالمال وفقيرة بل بائسة جداً جداً بالمشاعر والحنان..عائلة تجّار..لكن تجارة العائلة من أموال حرام.. نعم حرام ..عائلتي تنظر إليّ كمجنونة.. مريضة نفسياً..مسكونة بالجن والشياطين..لأني ببساطة أنتقد الدين..أنتقد مناسك الحج الوثنية.. فمناسك الحج كلها لها علاقة بالحجارة..فهي طواف حول حجر..ورمي الشيطان بحجر.. تقبيل للحجر..حجر..حجر.. حجر.. هذا بعض ما أتحدث به مع أفراد العائلة..وهكذا يتم ضربي وشتمي..أخي الكبير يقول لي سوف أقيم الحد عليك يوماً.. تركت الدين من عشر سنين ولم أعد..وجدت سلامي الروحي..

لا أتذكر كيف بدأت أتغيّر..كل ما أعرفه أنني كنت بعد دروس القرآن والمحاضرات الدينية، وأنا في الخامسة من عمري..أبكي بحرقة ليلياً قبل النوم طالبة من الله أن لا يُدخل أحداً إلى النار..وأعده بأني سوف أقرأ القرآن كل يوم وأصلي إلى آخر يوم في حياتي..وأطلب منه أن يأخذ حسنات وثواب صلاتي وصيامي وقرآني لأولئك الضالين ولا يدخلهم النار..

أنا أكتب الآن وأبكي..أشعر بالظلم..مستذكرة ما كان يحدث لي من قلق وجودي وأنا بذاك العمر الصغير..لا..لا..لم أشعر بالطفولة يوماً.. ولا بمراهقتي.. كنت أحس نفسي دائما إنسانة ناضجة وأكبر من عمري بسنوات..كنت أحس نفسي كبيرة في كل شيء..لم أطلب يوماً من الله أي طلب خاص لي..لم أكن كعادة الآخرين بعد الصلاة يتوجهون بالدعاء إلى الله.. يستجدونه..كنت أخجل..أقول لنفسي إن هذا جحود بالنعمة، فعندي كل متطلبات الحياة.. كنت أسأله..استجديه..ليمنح نعمه للمحتاجين والمساكين.. كنت أكرم من آلاف المصلين..أكرم من جميع أفراد

عائلتي..وكثيراً ما كنت أسأل نفسي لِمَ أنا أختلف عن بقية أفراد عائلتي....أختلف عن عائلتي المتدينة، بل المتشددة في تدينها..حيث أخي الأكبر هو أمام مسجد، وإحدى أخواتي داعية إسلامية..بل إن الكل ملتزم بالفروض والشعائر.. سواي..فلِمَ أختلف عنهم..؟.

أبي الوحيد الذي كان يدافع عني ويبسط جناحه الوارف والحنون ليحميني من غضب والدتي حينما كانت تشتكي له من مشاكساتي وحجودي للدين..كان يقول لها..ولأخوتي: اتركوها..إنها ابنتي..ولن تخطئ سوف تتعثر قليلاً..لكنها ستجد دربها..

أتذكر أنني رجعت ذات يوم من المدرسة..وكنا قد استمعنا إلى درس في المطالعة عن شق صدر الرسول وغسل قلبه عندما كان طفلاً..كما ورد في سيرته.. حينها سألت المعلمة سؤالاً طائشاً : طيب لماذا لم تغسل قلوبنا نحن أيضاً..؟.. أو لماذا لم يظل قلبه مثلنا من غير غسيل..؟..أذكر أن المعلمة ضربتني..فرجعت إلى البيت أشتكي..أمي ضربتني بشدة أكثر من المعلمة..وأخذت تلعنني وتصرخ: اللعنة عليكِ ..تريدين فضحنا في المدرسة..ماذا ستقول الإدارة..؟ سيقولون إننا لم نحسن تربيتك..كما أحسنّا مع إخواتك اللواتي درسن كلهن في المدرسة نفسها..ولم نتعرض في يوم ما إلى أي استدعاء..ولم يحصل أي منهن على عقوبة..!! ..وهكذا كانت أسئلتي البريئة مصدر قلق لأهلي..وطبعا كان تشخيص الحالة جاهزاً..هو أني ممسوسة..لقد مسني الجن..

وبرغم تدين العائلة، فهي في الوقت نفسه عائلة منافقة..فأخي الكبير أمام المسجد أكبر عربيد.. يشرب الخمر ويضاجع الخادمات ويقول: الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر..كان يطلق زوجته ثم يرجعها..فتلد له ابنا..فيطلقها..ثم يرجعها.. وهكذا..أما أخي الأصغر..أخي الذي يصغرني..آخر العنقود..فهو يدرس في الجامعة.. وهو مسالم ليس له هم سوى أصحابه..وسهره معهم.. والسفر إلى أوروبا..كان المدلل بين الجميع..وحدي كنت أشبه فيلم الكارتون عن فرخ البط الأسود .أنا الفرخ الأسود بين أخوته..

لم أعرف رائحة أمي..ولم أشعر بحرارة حضنها..كانت تكره أبي..وبصفتي المدللة عنده صارت تكرهني وتضربني أحيانا بلا سبب..ربما من أجل أن تغيظ أبي فقط..بالمناسبة..بيتنا قصر كبير..عمارة كبيرة من سبعة طوابق وكل فرد من العائلة

في طابق منها..الكل متزوج باستثنائي وأخي الأصغر..بالمناسبة..أنا لست متزوجة برغم وجود كل مواصفات الزوجة النموذج في بلدي..فهناك بيت العز والمال.. والجمال..والأهل أهل دين..لكن االسبب في عدم زواجي هو ببساطة يكمن في سمعتي المستفزة.. فسمعتي عند المعلمات والصديقات والأهل والأقارب ليست جيدة..طبعا ليست سمعة سيئة أخلاقيا..على العكس الكل يحلف بأخلاقي وأدبي.. إنما لتطاولي على الدين..فالأمهات في بلدي يفتشن لأولادهن عن العروس ذات الدين..بغض النظر عن زيف التمسك الدين..

وهكذا..حصل أكثر من مرة أن التقيت مع الخاطبين في ما يُسمى المقابلة الشرعية..وبعد تبادل الحديث يفر الرجل متحسراً بأني رائعة.. لكن آهٍ لو أنني ملتزمة بالدين..!! طبعاً من المؤكد أنني أريد أن أتزوج..لكني مع الأسف لا أعرف كيف أمسك لساني عن نقد الدين والقيود المفروضة علينا نحن الفتيات بسببه.وهكذا سمعتي سيئة لأني أتطاول على الشريعة في رأيهم ..وربما هذا أفضل لي..لا زواج.. ولا هموم ووجع قلب..

أمي كانت مريضة..تعاني من إرتفاع السكر في الدم ومن الضغط وضعف القلب..كما عانت من كسور في يدها وقدمها..واستمر ذلك ست سنوات..وطوال هذه السنوات الست كنت مرافقتها في المشفى..صار الأطباء والممرضات كلهم أصدقائي وصديقاتي.. لكن أمي لم تشكرني يوماً على إهتمامي بها..، بل على العكس من ذلك..كانت تقول لي إن الخادمة ربما كانت أكثر نفعاً مني لو كانت برفقتها.. وأذكر أنني تعرضت لقطع في أربطة كتفي حينما حملتها ذات مرة..فقد كان وزنها 85 كيلو غراماً بينما كنت أزن أنا 46 كيلو غراماً..الأطباء أجروا لي عملية جراحية بسيطة..رقدت في غرفة منفصلة عنها خمسة أيام..لم يزرني خلالها أحد من عائلتي المقدسة..

غريبة كانت أمي..شرسة..متعجرفة..عنصرية..كانت تسب وتشتم الطبيب السوري المعالج..تقول له : أنت حمار ولست طبيباً.. وهي تعرف أنه لا يستطيع أن يجيبها فهي من أهل البلاد وهو وافد يريد الحفاظ على لقمة عيشه..بل يصل بها الأمر إلى أن تبصق على الطبيب..كنت أحس الإنكسار في وجه الطبيب..والغضب في أعماق عينيه وملامحه..فكنت بعدما يخرج من غرفتها أذهب إليه وأقبّل يده معتذرة..

والغريب أنها كانت تتقبل إنشغالات أخوتي وأخواتي عن زيارتها، كانت تجد لهم العذر بإنشغالاتهم مع أولادهم وأعمالهم..ولا أخفي شيئا إذا ما قلت بأنني أرى أن الله ينتقم منها لأنه لو أراد رحمتها لقبض روحها..بل لقد تمنيت موتها..ولما ماتت لم أبك وإنما شعرت بالراحة..بينما حين مات أبي صرت شبه مجنونة..كنت أبكي وأراه في أحلامي خارجاً من قبره بملابس الحجيج..يدخل البيت..يأخذني بحضنه الدافئ..يقبلني وأنا أحتضنه وأقول له:لا تذهب..فيقول لي أنا جئت من أجل رؤيتك أنت فقط..وأستيقظ من نومي..هذا الحلم كان يتكرر لمدة طويلة..إلى أن واجهت نفسي بأن أبي مات ورحل بلا رجعة..

لكن بعد هذه القناعة الذاتية بموت أبي صرت أرى كوابيسَ، وكأني أهرب من شيء لا أعرفه.. شيء مخيف..غامض..يجري خلفي..وأنا أهرب مرعوبة..وحين أفز من كابوسي أشكر الله بأني استيقظت..وحين أحاول أن أجد تفسيرا أدخل في مغارة مظلمة..إلى أن استمعت ذات مرة إلى الدكتور آدم في برنامج تلفزيوني يتحدث عن الأحلام وفهمت منه أنه على المرء حال استيقاظه من الحلم أو الكابوس أن يفكر مباشرة في عقله الباطن ويفتش عن رموز الحلم ويربطها بتفاصيل حياته، عندها سيجد تفسيرا لما رآه..

قرأت كتاب (تفسير الأحلام) لسيغموند فرويد وغيره من الكتب في علم النفس.. لم أفهم الكثير منها..لكني أخذت منها ما يتناسب مع حالتي..لكني وجدت لنفسي تفسيراً لهذا الشيء الذي يطاردني في الكابوس..إنها بيوت الطفولة المسكونة..وتلك الحكايات عن الجن والعفاريت التي رافقتني في طفولتي والتي ملأتني رعباً أحياناً.. علماً أنني في الحياة كنت لا أخشى تلك البيوت، بل على العكس كنت أحبها، أعشق رائحتها، ورطوبة عتمتها..

وكذلك عندما قرأت عن البرمجة اللغوية العصبية أخذت ما يناسبني منها، وهكذا ذهبت كل الأحلام بلا رجعة، إذ صرت أبرمج نفسي على وقت محدد للنوم، فصرت مثل جهاز الهاتف النقال المشحون لكن لا أحد يتصل به..صرت أنام نوماً عميقاً بلا أحلام ولا كوابيس..نوم كالموت..!أترى هذه تسمى حياة التي أعيشها..؟.

الطيور..والأقفاص

أنا فتاة غريبة الأطوار..لا أحلام وردية لدي..لم أحلم بفارس الأحلام..لم أعرف فترة مراهقة..ربما أن الجانب الذكوري عندي أقوى من الجانب الأنثوي.. لا أعرف..كنت فتاة عملية وليست أنثى حالمة، ناعمة.

الأسئلة التي كانت تشغلني هي عن الكون، الله، البشر، والحيوانات..نعم الحيوانات..فمن هواياتي تربية الحيوانات..إذ كان لدي بعض القطط والطيور، بل كان لدي ثعبان أيضاً، كنت أقضي وقتي مع هذه المخلوقات الأليفة بأمان وسعادة.. وإلى الآن عندي قطة..أما الطيور فصرت أكره أن أحبسها في الأقفاص..فكنت مجنونة بالحرية..كنت أطلقها..

الجميع كان ينظر إلي كممسوسة..غريبة الأطوار لأني كنت في مواسم الربيع أشتري من محلات الطيور كل الطيور الموجودة لديهم، والتي قد تصل قيمتها أحيانا إلى مبالغ عالية جداً.. وكان البائعون حينما يرونني أنزل من سيارتي الفارهة.. والسائق الهندي يفتح لي الباب..ويرونني في حجابي..يعاملونني حينها معاملة خاصة.. لا أقصد أنهم يخفضون الأسعار على العكس إذ أنهم يضاعفونها، وإنما أقصد يتعاملون معي وأمامي بتذلل وتملق..يقولون لي سنوصلها لك بأقفاصها إلى البيت.. لكني كنت أضحك حينها..آخذ الأقفاص إلى خارج المحلات..وأبدأ في فتحها.. مستمتعة بمشاهدة الطيور الحبيسة وهي تطير محلقة في السماء..الحرية.. الحرية.. آه من الحرية..كنت أشعر حينها بروحي تنطلق..تحلق مع الطيور..هل أنا مجنونة.. لا أعرف..أخي الكبير وأخواتي يغضبون مني ..لكنهم لا يستطيعون فعل أي شيء لأني كنت أدفع من حر مالي..وما يخصص لي من إيرادات العائلة..

لم أقتل أية حشرة منزلية في حياتي..حتى النمل الذي أجده أحيانا في غرفتي أو جناحي لا أقتله.. بالمناسبة..أنا قليلة الخروج..بل نادرة الخروج من البيت..وقتي كله أمضيه في البيت..يبدأ يومي من الساعة الخامسة فجراً وينتهي عند الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة.. يكفيني هذا القدر من النوم..لا أحب قيلولة في النهار أبداً.. يبدأ صباحي بالذهاب مع فرشاة أسناني إلى الحمام لأقف تحت الدش.. أعمل رياضتي الصباحية تحت الدش أيضا..ومن المؤكد أني لا أستطيع أن أقوم بأي

شيء إلا وصوت فيروز، حبيبة قلبي، ينشد ملائكياً في أرجاء جناحي..هو أذاني.. وصلاتي..إنني أعشق صوتها..

بالمناسبة..أنا أطبخ لنفسي..لا أحب طبخ الخادمات.الوساوس تخنقني إذا لم أقم أنا بالطبخ لنفسي..أقضي وقتي بالتجوال في عالم الانترنيت.. ثرثر بعض الوقت مع خادمتي أو أخواتي..لكني أحب الأطفال فأقضي معهم جل وقتي..أراجع مع أولاد أخي دروسهم وفروضهم المدرسية..بإختصار..حياتي اليومية عادية جداً وتافهة مثل باقي الفتيات في بلادي..على الرغم من إحساسي بعدم انتمائي لأي شيء.. ثم جاء الفيسبوك ليكون عالمي الحقيقي..صرت متوحدة في العالم الإفتراضي.. ومع أصدقاء وهميين..

أنا ممسوسة حقاً..فإلى جانب طيبتي..فأنا متمردة..شبقة..كافرة..أحيانا، حينما تستيقظ الشهوة في جسدي، وهي عادة تستيقظ قبل نومي، أقول لنفسي حينها: يارب نكني كما نكت مريم حتى أصدق أنك موجود..صدقاً هذا هو بعض جنوني الجسدي والفكري وغير الشيطاني لأني لا أعتقد ولا أومن بوجود الشيطان..لكن هذا ليس كل شيء..

التجربة الأولى

أنا لا أشاهد أية أفلام جنسية..أو مجلات..أو ما شابه ذلك..كما ليست لدي أية تجارب جنسية..لكن تعرضت لمحاولات اعتداء جنسي من بعض النساء..لاسيما حينما كنت صغيرة..ومن صديقات أمي..وصديقات أخواتي..أذكر أن إحدى المعلمات كانت تشتكي من عدم تديني، وظنت بما أنني غير ملتزمة دينياً، فأنا منفلتة أخلاقيا.. وذات يوم وبعد نهاية الدرس طلبت مني الانتظار في الصف لأنها تريد أن تحدثني.. كنت خائفة.. وحينما صرنا وحدنا..اقتربت مني..وبدأت بتقبيلي..فنفرت وأخذت أشتمها..وهربت من الصف..لكن أذكر أهم حادثة في حياتي وذلك يوم بلوغي.. أي نزول دم الطمث.. كانت صديقة لأمي موجودة حينما نزل الدم..أمي انتبهت.. وطلبت مني تبديل ثيابي..

كانت صديقة أمي موجودة..أخذت تضحك حينها..وبعد ذلك بأسبوع زارتنا

في البيت..أمي كانت حينها نائمة..لم يشك بها أحد فهي صديقة أمي والعائلة.. جاءت إلى غرفتي..أخذت تشرح لي معنى الدورة الشهرية..كما أخذت تشرح لي كيف علي الإهتمام بجسدي وتنظيفه..وتفاصيل أخرى..ثم بدأت تلمسني من بين فخذي، وتقول: دعيني أرى إن كان شعر كسك بنفس لون شعر رأسك الفاتح اللون..دعيني أعلمك كيف تنظفيه من الشعر..لا تستحي فأنا مثل أمك..! ثم أنزلت بجامتي وعرّتني ..ثم فجأة تربعت على الأرض وأخذت تقبلني من ما بين فخذي.. وتتغزل بصغره وجماله..نفرت منها..لبست بجامتي بسرعة.. وهربت من الغرفة..

لا أعرف لماذا هربت..؟..هل كان خوفاً..؟ حياءً..؟ عدمَ معرفةٍ..؟ وأخذت أسأل نفسي: لماذا قبلت هذه المرأة ما بين فخذي..وهو مكان للبول..؟.. صرت أتجنبها حينما تأتي لزيارة أمي..ولم أصافحها بعد ذلك مصافحة باليد..لكنها كانت تعرف أنني لم أخبر أمي بما جرى.. هذه الحادثة أيقظت فضولي للتعرف على جسدي..فصرت أتعرى أمام المرايا في غرفتي..ولازمتني هذه العادة للسنين التالية.. صرت أتعرى أمام المرايا وأقول لنفسي: حرام أن لا يتمتع أحد بهذا الجسد..!.. سوف يذبل دون شعور بشغف الجنس والحب والوله.

لكني برغم ما أنا فيه من حرمان..فأنا لا يمكنني تصور النشوة ما لم أجربها.. أنا غريبة الأطوار..يمكن لنظرة حنونة ينظر بها إلي رجل ما..نظرة فيها من التوغل ما يشعرني وكأني عارية..عندها أحس بتأجج الرغبة في كل كياني..

أحياناً أتصفح الفيسبوك وأدخل إلى أيقونة الصور..وأتصفح صور حبيبي..أحس بالدموع تنزل لا إراديا..لكنها دموع فيها كل الرغبة والشغف لممارسة الحب معه.. حينها أبدأ بالتعري..أتأمل تفاصيل جسدي..أمرر يدي على وجهي السفلي..أقول له: لماذا جعلك الرب محصوراً بين الفخذين وفيك كل هذا العطاء..؟ أوليس في أعماقك يبدأ الخلق ..؟..

جنس في الظلام

نحن النساء كائنات مسكينات، برغم كيدنا العظيم الذي تحدث عنه الرب..!!.. إحدى صديقاتي المقربات أخبرتني وهي في ذروة اليأس والذل: سمعت محادثة

هاتفية بين زوجي مع شخص آخر..عرفت من خلال الكلام أنها أنثى..ربما هي عشيقته..سمعته يقول لها كلاما بذيئا..تمنيت لو قال لي ربعه..كان يتوسل إليها بشبق ويقول: أريد أن ألحس كسك..أدخل لساني داخله.. ويبدو أنها سألته عني لأني سمعت زوجي يقول لها: لا طبعا..لن أذل نفسي لها وأسجد تحت كسها.. أنا أعاشرها من أجل إنجاب الأولاد فقط..أنا معها محروم من لذة الجنس..بينما معكِ تتأجج شهوتي..معك تتفجر رغبتي في المص واللحس والعض..

صديقتي كانت صريحة جدا وهي تروي لي ذلك..إذ قالت بإن رغبتها تأججت حينما سمعت زوجها يناجي عشيقته..وأَقسمتْ لي بأنها عادة لا تستطيع أن تلهث من الشبق والمتعة حينما تكون معه، لأنها تأوهت عالياً ذات مرة فانسحب عنها ونهرها معتبراً تلك الآهات من قبيل الفجور والفسق..فالتأوهات لا تطلقها سوى العاهرات الفاسقات كما قال لها زوجها في حينها.. ولذلك فهي تكتم حتى تأوهاتها.. وهي مستمرة في العيش معه لأنها لاتستطيع ترك الأولاد أو طلب الطلاق !!.. وحين سألتها بأن ذلك من حقها استنكرت ذلك وقالت لي متسائلة: ماذا سأقول للقاضي..؟ هل أخبره بعدم اكتفائي من المتعة الحلال..؟ وأني محرومة حتى من عذب الكلام أو حتى التأوهات التي تنطلق دون إرادة مني..؟ أم أن زوجي يتنقل من عشيقة إلى آخرى؟..

بصراحة..حكايات صديقاتي المتزوجات تثيرني..فهن يتحدثن بكل شيء ويتحدثن بتفاصيل تأجج شهوتي..بيد أن هذا الحديث في الوقت نفسه ينفرني من فكرة الزواج والإرتباط برجل لا يقدر جسدي..ناهيك أنني حينما أداعب نفسي..وارتقي للذروة أرفع صوتي بشهقات داعرة..بل وأطلق الشتائم المختلطة بالآهات..ياحيوان.. يا زب.. يا ولد الحرام..لا أعرف ماذا أيضاً.. فأنا عاهرة في الليل..مديرة منزل في النهار.. ومعلمة لأبناء أخوتي وأخواتي ..لكني حينما أكون عارية..وأشعل النرجيلة لأدخنها في زاويتي بجناحي..أداعب فرجي..وحلمتي نهدي بخرطوم النرجيلة..جنون جميل أن أداعب جسدي وسط الدخان.

الأبـواب العتيقـة..أبـواب الحيـاة

هكذا هي الحياة.. أبواب مغلقة..وأبواب مفتوحة..يغلق باب ويُفتح أكثر من باب أحياناً..أنا أحب الأبواب العتيقة..رائحتها تحمل عبق ونسائم من مروا قرب تلك الشجرة..وبرغم إقتلاعها من جذورها، وقطعها، ونشرها، وصقلها، فهي تظل تحمل روح تلك الشجرة الأولى..

أما الأبواب الحقيقية، لاسيما باب جناحي..وباب غرفتي..فهي حدودي مع العالم..حمايتي من الإغتصاب..لذا أنام مع ابنتي أخي الصغيرتين..هما تشاركانني النوم في غرفتي..ليس لأني أحبهما جداً فحسب، وإنما أخاف أخي الكبير المتدين والذي يشرب الخمر في الوقت نفسه..أخاف أن يغتصبني في حالة سكر..

من ملفات الذاكرة

كان يوماً عادياً..عادياً جداً..انتبهت إلى أن أخي الذي يبلغ من العمر 37 عاماً ويعاني من فصام في الشخصية، وهو من ذوي الاحتياجات الخاصة، يدخل إلى غرفة الحمام القريبة من الصالون العام مرات عدة..كما انتبهت إلى أنه كان يتوجع لحد البكاء..لكنه يكتم ذلك..انتبهت لاحمرار عينيه..سألته أن كان يعاني من شيء لكنه نفى ذلك..

كان يخاف المستشفيات لأنها تذكره بالموت..في ذلك اليوم أقلقتني حالته.. واستمر الأمر حتى منتصف الليل تقريبا حين سمعته في جناحه الموازي لجناحي يصرخ بألم شديد منادياً إياي..فهو كان يحبني جداً..أسرعت لنجدته فزعة..رأيته يتلوى من الوجع..أخذناه إلى مستشفى الطوارئ..أجريت الفحوصات..وتم تشخيص الفشل الكلوي..تدهورت حالته جداً..رقد في المشفى..كنت مرافقته هناك..فقد صرت خبيرة بعالم المستشفيات..دخلت في صراع مع أخوتي حول ضرورة ذهابي إلى الهند لشراء كلية لأخي..وكم كان جوابهم قاسياً إذ قالوا بأن وجود أخي على قيد الحياة هو عبء عليه وعليهم، وإن الموت سيكون رحمة له..

كنت مشتتة بين المشفى والبيت والمحكمة لفض خلافات عائلية حول الميراث..وكان

الأطباء يتوقعون موت أخي..لكنه قاوم..وأخذ العلاج والعناية المركزة يمدان في عمره..

ذات يوم جاءت صديقتي المتزوجة لزيارتي في المشفى..وحينما رأتني في تلك الحالة من القلق والإحباط والتوتر النفسي نصحتني بالتفسح قليلا والخروج من أجواء المشفى الكئيبة..لاسيما وأن البحر قريب جداً من المشفى..وفعلاً.. صرت أذهب إلى البحر يوميا في الصباح ، حينما يكون أخي نائما..اتصلت بصديقتي لأشكرها على نصيحتها، فأخبرتني بأنها وبعض صديقاتي الأخريات اتفقن على الإفطار على ساحل البحر..في نهاية الأسبوع..

أذكر أنني في اليوم الموعود رجعت إلى البيت لأعمل بعض المعجنات.. كيك بعصير البرتقال وإعداد القهوة..ثم طلبت من السائق أن يرجعني إلى المشفى لأني اتفقت مع صديقاتي أن يأتين إلي في المشفى ثم نذهب إلى المكان المحدد.

في الطريق إلى المشفى رأيت مجموعة كبيرة من الصيادين الفليبينيين يمارسون الصيد على الساحل، فطلبت من السائق التوقف عند الساحل قليلاً لأتصل بصديقتي وأخبرها بأني سأنتظرهن على ساحل البحر..توقفت السيارة ..وبعدها لا أعرف ماذا حدث ؟؟.

أفقت..وجدت نفسي في سرير بغرفة في المشفى..وكان الأطباء يقفون حول سريري..رأيت جسدي ملقى على السرير..كنت أرى نفسي من أعلى الغرفة وكأني أنظر إلى جسدي وإلى الأطباء من الأعلى..كانت روحي تشاهدهم وهم يقومون بالصدمات الكهربائية، بينما مؤشر النبض يتهاوى..وكانوا على وشك إعلان حالة وفاتي..لكني أتذكر الآن بأني أخذت أخاطب نفسي بأن عليّ أن أعيش..فهذا وقت غير مناسب للموت..فأخي يحتاجني..وفعلا..بدأت أتنفس وفتحت عيني بصعوبة.. وهكذا نُقلت إلى غرفة العناية المشددة..

لم أستوعب حينها هل كنت حية أو ميتة؟..ولم أر أياً من أفراد عائلتي..سوى الزيارات المتكررة من الأطباء والممرضات..لا أعرف كم مضى عليّ من الوقت وأنا على تلك الحال..؟ وماذا جرى لي أصلاً..؟

لم أتذكر أي شيء..انتبهت إلى طوق يشد رقبتي ويمنعني من تحريك رأسي.. وكذلك كمامة أوكسجين على وجهي..وهلوسات وأحلام من عالم الطفولة..ووجوه لأناس لا أعرفهم..

كنت أشعر برغبة هائلةْ في النوم، فما كنتَ أفتح عينيّ وتستيقظ حواسي حتى أجدني أنجرف إلى وادي النوم مجدداً..كل شيء كان ضبابياً..غامضاً..غير واضح الملامح..وكنت أرى جميع الممرضات متشابهات..لم أكن أميّز شيئاً..فحتى الطعام لم أستطع أن أميزه..كانت إحدى الممرضات تطعمني..والغريب أن من يقوم بتنظيفي هو الطبيب نفسه..كان ينظف جسدي بقطعة من الإسفنج مبللة بماء ومطهر..كنت أشعر براحة كبيرة في تلك اللحظات..وكان يصفف لي شعري، ويمسح وجهي، ويقبل جبهتي، وخداي وشفتيّ..

بعد فترة لم أستطع تحديدها بالضبط..تم نزع الطوق عن رقبتي وكذلك كمامة الأوكسجين..وبدأت بالحديث..وبدأت أجيب على أسئلة الأطباء المعروفين الذين يأتون لفحصي..والسؤال عن أحوالي..لاسيما وأن في هذا المشفى ثمة أطباء يعرفونني منذ فترة رفقتي لأمي....حينها طلبت من الطبيب المعالج كرسياً متحركاً..كي أتمكن من زيارة أخي..أخبرني هذا الطبيب حينها بأن أخي هو في أحسن حال..وأن عليّ الانتباه لنفسي..لم أكن أعرف شيئاً مما يجري حولي..إلى أن بدأت أتحسن شيئا فشيئاً..فسألت عن أفراد عائلتي وغيابهم عني فقالوا لي بأنهم يزورونني لكني أكون نائمة دائماً..طلبت هاتفي الجوال..فقالوا أنه لا يجوز لي استخدامه لأنه يعيق عمل الأجهزة الألكترونية الموجودة في الغرفة والموصولة بجسدي..وبعد فترة تم نقلي إلى غرفة اعتيادية..ومرة أخرى طلبت زيارة أخي المريض..أو يأتون به إليّ لأراه.. وكنت حينها لم أجد مبرراً لهذه القطيعة..فجاءت الصدمة حينما أخبرني الطبيب بأن أخي قد توفي منذ شهرين..فصرخت بأني كنت هنا منذ شهرين..!! فقال لي نعم..أنت هنا منذ يوم وفاة أخيك..

حينها سألته عما جرى لي..فلم يجبني وإنما قال لي بأن علي أن أبدأ العلاج مع الطبيب النفسي..ما الذي أصابني يا دكتور..؟ لم يجبني ، وإنما قال لي بأن الطبيب النفسي سيخبرني.. ..

ما الذي جرى حقاً..؟

أخذوني على كرسي متحرك إلى عيادة الطبيب النفسي..صُدمت من أول نظرة

له..لحيته كثيفة تصل إلى منتصف الصدر..زبيبة كبيرة على جبهته..وأخرى صغيرة تحت الكبيرة..لحظتها تساءلت مع نفسي عن سر إرسالي إلى (المطوّع) هذا..طبيبي الخاص يعرفني جيداً..يعرف طبيعة تفكيري ونفوري من الدين والمتدينين.. فخلال السنوات الست التي قضيتها في المشفى مع أمي تعرّضت لانتقادات وشتائم من أمي..وكانت تشكوني له بأني أقرأ كتباً فاجرة..ولا أقرأ القرآن على رأسها كي تشفيها بركات القرآن.. فكان هذا الطبيب يكذب لينقذني من شتائمها الوسخة..كان يؤكد لها بأني أقرأ القرآن حينما تكون هي نائمة..ثم أتى لي بصندوق هو بالأساس غلاف كبير للقرآن، لكنه فارغ من الداخل وعلمني بأن أضع الكتاب الذي أريد قراءته داخله حتى تظن أمي أني أقرأ القرآن..

طبيبي سوري يبلغ الخامسة والأربعين من العمر. وهو مثلي من عشاق فيروز، ويحب القراءة، بل كثيراً ما كان يأتيني بالكتب والروايات ودواوين الشعر كي أقرأها عندما كان يزور أمي حينما كانت راقدة في المشفى، فهو طبيبها الخاص والمتابع لحالتها..وهكذا نشأت صداقة بيننا..لذا تساءلت مع نفسي عن دوافعه كي يرسلني إلى هذا الطبيب النفسي الملتحي..

لقائي مع الطبيب النفسي الملتحي..على الرغم من الإنطباع الأول غير المريح.. لكنه أدخلني في دوامة لم أخرج منها لحد الآن..فقد سألني أولاً عن حالتي الصحية.. ثم أخذ يقرأ في ملفي الطبي الذي أمامه..سألني:

- كيف أن اسمك إيفا ماريا وأنت ابنة هذه البلاد..؟

أجبته إجابة مراوغة حيث قلت له:

- من محاسن القدر إن هذا اسمي..ألم يكن اسم إحدى زوجات النبي ماريا القبطية..؟

صمت ..نظر إليّ ثم أخذ ينظر في الملف الذي أمامه وسألني سؤالاً صاعقاً:

- لماذا دفع القدر بفتاة اسمها جميل وشكلها جميل أن تقدم على الإنتحار..؟

- إنتحار..؟ من الذي أقدم على الإنتحار..؟

رفع رأسه إليّ مندهشاً وقال:

- الملف الذي أمامي فيه تقرير رسمي يؤكد بأنه تم إدخالك المستشفى بواسطة مجموعة من الفلبينيين بعد محاولتك الإنتحار بالقفز من الجسر إلى البحر

في تمام الساعة الخامسة والنصف فجراً ..

صعقت مما سمعته، فندّت عني شبه صرخة وقلت:

- مستحيل..هذا كذب..كيف أنتحر..؟ ولماذا..؟ لقد كنت متفقة مع صديقاتي على أن نفطر معاً عند ساحل البحر.. فلماذا أنتحر..؟

نظر إليّ نظرة جامدة لكنها نظرة تخفي خلفه فكرة ما..خفض بصره لينظر في الملف وقال:

- لقد تم التحقيق مع الفلبينيين..وجميعهم أكدوا أنك كنت وحيدة على الجسر.. كما لم يكن على الساحل سواهم..وكان يوم جمعة..أي يوم إجازتهم..وهم عادة يذهبون للصيد فجراً..وعادة لا يقابلون أياً من أبناء البلاد في مثل هذا الوقت من الفجر.. لكنهم..جميعهم شهدوا..وأكدوا بأنهم شاهدوا شيئاً ما يسقط بقوة من أعلى الجسر ويرتطم بالمرجان البحري ثم يعلو على سطح الموج..وحينما انتبهوا لعباءتك السوداء خمنوا أن أنثى ألقت بنفسها إلى البحر..فألقوا بأنفسهم إلى البحر لإنقاذك علماً أن المنطقة التي ألقيت بنفسك فيها منطقة تم الإشارة إليها من الجهات الرسمية بالعربية والإنكليزية بأنها منطقة خطرة..وممنوع السباحة فيها..لكنهم انتشلوك من البحر..ولأن المشفى قريب جداً من ساحل البحر لذا حملوك إلى المستشفى..وهكذا تم انقاذك من الغرق..والموت المحقق ..

كنت أستمع إليه بذهول..وكأنه يروي قصة عن شخص آخر وليس عني..حاولت بسرعة أن أستعيد تفاصيل لها إرتباط بما قاله لي لكني لم أجد، فقلت بخوف:

- لا أتذكر أني مشيت على الجسر أبداً..وفوق كل هذا وأنا لا أمشي وحدي.. فعادة أنا لا أتحرك إلا في السيارة..ولدي سائقي..صحيح أني رأيت فلبينيين يحاولون صيد السمك ..لكني لم أكن على الجسر..

فجأة قاطعني وسألني سؤالاً ماكراً إذ قال:

- كيف هي علاقتك بأهلك..؟ حدثيني عنها ..

قلت مع نفسي إن هذا الطبيب الملتحي الذي يتردد في النظر إلى وجهي لأني عوره، كيف له أن يفهمني فلأجبه كما يحب، فقلت:

- حياتي مع أهلي على أحسن ما يكون..فنحن عائلة ملتزمة ومحافظة..عندنا

مسجد وأخي الأكبر إمامه، كما أن أختي مسؤولة في الدعوة والإرشاد.. وبقية أخواتي معلمات..صحيح أنني لم أكمل دراستي، لأني قررت أن أكرّس حياتي لخدمة أبي وأمي مرضاة للرب حينما أقعدهما المرض..لذا كيف أقدم على الإنتحار..؟

لمحت الإرتياح يرتسم على وجهه حيث انبسطت أساريره وابتسم دون أن يرفع رأسه لينظر إليّ وقال:

- بوركت يا ابنتي..حافظي على نفسك..وتماثلي للشفاء العاجل..ربي سيكون معكِ..إن ما أنقذك من الموت هو رضا الوالدين..

وهكذا انتهت علاقتي بالطبيب النفساني..عدت إلى غرفتي منذهلة مما سمعته منه عن قضية الإنتحار التي لا أذكر أي شيء عنها. وحينما زارني طبيبي المختص ليسألني عن جلسة العلاج النفساني، سألته عن التقرير الطبي الذي كان في ملفي..؟ولماذا بقيت لشهرين في غرفة العناية المركزة..؟ فأخبرني بأن رئتيّ كانتا مملؤتين بماء البحر المالح..وثمة كسر في الرقبة ونزيف في القدم من شدة الإرتطام على المرجان البحري، وقد سبب ذلك لي تسمماً لأن بعض الكائنات المرجانية السامة لوثت جرحي..وأيضا هناك أملاح في الكلية..

لم تكن تفاصيل حالتي تهمني..ما يهمني هو أن أعرف حقيقة ما جرى لي.. أردت هاتفي النقال كي أتأكد من اتصالي بصديقاتي، فذلك سيوضح لي بعض جوانب ذلك اليوم الغامض..إلا أن مسؤولة الأمانات أخبرتني بأنني حينما دخلت المستشفى لم يكن معي أي هاتف نقال.

حقيقة ما جرى ذلك اليوم..مرة أخرى..

غادرت المستشفى..رجعت إلى البيت..إلى جناحي..وإلى غرفتي..أحسست كأني غريبة عن هذا المكان..حين نظرت إلى وجهي في المرآة كرهته..كان شاحباً..راودني تمردي المعتاد..رميت بكل الأدوية التي حملتها معي من المستشفى إلى سلة القمامة... أردت أن أرجع إلى جنوني..وتمردي.. وقراءاتي.. أرجع لأستمع إلى فيروز..أردت أن أعود إلى روتين حياتي..لكني كنت عازمة أيضاً على حل لغز الإنتحار..بقيت

لأيام وأنا أفكر في هذا اللغز دون الوصول إلى بصيص من النور يضيء عتمته..

بدأت بإستجواب السائق...طلبت منه أن يأخذني إلى ساحل البحر مرة أخرى.. ذهب بي إلى هناك..لكنه حينما كنا هناك قال لي جملة لم انتبه لها في حينها ، إذ قال:

- أنت مجنونة علشان أخوك مات ..

اتصلت بصديقتي..ذكرتها بإتصالي بها واتفاقنا على لم شمل الصديقات للفطور على الساحل، فأكدت لي ذلك..لكنها لم تزد على ذلك..وطلبت مني عدم التفكير في الأمر والانتباه لوضعي الصحي..صحيح أنني كنت أسخر أمام أهلي وأقول لهم إنني لو مت لا تدفنوني وإنما ألقوني في البحر فأنا أكره أن يأكل الدود جسدي..أريد أن ينهشني السمك..أرموني في البحر وقولوا جئت من البحر وإلى البحر تعودين.. أذكر أن أهلي كانوا يستعيذون بالله من جنوني..

حاولت الرجوع إلى إيقاع حياتي الرتيب..قررت أن أطرد كل تساؤلاتي من ذهني..عدت لسابق عهدي.. اسمع أغاني فيروز وأقرأ بنهم..حاولت الدخول إلى عالم الفيسبوك الافتراضي..إلا أنني كنت قد نسيت كلمة السر..بقيت أياماً أحاول فيها تذكره بدون جدوى..إ حدى صديقاتي سافرت إلى دبي ..أوصيتها أن تأتيني ببعض الكتب والروايات..لكنها قبل سفرها أهدتني قطة جميلة كي أتسلى معها عسى أن تنسيني ما أنا فيه من حيرة ومن حزن على وفاة أخي.. فجأة..ذات ليلة كنت نائمة.. لكني صحوت من النوم وأنا أتذكر كلمة السر لصفحتي في الفيسبوك..استيقظت في تلك الساعة من الفجر..دخلت على صفحتي..لكن ما آلمني وأحبطني أن حبيبي لم ينتبه لغيابي بل ولم يعره اهتماماً,,فلا كلمة منه ولا إشارة..ولا رسالة خاصة تعبر عن قلقه لغيابي طوال هذه المدة..!!..لكن ما منحني شيئا من العزاء وجود أصدقاء افتراضيين آخرين رحبوا بعودتي ومنحوني شيئا من الدفء..صديقتي التي سافرت إلى دبي عادت لي ببعض الكتب.من بينها رواية وجدت فيها بعض عزائي..

الأم الزانية

أمي، ليغفر لها الله ، كانت تكرهني بشكل حقيقي..وتنعتني ببنت الحرام..

كانت تخافني..تخاف مشاكستي وتمردي..وجرأتي..كانت تخاف أن أتذكر مشاهد من طفولتي لأواجهها بها..

حينما كنت في عمر الرابعة أو الخامسة..كانت أمي تأخذني معها..تغادر بيتنا بحجة أنها ستذهب لعمل المساج..كانت تدخل بيتاً محدداً..تبقيني في الباحة وتدخل هي إلى البيت، لكنها كانت تحذرني من الدخول إلى غرف البيت إلا بعد أن تناديني ..أظل واقفة في الباحة..وبعد فترة قد تمتد لعشر دقائق أو أكثر تخرج إليّ ..تدخلني صالونا صغيراً..تجلسني على كنبة هناك وتدخل إلى غرفة مجاورة مرة أخرى..المهم الزيارات تكررت كثيراً.. وكانت كل هذه الزيارات في وضح النهار.. الأب والأخوة خارج البيت.. وذات يوم قررت أنظر من ثقب باب الغرفة التي تدخلها أمي لأعرف ماذا تفعل داخلها..وجدت ثقب الباب مغلق بالمفتاح..فلم أر شيئاً..نزلت تحت عقب الباب لأرى من الشق الأسفل للباب شيئاً..لكن مساحة الفراغ كانت بسيطة ولا تتيح إلا النزر اليسير من الرؤية..وبشكل غير واضح..لكني رأيت على البساط أو السجادة المفروشة على الأرض أمي مستلقية على الأرض.. رأيت ساقها عارية، وعليها يستلقي جسد لم اتبينه جيداً لكني رأيت امتداد ساق رجل كثيفة الشعر بين فخذيها..ثم كررت رؤيتي لها في المرة التي تلت..وذات مرة سمعتها تتأوه..ظننت أن الرجل ذا الساق المشعرة يضربها..وحين خرجنا سألتها لماذا كان الرجل يضربها..شحبت..وقالت إن الرجل لم يكن يضربها..بل لم يكن هناك رجل أصلاً..وإنما هذه هي المرأة التي تعمل لها المساج..وطلبت مني أن لا أذكر ذلك لأي من أفراد العائلة..لاسيما لأبي....

بعد هذه الحادثة أخذت أمي تراقبني..وكلما كان تمردي يتضح تزداد هي خوفاً مني وكرهاً لي..حينها لم أجد لذلك تفسيراً..ولم أجد تفسيرا لشتمي ونعتي ببنت الحرام..لا أعرف..الآن أعتقد أنها ربما وجدت فيّ شاهداً على ما قامت به من فعل الزنى..فأنا أختلف في شكلي عن جميع أفراد عائلتي..أنا أميل إلى الشقرة على الرغم من أن عائلتي من ذوي اللون الأسمر..وكذلك لأنني كنت المقربة من أبي..لذا كانت تكرهني..وربما كانت بذلك تحاول أن تسيطر على شخصيتي لتحطم عزيمتي كي لا أواجهها..لا أعرف..

وذات مرة حين نعتتني ببنت الحرام أجبتها أنا ابنتك فكيف أنا بنت حرام..؟..

وإذا ما كنت كذلك فهذا يعني كل أولادك أبناء حرام..!! فضربتني..لكني الآن أعرف بل إني شبه متأكدة من أنني لست من صلب أبي..لا أعرف..ربما كانت تحب شخصاً ما حبلت منه وهجرها لأخرى فحقدت عليه وانتقل الحقد إليّ....لا أعرف.. وربما كان رجلاً أجنبياً..لأنها هي التي سمتني إيفا ماريا، لاسيما وأنا كما قلت اختلف في شكلي عن بقية أخواتي نوعا ما....لكن مهما يكن فأنا لا أعرف لي أبا غير أبي..زوجها..فقد غمرني بحنانه وحبه وحمايته..وكل خوفي أن أكون ذات يوم زانية مثل أمي!!..

أنـا..من أنـا..؟

أنا خائفة..خائفة من أن أفكر بالمستقبل..مرعوبة من احتمال أن يزوجني أخي الأكبر غصباً ودون موافقتي أصلاً.. فبعد رجوعي من المشفى إلى البيت أحسست أنهم يريدون التخلص مني بأية طريقة..وليس هناك أسهل من تزويجي.. إذ أخذ أخي الأكبر يقيم مآدب السحور والإفطار في رمضان الذي صادف قبل فترة..أي بعد مغادرتي المشفى..وأخي هذا محافظ جداً، وهو عادة لا يحب استضافة أي كان في البيت..بل يقوم بالإستضافة في المسجد..! ما الذي يجري من ورائي..؟ أخاف أن تنهار أحلامي البسيطة.. والناعمة..والبائسة. فأنا أخاف أن أُحرم من الإنترنيت..أخاف من أن يضربني أخي بسبب أو من دون سبب..أخاف أن انتحر مرة أخرى دون أن أعي ذلك..وبرغم التمرد الذي في أعماقي فأنا أخاف جبروت العائلة..والدين..

لا أريد الزواج..فالرجل عندنا يعامل العشيقة والصديقة والخادمة أفضل من الزوجة..على الأقل أنا هنا في سجن يعود لأهلي..لا أحد يجبرني على النوم معه بالقوة..ولا المضاجعة كالبهائم..مضاجعة من أجل الإنجاب والذرية..صديقتي تقسم لي بأن زوجها الحيوان يتبول في رحمها..وهذه ليست حالة فردية أو قدر واحد لإمرأة..فأنا رأيت بنفسي كيف كان أخي يعامل زوجته..وكذلك كيف أخواتي تتم معاملتهن من قبل أزواجهن..

يا قارئي..أنا لست أنا..فأنا لا أذكر قط أنني انتحرت..وما جاء في تقرير الأطباء غير دقيق..على الرغم من أن صديقاً لي على الفيسبوك أخبرني بأني ربما انتحرت

فعلاً بعد أن عرفت بموت أخي..لكني رفضت في عقلي الباطن هذه الحقيقة..ولم أتحمل هول الصدمة فأقدمت على الإنتحار..لاسيما وأنا كنت متعلقة به جداً فقد كنت بمقام أمه وأخته وصديقته الوحيدة..وأنني حاولت إلغاء مسألة الإنتحار من ذاكرتي كنوع من الحماية والهروب من الواقع..لا أعرف..ربما.. وربما لم يحدث أي شيء مما رويته..ربما أنا لست أنا.

دفتـر الألـــم

أنا لستُ أنا..أنا روح منسية.روح مسكينة..روح تائهة في متاهة الوجود واللاشيء..لذلك تركت الكتابة..بل تعرفت مصادفة بكاتبة أسمها حواء الذهبي أيضاً..لكنها ليست قريبة لي..طلبت منها أن تكتب قصتي..فطلبت مني أن أرسل إليها ما كتبته عن نفسي..ثم قالت لي بأنها لن تضيف إليه أي شيء..وستحاول نشره كما هو بعنوان (مخطوطة الألـم)..لكنني الآن فقدت الإحساس بالألم..أنا جثة تتنفس..أنا الميتة منذ سنوات.

الفصل الثامن

مفاجأة في مقهى دي فلوري

انتهت حواء ذوالنورين من قراءة الدفتر الأنيق الذي كان بعنوان (دفتر الألم). لم يستغرق منها كثيراً من الوقت. فكرت بهذه الفتاة الغريبة الأطوار التي اسمها إيفا ماريا الذهبي..مَن هي؟ هل هذه اعترافات حقيقة أو رواية كتبتها المرأة ذات العباءة العربية، والتي رأتها في المتحف..؟ هل تتحدث هنا عن نفسها أم عن واحدة أخرى..؟ وهل هذا الدفتر المكتوب بخط يدوي واضح وجميل هو نسختها الوحيدة أم لديها نسخ أخرى..؟ كيف يمكنها أن ترجعه إليها ولا عنوان أو اسم ولا حتى رقم هاتف في الدفتر يمكن أن يدلّها على صاحبته..؟.

فكرت في إيفا سميث التي ودت بدورها أن تقرأ الدفتر. أرادت أن تتصل بها هاتفيا، لكنها نظرت إلى الساعة المنضدية التي كانت تشير إلى السادسة إلا ربعاً مساءً، أي أنها على وشك أن تأتي لأنهما على موعد في إحدى مقاهي باريس في الساعة السابعة.

وبينما كانت حواء ذوالنورين في غرفتها تفكر بإيفا سميث سمعت صوت الأطفال وهم يتراكضون في الشقة، وصوت صديقتها إيفا وهي تسلّم على أمها وتسألها عنها. وضعت الدفتر جانباً وخرجت إلى الصالة.

كانت إيفا سميث في كامل زينتها..أنيقة بشكل مهيب..يضوع منها عطر زكي.. عرفت حواء ذوالنورين أنه (إسكودا) الجديد الخاص بالنساء..لكنها انتبهت أيضاً إلى شيء من التوتر الخفي، والعصبية المكتومة تشوب نظراتها وحركاتها القلقة. ابتسمتا لبعضهما، وكانت إيفا تبحث في عيني صديقتها عن تعبيرات تقبلها لأناقتها، فاطمأنت حينما لاحظت الإعجاب الواضح في نظراتها، فبادرتها قائلة بمودة:

- أهلا حواء..هل نمت القيلولة..؟
- لا والله..لم أجد الوقت الكافي..قرأت (دفتر الألم)..
- آها..الدفتر الذي عثرنا عليه في المرآب..؟ هل قرأته كله..؟
- أجل..فهو ليس بالكبير..
- وماذا وجدت فيه..؟

وبرغم أنهما كانتا واقفتين في الصالة إلا أن حواء ذوالنورين كانت متحمسة للحديث بتأثر عن الاعترافات التي قرأتها في دفتر الألم، فأجابت مسترسلة في حديثها:

- إنها حكاية غريبة يا إيفا..لا أعرف ماذا أقول لك..؟ هي ليست حكاية عادية..ليست قصة..هي اعترافات فتاة خليجية غريبة الأطوار..اعترافات مؤلمة.. هو دفتـــر للألم حقاً..بل كتـــاب للألـــم..

كانت إيفا سميث تنظر إلى وجهها وكأنها تشرب كلماتها، حتى أنها استرخت قليلا من توترها الخفي الذي جاءت به، وقالت بدهشة ممزوجة بنبرة حماس:

- واو..شوقتني لقراءتها..فأنا منذ زمن لم أقرأ أية رواية مثيرة..المهم..هل أنت جاهزة..؟
- جاهزة..؟
- نعم...أليس لدينا موعد الساعة السابعة مع حواء دمشقية؟..!
- نعم..نعم..أنا جاهزة..

فقالت إيفا بنبرة فيها توتر مكتوم حاولت أن لا تبينه :

- لقد تأخرت لأن آدم كان يجهز نفسه للذهاب إلى مدريد..فانشغلت معه.. لقد ذهب الآن إلى المطار..وجئت بالأولاد هنا..ليبقوا مع جدتهم.. طيب.. سنذهب بعد قليل..يا أولاد..

قالت ذلك والتفتت إلى جهة أولادها الذين كانوا قد ذهبوا إلى غرفة جانبية ليتقافزوا على الأسرة هناك في مرح واضح..اتجهت إليهم لتتحدث معهم..بينما كانت الأم عند الكاونتر تغسل صحنين بيدها..وتستمع بشكل صامت إلى الحوار الذي دار بين ابنتها وصديقتها.

خمنت حواء ذوالنورين إلى أن توتر صديقتها ناتج ربما عن مشاحنة بينها

وبين زوجها..لم تشأ أن تسألها، لذلك اتجهت إلى غرفتها وهي تقول لصديقتها بعجلة وكأنها نسيت شيئاً:

- لحظة..سآتي حالاً..

دخلت غرفتها..وقفت أمام المرآة التي تنتصب على الطاولة في جانب من الغرفة..فتحت حقيبتها اليدوية وأخرجت علبة الألوان. أخذت الفرشاة لتضع لمسات من المكياج على وجهها، وتمرر قلم الحمرة على شفتيها..ألقت نظرة على قامتها.. وهندامها..أخذت قنينة من عطر (كوكو شانيل) ورشت منه قليلا على صدرها وجانبي رقبتها قرب الأذنين.. وقبل أن تصل الباب رأت الدفتر ملقى على السرير فأخذته ووضعته في حقيبتها..ثم خرجت.

رأت صديقتها تقف قرب أمها، وتتحدث معها بالفرنسية في هدوء شديد.لم ترتبكا حين وصلت منتصف الصالة. أدركت فوراً بأنهما تتحدثان عن أمر عادي لا أسرار فيه ولا يخصها، لكن لم تفوتها نظرة الإعجاب في عيني صديقتها التي بادرتها قائلة:

- أنت جاهزة إذن..هيا بنا..

وقبل أن تسمع أية إجابة من حواء ذوالنورين رن هاتفها الجوال. نظرت إلى شاشة الهاتف فرأت رقم حواء دمشقية. رفعت الهاتف إلى أذنها، وأجابت:

- أهلاً حواء..نحن جاهزتان..(لحظات صمت)..ماذا..؟ لن تكوني وحدك..؟ (لحظات صمت).. مع من..؟ (لحظات صمت)..مفاجأة..؟ أنت تعرفين أنني لا أحب المفاجآت..(لحظات صمت)..ماذا..؟ ألن نلتقي في مقهى "فوكيه" في الشانزاليزيه..؟ (لحظات صمت)..أين..؟ مقهى "دي فلوري" في سان جرمان..؟ واو..(لحظات صمت)..ماذا..؟ نستعيد أمجاد سيمون دي بوفار..؟ وما هي مفاجأتك..؟ (لحظات صمت)..طيب..سنكون هناك في الوقت المحدد..

أغلقت إيفا سميث هاتفها وقالت لصديقتها، التي أدركت الموقف من خلال ما سمعته:

- لقد تغير مكان اللقاء.. الحمد لله أنها اتصلت الآن قبل خروجنا..سنذهب إلى أحد أشهر مقاهي باريس..مقهى كان كبار الكتاب الفرنسيين يجلسون

فيه..سارتر وصديقته سيمون دي بوفار.. وصارت جزءاً من معالم باريس السياحية..

- جميل جداً.. أعرف سيمون دي بوفار..لقد قرأت كتابها "الجنس الآخر" أيام الجامعة.. و أعرف سارتر..لكني لم أقرأ له شيئاً..أعرف فقط أنه وجودي ملحد..

- إذن.. ستزورين مكانهما الأثير الليلة..

* * *

استغرق الطريق من البيت إلى مقهى "دي فلوري" في سان جرمان أكثر من أربعين دقيقة. وصلتا قبل الوقت بربع ساعة تقريباً، لكنهما ظلتا تبحثان عن موقف للسيارات في البارك القريب من المقهى لوقت طويل.

أحست حواء ذوالنورين برهبة ممتعة وهي تتجه مع صديقتها إلى هذا المقهى التاريخي المهم. حين وصلتا استغربت من أن المقهى لا يتميز عن غيره من المقاهي التي تزدحم بها باريس..رأت عشرات الناس يجلسون أمام المقهى على كراسٍ بسيطة من القصب حول طاولات بسيطة مستديرة..وإلى جانب آخر من المقهى تصطف مصطبات متقابلة يمكن أن يجلس عليها أكثر من شخص. كما انتبهت إلى وجود العديد من السيّاح، حيث كان تمييز بعضهم سهلا من خلال حقائب الظهور التي وضعت على الأرض إلى جانب الكراسي..وهذا ما أكدته لها صديقتها إيفا سميث حينما علقت قائلة:

- الكثير من الجالسين ليسوا فرنسيين..إنما هم أجانب..

فتشت إيفا سميث عن صديقتها بين الجالسين خارج المقهى، فلم تجدها. دخلتا إلى صالة المقهى فإذا بها تجد صديقتها في مواجهتها، إلا أنها لم تكن وحدها وإنما كانت تجالس شخصاً لم تتبينه وإنما رأت شعره الكث الذي يغطي رقبته من الخلف. أحست بهاجس غامض، وبرجفة داخلية، وحدس بأن صديقتها لم تأت مع صديقها آدم المفتي الذي تعرفه، والذي كانت تتوقع أن حضوره هو المفاجأة التي حدثتها عنها.. ولم تستطع أن تستكمل احتمالات من يكون هذا الشخص، إذ أشارت إليهما صديقتها حواء دمشقية..فاتجهت إليهما. وحينما وصلتا إلى هناك أدركت كل شيء.

كانت المفاجأة بالنسبة لها صدمة كبيرة وخيبة أمل في صديقتها، فما أن صارتا عند طاولتهما حتى نهض الرجل، فانتبهت المرأتان إلى شاب وسيم جداً يصغر النساء الثلاث جميعاً في العمر..شاب واثق من فتوته..وجماله..وجاذبيته الجنسية التي تغوي النساء الناضجات في العمر، نساء ما بعد الثلاثين والأربعين من العمر.. كان جريئاً لدرجة أنه أراد أن يوحي من خلال طريقة استقباله للمرأتين القادمتين ومن خلال نظراته الغامضة والمليئة بالشبق والفتنة الرومانسية بأنه لا يرتبط بالمرأة التي تجالسه وأنه مستقل عنها ولا ينتمي إليها، فقام مقدماً نفسه لهما بمرح وثقة:

- آدم سانتشو ماريا زاباتو..

* * *

بعد ربع ساعة من جلوسهما معاً، انتبهت إيفا سميث إلى أنها لم تعد ممتعضة من هذه المفاجأة التي اعتبرتها في اللحظات الأولى فضيحة أخلاقية من قبل صديقتها حواء دمشقية، التي وعدتها في دمشق بأنها ستعود إلى صديقها وعشيقها ورفيق سنوات شبابها آدم المفتي، وتقطع علاقتها بهذا الشاب الوسيم من أميركا اللاتينية، وتجهض حملها منه..إلا أنها الآن تشعر وكأن هذه الفضيحة واحدة من أجمل الفضائح..إذ كانت تحس بالاسترخاء اللذيذ، لكنه استرخاء مشوب بهاجس خوف غامض لا تعرف كنهه.

نظرت إلى صديقتها حواء دمشقية فانتبهت إلى مشاعر حسد خفي نحو صديقتها أخذت تسري في أعماقها لعلاقتها بهذا الفتى الوسيم، لكنها في الوقت نفسه فكرت كيف تبعدها عنه..نعم..نعم..قالت لنفسها، لا بد من أن أبعدها عنه، وإلا فأنها ستضيع بسبب هذا الفتى" الماتشو" اللعوب..نعم..لا بد أن تعود لآدم المفتي..لكن كيف..؟ ..كانت تفكر مع نفسها، وكان الفتى الوسيم يحاور حواء ذوالنورين التي لا تعرف الفرنسية، بينما أخذت حواء دمشقية تقوم بترجمة ما يدور من أسئلة وأجوبة مقتضبة بينهما.

فكرت إيفا سميث بأن عليها أن تتحدث مع صديقتها بشكل منفرد وتنصحها بالابتعاد عن هذا الفتى الخطير، وتذّكرها بوعدها حينما التقيتا في دمشق، كما راودها هاجس أحسّتْ بالخوف منه، وهو أن تلتقي بآدم سانتشو ماريا زاباتو على انفراد أيضا، وتنصحه بالابتعاد عنها..لكنها خافت من التفكير في الأمر برغم أن هذا الهاجس كان

يغويها بشكل لاإرادي، ويسحبها إلى أعماقه. انتبهت لما يدور من حوار، فأحسّت برغبة لا إرادية عارمة في أن تكون نجمة الجلسة وتشد انتباهه، فتدخلت بشكل مفاجئ في الحوار الدائر.

شعرت حواء ذوالنورين بهيبة المكان، وبفرح لم تستطع أن تعرف منبعه، هل هو نجاتها من مطاردة زوجها قابيل العباسي، وشعورها بالأمان هنا في باريس، أو هو فرحها بعلاقتها بإيفا سميث التي تمد عليها جناح حمايتها وكأنها أختها أو صاحبتها الحميمة، أو لأن آدم سميث زوج صديقتها يراها شخصية متميزة، وهو معجب بها، أو لأنها وجدت اهتماماً خاصاً من هذا الفتى الوسيم الذي أحست أنه أهتم بها أكثر مما اهتم بصديقته حواء دمشقية غير آبه لما تفكر به، أو لأن هذا المكان يمنح من يجلس بين أحضانه فرحا ما وشعوراً بقيمة الأشياء وبعظمة الحياة..؟

حاولت أن تعرف سر هذا الفرح الذي يغمرها لكنها لم تستطع، ولكي لا تفقد هذا الشعور من خلال مراقبة ما يدور من حديث، لاسيما حينما دخلت إيفا سميث في حوار مع الفتى الوسيم والصديقة الأخرى بالفرنسية، فقد انزوت إلى أعماقها مكتفية بشعور الفرح الداخلي الغامر، وأخذت تتهرب بالنظر إلى الجالسين خارج الصالة من خلال الزجاج الشفاف، وكأنها في عالم بعيد عن هذه الطاولة، ولا يعنيها ما يدور من حوار.

التفت، فجأة، بتوتر، نحو زاوية في داخل المقهى، وكأن ثمة هاتفاً غير مسموع طلب منها الالتفات إلى تلك الجهة التي في نهاية الطرف الآخر من صالة المقهى، فأحست بصدمة حبست أنفاسها من الدهشة.

كانت امرأة اللوح باهرة الجمال، مضيئة البشرة، تجلس هناك وهي في ثوبها المزركش الذي كانت تلبسه في اللوحة. لم تصدق عينيها..حدّقت بانتباه في تلك الجهة..ظنت أن ما تراه ليس سوى وهم..بيد أن امرأة اللوح ابتسمت لها وأومأت لها برأسها تحية..فأومأت هي برأسها لاإراديا. أحست برغبة عارمة في أن تذهب إليها وتتحدث معها، وتقول لها أشياء كثيرة عن نفسها، وعن إعجابها بها وتقديرها لها، لكنها كانت تدرك بأنها لا تعرف الفرنسية، فكيف ستتحدث معها، ثم أنها حتى وأن كانت تتحدث العربية مثلها فأنها لا تجد الكلمات التي تجسد مشاعرها، فما

وصل خلال هذه اللحظة إلى ذهنها من كلام صامت لم يعجبها، لذا صمتت ، لكن نظراتها، وهي تنظر إلى تلك المرأة المضيئة كانت تشع إعجابا ومودة.

فجأة دخل الصالة غجري أعمى تقوده إبنته. كان الغجري يحمل آلة هارمونيكا مشدودة بحزام على كتفيه، يعزف عليها ألحاناً معروفة عالمياً..التفتت إليه . شعرت بالأسى، إلا أن الغجري الأعمى لم يدخل إلى أعماق الصالة، وإنما استدار مع ابنته خارجاً، ثم وقف على مقربة من الطاولات في مقدمة الصالة وأخذ يعزف. كانت هي تتابعهما من مكانها. بعد قليل أخذت ابنته الصغيرة تدور بين الطاولات حاملة علبة صغيرة لتتقبل مكافآت نقدية بسيطة من الجالسين. فجأة، انتبهت لصديقتها إيفا سميث تسألها بالعربية:

- وأنت ماذا تقولين يا حواء..؟

فوجئت حواء ذوالنورين، وكأن سؤال صديقتها جردل ماء بارد صب عليها، فأفاقت على نفسها. ارتبكت وقالت:

- ماذا أقول..؟ عن ماذا..؟ عن أي شيء..؟

ابتسمت إيفا سميث وقالت بنبرة احتفالية مليئة بالحماس:

- السيد آدم زاباتو يقول إنه لا يثق بمن لا يشرب، لذا فهو يدعونا إلى شرب النبيذ معه..

حاولت حواء ذوالنورين أن تسيطر على ارتباكها، لاسيما حينما رأت وجوه الجميع متجهة نحوها، وقالت على استحياء:

- لا أعرف ماذا أقول..لكن ليس كل من يشرب هو أهل للثقة..ولا كل من لا يشرب غير أهل لها..لكنني شخصياً لا أثق بمن يتحدث عن الأخلاق كثيراً..

ترجمت إيفا سميث ما قالته حواء ذوالنورين إلى الفرنسية، فتألقت عينا آدم زاباتو، ثم قام بطريقة احتفالية وأخذ يد حواء ذوالنورين على غفلة منها، وطبع قبلة على كفها أمام دهشة المرأتين الأخريين، فتألقت عينا حواء دمشقية بغيرة مكتومة، بينما فوجئت إيفا سميث من جرأته، فنظرت إليه وكأنها تغور في أعماقه، أما حواء ذوالنورين فارتبكت جداً، ولم تدر ما تقول، بينما قال هو بالفرنسية مخاطباً إياها:

- إن الناس يرون الأشياء كما يريدون أو كما يعتقدون أنها كذلك، وليس كما

هي في الجوهر حقاً..فاللوحة الواحدة التي يقف أمامها عشرات المتفرجين هي ليست اللوحة نفسها أمام هذا الحشد من الزائرين..بل هي عشرات اللوحات، هي لوحات متعددة بعدد الناظرين إليها..لأن كلاً منهم ينظر إليها بطريقته، وخصوصيته، وتقبله الفني، وحساسيته الجمالية..ونادراً ما نجد بين هذا الحشد من ينظر إلى اللوحة الحقيقية ويكتشف سرها..وهي (وأشار إلى حواء ذوالنورين) قد كشفت سر هؤلاء الذين يتشدقون بالأخلاق.. ويتحججون بها، ويلبسونها كقناع..هي قالتها بصريح العبارة بإنها لا تثق بمن يتحدث عن الأخلاق كثيراً..وهذا يستحق أن نرفع نخباً من أجلها..

ظل واقفاً، منتظراً أن تقوم إيفا سميث بترجمة ما قاله. كانت حواء ذوالنورين محرجة لهذه الخطبة الطويلة التي قالها..لكنها بعد أن استمعت للترجمة أحست بالرضا الداخلي.. التفتت لاإراديا نحو الزاوية التي فيها امرأة اللوج فرأتها تبتسم لها بمودة، وكأنها سمعت كل ما دار من حوار.

حين التفتت حواء ذوالنورين إلى طاولتها ثانية وجدت أن الجو قد توتر قليلاً، وأن آدم زاباتو كان يتطلع إلى صديقته حواء دمشقية بنظرة باردة، لامبالية، ثم رفع يده منادياً النادل أن يأتي بقنينة نبيذ، فعلقت صديقته قائلة بالفرنسية شيئاً، فأجابها هو بكلمة غاضبة انطلقت من بين أسنانه.. بينما ظلت إيفا سميث صامتة مع رضا داخلي مكتوم لهذا التوتر في الحوار..لم تفهم حواء ذوالنورين شيئا، لكنها أدركت أن توتراً امتد بين الشاب وصديقته.

حاولت أن تذهب بذهنها عنهما، فالتفتت نحو جهة امرأة اللوج فلم تجدها. فزعت. ودون إرادة منها نهضت من مكانها واتجهت إلى حيث كانت امرأة اللوج تجلس، لتتأكد من وجودها، لكنها لم تجد أحداً.

حين عادت وجدت النادل يصب النبيذ في الكؤوس الأربعة الموجودة على طاولتهم، بينما كان آدم زاباتو يتحدث الفرنسية بغضب مع صديقته.. نظرت إيفا سميث إليها مستفسرة، وسألتها:

- ما بك يا حواء..؟ هل هناك شيء ما..؟

ارتبكت حواء ذوالنورين قليلا وقالت بتردد:

- لا أبداً..تراءى لي أني رأيت أحداً ما أعرفه..لكنه اختفى فجأة..

نظرت إيفا سميث إليها وكأنها تريد أن تتأكد مما سمعته، فسألت:

- أحداً ما تعرفينه..؟

ارتبكت حواء ذوالنورين..وقالت بتردد شديد:

- نعم..امرأة اللوج..

نظرت إيفا سميث إليها بتعجب وكأنها لا تصدق ما تسمعه، وقالت بدهشة وبنبرة أقرب إلى الصرخة:

- مَن..؟

ونظرت إليها منتظرة منها أن توضح قولها، بينما التفتت بسرعة لترى أن النادل قد غادر الطاولة وأن صديقتها حواء دمشقية منشغلة بالحديث والعتاب المتوتر بينها وبين صديقها.. وانتبهت لحواء ذوالنورين التي ازداد ارتباكها فأخذت توضح لها بارتباك وتعجب:

- امرأة اللوج في اللوحة التي رأيناها اليوم في المتحف..رأيتها هنا..كانت تجلس هناك في أعماق الصالة..

نظرت إيفا سميث للحظات إلى حيث أشارت صديقتها، وهي تحاول أن تستوعب ما سمعته منها، ثم قالت بصوت خافت كي لا تسمع صديقتها، وبنبرة فيها قلق واضح:

- ما بك حواء..؟ هل أنت على ما يرام..؟

انتبهت حواء ذوالنورين لما في صوت صديقتها من قلق واستنكار مبطن، فقالت بصوت خافت لكنه بنبرة تأكيد:

- نعم..أنا على ما يرام ..لكن أقسم لك أني رأيتها..

صمتت إيفا سميث لثوان، وقالت لها بهدوء وكأنها تريد أن تطمئن إلى حالتها النفسية:

- أجلسي الآن..كي لا يسمعنا الآخرون.. وسنتحدث عن ذلك لاحقاً..

- لكني رأيتها..!

فلم تستطع إيفا سميث أكثر، إذ التفتت إليها ونظرت في وجهها مباشرة وقالت لها وكأنها تريد أن تبطل كل ما قالته صديقتها:

- اهدئي أرجوك يا حواء..تلك اللوحة، أقصد لوحة اللوج، رسمها رينوار في

بداية ستينات القرن التاسع عشر..أي منذ أكثر من حوالي مائة وخمسين عاماً.. والمرأة التي تتحدثين عنها كانت آنذاك في الثلاثين من العمر..هل تعرفين ماذا يعني هذا..؟

إمتد بينهما صمت مشحون لثوان، كانت فيه حواء ذوالنورين غير واثقة من نفسها، ومن رؤيتها، وسألت:

- ماذا يعني هذا..؟

ابتسمت إيفا سميث لها برقة وبمودة وقالت لها بإسترخاء:

- يعني أنك قد توهمت في أنك رأيت تلك المرأة التي رسمها رينوار.. امرأة اللوج..ربما لأنك انبهرت باللوحة التي شاهدتها اليوم في المتحف، لاسيما وأنك بقيت واقفة أمامها لفترة طويلة..لذا يبدو أنها خلقت تأثيراً قويا في نفسك..وبدون أن تدري توهمت الآن أنك رأيتها..لا أكثر.. فهي حتى لو كانت تعيش إلى الآن لكان عمرها الآن قرن ونصف من السنوات..

سكتت حواء ذوالنورين.أحست بأن تفسير صديقتها منطقي، لكنها في أعماقها ظلت ميالة إلا أنها رأت امرأة اللوج فعلاً. . فهي لست مجنونة..وليست متوهمة.. وليست في حالة نفسية غير طبيعية بحيث ترى أشباحاً أو رؤى وأوهاماً.

في تلك اللحظات نفسها، سمعتا صوت آدم سانتشو ماريا زاباتو وهو يرفع كأسه داعياً إياهما إلى أخذ كأسيهما، ثم قال شيئا طويلاً بالفرنسية، ترجمته إيفا سميث لها بشكل مباشر، بأن الإنسان البدائي برغم قساوة الحياة آنذاك وبدائيتها، كان أكثر حرية من الإنسان المتحضر الحالي..فالحضارة الحديثة أخلاقها خانقة.. وأديانها قواعد مقيتة ليس لها سوى كبت الحياة الجنسية..لذا فإن الإنسان الحديث مريض.. لذا فهو يشرب نخبه في صحة النساء الساحرات..النساء اللاتي لا يثقن بمن يتحدث عن الأخلاق كثيراً..ولا يثقن بالمتدينين..نخب النساء النادرات..!

لم تقل هي شيئا وإنما رفعت كأسها مع البقية وعبت النبيذ دفعة واحدة، ولم يكن في ذهنها تلك اللحظات سوى سؤال واحد: أين اختفت امرأة اللوج..؟!.

الفصل التاسع

لوحة المرأة الغامضة

عبّ آدم بوناروتي النبيذ كله ووضع الكأس على الطاولة الملتصقة بالجدار في مرسمه..كان قلقاً..تائه النظرات..متهيج الأعصاب.. مضى إلى اللوحة البيضاء التي تنتصب على مسند خشبي، والتي لم يخط عليها أي شيء بعد.

كان ينظر إليها باستغراب وعصبية..رجع إلى الطاولة وصب لنفسه كأساً آخر من النبيذ الأحمر..وأخذ يتمضمض بها..عاد إلى لوحته وعلى ملامحه إصرار وكأنه سيبدأ الرسم في اللوحة..لكنه ما أن يصل إلى حمال اللوحة الخشبي حتى يقف مترددا.. عاجزاً..متأملاً بغضب مكتوم..

منذ ساعات..وهو يحاول أن يبدأ لوحته لكنه لا يجرؤ..كان المكان معتماً قليلاً يضيئه مصباح لا يكفي لطرد عتمته المليئة بالأسرار.

هو لم يقترب من الرسم الزيتي منذ فترة ليست بالقصيرة..قبل فترة كان يريد أن يرسم المرأة العراقية حواء ذوالنورين التي تعرف عليها هنا في فلورنسا..لكنها اختفت فجأة..أين..؟ هو لا يعرف..فقد كانت بالنسبة إليه لغزاً..مذنباً سماوياً ظهر واختفى بسرعة هائلة..وها هو الآن يحاول أن يستعيد في ذاكرته وجهها..هيئتها.. عينيها الحزينتين..الرومانسيتين..والمتوهجتين برغبات دفينة..لكنه لا يستطيع..لا يجرؤ على البدء باللوحة.

فجأة أخذ يتلفت في ما حوله وكأنه يبحث عن شيء ما ضائع عنه..اتجه نحو النافذة. أزاح الستائر فتسرب الضوء ليعيد صياغة المكان.. فكّر مع نفسه بأن الناس أغبياء..فهم لا يقدّرون قيمة النور..قيمة الضوء الذي لولاه لما تعرفنا على الوجود..، ولا عرفنا الموضوع الجميل.. النور وحده هو الذي يكشف عن الجمال..

تخيل نفسه في محراب آل مديتشي هنا في فلورنسا.. يقف في الظلام الدامس وسط المحراب الشهير الذي يضم لوحات ميكائيل انجلو بوناروتي..الذي انتقل إليه لقبه من خلال زوجته المتوفية..كان يجول بنظراته في حركة بانورامية في الظلام.. لكنه لا يرى أي شيء..برغم علمه أن الضريح يضم لوحات هائلة وخالدة للفنان العظيم..بل إنه في تلك الظلمة افتقد قداسة المكان الذي هو كنيسة صغيرة في الوقت نفسه..انتبه لنفسه وهو في مرسمه..وسأل نفسه: ما قيمة كل تلك الروائع الفنية العظيمة بدون الضوء الذي يكشف عنها وعن جمالها..؟ الضوء.. الضوء.. الضوء..هذا ما أريده حقاً..

اقترب من اللوحة..كان متهيجاً..أخذ ينظر إلى قماشها الأبيض وكأنه يرى فيه أشياء لا تُرى..كان يفكر بحواء ذوالنورين.. بدا له وجهها وكأنه يراه محفوراً على سطح اللوحة الأبيض..بدأ الوجه يتلاشى في البياض، وبدأ اللون الأبيض يتحرك حركة دائرية.. ويتدافع مثل موجات حليبية رقيقة على سطح اللوحة..فجأة بدأت ثمة ملامح صورة ما تبرز من أعماق البياض..ورأى ما يشبه قامة منظر الشاعر دانتي أليغيري ودليله في الجحيم الشاعر فرجيل، كما جاء في بعض التخطيطات للملحمة، وهما أمام الحلقة السادسة من الجحيم..، تلك الحلقة التي كرس لها دانتي الإنشودة التاسعة من ملحمته الخالدة..حلقة المفكرين الذين ابدعوا في تفسير الحياة لكن بعيدا عن تعاليم الكنيسة ومبادئ المسيحية..فوصموا بالهرطقة والتجديف..

مضى إلى الرف الذي تصطف عليه الكتب الإيطالية والعربية. وأخذ النسخة العربية من كتاب (الجحيم) لدانتي أليغيري..فتح الكتاب.. تصفحه متوقفاً عند الإنشودة التاسعة وقرأ مع نفسه وصف دانتي للحلقة السادسة:

انتشرت بين القبور ألسنةُ من اللهب، اشتعلت بها جميعاً
حتى لا تتطلب مهنةٌ حديداً أشدّ وهجاً..
كلّ أغطية القبور كانت مرفوعةً، وقد خرجتْ منها صرخاتٌ قاسيةٌ،
حتى بدا جلياً أنها صادرةٌ عن معذبَين بائسين.
قلتُ: «أستاذي، مَنْ هؤلاء القوم الذين دُفنوا في تلك التوابيت،
ويُسمعون بتنهداتهم الأليمة ؟».
أجابني قائلاً: «هنا الهراطقة مع أتباعهم من كلّ نحلةٍ،

والقبور مليئةٌ بهم أكثر مما تعتقد» .
هنا كلّ قرينٍ مع قرينـه مدفونٌ، ويزيـد سعير النار ويـخفّ داخل القبور» . .
وبعد أن استدار دليلي إلى اليمين،
مررنا بين المعذبين والأسوار العالية.

أغلق الكتاب..أرجعه إلى مكانه..أحس بقشعريرة تسري في أعماقه من هذا الوصف المرعب..عاد إلى المنضدة..واحتسى كأساً من النبيذ دفعة واحدة..اقترب من اللوحة..لمح ألسنة نار برتقالية تتوهج على سطح اللوحة.. ظن أن ذلك بسبب النبيذ..لا.. هي ألسنة نار برتقالية تتقد صغيرة على سطح اللوحة..هذا ليس وهماً.. لكن كيف..واللوحة لا تحترق أو تشتعل..أغمض عينيه..فتحهما..ألسنة اللهب متداخلة الألوان ما بين البرتقالي والأزرق تلتهب برقة..أعاد النظر إلى اللوحة كرّتين..فلم يرَ شيئاً.. تلفت حوله مرتاباً..نظر الى الساعة الجدارية القديمة فانتبه إلى أن موعده مع حواء الحلو سيكون خلال ساعة..إذن..لديه بعض الوقت..التوتر والخوف وتوقع شيء ما غامض سيطر على كيانه..تلفت إلى ما حوله..وكأنه يفتش في فضاء الغرفة عن شيء ما..فجأة.جحظت عيناه رعباً..وكأنه رأى شيئاً ما..أخذ لوحة الألوان.. وبإصبعه خط استدارة الوجه الذي رآه وكأنه انبثق من عالم الغيب.

* * *

وهي تهبط في المصعد كانت حواء الحلو تنظر إلى نفسها في المرآة الكبيرة التي تحتل جانبا من كابينة المصعد..وتفكر بحواء الحلو العراقية..جبل الشحم.. المشوي نصف وجهها..كانت صرختها الحيوانية التي انطلقت منها حينما أصابتها نوبة الصرع تدوي في أعماقها.. أحست برجفة تسري في سائر جسدها..أرادت أن تبعد ظل المرأة المصروعة لكنها لم تستطع..أخذت انوار المصعد تخفت شيئا فشيئا..فجأة توقف المصعد في الطابق الثاني قبل أن يصل إلى الأرض..أحست برعب حقيقي..فجأة أضيئت مصابيح الكابينة..نظرت في الكابينة فرأت وجه المرأة المشوه يطل عليها..ارتعبت..جلست من خوفها مقرفصة..انطفأ مصباح الكابينة ثانية.. فجأة تحرك المصعد هابطا..إشتعل المصباح..أخذت تنظر وهي مقرفصة إلى المرآة..لم يكن هناك ثمة أحد..كان المصعد قد وصل إلى الطابق الأرضي..

حين خرجت لم يكن أحد ينتظرها في الاستقبال..كانت تتوقع أن ترى آدم

بوناروتي..أحست بشيء من الراحة..لكنها لم تزل مرتبكة مما جرى لها في المصعد.. نظرت في أعماق الصالون الطويل والذي يوازي الشارع العام فلم تجد أحداً..كانت موظفة أفريقية سمراء، قصيرة القامة، وراء مكتب الاستقبال..ابتسمت لها دون أن تقول شيئا فردت عليها بابتسامة باردة..توجهت لموظفة الاستقبال الأفريقية السمراء التي ابتسمت لها وسألتها بالإنكليزية:

- أية خدمة يمكن أن أقدمها لك..سنيورا..؟
- لقد اتصلت بي قبل قليل وقلت لي بإن هناك من ينتظرني ..
- نعم..كان هنا رجل أشقر وسيم تحدث بالإيطالية المضبوطة..يبدو إيطاليا.. سأل عنك..اتصلتُ بك ..لكنه لم بنتظر طويلاً..فغادر الفندق..
- قلت رجل أشقر..؟
- نعم رجل أشقر وسيم..
- لكني كنت أنتظر رجلاً آخر ليس أشقر..؟..
- لا أعرف سينورا..الذي سأل عنك كان رجلاً أشقر وسيماً..
- هل ترك شيئا..؟
- لا..

أحسّت بإحباط خفيف..لم يكن أمامها سوى مغادرة الفندق..خرجت الى إلشارع..استنشقت الهواء المنعش..كانت تود أن تتجول وحدها في أزقة فلورنسا.. تدخل المحال التجارية.. تقطع الشوارع دون انتباه لاتجاهها ونهاياتها..ثم ترجع.. وجدت نفسها تتابع حركة الناس دونما أي قصد..ليس رغبة في مراقبة الناس وإنما من أجل أن لا تفكر بنفسها..وتهرب من وجه المرأة السمينة المشوه..كانت تتوقف عند واجهة محلات غير مهمة في أزقة فرعية..فقط من أجل أن لا تفكر بنفسها.. تدخل أحيانا أحد تلك المحال..تمضي فيه بعض الوقت..تخرج إلى الشارع لتشم الهواء ثم تواصل سيرها..ثم تتوقف عند محل آخر..تدخله أيضاً..لكن مشكلتها كانت في معرفتها بأنها كانت تهرب من نفسها..ومن شكوكها الجارحة في تفسير ذلك الكابوس..وصورة تلك المرأة المشوهة الوجه التي لاتزال صرختها الحيوانية المرعبة تدوي في أذنيها.

فجأة فكرت في ما قالته لها موظفة الإستعلامات عن الرجل الأشقر الوسيم..

بينما هي كانت تنتظر آدم بوناروتي.. صحيح أنها تتجنبه لأنها شعرت أنه يريدها كامرأة..لكنها الآن تود أن تراه..فعلى الأقل هو بإمكانه أن يشغلها بحديثه الشيق برغم معرفتها بنواياه لكن من هو الرجل الأشقر الوسيم الذي يجيد الإيطالية والذي سأل عنها..؟

أخذت الشمس بالانحدار إلى ما وراء الأفق..وبدأت العتمة تزحف على الطرقات..انتبهت حواء الحلو إلى أن أصحاب المقاهي والمطاعم قد أوقدوا مصابيحهم الملونة ولافتاتهم الضوئية..بينما هي وحدها تهرب من نفسها في هذه المدينة الغريبة..تسير بلا هدى..لا تنظر إلى أسماء الشوارع، ولا إلى لافتات الأزقة.. أحست أنها مجرد جسد يتحرك..

فجأة توقفت..وكأن لطمة ضربتها على رأسها فأفاقت من غفوة..فالشقة التي رأتها في الحلم هي شقتها في برلين..في هيرمان شتراسة مقابل المقبرة المحصورة بين هيرمان شتراسه و كارل ماركس شتراسه..الآن انتبهت."..يا لغبائي.." قالت لنفسها بصمت.." كيف لم انتبه لذلك..؟ والمرأة الأخرى التي قالت إنها ماتت في الشقة.. في غرفة النوم..الآن تذكرت بأني سمعت بموتها فعلا قبل أن أستلم الشقة من دائرة المساعدات الاجتماعية..نعم سمعت بشكل غير واضح ودقيق بأن امرأة عمياء ماتت فيها. لكن من هي هذه المرأة..المشوهة الوجه التي تظهر لي في الحلم.. ولماذا أراها في شقتي التي في برلين..؟ ثم أن لديّ ابنة في الثانية والعشرين من العمر وليس ابن كما لدى هذه المرأة المشوهة..؟ لكن ابنتي مثل ابن تلك المرأة تعيش مع صديقتها..؟ ..غريب..ما معنى كل ذلك..؟".. وجدت نفسها لا إراديا تتجه نحو الفندق مرتبكة.

* * *

حين دخلت الى الفندق كانت تأمل أن ترى آدم بوناروتي ينتظرها..على الرغم من أن الموعد مضى عليه ما يقارب الساعة من الوقت.. لكنه لم يكن هناك..

أحست بالذنب في أنها تصرفت بلا ذوق مساء البارحة..لكنه اتصل واتفقا على أن يمر عليها في الفندق.لكنه لم يمر..هي تحتاجه لكي تروي له كوابيسها عسى أن تجد لديه تفسيراً..جلست على كرسي قرب طاولة عليها بعض المجلات الإيطالية والإنكليزية..لم تكن لديها الرغبة في أن تتصفح المجلات..ظلت ساكنة

لا تدري ماذا تفعل..فجأة نهضت..ابتسمت للفتاة موظفة الاستقبال التي كانت تلقي عليها بين الفينة والأخرى نظرة متسائلة..خرجت الى الشارع. مرة أخرى.

* * *

لم تكن حواء الحلو تعرف إلى أين تتجه..اجتازت ساحة سينيوريا..ثم وجدت نفسها تسير على ساحل نهر أرنو الشهير..حيث المصابيح والضجيج والسيّاح..وبلا شعور منها اتجهت إلى الجسر الشهير (بونته فيتشيو) الذي يربط بين القصرين الشهيرين في تاريخ هذه المدينة، قصر الحاكم وقصر الحكومة.

عبرت مع العابرين..وتوقفت مع المتوقفين..دون هدى ودونما هدف سوى قضاء الوقت..انتبهت الى أن من النادر أن يسير شخص بمفرده.. وجدت نفسها تفتش دون شعور منها عن آدم بوناروتي بين وجوه من تقابلهم..رجعت من حيث أتت.. أخذت تسير في الشوارع المقابلة.. رجعت إلى الساحة الكبرى..ومنها توجهت نحو الشارع الذي قابلت فيه آدم بوناروتي..وقفت في المكان المسمى (باب الفردوس) حيث اصطدمت به.

هالها جموع الناس السائرة دونما هدف حتى وإن بدا أن لديهم أهدافا محددة.. ربما هذه هي الحياة..!! سألت نفسها..:" أليست هي شيء من المتعة..شيء من الأكل والشرب..وقضاء الوقت في الأحاديث عن الحياة والعائلة والأولاد أو الوظيفة والعمل..أو الحديث عن الفن وعن الأفكار العظيمة التي يمكن أن تغير العالم والحياة والمجتمعات..!!.. لكن حتى وإن تغيرت المجتمعات والحكومات والبشر.. فهل سيكفون عن الأكل..والشرب..والنكاح..واللبس..والنوم..والأكاذيب..؟..هل سيكفون عن الوقوف أمام لوحات الفن الحديث التي لا يفهمون منها شيئا لكنهم يعقدون حواجبهم ويضعون قناع التفكير على وجوههم ليبدوا أنهم من متذوقي الفن الحديث الذي يسخرون منه في أعماقهم؟."..

انتبهت إلى نفسها فوجدت حالها تتجه نحو الفندق دون وعي منها..وكلما ابتعدت عن المقاهي والمطاعم والصخب والسيّاح والشباب المبتهج، ازدادت رغبتها في أن تلوذ إلى غرفتها.. بانتظار الغد حيث ستصل صديقتها صباحا..

* * *

جلس آدم بوناروتي، متعباً، على كرسي شبه متداع قرب اللوحة. كان مرهقاً،

وكأنه استنفد كل قلقه في رسم تلك اللوحة..أخذ ينظر إلى اللوحة نظرات مجهدة لكنها مليئة بالحنان والغموض..ثمة رضا وحيرة في أعماقه..ودارت في ذهنه أسئلة غامضة: " تُرى من هي تلك المرأة التي في اللوحة..؟ هل هي حواء ذوالنورين أو هي إيفا ماريا بوناروتي أم زوجته..؟ هل هو وجه المرأة التي كان اسمها حواء صحراوي والتي رأى تخطيطاً لها عند صديقه الرسام العراقي آدم الغفاري، الذي يعيش في نابولي..؟..نعم..حين قُتلت تلك المرأة التي جاءت من لندن، والتي اسمها حواء صحراوي، بطريقة غامضة في فندق بجزيرة إسكيا، اعتقلت الشرطة الإيطالية صديقي الرسام آدم الغفاري لأنه كان قد رسمها قبل يوم من مقتلها..!!..لكنه صار مهووسا بها إذ رسم لها عشرات اللوحات والتخطيطات..فمن تُراها هذه المرأة التي رسمتُها في لوحتي..؟".. وبرغم تساؤلاته الغامضة كان يحس برضا..أعجبته صورة السيدة في اللوحة التي أنجزها للتو وكأن إلهاما غامضاً ومجهولاً هو الذي أنجز هذه اللوحة.

نهض عن كرسيه. اتجه إلى الطاولة..صب لنفسه نبيذاً حتى امتلأت الكأس.. أخذ يرتشف من الكأس وهو يتجه للوقوف أمام اللوحة..عب الكأس كلها. أحس أن اللوحة تنبض بالحياة..وأن عيني المرأة تتقدان..أحس بأن شيئاً ما غير طبيعي يجري في مرسمه..ظن بأن الأمر ربما له علاقة بالنبيذ..فقد أجهز على قنينتين من النبيذ أثناء رسمه للوحة..انتبه إلى الوقت..تذكر أنه انهمك برسم اللوحة ولم يذهب إلى موعده مع هذه المرأة اللبنانية غريبة الأطوار والتي اسمها حواء الحلو. وضع القدح على الطاولة..نظر إلى اللوحة وكأنه يودعها أو ليتأكد من كمالها..وغادر المكان.

الفصل العاشر

في كنيسة نوتردام

نهضت حواء ذوالنورين من سريرها..سمعت موسيقى خفيفة تأتي من الصالة وثمة حركة غسيل وصحون تأتي من جهة المطبخ. كانت تحس بصداع خفيف. لقد عادتا من مقهى دي فلوري في وقت متأخر من ليلة البارحة. لم تذهب لتنام عند والدة إيفا وإنما جاءت مع صديقتها إلى شقتها لتواصلا السهرة، بل واقترحت عليها المبيت عندها في الشقة، فالأولاد عند جدتهم وزوجها قد سافر إلى مدريد.. وهكذا واصلتا سهرتهما.

لم تشرب كلتاهما في المقهى سوى كأسٍ واحدةٍ من النبيذ، على الرغم من أن آدم سانتشو ماريا زاباتو قد كان كريما حينما كان يطلب قناني النبيذ واحدة تلو الأخرى، وقد احتسى أكثر من قنينتين من النبيذ، بل حتى صديقتها حواء دمشقية لم تشرب سوى كأسٍ واحدة أيضاً. لكنهما حين عادتا إلى الشقة، فتحتا قنينة نبيذ وجلستا تتحدثان إلى وقت الفجر.

تثاءبت حواء ذو النورين. تذكرت أنها رأت شيئا في منامها..كانت هناك أروقة مظلمة..رأت نفسها تنزل سلما خشبياً، ثم فجأة وجدت نفسها تنزل سلماً حجرياً، وتدخل في العتمة..أحست أنها كانت في قاعة كبيرة خالية عالية السقف بشكل مريب. كانت تمشي ولا ترى شيئاً.. لكنها كانت تسمع ما يشبه خرير ماء يجري على الأرض وكأنه ساقية أو جدول..وفي أماكن أخرى كان هناك صوت لقطرات ماء تسقط بانتظام لتشكل إيقاعاً في ذلك الصمت المريب..ولم تعد تذكر شيئاً.. حاولت أنت تستذكر بقية منامها..لكن الصور كانت مشوشة.نعم..تتذكر الآن كيف أنها ارتعبت من صوت صفيحة تدحرجت في تلك القاعة المظلمة أو كأنما هناك

من ألقى بها.. لكن من؟ لم يكن هناك أحد.. إنها تتذكر أن الظلمة انشقت عن فجوة صغيرة وسط أحد جدران القاعة..رأت نفسها في مقبرة..ورأت مجموعة من الناس في ثياب المأتم الأسود..يقفون بحزن حول حفرة فهمت أنهم يدفنون صديقاً أو قريباً لهم..استغربت أن الوقت في القاعة أو حينما نزلت السلالم كان ليلاً، بينما الوقت هنا هو النهار..فجأة هبت ريح عاتية لم يستطع المعـزّون أن يصمدوا أمامها، رافقها هطول مطر غزير ومفاجئ..هرب المعزون..وحفار القبر..وبقيَ التابوت وحيداً تحت المطر المدرار..هي نفسها وجدت نفسها تهرب راجعة إلى القاعة المظلمة.. لكنها انتبهت إلى أنها اختفت..بل تلاشت جسديا في الظلمة..ولم تعد هي موجودة.. صارت جزءاً من الظلام..ومن بعيد نظرت إلى الفجوة التي في جدار القاعة المظلمة فرأت المطر المنهمر على فتحة القبر..ثم رأت الميت ينهض.. يفتح تابوته وويغادر القبر..ويمضي في الأفق المواجه لها ليختفي في الأفق الممطر.

ظلت حواء ذوالنورين تفكر مع نفسها في منامها هذا..وتراءى لها أنه هذا الحلم قد تكرر لديها أكثر من مرة..سألت نفسها: " لماذا يتكرر هذا الحلم في منامي..؟ ولماذا كانت المقبرة أوربية، وليست مقبرة شرقية..؟..أين رأيت هذا الحلم..ومتى..؟ وأين رأيت هذه المقبرة فعلا..؟ هل رأيت مثل هذه المقبرة في فلورنسا..؟".. أحست بقشعريرة تسري في جسدها..فكرت ربما هي كوابيس ناتجة عن كمية النبيذ الذي احتستها مع صديقتها إيفا سميث بعد أن عادتا إلى الشقة.

نظرت حواء ذوالنورين إلى ساعتها اليدوية التي كانت قد وضعتها عند رأسها فانتبهت إلى أن الساعة هي التاسعة. فكرت بما دار من حديث ليلة أمس في المقهى، ثم ما كشفت عنه صديقتها في ما بعد في السهرة حينما كانتا وحدهما. استغربت من تصرفات حواء دمشقية..فقد انتبهت كيف أنها مدت بمبلغ من المال خفية من تحت الطاولة ليقوم عشيقها بدفع ثمن النبيذ..كما انتبهت لغيرة حواء دمشقية وتوترها العصبي نتيجة تركيز انتباه عشيقها على إيفا سميث في ما بعد، لاسيما بعد أن اقترح عليها، بعد بضعة أسئلة وأجوبة، أن يلتقي بزوجها آدم سميث ليطرح عليه مشروعا اقتصادياً..وبينما هي مستغرقة بتكاسل لذيذ في فراشها وهي تسترجع ما رأت. سمعت طرقاً خفيفاً على الباب. انتبهت وقالت:

- نعم..

فُتح الباب وأطلت إيفا سميث باسمة. وهي تقول:

- الفطور جاهز..علينا اليوم أن نزور اللوفر..وكنيسة نوتردام..وربما سنلتقي صديقتنا لنتغدى معاً.
- وأولادك..؟!
- إنهم عند أمي..اليوم عطلة..وهي ستذهب معهم عند النافورات القريبة.. تشتري لهم الآيس كريم..والحلويات..هم عادة يقضون معظم أوقات نهاية الأسبوع معها..
- حالاً..سأنهض حالاً..
- ستجدين برنساً جديداً في الحمام..يمكنك أن تستحمي أيضاً..
- أوه..شكراً..أنت تدلليني..

ابتسمت إيفا سميث لها وقالت بمودة:

- أنت تستحقين الدلال..

قالت ذلك وأغلقت الباب خلفها. تمددت حواء ذوالنورين متمطية بجسدها على السرير.أحسّت بدفق من المسرة يغمرها..ولا تدري لماذا تذكرت الكلمات التي أصر آدم سانتشو ماريا زاباتو أن تقوم إيفا بترجمتها لها..فقد قال بأن على البشر أن يعيشوا وكأنما يكتبون قصيدة.. كل خطوة يجب أن تكون محملة بالدلالات الروحية العميقة واللطف والجمال..علينا أن نجعل الحياة استعارة فنية باهرة..أي تكون علاقتنا بالأشياء علاقة شعرية..فنية..جمالية..لا تدري لماذا تذكرت هذه الجملة الآن..وهي تحاول سبر غور معنى هذا الكلام.

* * *

أحست حواء ذوالنورين بمن يدفعها بقوة إلى داخل الكنيسة، فالتفتت لاإراديا فرأت مجموعة من الشباب السيّاح بلحاهم وبناطيلهم القصيرة وفتيات يضعن الحلقات على أنوفهن وحواجبهن، بينهن من صبغت شعرها باللون الأزرق وأخرى بالأخضر وثالثة بالأحمر..صارت جانبا قليلاً لتفسح لهم المجال..ظلت واقفة للحظات تفكر بهؤلاء الشباب..أحست بغصة ألم حينما انتبهت إلى شاب من بينهم يشبه لحد ما ابنها آدم ذوالنورين الذي انتحر بعد ان رأى الفيديو الذي تم تصوير عملية اغتصابها فيه..لم تدر كم مر من الوقت عليها..كانت لحظات طويلة جداً تعادل حياة بكاملها..

أحست بإرتعاشة في قلبها وأخذ يخفق بسرعة حتى وكأنها كانت تسمع نبضه عالياً.. أحست وكأنها خارج الزمان والمكان..وحين انتبهت لنفسها، رأت نفسها لا تزال واقفة عند مدخل الكنيسة من الداخل..جالت ببصرها في رحاب المكان أحسّت بشيء من الرهبة والحزن الروحاني يسري في كيانها..فتشت بعينيها عن صديقتها إيفا سميث فرأتها تشعل شمعة وتثبتها في شمعدان كبير.

لاإراديا تقدمت..أخذت شمعة وأشعلتها أيضاً..استغربت إيفا سميث لها ونظرت إليها بحنان وطيبة، فهي تعرف أن حواء ذوالنورين ليست مسيحية لكنها أشعلت شمعة للسيدة العذراء..كما أنها وضعت مبلغاً من المال في فتحة صندوق التبرعات.

مضت إيفا سميث لتؤدي صلاتها. لم تكن حواء ذوالنورين تدري ماذا تفعل.. تجولت في الكنيسة وتوقفت أمام بعض اللوحات الفنية..لمحت مجموعة الشباب يحضنون بعضهم برغم النظرات الغاضبة لبعض السيّاح..أحدهم توجه إلى حيث الشموع فأخذ حزمة منها ووضعها في جيبه..ومضى..فتبعه الآخرون خارجين..فكرت مع نفسها:" هؤلاء الشباب يعتبرون أنفسهم قمة التحضر..لكن مع الأسف أن هناك الكثير من المظاهر الحياتية التي تبدو للبعض عصرية..، بيد أنها في الحقيقة ليست سوى مظاهر لسلوك سوقي ومبتذل.."... وظلت تنظر إليهم إلى أن اختفوا خارج الكنيسة.

في الجانب الآخر، حيث تصطف بعض مقاعد الجلوس الخشبية..وحيث مكان التعميد ينتصب وسطه تمثال المسيح لمحت امرأة ترتدي العباءة العربية تجلس بصمت أمام التمثال..ظنت أنها راهبة تصلي..اقتربت من تلك الزاوية ، لكنها وجدت نفسها منجذبة بقوة خفية من أجل أن تجلس على المصطبة الخشبية نفسها التي تجلس عليها المرأة..جلست هناك لا تعرف ماذا تفعل..فهي لا تعرف الصلاة المسيحية.. بل هي لا تصلي أصلاً..

لم تكن تعرف ماذا تفعل..أحست بالحرج..أرادت أن تنهض وتغادر هذه الزاوية، لكنها كانت برغم ذلك مشدودة بقوة غير منظورة لا تستطيع مقاومتها..كانت مع نفسها تريد المغادرة وتصرخ بصمت في داخلها بأن عليها القيام ومغادرة المكان لكنها لا تستطيع..وكأنها مشلولة..وكانت دهشتها صادمة حينما التفت قليلاً إلى تلك المرأة فعرفت أنها نفسها المرأة رأتها في المتحف أمس..والتي فقدت (دفتر الألم)

في مرآب السيارة قرب المتحف. لم تستطع أن تخفي بهجتها لرؤيتها..أحست بأن هذا اللقاء قد دبره القدر لها..فقد أرادت أن تغادر المكان..وهكذا وبدون إرادة منها قالت بارتباك وتردد وبالعربية:

- عفوا.. ممكن أن أسألك سؤالاً..؟

التفتت المرأة إليها. كانت امرأة جميلة، في بداية الثلاثين من العمر..أنيقة الملبس..تضع شالا أسود على رأسها، له علاقة بحرمة المكان وليس من باب التحجب..فالناظر إليها يرى تصفيفة شعرها الكلاسيكية المشدودة للوراء كاشفة عن جبين عريض يحفه من الأعلى شعر كثيف..ووجه متناسق وواضح وناعم الملامح.. ترتدي قميصاً حريرياً أحمر، مغلق الأزرار حتى الرقبة..لا تضع مكياجاً سوى بعض الكحل الذي يزين جفنيها.صدرها ناهـد دون مبالغة..وجسدها يكشف عن تناسق مثير.

نظرت المرأة الغريبة إليها نظرة فيها مودة وتساؤل، إذ أنها لم تكن قد انتبهت لها، لكنها منذ أن التقت عيناها بعينيها أحست وكأنها تعرفها..نظرت إليها صامتة للحظات ثم افتر ثغرها عن ابتسامة طيبة متسامحة وقالت بنبرة خليجية هادئة:

- عفواً...لم أفهمك جيداً..تريدين أن تسأليني..؟

دفء نظرات المرأة ونبرة صوتها المليئة باللطف شجعتها، غمرتها بفرح دافق فقالت بنبرة واثقة وبعفوية وكأنها تعرفها من فترة طويلة:

- نعم..أردت أن اسألك إن كنت قد فقدت مخطوطة لقصة ما..؟

صمتت المرأة الأخرى للحظات وأخذت تنظر إلى حواء ذوالنورين بغرابة وكأنها تستجلي الموقف فأجابت بسؤال:

- لا..لم أفقد شيئاً..لكن من أين عرفت بأني كاتبة..؟

نظرت حواء ذوالنورين إليها باستغراب..مندهشة من نفيها لفقدانها أي شيء، على الرغم من تأكيدها بأنها كاتبة، فقالت شارحة:

- ألم تكوني أمس في المتحف..؟ ثم ألم تركني سيارتك في المرآب..؟ لقد كانت سيارتك مجاورة لسيارة صديقتي إيفا سميث..إنها هناك تصلي.. وحينما وصلنا انطلقت أنت بسيارتك..لكننا وجدنا دفتراً أنيقاً على الأرض حيث موقف سيارتك..شخصياً أخذت الدفتر معي..وقرأته..الدفتر يتضمن قصة بعنوان (دفتر الألم)..ربما لم تنتبهي لفقدانه..فتشي جيداً..؟

نظرت المرأة إليها وعلى وجهها إبتسامة تشع طيبة وتسامحاً، وقالت بنبرة فيها شيء من المرح:

- قبل كل شيء..أنا لم أكن أمس في أي متحف هنا في باريس..صحيح أني نويت الذهاب إلى متحف الأورسيه..لأن هناك معرضا زائراً للأزياء التاريخية..لكني لم أخرج من شقتي..بقيت أنقّح في روايتي الجديدة..ثم..لا سيارة لديّ..اتنقل هنا بالتاكسي.. وصحيح أني كاتبة لكني لم أكتب قصة بعنوان (دفتر الألم)..وإنما روايتي الوحيدة المنشورة هي (ملاك الجحيم).. أما روايتي الجديدة فقد أتممتها..لكني لم أفكر في نشرها بعد.. فأنا أدقق المخطوطة..

وبينما كانت الدهشة تقبض على أنفاس حواء ذوالنورين، كانت الأخرى تفتح حقيبتها لتخرج منها كتاباً متوسط الحجم..وقدمته لها قائلة:

- هذه روايتي المنشورة..

أخذت حواء ذوالنورين الكتاب مستغربة ما سمعت. ألقت نظرة سريعة على الغلاف الأنيق وقرأت العنوان (ملاك الجحيم).. ازدادت دهشتها حينما قرأت اسم المؤلف (آدم بن آدم).. رفعت وجهها ناظرة إلى المرأة بتساؤل..انتبهت المرأة وأدركت معنى نظرتها، فأجابت قبل أن تسمع سؤال حواء ذوالنورين:

- أعرف..أنك مستغربة بأن روايتي تحمل اسم مؤلف رجل..هو آدم بن آدم..نعم..هي قصة عنيفة..وفيها الكثير من التفاصيل المكشوفة..خفت من نشرها باسمي الحقيقي..أو باسم أية أنثى..فنشرتها باسم وهمي هو آدم بن آدم..لكن روايتي الجديدة سأنشرها باسمي الحقيقي..خذي هذه النسخة.. لكني للأسف لا أستطيع أن أكتب لك إهداء لأن مؤلفها رجل..وأنا لا أستطيع التوقيع بدلاً عنه..بالمناسبة..أنا اسمي حواء الذهبي..وحضرتك..؟

صُدمت حواء ذوالنورين حينما نطقت الأخرى باسمها..سمعت حملقت فيها مستغربة وقالت:

- لكن بطلة (دفتر الألم) اسمها إيفا ماريا الذهبي.. والكاتبة اسمها حواء الذهبي أيضاً..؟

نظرت المرأة الأخرى التي اسمها حواء الذهبي إليها بدهشة وقالت:

- هذا مثير للغرابة.. لم أكتب شيئاً تحت عنوان : (دفتـر الألـم) ..فكيف وجدت دفترا يتضمن قصة مكتوبة باسمي؟

- البطلة هي إيفا ماريا الذهبي..والكاتبة حواء الذهبي..والبطلة فتاة خليجية مثلك..

نظرت الكاتبة حواء الذهبي إليها باحثة عن مصداقية ما تسمع..وأيقنت أن ما تقولة حواء ذوالنورين صحيح فقالت وعلى وجهها ملامح التفكير:

- غريبة.. لهي مصادفة غريبة أن توجد كاتبتان خليجيتان تحملان اسم حواء الذهبي..ثم أني لم أنشر بعد أي شيء باسمي الحقيقي: حواء الذهبي.. فكتابي الوحيد والمنشور هو (ملاك الجحيم) باسم آدم ابن آدم..

لم تجد حواء ذو النورين ما تقوله لتفسر هذه المصادفة الغامضة..ثم انتبهت إلى أنها لم تقدم نفسها فقالت:

- عفواً..أنا حواء ذوالنورين..عراقية..

- يا زين أهل العراق..أنا نصف عراقية..بالمناسبة روايتي تتحدث عن امرأة عراقية اسمها حواء السندسي التقيتها في مدينتي..كانت زائرة لأختها المتزوجة من رجل من أبناء البلد..وحكت لي قصتها المؤلمة فدونتها..على لسان رجل..وأحداثها تجري في استنبول..هي أقرب إلى القصة التسجيلية والحوار منها إلى الرواية الأدبية ..يسرني أن تقرئيها..كما يسرني أن أسمع رأيك بها..

- وكيف ستعرفين رأيي..؟

أخرجت المرأة التي اسمها حواء الذهبي دفتراً صغيرا..انتبهت حواء ذوالنورين إلى أنه يشبه الدفتر الذي عثرت عليه بالمرآب بالضبط..استلت الكاتبة الغامضة حواء الذهبي ورقة صغيرة من بين طياته وكتبت رقم هاتفها..وقدمت الورقة إلى حواء ذوالنورين وهي تقول لها باسمة:

- سنكون بالتأكيد على تواصل..أنا أعيش في باريس منذ سنة تقريبا..وأنت..؟

- أنا وصلتها منذ أيام..

فجأة نهضت المرأة الكاتبة، فاضطرت حواء ذوالنورين أن تنهض هي الأخرى.. مدت الأخرى يدها وتصافحتا بقوة ..وقبل أن تمضي قالت حواء ذوالنورين لها:

- انتظري..لأعرفك على صديقتي إيفا سميث..

ارتبكت الكاتبة حواء الذهبي..وقالت بنيرة استعجال:

- فرصة أخرى إن شاء الله..سنتواصل..اتصلي بي..أو أنا سأتصل بك..لكننا لا نلتقي قبل أن تقرئي هذا الكتاب.. اتفقنا.

- اتفقنا.

تحركت الكاتبة حواء الذهبي نحو باب الخروج..في تلك اللحظة التفتت حواء ذوالنورين مفتشة عن صديقتها إيفا سميث التي كانت مقبلة نحوها..وقبل أن تصل التفتت حواء ذوالنورين باتجاه الكاتبة حواء الذهبي ففوجئت بأنها اختفت..تلفتت إلى ما حولها فلم تجد لها أثراً ..استغربت من اختفائها الغامض..فليس من المعقول أنها غادرت بهذه السرعة، فالوصول الى باب الخروج يحتاج وقتاً أطول من الفترة التي اختفت هي فيها.

حين وصلت إيفا سميث سألتها باسمة:

- لِمَ كنت جالسة هنا وحدك طوال الوقت..؟

استغربت حواء ذوالنورين كلامها وقالت بهدوء:

- لم أكن وحدي..كنت مع كاتبة اسمها حواء الذهبي..كنت أظنها المرأة التي قابلناها في المتحف..المرأة صاحبة الدفتر الذي عثرنا عليه في مرآب السيارات..لكن اتضح أنها ليست هي.. تحدثنا طويلاً..وأهدتني كتابا وأعطتني رقم هاتفها ..

نظرت إيفا سميث إليها باستغراب وقالت:

- ماذا..؟ لقد كنت وأنا أصلي التفتت إليك من بعيد..خفت أن تتيهي..رأيتك تجلسين..لكنك كنت وحدك..لم يكن معك أحد..؟

- كيف لم يكن معي أحد ..؟ لقد أهدتني كتابا..وهذا هو رقمها..

رأت إيفا سميث الكتاب بيدها والورقة أيضاً..قرأت مباشرة عنوان الكتاب (ملاك الجحيم..) واسم المؤلف آدم ابن آدم.. فاستغربت ..نظرت إلى صديقتها بغرابة وقالت بطريقة فيها شيء من عدم الثقة بما سمعت:

- غريب. كنت أنظر إليك بين دقيقة وأخرى..فلم يكن هناك أي شخص معك..بيد أن هذا الكتاب موجود فعلاً.. وكذلك رقم الهاتف..لكن ألم

تستغربي أن الكتاب يحمل اسم رجل بينما أنت تقولين إنها كاتبة..؟!

نظرت حواء ذوالنورين إلى الكتاب وقالت مؤكدة كلام صديقتها:

- هذا ما أثار استغرابي أيضاً ..لكنها شرحت لي بأنها لم تجرؤ على نشره باسمها..

- آها..

- سنقرأه ونرى لماذا ترددت في نشره باسمها..؟!

- على أية حال..علينا الذهاب إلى اللوفر أيضاً.

اتجهتا نحو باب الخروج وتداخلتا مع بقية الزائرين الذين احتشدوا عند الباب.

الفصل الحادي عشر

أكاذيب المرأة العاشقة

قبل أن تتوجه، إيفا سميث وحواء ذوالنورين، إلى اللوفر، وعند بوابة كنيسة نوتردام رن هاتف إيفا سميث النقال، وحينما نظرت إلى شاشة الجهاز عرفت أن المتصل هي حواء دمشقية. خمنت لحظتها بأنها تريد أن تعتذر أو تشتكي من تصرف عشيقها آدم سانتشو ماريا زاباتو ليلة البارحة أو أنها تريد الإعتذار عن موعد الغذاء معهما، ألا أن إيفا سميث استغربت حينما طلبت منها صديقتها أن تلتقيها حالاً في مقهى فوكيه في الشانزاليزيه لأنها تريد أن تتحدث معها عن المفاجأة الكبرى إذ أن آدم المفتي، عشيقها اللبناني، قد وافق على الزواج منها، وحينما سألتها إيفا عن الحمل، وهل أخبرته بأنها حامل من غيره، فأكدت لها حواء دمشقية بأنها أخبرته عن حملها، لكنها لم تذكر بأن الحمل ليس منه..حين سمعت إيفا ذلك صُدمت وأحست ببرودة تسري في مفاصلها..لم تعلق على ما قالت وإنما أخبرتها بأنها تعتزم مع خواء ذوالنورين زيارة اللوفر، لكنها ستلغي زيارة المتحف وستقابلها حالاً.

انتبهت حواء ذوالنورين إلى أن شيئاً مهما قد حدث، لاسيما بعد أن أخبرتها إيفا سميث بأن عليهما التوجه إلى أحد المقاهي في الشانزاليزيه لأن صديقتهما حواء دمشقية تحتاجها في أمر عاجل وطارئ..فلم تعترض بل أيدتها بأن تولي هذا الأمر أولوية. وهكذا توجهتا نحو المكان المقصود.

* * *

كانت إيفا متوترة..وتكتم غضبها وهي تحدث صديقتها حواء دمشقية بنبرة تحاول أن لا تكون عالية:

- كلما أحاول أن أقنع نفسي بأني أفهم الحياة، والناس، والعلاقات، وما يدور

حولي، يبدو هذا صحيحاً جداً مع كل الناس، إلا معك..فمعك أتفاجأ بأني لا أعرف شيئاً بتاتاً..بل أبدو ساذجة وبلهاء أمام نفسي..كيف تجرأت على ذلك..؟ كيف تريدين أن تبني حياتك على الخديعة والكذب والخطيئة..؟ كيف تجرأت أن تنسبي جنينك إليه ولم تخبريه بحقيقة الأمر..؟ ثم ألم نتفق على أن تجري عملية إجهاض هنا في باريس..؟ وإلّا لماذا ذهبت أنا إلى دمشق..؟ ولماذا جئت بك إلى باريس..؟ ألم نتفق في دمشق بأنك لن تعودي إلى مقابلة عشيقك آدم زباتو..؟ البارحة فاجأتيني به..كنت أتوقع مجيئك مع آدم المفتي..وليس مع عشيقك اللاتيني..؟ وفوق هذا كله كذبت على آدم المفتي وحطمت حواجزه الشخصية وموانعه النفسية من خلال الإدعاء بأنك حامل منه..؟ والله أنك إنسانة غريبة..وأنني لا أفهمك ولا أستطيع تقبّل ما تقومين به..وبرغم ذلك أتعاطف معك لأنك صديقتي.. لكن، وبصراحة شديدة أنني في إحترامي لقراراتك وتصرفاتك أشعر وكأني أنحدر إلى الحد الذي أفقد فيه احترامي لنفسي..

كانت حواء ذوالنورين تجلس على مقربة منهما دون أن تركز انتباهها على ما يدور بينهما من حديث احتراماً لهما ولخصوصية الموضوع الذي تتحدثان عنه.. لكنها برغم ذلك كانت تسمع الحوار..وهنا سمعت حواء دمشقية تقول بنبرة فيها توسل وضعف واعتراف :

- أعترف أنني إنسانة مشوهة من الداخل..منكسرة..حائرة..هشة..مهانة.. ومتناقضة..لكني أيضا مجنونة..لا أعرف أين قرأت أنه من السهل جداً جعل المقدمة مؤخرة..المسألة كلها في تغيير الاتجاه..البارحة حينما كنا في مقهى دي فلوري..كنت مع نفسي قد قررت بأن أخبر آدم زاباتوا بحملي منه..لكني رأيته قد فقد سيطرته على نفسه وشرب حوالي قنينتين من النبيذ، لذلك أجلت الحديث في الموضوع..كنت غاضبة منه جداً.. فهو مفلس لكنه يستعرض كرمه وأريحيته وسخاءه على حسابي ونفقتي.. وحينما عدت للبيت رأيت حبيبي آدم المفتي قد عاد..وبدأ يسألني عن سبب عصبيتي وغضبي الذي لم أكن قد سيطرت على إخفائه..وبعد إلحاح منه.. جاءتني فكرة شيطانية هو أن أنتقم من آدم زباتوا بأن أنسب الجنين الذي

في رحمي إلى حبيبي..وهكذا قلت له إنني عصبية..لأنني أخفيت عنه بأني حامل..وأن هذا الأمر هو الذي دفعني إلى مغادرة باريس إلى دمشق..وأن الحمل صار صعب الإجهاض..كما أني أريد الاحتفاظ بالجنين ولا أريد اسقاطه..لكن الغريب أن حبيبي آدم المفتي الذي أجبرني على الإجهاض سابقاً فرح جداً هذه المرة..بل صُدم حين سمع عذري كسبب لمغادرتي باريس إلى دمشق..لم أكن أتوقع ذلك..بل اقترح علي الزواج في الحال، فهو لا يريد لطفله أن يكون غير شرعي وغير مسجل رسمياً..

نظرت إيفا سميث إليها بتساؤل وقالت بنبرة فيها إتهام:

- الرجال أطفال..أغبياء من السهل خداعهم..فكل (دون جوانيتهم) وخبرتهم لا تصمد أمام مكر المرأة وخديعتها..هم سُذّج..وأحيانا أبرياء..لكنك بذلك تخدعينه..فهذا الجنين ليس من نطفته يا حواء..؟

صمتت حواء دمشقية للحظات..كانت أمواج الألم والمعاناة تصطخب على ملامحها، ثم قالت باستسلام:

- ماذا أفعل يا إيفا..؟ أنا تائهة..غريقة تتقاذفها أمواج الغيرة والرغبة الملعونة والأوهام الكبيرة..أحاول أن أختلق لنفسي سعادة مزيفة..وأعرف أنها سعادة مزيفة.وأنها ليست أكثر من هاوية أمضي إليها مفتوحة العينين..لكنني أبحث عن مرفأ سلام لنفسي وروحي وجسدي حتى لو كان ذلك في قاع الهاوية..

ردت عليها إيفا سميث بإستنكار، لكن بصوت خافت:

- لماذا تفكرين بنفسك فقط ولا تفكرين به..؟ إنك تخدعينه..ما ذنبه هو المسكين..؟

أحست حواء دمشقية بنيرة الإتهام الواضحة، فقالت بنبرة مستفزة:

- أنا لم أطلب منه أن يتزوجني..هو الذي اقترح ذلك لحظة قلت له إني حامل، وأني لا أريد إجهاض الحمل، وأريد الاحتفاظ بالجنين..لم أذكر له بأني حامل منه..قلت فقط إني حامل..لكنه ظن أنه منه..قال لي إن العمر يمضي به..وهو لا يريد أن يكرر الخطأ الأول عندما أجبرني على الإجهاض حينما حملت منه قبل سنوات..وهو يريد أن يتزوجني الآن.. ولم أتجرأ بعدها على قول الحقيقة حينما نطق بكلمة الزواج..أنت تعرفين

أن هذا هو حلم حياتي..

فقالت إيفا سميث بألم مدافعة عن الحبيب المخدوع:

- هو لم يسألك إن كان الجنين منه أو من غيره لأنه يثق بك ثقة مطلقة.. ولا يعرف أي شيء عن خيانتك له..وعن عشيقك الآخر..!! المهم..ماذا ستفعلين الآن..؟

ظلت حواء دمشقية صامتة..تنظر إلى إيفا سميث في وجهها مباشرة لكنها لا تجد ما تجيبها به..ثم قالت بحيرة :

- لا أعرف..أريد رأيك أنت.. لهذا طلبت منك أن نلتقي..لقد لجأت إليك.. أنت قديستي..وعرافتي..وملاكي الحارس..

أحست إيفا سميث بنشوة داخلية من جواب حواء دمشقية، فاسترخت قليلاً.. بل وتعاطفت معها داخلياً دون أن تبدي ذلك..وأعجبها أن تمارس دور الناصحة، لكنها وجدت نفسها هذه المرة في موقف صعب جداً..فقالت بنبرة هادئة لكنها جادة مع شيء من التوتر الخفي:

- لا رأي لي في هذا الأمر يا حواء..فأنا أعرف أن زواجه منك هو حلم حياتك..لكني أعرف أيضا أن هذا الزواج قائم على خديعة كبرى..إنني في هذه اللحظة أختلق الأسباب لنفسي كي لا أطلق حكما وأعطيك رأيا.. لأنك إذا أخبرته بحقيقة الأمر ستفقدينه إلى الأبد..بل ربما سيتحول إلى عدو لك..وإذا أخبرت عشيقك الآخر، الفتى اللاتيني، فهو شاب لعوب ينظر إليك كعاهرة لا أكثر..بل هو (جيكولو)، لأنه يمنحك جسده مقابل المال الذي تغدقينه عليه..وربما سيفضحك..أفكر أيضا بأنك لا يمكنك أن تجري عملية إجهاض للجنين..دون أن تفقدي حبيبك..أي عليك أن تسرعي بعملية الزواج..وبعدها تجرين العملية خفية..وتخبرينه بأنك تعرضت لعملية إسقاط للجنين، وبذلك تتخلصين من تأنيب الضمير الذي سيلازمك طوال حياتك معه..وبعدها بشهور يمكنك أن تحملي منه بشكل حقيقي.. لا أعرف ماذا أقول.. لقد أدخلتني في دوامة..

بينما كانت، إيفا سميث وحواء دمشقية تتحدثان في ما بينهما، كانت حواء ذوالنورين تتصفح مجلة فرنسية موضوعة على الطاولة التي أمامهما، وتعيش لحظات

تجلٍ ونشوة روحية نادرة..فمنذ لقائها بالكاتبة حواء الذهبي وهي تعيش حالة إنشداه روحي..تشعر بسعادة غريبة..يغمرها حب للناس جميعاً..وأنها برغم عدم معرفتها باللغة الفرنسية إلا أنها تحس برغبة في احتضان الناس والحديث معهم وإلقاء التحية عليهم..سعادة رقرقت الدمع في عينيها..لكن هذا الإحساس سرعان ما خمد حينما تذكرت ما قالته لها إيفا سميث من أنها كانت وحدها جالسة ولم يكن ثمة أحد معها..فماذا يعني هذا..؟ وبحركة مفاجئة وضعت المجلة على الطاولة وفتشت في حقيبتها الجلدية وأخرجت الكتاب الذي أهدته لها المرأة الغامضة..

أحسّت بأن الصمت هيمن على كل شيء..فقد كُتمت جميع الأصوات حولها.. نظرت إلى صديقتيها فرأت حركة شفاههما، لكنها لم تسمع أي شيء..أحست بالفراغ.. وبحزن شفيف أخذ يخترق روحها مثل أشعة الغروب..حزن تحول في لحظات إلى كآبة..لم تصدق أنه خلال ثوان..ثوان فقط.. مرت بكل هذه التحولات.. من نشوة الفرح إلى غيوم الكآبة..!.

ألقت نظرة على الكتاب الذي بين يديها قرأت عنوانه مرة أخرى (ملاك الجحيم) للكاتب آدم بن آدم. بقيت لوقت لا تعلم كم امتد وهي تتأمل الغلاف. فجأة، انتبهت على صوت اخترق حاجز الصمت.. حين رفعت رأسها وجدت آدم سانتشو ماريا زاباتو، وكمن كان غاطساً تحت الماء لا يسمع أي شيء ثم أخرج رأسه إلى سطح الماء فأخذ يسمع ضجيج الحياة والأشياء، كذلك أحست حواء ذوالنورين فجأة بتدفق الأصوات إلى أذنيها..

انتبهت إلى أن صديقتيها قد فوجئتا بمجيء آدم زاباتو..وبالأخص إيفا سميث، التي بدا أنها كانت تخمن لأول وهلة بأن صديقتها قد اتفقت معه للقاء دون أن تخبرها، لكن حينما رأت الدهشة وعدم الرضا على وجه صديقتها أيضا أحست بأن الأمر ربما كان مصادفة حقاً. وبرغم أن المرأتين لم تبديا ترحيبا علنياً بحضوره إلا أنه لم يأبه لذلك وإنما جلس قبالتهما دون استئذان، فبدا الانزعاج واضحا على وجه حواء دمشقية..لذلك لم تستمر في الحوار، وبدت متضايقة جداً، وسرعان ما ودعت صاحبتها وطلبت منه أن يغادرا المقهى..ثم ودعت حواء ذوالنورين ايضاً..وغادرا. عندها اقتربت إيفا سميث معتذرة من حواء ذوالنورين لإنشغالها عنها بالحديث مع حواء دمشقية..

لم يكن هناك أي أثر من الشعور بالإهمال بادياً على وجه حواء ذوالنورين.. وإنما كانت تجتاح كيانها رغبة متأججة..رغبة عارمة في أن تذهب إلى البيت لتختلي مع نفسها كي تقرأ رواية (ملاك الجحيم)، إلا أن إيفا سميث اقترحت عليها الذهاب إلى مطعم قريب.

إيفا سميث كانت تحس بالتوتر والتوهان..فحديثها مع صديقتها صدمها..كانت في أعماقها تلاحق حكاية صديقتها منذ لحظة تعارفهما..سنوات مرت في ذهنها خلال ثوان..تذكرت أول تعارف لها مع حواء دمشقية..علاقتها بحبيبها اللبناني آدم المفتي..سنوات العشق والشغف والرغبة والصراعات..وصمود آدم المفتي ضد كل محاولات صديقتها لجره إلى قفص الزواج..حملها وإجبارها على الإجهاض..علاقتها الغريبة مع الفتى المثير آدم زباتو..هروبها لدمشق..محاولتها الانتحار..وعدها بأن تقطع علاقتها بالعشيق الثاني.. عودتها الحالية إليه..وها هي تكذب على حبيبها الأول..

نظرت إلى صديقتها حواء ذوالنورين فأحست بتأنيب الضمير.. فهذه المرأة اجتازت الجحيم لكنها لم تخدع نفسها ولم تخدع أحداً.. فجأة أحست بدفق من المشاعر الدافئة تجاهها فتوجهت إليها بكل كيانها.

- هل تحبين الأكل اللبناني.. حواء..؟
- طبعا..خاصة المقبلات..أحب التبولة اللبنانية وبابا غنوج والحمص بطحينة.. والمسقّعة..وبعدين أحب الحلويات اللبنانبة ..خاصة أم علي..
- طيب..سنذهب إلى مطعم لبناني قريب نوعا ما في شارع واشنطن اسمه (لي بارون)..يقدم كل أنواع المقبلات..بعدها نذهب إلى المتحف..
- وهو كذلك.

* * *

كان الوقت مساء..حين مرت إيفا سميث على أمها وأطفالها لتتفقد أحوالهم، أرادت أن تأتي بالأطفال معها إلى شقتها إلا أنهم تشبثوا بجدتهم يريدون البقاء معها، فهي تسمح لهم بأن يمارسوا شقاوتهم البريئة.. أخبرت إيفا أمها بأن صديقتها حواء ذوالنورين ستنتقل للسكن عندهم..تضايقت الأم قليلاً لكنها لم تعلق..سوى بجملة واحدة" بيوتنا مفتوحة لها..سواء هنا أو عندك..أينما تجد راحتها فأهلا بها.."..

أحست حواء ذوالنورين بالحرج.. لكنها أخذت حقيبتها الصغيرة من الغرفة..غادرتا

بيت الأم..وحينما صارتا في شقة العائلة حاولتا مواصلة سهرتهما معاً..لكنهما كانتا في حالة نفسية غير رائقة.. لذلك لم تكن سهرتهما طويلة..

كانت إيفا سميث شاردة الذهن، وهي كذلك منذ إتصال صديقتها الهاتفي عندما خرجتا من الكنيسة..هذا الشرود كان مشوباً بتوتر نفسي داخلي يبرز بين فترة وأخرى بشكل واضح، مهما حاولت هي السيطرة عليه، وهكذا كانت طوال السهرة، لذا كانت هناك رغبة حقيقية لكل منهما في أن تنفرد بنفسها..كانت إيفا سميث خائفة من مشاعرها المختلطة حيث كانت صور الشاب اللاتيني آدم زباتو تقفز دون إرادة منها أمام عينيها..حاولت أن تبعده عن تفكيرها لكن دون جدوى.. مما أثر على مزاجها المنطلق وعفويتها في الحديث والتعامل..لذا توجهت كل منهما إلى غرفتها. كان الوقت بعد منتصف الليل بقليل.

* * *

حين أضاءت حواء ذوالنورين المصباح في غرفة النوم أحست بقلبها يكاد يخنقها من شدة خفقانه بسبب هول المفاجأة. لمحت قرب النافذة شبح امرأة بملابس سوداء. كانت المرأة تلبس ثوب سهرة أسود أطراف أكمامه بيض..وعند ياقته ثمة بطانة بيضاء وتلف ربطة رفيعة زرقاء..وكانت مصفوفة الشعر بطريقة كلاسيكية تشدّه بربطة تزينها وردة سوداء بارزة. وكانت المرأة تنظر من النافذة إلى الشارع.

التفت المرأة إليها في تلك اللحظات بالذات، فازداد وجيب قلب حواء ذوالنورين. كانت المرأة هي نفسها امرأة اللوج التي رأتها في المتحف، وكذلك رأتها جالسة في مقهى دي فلوري..وها هي الآن هنا لكن بثوب جديد. انتبهت حواء ذوالنورين إلى بريق ينبعث من عينيها..بريق أشبه بلمعة الدمع..وكأن الدمع يملأ مقلتيها.

الدهشة شلت حواء ذوالنورين فلم تكن تعرف ماذا تفعل. لم تستطع حتى أن تصرخ، إذ أحست بالشلل يُرخي فكيها.. أرادت أن تخرج لكن يدها شُلت فلم تكن تستطيع أن تحرك مقبض الباب، ولم تستطع حتى أن تستدير بجسدها. مرت لحظات من الصمت بينهما. كل منهما تنظر إلى الأخرى.كانت المرأة الغريبة في الثوب الأسود تبتسم بحزن وتنظر إليها نظرات دافئة مشجعة مليئة بالأمان والتعاطف، بينما كانت حواء ذوالنورين خائفة ومتوجسة..وحينما لاحظت المرأة في الثوب الأسود ارتباك حواء ذوالنورين قالت لها وكأنها تعتذر عمّا سببته لها من خوف

وارتباك، وبلغة عربية فصيحة :

- لا تخافي مني..أنا لا أنوي إيذاءك..

أحست حواء ذوالنورين بشيء من الإسترخاء، لكنها انتبهت فجأة إلى أن هذه المرأة تتحدث العربية، فتجرأت على السؤال:

- من أنت..؟ وكيف دخلت إلى هنا..؟ بل وكيف تتحدثين العربية..؟

نظرت المرأة في الثوب الأسود إليها بتعاطف وقالت:

- أنا إيفا نيني..واحدة من نساء رينوار العديدات..أنا التي كان يلقبني ب (فم السمكة)..رسمني في لوحات عديدة وبأوضاع مختلفة..أنا نفسي كنت امرأة اللوج..وأنا المرأة في الثوب الأسود..أنا بصورتي هذه، أي في الثوب الأسود، صرت في الأرميتاج..في سانت بيتربروغ بروسيا..أتوا بلوحتي من هناك ليشاركوا بي في معرض للأزياء عبر القرون..لكني ما أن صرت في باريس حتى تأجج في أعماقي الحنين..فغادرت لوحتي وتسللت إلى خارج المعرض..لأتجول في باريس..

سكينة غريبة تغلغلت إلى روح حواء ذوالنورين مع أولى الكلمات التي بدأت إيفا نيني تنطق بها..وكلما توغلت بالحديث شعرت حواء ذوالنورين بالإطمئنان أكثر.. لكنها وجدت نفسها تكرر سؤالها:

- من أين تعرفين اللغة العربية..؟ هل أنت عربية الأصل..؟

افتر وجه إيفا نيني عن إبتسامة رقيقة، ابتسامة حزينة لكنها مضيئة، وقالت:

- أنا لست أنا..أنا روح منسية.مسكينة..أنا إيفا نيني، إيفا نيني الميتة منذ أكثر من قرن من الزمان..أما أنا، إيفا نيني، التي رسمني رينوار في العام 1874 فأنا حية ترزق..أنا فرنسية..من أب فرنسي وأم فرنسية..ولا أعرف أية لغة غيرها..لكن بعد أن صرت داخل اللوحة..، صرت أعرف كل لغات العالم..وأتحدث مع الناظر إليّ بلغته، مهما كانت تلك اللغة غريبة عليّ..أنا إحساس جمالي أرتدى ثياباً..أنا وهَمٌ يمشي..لا أشيخ ولا أعرف التحول.. لحظة ولادتي الإبداعية هي لحظة خلودي..حياتي وموتي..لكني لا أريد الرجوع إلى لوحتي..لا أريد أن يرجعوني إلى سانت بيتربورغ ليسجنوني في ذلك القصر الشاسع المهيب..أريد أن أبقى في باريس..البارحة كنت

في مقهى دي فلوري..وقد التقيت بنفسي..أو لأكن أكثر دقة بشبيهاتي..
لا.لا.لسن شبيهاتي..وإنما أنا نفسي في أوضاع أخرى..في لوحات أخرى..
وكنت أنا التي في لوحة (اللوج) قد قابلتك في المتحف..وحاولت الحديث
معك..نعم..كما رأيتك في المقهى..أنت لم تريني..كنت موجودةً..وعرفت
من جميع تجسيداتي بأنهن يرجعن إلى المتحف..حيث اللوحات التي هي
إطار حياتنا..

- لكن لِمَ أنت هنا..؟ لِمَ أنت في شقة مدام إيفا سميث..؟

صمتت إيفا نيني لحظة وسألت:

- من هي مدام إيفا سميث..؟

أجابتها حواء ذوالنورين بهدوء، وبشيء من الإلفة الممزوجة بالتوجس، وكأنها
تعرفها:

- صاحبة الشقة..صديقتي ومضيفتي..

صمتت إيفا نيني لحظة ثم قالت وكأنها تستذكرَ شيئاً:

- أنا كنت أعيش في هذه المنطقة التي كانت في زماني تقع خارج باريس
أو في أطرافها النائية..وقبل أن تُشيد هذه البناية الغريبة كان بيتي المتواضع
هنا..هنا بالذات..بيت بسيط..

نظرت حواء ذوالنورين إليها وكانها تريد أن تتأكد من جديتها..ثم سألتها بنبرة
هادئة:

- وكيف عرفت أنه كان هنا..وليس في مكان آخر..؟

نظرت إيفا نيـني إليها للحظات وكأنها تقرأ ما يدور في رأسها وقالت:

- أنا أعرف..لقد احتفظتُ بذاكرتي بكثير من التفاصيل..سواء عن زمني أم
الأزمنة التي تعاقبت بعد موتي الجسدي..

أحست حواء ذوالنورين بقشعريرة باردة تسري في جسدها..وبخوف ارتجف
قلبها على أثره..فسألت بنبرة خائفة ومترددة:

- هل أنت روح طيبة..؟..وماذا تريدين منا..؟

انتبهت إيفا نيني فم السمكة إلى نبرة الخوف في سؤالها..وملامحها الخائفة
والمترددة، فقالت لها مع ابتسامة مليئة بالطيبة:

- لا تخافي..لا أريد شيئاً..أنا روح طيبة..روح منسية..خرجت من إطار لوحتي لأتجول في مدينتي باريس..وجئت لأزور بيتي..ولقد أردت أن أمر على جميع الشقق، والغرف، التي تقع في هذه الجهة من المبنى..لكني فضلت أن أكون هنا في غرفتك..

- لماذا..؟

سألت حواء ذوالنورين خائفة..فابتسمت إليها إيفا نيني وقال بحزن:

- لأنك روح منسية مثلي..

ارتعبت حواء ذوالنورين..فتحت عينيها على وسعهما وقالت:

- لكني لست ميتة..!! أنا لست روحا..أنا جسد ينبض بالحياة..

نظرت إيفا نيني إليها نظرة دافئة وبتركيز ثم قالت بلامبالاة:

- بلى.. أنت روح منسية أيضاً..لا يهم أنك الآن مسجونة في قفص الجسد.. لكنك روح منسية..

أحست حواء ذوالنورين بشيء من الطمأنينة تسري في جسدها..وسألت:

- هذا يعني أنني حية ولست ميتة مثلك..

ابتسمت إيفا نيني لها وسألت:

- أتعتقدين أنك حيـة..؟

- نعم ..أنا حية..

نظرت إيفا نيني إليها للحظات دون أن تعلق مباشرة على جوابها، ثم قالت بحزن وكأنها تحدث نفسها:

- إذا كنت تعتقدين بأنك حية فهذا شيء جيد..إذن..حاولي أن تمنحي كل دقيقة من هذه الحياة التي التي تدعينها معنىً..عيشي حياتك إذن..عيشيها بعمق..وبمتعة..والآن علي الذهاب..

أحست حواء ذوالنورين بالتعاطف معها فسألتها لا إرادياً:

- وإلى أين ستذهبين..؟

نظرت إيفا نيني إليها بهدوء وابتسمت مدارية حزنها وقالت:

- لا تقلقي على فم السمكة إيفا نيني..سأهيم قليلاً في أزقة باريس التي أعرفها..ثم أعود بعد ذلك إلى المتحف..فهناك رينوار ينتظرني ليلياً..هو

موجود هناك أيضا..ويخرج من إطار لوحته مثلي..لكنه لا يذهب إلى أي مكان سوى إلى نسائه العديدات اللاتي رسمهن..وربما يقيمون الليلة احتفالاً.. فقد جاءوا بمختلف الأشخاص من مختلف متاحف العالم..وأعتقد أنهم جميعاً خرجوا من لوحاتهم.. فنحن نخرج من لوحاتنا ليلياً حينما تغلق المتاحف أبوابها..

في تلك اللحظة طُرق باب الغرفة.كانت حواء ذوالنورين لاتزال تقف عنده من الداخل. وسمعت صوت إيفا سميث يأتي خافتاً:

- حواء..هل أنت بخير..؟ سمعت وكأنك كنت تتكلمين مع أحد ما..هل أنت بخير..؟

ارتبكت حواء ذوالنورين..استدارت لتفتح الباب، لكنها التفت إلى إيفا نيني وكأنها تطلب منها مواجهة الأمر أو الإختباء أو أي شيء آخر، لأنها لم تجد ما ستجيب به صديقتها، إلا أن المفاجأة كانت مذهلة حينما لم تجد أحداً في الغرفة، فقد اختفت إيفا نيني.كانت الغرفة فارغة.

فتحت حواء ذوالنورين الباب فرأت إيفا وهي في البيجاما. وكانت نظراتها مليئة بالتساؤل، وقالت بصوت خافت:

- خُيل لي بأني سمعتك تتكلمين..تتحدثين مع شخص ما..فظننت أن ثمة شيئاً ما قد حصل..

ارتبكت حواء ذوالنورين لثوان ثم قالت بلهجة واثقة:

- أتحدث مع شخص ما..؟ مع من..مثلاً..؟

ارتبكت إيفا سميث أيضاً لأنها وجدت تساؤلها غير منطقي، فمع من يمكن أن تتحدث حواء ذوالنورين في مثل هذا الوقت..؟ ..اعتذرت عن إزعاج صديقتها وانسحبت متمنية لها ليلة سعيدة. أغلقت حواء ذوالنورين الباب ثانية. استدارت لتجول بنظرها في الغرفة فلم تجد أثراً لأي شخص أو شبح.. جلست على سريرها. سألت نفسها: " إن كان كل ما رأيته لا يتعدى أحلام يقظة لشدة تأثري بصورة امرأة اللوج..لكنني أتذكر بأني لم أرَ لوحة المرأة بالثوب الأسود هناك..فلِمَ لم تأت إيفا نيني امرأة اللوج..وليس إيفا نيني في الثوب الأسود..؟..ولماذا كانت تُسمى فم السمكة..؟..لا..لم يكن مجرد وهم من أوهامي..وليست للأمر علاقة بهوس ما..

لقد رأيت هذه المرأة تبتسم لي في لوحة اللوج..ثم رأيتها في المقهى..وها أنني أراها هنا في الغرفة..لكن لماذا قالت لي بإنها روح منسية..ماذا كانت تقصد..؟.. ما الذي يحدث معي..؟ ثم..لقد فاجأتني صديقتي إيفا حينما قالت لي بأنني كنت جالسة وحدي في كنيسة نوتردام..، ولم يكن معي أحد في اللحظات نفسها التي كنت أتحدث فيها مع الكاتبة حواء الذهبي..؟.."..

فجأة تذكرت الكتاب..أحست برغبة في قراءته..بهدوء وتكاسل بدأت تنزع ثيابها.. أخرجت من حقيبتها الصغيرة ثوب نوم خفيف.. ارتدته..استلقت في سريرها..مدت يدها إلى حقيبتها..أخرجت كتاب "ملاك الجحيم" لآدم ابن آدم..الذي هو الكاتبة حواء الذهبي.. وشيئاً فشيئاً وجدت نفسها تنسى كل ما جرى معها في الغرفة هذه الليلة..وتوغلت في القراءة:

مــــلاك الـجــحــيــم

للمؤلـف

آدم ابـن آدم

المـقــدمـــة

غـــبـــيٌ مَـــن يـدعـــي الذكـــاء، وجاهـــل مَـــن يـدعـــي المعـرفـة

غبش البداية..

المرأة في الثوب الأسود..

أنا الآن في استنبول. وصلتها قبل ثلاثة أيام. كنت قد حجزت، قبل فترة، من خلال المكتب السياحي في المول الكبير بمدينتي لسفرة سياحية إلى استنبول أمدها أسبوع..فأنا معجب بهذه المدينة التي تعرفت على بعض معالمها من خلال المسلسلات التركية المدبلجة..

حين خرجت من مطار "صبيحة كوجن" الدولي كان الطقس عاصفاً وممطراً، على الرغم من أننا في فصل الصيف. وصلت عصراً..لم تستغرق الرحلة سوى

ساعات معدودة..إلا أن الطريق من المطار إلى فندقي كاد يوازي وقت الطيران من شدة الإزدحام. انقبض قلبي، وأحسست أني أخطأت الاختيار لقضاء أسبوع الراحة، فأنا لا أحب المدن المزدحمة.

كنت قد طلبت من المكتب السياحي أن يجد لي فندقا في وسط البلد.. في مركز المدينة. فأخبروني بأن "ميدان تقسيم" هو من أهم المراكز في المدينة.. فوافقت. بعد ما يقارب ثلاث ساعات وقفت السيارة أمام فندق (ميربال) الذي يجاور القنصلية البلجيكية.

في صالون الفندق استقبلني موظف الاستعلامات الثلاثيني، متوسط القامة.كان لطيفاً وبشوشاً..وكانت تقف إلى جانبه فتاة تركية جميلة، رؤيتها خففت عني بعض انزعاجي من الساعات الثلاث التي أنفقتها في التاكسي ما بين المطار والفندق.

في الجهة الأخرى المقابلة للمكتب كانت مجموعة من نزلاء الفندق العرب، حيث انتبهت الى اللهجة العراقية المحببة لأذني، أنا الخليجي. رجل عجوز وزوجته وربما حفيده..إلى جانب امرأة عراقية قد تجاوزت الخمسين..كانوا منهمكين في تفاصيل حكاية لا أعرف كيف ابتدأت..لكني أحسست بشيء من الدفء يغمرني عند سماعي نبرات اللغة التي أفكر بها. انتهت الإجراءات الإدارية..ذهبت مع أحد موظفي الفندق الذي سحب حقيبتي، ليدلني على غرفتي في الطابق السادس.

غرفتي واسعة..تطل على الشارع العام من جانبين. أعجبني ذلك، فهي تتيح لي متابعة الحياة في الشارع وأنا في غرفتي، لكن من جانب آخر يعني هذا أنني سأكون عرضة للضوضاء التي تأتي من الشارع الذي لا يهدأ أيضاً.

وضع موظف الفندق حقيبتي على طاولة مخصصة لحمل الحقائب. شرح لي بسرعة، بالإنكليزية المشوبة بالنبرة التركية، بعض تفاصيل الغرفة ومواعيد الفطور. لم يكن معي شيئاً من الليرات التركية فنقدته عشرة دولارات..تألقت عيناه وشكرني بجمل اختلطت فيها المفردات الإنكليزية والتركية.

جلست على السرير العريض. كنت أحس بإرهاق خفيف. توجهت إلى النافذة وأخذت أتطلع إلى الشارع..كانت النافذة الأمامية تطل على شارع مقابل لها يقود إلى أزقة ضيقة ملتوية، أما النافذة الجانبية فتطلّ على القنصلية البلجيكية وعلى الجانب الشرقي من الشارع حيث زحمة الناس ومطاعم الشاورما ودكاكين الحلويات

ومكاتب الصرافة وزحمة السابلة، وسيارات التاكسي.. لكني وأنا أتأمل السابلة انتبهت لكثرة العرب، لاسيما النساء الخليجيات، اللاتي يمشين بمجاميع لا تقل عن ثلاث نساء، ولا تزيد عن ثماني. قررت مع نفسي أن أتحمم، ثم أخرج لألقي نظرة على المدينة، لاسيما وأن المطر والريح قد توقفا.

قطعت على نفسي سلسلة الأفكار والتداعيات التي أوحت بها رؤيتي للشارع، ودخلت أتحمم، فقد شممت رائحة تعرق مع عطونة تداخل العطور الكثيرة التي رششتها على نفسي، حينما كنت في السوق الحرة حيث جربت مختلف العطور الرجالية من القناني الموضوعة للتجريب..حتى تداخلت وتحولت من عطور إلى رائحة عطنة.

ارتديت ملابسي..قميصي الأزرق الجديد الذي اشتريته أثناء استعداداتي للسفر.. وخرجت.

* * *

الشارع ينبض بالحياة.. جموع من الناس.. معظمهم أجانب..كانت مفردات مختلفة تصل إلى سمعي..تتداخل الكلمات العربية والروسية والألمانية والإنكليزية التي تصلني ممن أمر بهم وأنا متجه للساحة الكبيرة..فجأة اصطف إلى جانبي شاب ملتح..عربي الملامح..وقال لي بالعربية وكأنه يسرني شيئاً: هل تحب أن تستمتع.. وتستريح قليلاً..عندي نساء من كل الأعمار والدول..سوريات،عراقيات، مغربيات، مصريات، بلغاريات، روسيات، أوكراينيات، تركيات..اطلب فقط..شبيك لبيك..وستكون من تطلبها بين يديك..جرب..متع نفسك..لا أحد ضامن هذه الدنيا..شو رأيك..؟

التفتُ إليه مرعوباً ومستفزاً. ويبدو أنه انتبه إلى رعبي منه..فقال لي مباشرة وكأنه قد فهم جوابي:" على كيفيك..حبيت أن أمنحك فرصة للمتعة..".. وتأخر عني ولم يرافقني أكثر من ذلك..لم أفق من دهشتي بعد، حتى أقبلتْ عليَ امرأة ترتدي العباءة العراقية ومعها فتاة جميلة ترتدي العباءة مثلها أيضا، وسمعتها تقول للفتاة بصوت هادئ ظنت أني لم أسمعه:" هذا يبدو خليجي..تعالي نجرب.."..حين وصلت لي قالت: السلام عليكم.. حضرتك عربي..؟. لم أجبها..حاولتُ أن استوعب الموقف.. فعجلتْ هي بتوضيح الموقف قائلة وهي تميل برأسها إلى الفتاة التي ترافقها:

- أنتَ كما يبدو عليك جديد على استنبول..وغريب..أحببنا أن نمتعك..هذه

خادمتك (وأشارت إلى الفتاة التي ترافقها)..تستطيع أن تخدمك في كل شيء..كل شيء..تحب أن نأتي معك..أو تأتي معنا..خمسين دولار في الساعة..وإذا حبيت أنا سأكون تحت تصرفك أيضاً..ماذا تقول..؟.

نظرت إليها بأحداق مفتوحة على آخرها..لم أجبها..وإنما مضيت دون أن أقول شيئاً..سمعت الفتاة تقول ساخرة للتي معها:

- ماذا به..؟ يبدو أبلهَ..؟ لم يقل حتى كلمة واحدة..

هل تُرى أنا أبله حقاً أو أن العالم صار أبلههَ..؟..لم تزعجني الكلمة..مضيت في طريقي..صادفتني امرأة في منتصف الثلاثين..ترتدي عباءة ايضاً..أقبلت علي وسألت:

- هل الأخ عربي..؟

لم أجب سوى بالإنكليزية.. No .. ومضيت في طريقي دون توقف.لكني سرعان ما سخرت من نفسي سائلاً:" كيف أجبت على سؤالها بالنفي..؟ هذا يعني أني أعرف العربية، بينما ادعيت غير ذلك..؟."..

وصلت الساحة التي ينتصب في وسطها تمثال تتفرع عن قاعدته تماثيل تمثل حشوداً بقيادة مؤسس تركيا الحديثة كمال أتاتورك..ورأيت حشداً كبيراً من مختلف الأجناس..يجلسون جماعات أو فرادى على قضبان سياج الحديقة..وبعضهم يفترش الأرض..ومنهم من يقف منتظراً..وهناك من يلتقط الصور أمام النصب..وحول الساحة بعض باعة الكستناء المشوية، بعرباتهم الصغيرة.

درت حول الساحة ثم توغلت في الشارع الذي يحمل اسم (شارع الاستقلال).. توغلت في الشارع إلى أعماقه..أعجبتني بعض المباني القديمة التي تعبر صارخة عن أصالتها بصمت.وتوقفت عند كنيسة قديمة قرأت لوحتها بأنها كنيسة (سانت انتونالتي) مضى عليها أكثر من قرن من الزمان..توقفت عند بعض الممرات الجانبية الجميلة التي تسمى (بساجا)..والتي حولت إلى مقاه ومطاعم جميلة..قرأت اسم (جيجيك بساجه)..خطوت قليلاً في هذا الممر الجانبي..رأيت بعض السيّاح يلتقطون الصور..دخلت إلى سوق جانبي مزدحم جداً يحمل اسم (باقيك بازري)..وهناك بين زحمة الناس لمحت أمرأة في ثوب أسود..امرأة بدت مثيرة القامة..ولمحت رجلاً يلاحقها..يحاول الإلتصاق بها بأي شكل، تحت ضغط الزحمة أو بدونها. صار لدي فضول أن أتبعها..وأتبع حركة هذا الرجل الأربعيني المهيب..فجأة.. سمعت

صرخة الرجل والتوائه..قابضاً على بطنه ومغطياً ما بين فخذيه..وسمعت المرأة التي التفتت إليه غاضبة وهي تشتمه بالتركية..وبمفردات تركية بعضها متداول في اللغة العربية..أدب سز..حياء سز.. وأطلقت عليه شتيمة بالعربية..وبمفردات أخرى لم أفهما..التف الناس حول الرجل وأخذوا يشتمونه ويلومونه..وكذلك بعض الفتيات التركيات..رأيت وجه المرأة الجميلة وكأنها لبوة غاضبة..إذن هي عربية..وعراقية كما بدت لهجتها لي.

أزدحم الناس حول الرجل الذي وجد نفسه في موقف مشين..انسحبتْ هي.. وفي حمى صراخ الناس ومحاولات بعضهم إبراز فضائله الشخصية كحامٍ للشرف.. مضت غير آبهة به وبالجميع.

حاصرني فضول في معرفة ما سيحدث معه..لكني سرعان ما أردت متابعة المرأة في الثوب الأسود..إلا أنها اختفت.. أحسست بخيبة غريبة وبحزن اجتاح روحي.

هل تصدقون أنني بقيت طوال تلك الليلة أفكر في تلك المرأة في الثوب الأسود..!!..عند خروجي في اليوم الثاني كنت أفتش عنها في شارع الإستقلال.. في المطاعم والمقاهي التي أمر بها..أو أدخلها..إلى أن وجدتها في اليوم الثالث في مطعم مزحم.

وللناس حكايات..بمثابة مقدمة

لكل إنسان قصته الخاصة..وقصص البشر تختلف مثل اختلاف بصمات الإبهام أو إختلاف شبكية العينين..لكن حتى في القصة الواحدة لحياة إنسان واحد محدد كثيراً ما يترامى فراغ في تفاصيل تلك الحياة..فراغ شاسع مثل ذلك الفراغ الذي يمتد بين النجوم والمجموعات الشمسية، وبين المجرات..

أنا آدم ابن آدم..كاتب مجهول، لأني، ببساطة، لم أنشر أي شيء لحد الآن.. لكني معروف في بعض الأوساط الأدبية وبين أصدقائي بأني مشغول بالإعداد لكتابة رواية كبيرة..كيف كبيرة وهي لم تُكتب بعد..فهذه من المهازل السوريالية في ثقافتنا..؟..لكني، فعلاً، مثل رسام يبحث عن لون غير موجود..أو رسام يبحث عن لوحة خالدة، أو موسيقي يبحث عن نغمة ضائعة وتائهة في اللازمان..هكذا أنا

أبحث عن قصة غير عادية ورواية غريبة..مختلفة..صادمة..لكني لم أعثر عليها بعد.

مشكلتي هي أني قليل الكلام، وصمتي هذا ينعكس على طبيعة كتاباتي..أي أني أصمت..لا أكتب..أو أكتب الصمت..!! أنا إنسان، عيني أجرأ من لساني، لكن لقائي مع حواء السندسي فجرَّ فيَّ ينابيع الكلام..رأيت في حواء السندسي، امرأة لسانها هو الجريء أما هي فخجولة جداً، بحيث يندهش المرء عند سماع الكلمات الجريئة والوصف المفزع والجريء للمواقف والأشياء التي مرت بها، والبشر الذي صادفتهم خلال حياتها، ومن ارتباكها وخوفها وخجلها الذي لا يتناسب مع ما مرت به.. أهي تمثل هذا الدور..؟ لا أعرف.

بالمناسبة..ستسألون من هي حواء السندسي..أليس كذلك..؟ هي ببساطة المرأة ذات الثوب الأسود التي ضربت الرجل الذي تحرش بها في السوق..لكن كيف التقيتها..؟ هذا ما سأرويه لكم..

مطعم المدينة المزدحمة

كان الوقت يقارب السابعة مساء. كنت جائعا. وبرغم كثرة المطاعم حولي إلا أني لم أكن حاسماً أمري في أيها أدخل..لمحت أمامي لافتةً عن مطعم اسمه (مطعم المدينة)..كنت أشتهي تناول وجبة من الدجاج. المطعم يطل على شارع الإستقلال، إلا إن الوصول إليه يتم عبر صعود درج ضيق نسبياً، فتجد نفسك حينها أمام المرافق الصحية والمغاسل، وحينما تلتف على الدرج متوجها إلى باحة المطعم تقابلك عشرات الصور للممثلين الأتراك.

المطعم مزدحم. عدة أشخاص من الرجال والنساء الخليجيات يقفن بإنتظار الحصول على مقاعد في باحة المطعم المكتظة بالناس. وبينما كنت أحاول أن استكشف المكان اقتربت مني امرأة وبيدها قلم ورزمة من الأوراق الصغيرة، وسألتني بالتركية أولا، ثم أدركت بأني لا أتكلم التركية فسألتني بالإنكليزية إن كنت وحدي أو معي شخص آخر، فقلت لها إني وحدي. قادتني مباشرة إلى زاوية في القاعة، تلاحقني نظرات المنتظرين الحانقة، لكن ما ذنبي أنا إذا ما كانوا هم مجموعات، وليس بينهم شخص فرد مثلي جاء وحده لتناول الطعام...؟

تبعت المرأة، موظفة المطعم، عبر القاعة..وفي زاوية بأقصى القاعة توقفتْ عند طاولة مخصصة لشخصين فقط. كان أحد مقاعدها مشغولاً. في تلك اللحظة انتبهتُ للشخص الثاني الذي كان يحتل المقعد الآخر..نظرتُ إليها..رأيتها.. إنها هي المرأة التي كنت أبحث عنها منذ يومين..ولم تفارق بالي قط. كانت محنية الرأس، مشغولة بالطبق الذي أمامها..لكنها بدت وكأنها تأكل دونما شهية، وكأنها كانت تفكر بشيء ما..بل بدت وكأنها في عالم منفصل عما يحيطه. وقفتُ إلى جانب موظفة المطعم التي سألتها بالتركية إن كانت تسمح لجليس آخر يشاركها الطاولة، فرفعت رأسها مرتبكة ورحبت بأدب.

يمكنكم أن تتصوروا الحالة النفسية التي صرتُ فيها..جلستُ قبالتها مرتبكا. أردت من أول لحظة أن أمد جسور العلاقة معها..لكنها في حالتها تلك كانت قد أغلقت كل الأبواب والنوافذ..بقيتُ مرتبكا ومنفعلا. لكنها كانت منشغلة عني بعالمها الداخلي.

كنتُ أفكر بأية وسيلة يمكنني أن أتواصل معهَا بالحديث..أية وسيلة..لكنها لم ترفع رأسها نحوي بتاتاً حتى شعرت بالإرتباك لأنها بذلك قد ألغت وجودي.

بعد قليل جاء أحد العاملين في المطعم..سألني عما أرغب، ولم أكن أعرف طبيعة الطعام برغم أني ألقيت نظرة على القائمة..لكني رأيت أن المرأة التي تجلس قبالتي تأكل دجاجاً مشوياً يبدو أنه مغطى بطبقة من الملح..أشرت لصحنها وقلت له أريد طبقاً مثله..وبالرغم من أنها لم ترفع رأسها نحوي إلا أنني لمحتُ ظلَ ابتسامةٍ ارتسمتْ على شفتيها..

انتبهتُ إلى أنها لم تكن ترتدي ثوبها الأسود الذي رأيتها فيه أول مرة. أخذت أتأملها.كانت في بداية الثلاثين من العمر..مستديرة الوجه، شعرها يميل إلى الشقرة، ويبدو أنه مصبوغ..ناهد الصدر دونما مبالغة..ممتلئة دون إمتلاء واضح..ترتدي قميصاً حريرياً بني اللون لبست عليه بلوزة صوفية مشبكة بيجية اللون، وبنطلونا أسود. وعلقت على جانب الكرسي حقيبة ليست بالصغيرة، بنية اللون أيضاً.

تأملت قوامها وهي جالسة. انتبهتُ لأناقتها الهادئة، لكني لاحظت شيئاً من المبالغة في مكياجها، والذي لا يتناسب مع هدوء امرأة مثلها. حدستُ، وأنا أتأملها، أنها تعرف أنني أتأملها، بل إنها تتقصد أن تمنحني الفرصة كي أتأملها.. لماذا..؟ من

هي..؟ ولماذا هي وحدها..؟ ولماذا هذا المكياج المبالغ فيه..؟ هل هي عاهرة.. لا تريد أن تعرض نفسها بشكل غير رخيص..؟ لو كانت كذلك لماذا تشاجرت مع الرجل في السوق عندما تحرش بها..؟ هل هي امرأة تحتفي بجمالها وتعرف أنها جميلة، لذا يسعدها انتباه الآخرين لهذا الجمال الذي هو جزء من كبريائها الشخصية..؟ لا أعرف شيئا.

جيء بصحني من الطعام. بدت منها حركة خفيفة.لم ترفع رأسها إلا بما يتيح لها رؤية صحني.. ابتسمت ثانية مع نفسها..ظِل ابتسامتها الغامضة شجعني على التواصل معها أكثر..إذ وجدت فيها ملاذاً من غربتي في هذه المدينة المتاهة.. لكن كيف..؟. كيف أقول لها إنني أعرفها..؟ وأن موقفها من الرجل الذي تحرش بها أعجبني جداً..؟ وإنني أفكر بها منذ يومين..وأفتش عنها في وجوه المارة من النساء..؟..كيف؟.

* * *

أنا مهووس بدراسة نفسي، وأحاسيسي ودوافعها وطبيعتها، أتوغل دون خوف في مجاهيل تناقضاتي..بل كثيراً ما انتبه إلى أنني لعبة بيد الأهواء الغامضة والرغبات المحرمة والمشاعر الآنية..ودائما يساورني قلق من أجل أن أكتب عملاً روائياً جباراً.. لكني سرعان ما أنكمش حينما أتذكر الأسماء الكبيرة في عالم الأدب..أين أنا من هؤلاء..؟ أحيانا أحسني مثل بيضة نعامة التفّتْ عليها أفعى هائلة..لكن لماذا أفكر بنفسي بينما أنا أريد كتابة شيء عن هذه المرأة الغامضة..؟

كنت في أعماقي متيقنا بأنها تستمتع بتأملي وإعجابي بها..وربما المصادفة العجيبة لعبت دورها، أو كان مخططاً ذلك منها..لا أدري.. المهم..في لحظة ما رفعت رأسها بشكل مفاجئ..اقتنصتني وأنا أتأملها بإعجاب واضح..التقت عيوننا بنظرة خارقة..أحسستُ أنها ارتبكت لثوانٍ لكنها تماسكت وابتسمت بطيبة..فابتسمتُ لها بصداقة، غير مصدق ما يجري، لأن هذه الثواني من لقاء العيون والنظرات كانت من الكثافة بحيث شعرت أنني أعرفها منذ زمان بعيد..لذا وجدتُني أتهور في أن أسألها دون خوف، وسط ضجيج رواد المطعم، والطاولات المتجاورة بشكل مقيت ما أجل استغلال المكان، قائلاً:

- عفواً..لدي سؤال ..لوسمحت..ممكن..؟

نظرت إليّ لثوان ثم قالت:

- ستسألني إن كنا قد إلتقينا سابقاً في مكان وزمان ما..أليس كذلك..؟ لكن كيف عرفت أنني عربية..؟

صُدمت..بهَتُ كالأبله..ما هذا..؟ كيف عرفت ما كنت من المحتمل أن أسأله حقاً..؟ لم أجد ما أجيبها به..بقيت لثوانٍ أبحلق في وجهها..ابتسمتْ..وقالت بجرأة لم أتوقعها، مع ابتسامة فيها الكثير من اللطف:

- ما بك..؟ لماذا تبحلق في وجهي هكذا..؟ أليس هذا ما أردت أن تسألني به..؟

لم أجب مباشرة، لكني وجدت نفسي أتمتم:

- نعم...أقصد..لا..أقصد نعم..أقصد لا..أردت أن أسألك..نعم كنت أريد أن أسألك..لكن السؤال ليس إن كنا قد التقينا..؟

ابتسمت بأريحية وتراجعت قليلا لكي تنظر إلي وكأنها تريد التأكد مني، ثم قالت:

- طيب..إن كنت لم تنو أن تسألني إن كنا قد التقينا فهذه نقطة لصالحك.. لأن مثل هذا السؤال صار طريقة رخيصة جداً للتعرف إلى امرأة..

- لكني رأيتك في..

لم تتح لي فرصة أن أحدثها..ولم تسألني ماذا كنت أنوي أن أسألها..ولم تسمع ما أردت أن أقوله بأني رأيتها حينما تشاجرت مع الرجل الذي تحرش بها..إذ لم تبد أية رغبة في الحديث معي..وإنما أنهت جملتها، ثم نهضت مغادرة الطاولة، متجهة إلى المحاسب الذي يتوسط الطريق ما بين المدخل وقاعة الطعام، حيث رأيتها تفتح حقيبتها وتخرج محفظتها وتدفع حسابها. وقبل أن تختفي نظرت باتجاهي نظرة فيها الكثير من اللامبالاة..ثم ارتسمت على وجهها مسحة حزن ..واختفت.

عـيـنــاهـا وقـــــــدري

لقد جئت هذه المدينة الصاخبة هرباً من الطقس الملتهب في بلادي..لدي رصيد جيد من الإجازات..لم أستنفد منها إلا القليل..كان بإمكاني أن أسافر إلى بلدان أخرى..لكن لا أعرف السبب الحقيقي الذي دفعني إلى إختيار استنبول..لم أذهب

إلى سواحل تركيا الجميلة.. لم أفكر بغير هذه المدينة..وكأن قدراً ما قادني إليها.

وكما بينت سابقاً..سكنتُ في فندق بالقرب من ميدان تقسيم الشهير والمعروف بساحة أتاتورك..اسمه فندق (ميربال)..لكن هل تصدقون أني لم أشعر بنبض الحياة الحقيقي، ولا بجمال هذه المدينة، إلا بعد أن قابلت هذه المرأة الغامضة التي جلست معها على طاولة واحدة..والتي ودّعتني بنظرة لامبالاة وتجاهل..!!..ربما لا تصدقون ذلك وتعتقدون أنني أبالغ، لكن هذه هي الحقيقة..بل ربما استغربتم كيف أني تحدثت عن نظرة اللامبالاة تلك وكأنها نداء حب أو نظرة مليئة بالحنان، دونما حقد أو مشاعر سلبية..!!.

نعم..أنتم محقون..ربما أنا إنسان متناقض..أو لأكن دقيقاً..أنا متأكد من أني متناقض..فأنا مبذر، ومسرف للمال بطريقة تدفع بعض أصدقائي إلى الحسد، ومقتصد أحيانا بطريقة تبعث على الغيظ..!!. أحيانا أتحدث لساعة وأكثر دون توقف..وأستطيع الصمت لأسبوع دون أن أنطق كلمة واحدة أيضاً..!!.. مشتت الذهن أنا مثل أحمق ضعيف الإرادة، ومتهور وجريء مثل أحمق لا يسيطر على إرادته أيضاً..!!.. متواضع لحد البلاهة، ولين لحد السذاجة، لكني عنيد بلا غرور لحد الحماقة..!!.. مهذب ومؤدب لحد القداسة، وأكون أحيانا قليل ذوق بحيث أجرح الآخرين دون قصد مني..!!.. بعضهم يراني موهوباً وبعضهم يراني أبلهَ لا فائدة ترتجى مني..!!..هل أنا أبله..؟ ربما..!..هادئ وعنيف أنا في الوقت ذاته..مضيء ومليء بالعتمة أيضاً..!!.. أسعى إلى سعادة البشرية كلها، لكني أتكور في أعماق ذاتي كالحلزون..!!..أنا آدم ابن آدم..آدم ابن الواجب..جئت إلى هذا العالم صدفة في ليلة مظلمة..حيث كانت الأعصاب نافرة..فقذف بي رجل غامض هو أبي في رحم امرأة كانت ترتعش وتشهق من اللذة ربما..وربما من الخيبة..وهي أمي.

شخصيا لا أفرح لإستسلام امرأة فاضلة لي، وفي الوقت نفسه لا يزعجني رفض امرأة سهلة أو حتى عاهرة لي..لكن هذه المرأة التي جالستها لدقائق قليلة في مطعم المدينة حيرتني..فلا هي بالمرأة السهلة ولا هي بالمرأة المحافظة..وبرغم نظرة اللامبالاة البليغة، إلا أني لا أشعر نحوها بأي حقد..ولم أتأثر..بل أحسست بالفقدان عندما غادرت المطعم..!!..نعم..أحسست أنني فقدت شيئا غالياً.. وشعرت بوحشة غامضة بعدما غادرت..فلم يكن أمامي إلا أن أنهض من مكاني، ولم أكن

قد تناولت من طعامي إلا لقيمات قليلات.، وغادرت طاولتي. أسرعتُ بدفع حسابي حسب رقم الطاولة التي كنت جالساً حولها.

غادرت المطعم هابطاً بسرعة وفي نيتي أن ألحق بها، حتى أني لم أغسل يدي كعادتي..وبينما كنت أهبط الدرج..وقبل أن أصل الباب الخارجي المطل على الشارع العام سمعت من يهبط الدرج الخلفي، وحينما التفتُ وجدتها تهبط بهدوء منتبهة لموضع قدميها على كل درجة. ويبدو أنها كانت قد دخلت المغاسل وتأخرت فيها كل هذا الوقت..حمدتُ ربي لهذه المصادفة الرائعة.

حين رأتني فوجئت. ابتسمتُ لها متناسياً نظرة اللامبالاة التي ودعتني بها. ابتسمتْ هي ابتسامة اضطرارية لاإرادية..وكأنها خمنت أني أردتُ تتبعها..ولا أدري ما الذي دفعها للحديث معي، وكيف نطقتْ بتلك الجملة التي صارت صنارتي..؟ لا أعرف..إذ سألتني بلامبالاة:

- ماذا.. يبدو أن الطعام لم يعجبك..، لذا غادرت المطعم بهذه السرعة..؟

كيف أفسر لكم ذلك..لقد حدثتكم عن تناقضاتي..صحيح أن الأفكار المتحررة تعجبني، تثير في نفسي الحماس والتوهج والفرح والرغبة في التمتع بالحياة، وتشعرني عند التفكير بها وكأنني أحلق عالياً متمتعاً بجمال الأشياء..لكن سرعان ما ينقضي ذلك خلال لحظات.. وتبتعد تلك الأفكار عن تفكيري، وأحس نفسي وكأني كنتُ في حلمٍ وصحوت فرأيت نفسي في بيت مهجور معتم..!!..أجد نفسي مشدوداً إلى التقاليد والعادات والدين وثنائية الحلال والحرام..وأحمد الله لأنه خلصني من هذا الحلم الفاسق بالحرية..!!.

هذه المرة الأمر مختلف جداً..فالنظرة المخاتلة في عيني هذه المرأة خلخل توازني..عيناها كانتا قدري الغامض..قدري الجديد..بداية جديدة لصفحة جديدة في حياتي..ولا أدري من أين جاءتني الشجاعة لأجيب عليها بجرأة:

- عيناك الساحرتان خلخلتا هدوئي..عيناك قدري..كيف لي أن آكل وأنت غادرت المكان..؟

فوجئت بكلماتي..نظرت إليَ لثوان وكأنها تخترق أعماقي..ثم ابتسمتْ ابتسامة غامضة توحي بكل شيء وتصمت عن كل شيء..صمتت لثوانٍ، ثم قالت بجدية مع نبرة خفية من السخرية:

- يبدو أنك شاعر..أنا أحب الشعر أيضاً..
- لستُ شاعراً..أنا كاتب..أكتب القصص والروايات..
- هذا رائـع..
- لكني لم أقل شعراً..وإنما قلت الذي أحس به..

لم تجبني..ولم تهتم لإجابتي..كانت قد صارت قربي..تنحيتُ جانباً كي تمر.. صرنا في الشارع..مشينا جنباً إلى جنب..وفي الزحمة وسط عشرات بل مئات الناس في الشارع بدونا وكأننا معاً..فقلت لها:

- هل يمكنني أن أدعوك إلى فنجان قهوة..أو كأس عصير أو صحن حلوى..؟

نظرت إليّ متفحصة..لم تقل شيئا..فعرفت أنها لا تود ذلك..أو أنها تفكر مع نفسها قبل أن توافق أو ترفض..فجأة التفتت نحوي وسألت:

- اسمعني جيداً..وقل لي بصراحة..ماذا تريد مني بالضبط..؟ من تعتقدني مع نفسك..؟ لماذا تعتقد أن من حقك أن تدعوني هكذا ببساطة لمجرد أنك تريد ذلك..؟ هل تتجرأ في بلادك، وأنت كما يبدو من لهجتك خليجي، على أن تطلب من امرأة لا تعرفها أن تجالسك لمجرد أنها ابتسمت لك..؟

أحسستُ بالشلل يدب في مفاصلي..توقفت..لم أجد ما أقول..أخرستني..وددتُ لو أن الأرض انشقت وابتلعتني..ما هذا الهجوم الكاسح والفاضح..؟ كنا نمشي جنباً إلى جنب..ولحظتها توقفت وخاطبتني بتلك الجمل النارية..ثم واصلت سيرها..بينما تجمدتُ أنا في مكاني..وهنا جاءت المفاجأة المباركة..فقد انتبهت لتأخري عنها، فالتفتت إليّ لترى ما أصابني..أحسستُ ببارقة أمل..أحسست في نظراتها شيئاً من الاعتذار..توقفتْ..تبادلنا نظرة..نظرتي كانت مليئة بالرجاء أما نظرتها فكانت تلسكوباً فتشت فيه عن نواياي وطبيعتي وأفكاري..وبعد لحظات صمت ثقيل..ابتسمت بطيبة وقالت:

- طيب.. أعتذر عن اللهجة التي كلمتك بها..لكنك كما يبدو لست من هؤلاء السيّاح العرب الذين يأتون إلى استنبول بحثا عن المتعة، وشراء أجساد الأرواح المنسية..لستَ من هؤلاء الذين يعتقدون أنهم بما لديهم من مال يستطيعون شراء كل شيء..ويحق لهم فعل كل شيء..وقول كل شيء..

كلماتها كانت كيَدٍ امتدتْ لغريق في لجّة الأسى والخيبة..فقلت مثل تلميذ

يتبرأ عن ذنب لم يقترفه:

- أنا لستُ منهم..أقسم لك.لقد أحسست بأن عينيك قدري..أردت أن أتعرف عليك..دون أية مقاصدِ أخرى.. أقسم لك..

كلماتي العفوية المرتبكة أثرت فيها..نظرت إليّ للحظات وكأنها تزن قرارها وبماذا سترد عليّ به.. بعض المارة أخذوا ينظرون إلينا..أحسستُ أنها لانت قليلاً.. ابتسمت وقالت:

- طيب..أنا أحب عصير الليمون..وأنت..؟

- أنا أيضا..

ومضينا إلى مقهى قريب في شارع فرعي..وخلال الأمتار القليلة التي بيننا وبين المقهى القريب كان كل منا في عالمه الداخلي يفكر في الآخر..

مـــلاك الحـــيرة

لم نجد طاولة فارغة في المقهى الضيقة التي بالكاد يمكن الجلوس حول طاولاتها، حيث عليك، إذا ما حركت الكرسي، أن تحذر من أن تصطدم بكرسي الطاولة المجاورة..لكن النادل وجد لنا مكانا قرب الدرج الصاعد لطابق أعلى مكتظ هو أيضاً. صار جلوسنا تحت السماعات الكبيرة التي كانت تبث الأغاني التركية والأوربية.

لم نكد نجلس على كرسيينا حول الطاولة حتى سألتني بنبرة رزينة لكنها مبطنة بخفة فيها فضول أنثوي خفي:

- من أنـتَ ..؟

ارتبكتُ..لكني أردت أن أنال أعجابها من الجولة الأولى، فقلت:

- أنا..؟ رسمياً أنا آدم ابن آدم.. وفي الحقيقة أنا لا أحـد..

نظرت إليّ بفضول غامض حاولت أن لا تفصح عنه، وسألت:

- عفواً يا سيدي اللاأحد..يا آدم ابن آدم...وأنا حـواء السـندسـي..وربما أنا لا أحد أيضاً..لكن ما معنى كلامك أنك لا أحد ..؟

قبل أن أجيبها جاء نادل المقهى، فطلبنا كأسين من الليمون. سجّل طلبنا

على ورقة صغيرة في يده، ومضى، لذا واصلت حديثي، بعد أن شعرتُ بشيء من الزهو الذي حاولت السيطرة عليه لأبدو جاداً ومقنعاً، فقلت بطريقة احتفالية كما يفعل الأدباء عادة:

- أنا لستُ أنا..إنني هـو..الذي يمشي بجانبي دون أن أراه..، والذي أكاد أحياناً أراه..، والذي أنساه مرات عديدة..، والذي يصمت عندما أتكلم..، والذي يغفر عندما أكره..، والذي يمشي عندما أتوقف..، والذي سوف يظل واقفا عندما أموت..

نظرتْ إليّ نظرة فيها ابتسام..نعم كانت تبتسم بنظراتها وليس بشفتيها..ثم سألت بفضول قائلة:

- ما هذا ..هل هذا شعر أو جواب على سؤالي..؟

أُحرجت..فقلت بتواضع صادق:

- هذه أبيات لشاعر أسباني..اسمه خوان رامون خمينيث.. لكنه جوابي أيضاً..

انطفأت الابتسامة في نظراتها..وحل محلها هدوء حزين..وسألت، بعد لحظات من الصمت، بنبرة من تريد أن تعرف حقاً:

- هل تقصد أنك روح منسية..؟

لم أجب مباشرة..حاولت أن أمنح نفسي أهمية وأخلق لديها حب استطلاع لشخصي، فقلت بطريقة غامضة فيها الكثير من تصنع المثقفين:

- لا.. أنا الظاهر..وأنا الآخر الباطن..

تراجعتْ إلى ظهر مقعدها قليلاً..نظرت إليّ بريبـة وعلقت بهدوء:

- هذا تناقض..هذه فلسفة صعبة بالنسبة إليّ..

كان صوت الأغاني يأتي من المكبرات عالياً..مختلطاً بحديث الجالسين حول الطاولة المجاورة..إلا أني كنتّ متوهجاً من الفرح، ومن طبيعة الحوار، فلم آبه لهذا الضجيج، وإنما أخذني دفق من الجرأة، فقلت:

- طيب ..لنقلب السؤال.. من أنتِ..؟

فوجئت بسؤالي. صمتت للحظات وهي تنظر إليّ نظرتها الإختبارية المتفحصة، ثم سكنت وقالت بنبرة حزينة وكأنها ليست هي التي تتكلم :

- أنا روح منسية..روح تائهة..وظاهرياً أنا امرأة عراقية..لكني أحمل الجنسية الأردنية..أنا امرأة مطـلّقـة..عملت في القاهرة.. أنت الآن تراني أمامك

امرأة متمدنة..لكنني قبل سنوات قليلة كنت ملتزمة دينياً، لدرجة أني لبست النقاب..ثم تعمّقت في دراسة الأديان..فانقلبتُ عليها..توصلت لنتيجة بأن الأديان خرافات منظمة، وهي من صنع البشر..

بكلمات قليلة اختصرت حياة بكاملها..لقد وجدت نفسي أمام امرأة غامضة مليئة بالأسرار. قطع عليّ تأملي السريع مجيء النادل..وضع كأسي العصير أمامنا ومضى.

نــدوبٌ فــي الــذاكـــــرة

أحسست أنني أعرفها منذ زمن بعيد..وأني قابلتها في مكان ما..في زمن ما.. على الرغم من يقيني بأن ذلك مستحيل..وهذا ليس سوى نتيجة شعور بالأمان والقرب من شخصيتها..لكني لا أعرفها..هل هي رغبة خفية مني في مضاجعتها ..؟ لا.لا..لا أعتقد..لم تراودني إزاءها أية أحلام يقظة جنسية كالعادة حينما أنجذب لامرأة ما..ووجدت نفسي أسألها بجرأة وبنبرة إليفة:

- من أنتِ..؟ أين ولدتِ..؟ وكيفَ وصلتِ القاهرة..؟ وكيف تزوجت..؟ ولماذا طُلقت؟

لم تأبه لأسئلتي..كانت تجلس أمامي روحاً منسية فعلاً..روحاً معذبة..تائهة كما وصفت نفسها..وكأن التي تجلس أمامي الآن ليست هي تلك الشرسة التي هجمت عليّ وأخرستني.. وبعد لحظات خاطفة تلفتت في ما حولها..ثم نظرت إليّ وقالت:

- قصتي لم تبدأ بزواج أو طلاق..قصتي بدأت حينما كنت في الثالثة أو الرابعة من عمري..زواجي لايرهق ذاكرتي كثيراً برغم عنفه وفظاعته..لا أدعي الشجاعة..أنا لست كاتبة أو مثقفة مثلك..،ولكنني أجتهد كي يكون هروبي كريماً ومحترماً.. اسمعني..كيف أشرح لك ذلك..لقد قررت مع نفسي أن أكون معك كما أنا.. بوجهي الحقيقي لا بأقنعتي..لأني مللت الأقنعة..

كانت تنتظر ردة فعلي على كلامها..نظرت إلى وجهي لتقرأ عليه وقع كلماتها.. كلامها أرضى غروري الشخصي، لكني لم أُبد شيئاً من ذلك.سارعتُ لسؤالها بنبرة من ليس واثقاً من ذلك بالكامل:

- لماذا..؟ لماذا قررت أن تكوني معي كما أنت..؟ علماً أنك لا تعرفينني جيداً..بل لقد هجمتِ علي قبل قليل بكلام يعبر عن موقفك من الآخرين..؟

ارتبكت لثوان من ردي، لكنها سرعان ما ابتسمت بحزن وقالت:

- لا أعرف..ربما لهذا السبب بالذات، أي لأني لا أعرفك جيداً..فنحن نحب أن نتحدث عن أوجاعنا للغرباء..على الرغم من أني أحسست الآن من خلال كلامك عن نفسك بأنك لست غريباً عليّ..على العكس..وجدت عمقاً روحياً وفكرياً أنا بحاجه إليه..

تأملت وجهها فانتبهت لكثافة الحزن الحقيقي في أعماق عينيها، شعرت نحوها بتعاطف غريب، فقلت مستفسراً:

- ما الذي ينقصك.يا حواء..؟ أنت تبدين في أحسن حال..صحة..جمال.. أناقة..حرية شخصية..فأنت مطلّقة كما تقولين.. وفي بلد غريب لا يعرفك فيه أحد..ما الذي ينقصك..؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وقالت بمرارة:

- ظاهريا..لاشيء ينقصني..لكن في الحقيقة ينقصني أن أجد روحاً تحتويني.. تلملم شتاتي..تبدد خوفي..وضعي المادي جيد جداً..لست ممن يفكر بجمع الملايين..
- إذن..؟
- إذن..؟ أريد أن أجعلك رباً، وأعترف لك بكل شيء..كل شيء..لن أخجل أو أتردد في كشف كل ما مررت به في حياتي..

في تلك اللحظة مر النادل من خلف كرسيها الذي تجلس عليه، ولأن المكان ضيق فلم يتمكن من ضبط توازنه فمالت يده، سقطت الأكواب الممتلئة بالقهوة من الصينية التي يحملها على الطاولة المجاورة لنا بالضبط..فزت هي مرعوبة.. مثلما فز الجالسون حول تلك الطاولة..وكاد النادل يسقط عليها لولا وقوفي السريع والمفاجئ لأمسكه من السقوط..

شعر النادل بالارتباك والخجل الشديد والخوف من صاحب المقهى، الذي جاء ليرى ما حدث ويعتذر من الجالسين..ومن ضمنهم حواء السندسي..ومني أيضاً. حواء السندسي ارتعبت..لكني أحسستُ أنها شعرت بحمايتي لها حينما أمسكت

بالنادل من السقوط عليها..فاسترخت قليلا..ولانت نظراتها فشعت برضا داخلي. حينها نسيت أني توجهت في البداية منجذباً إليها لأنها امرأة جميلة وأنيقة وشجاعة.. أنا الآن أريد أن أعرف هذه الروح التائهة.. فسألتها:

- لماذا تريدين الاعتراف لي بأسرارك..؟

تلفتت قليلا لكي ترى أن كل شيء عاد إلى هدوئه، فأجابتني ببطء وبكلمات شبه متقطعة:

- أنا مثقلة بجبال من الذكريات.. في داخلي بحار متلاطمة..هائجة لا تمنح السكينة لروحي المنسية ..

نظرت إليها بمكر وكأني لا أصدق ما قالته، وسألتها:

- لكن ألا تخافين مني..؟

فوجئت بسؤالي..نظرت إليّ مستنكرة أكثر مما هي مستفسرة، وقالت:

- لِمَ أخاف منك..؟

ارتبكت..فأنا لا أريد أن أستفزها، لذلك حاولت أن أداري الأمر فقلت بنبرة متعاطفة ودودة:

- ألا تخافين بأن لا أكون الإنسان الذي تتخيلينه..؟ أو الشخص الذي يستحق اعترافك..؟

ارتبكت قليلا من ردي، لكنها لم تحاول أن تتراجع فقالت:

- ماذا ستفعل مثلاً..؟ شخصياً أنا مؤمنة بإحساسي، فهو لم ولن يخذلني..
- ألا تخافين بأن أسيء استخدام ما ستبوحين به..؟ ثم.. لماذا أنت مؤمنة بي إلى هذا الحد..؟
- روحي المنسية هي التي دلتني عليك..ودفعت بي إليك..

لم أصدق ما سمعت..هذه المرأة التي كنت أبحث عنها..والتي قبل وقت قصير تنظر إليّ بلامبالاة..تشبهَني الآن بربها الذي تريد الاعتراف له وأمامه..وها هي تعترف بأن روحها دلتها عليّ..هل هي طبيعية..؟ أو تحاول هي أن تثملني بهذا الكلام الجميل وتشلني ببوحها..؟..لذلك راودتني مشاعر نزقة في أن أشاكسها، فقلت بنبرة فيها سخرية مبطنة:

- وماذا قالت لك روحك المنسية..؟

- روحي تنهدت..وأنا عضضت إصبعي..
- لماذا..؟
- لأن المفردات لم تسعف تلك الروح المنسية بالرد..أجدني متيقنة تماماً بأني معك بأمان..على الرغم من أني في مرحلة اللا أدرية..

أحسست براحة نفسية عند سماعي ذلك.لكني وددت أن أعرفها جيداً..فما جرى كان سريعا..وكأنها تحفظ نصاً لمسرحية قد تدربت عليها جيداً..لكن ربما ما أتيح لها أن تجسدها، لذا قررتُ أن أتوغل معها إلى أعمق أعماقها..إلى تلافيف ذاكرتها الجريحة..فمن الممكن جداً أن أكتب روايتي التي أحلم بها عنها.

ظلال الخيبة

حدثتني عن قلقها وشكها الروحي..بحثها عن الله..هل هو موجود أو لا..؟ حدثتني عن اللاعدالة الموجودة على الأرض وسببه..؟ ودور الله إذا ما كان موجوداً..؟ حدثتني عن غياب أي طعم للحياة بالنسبة لها..؟ عن احتمال أن تنتحر وتنهي هذه الحياة..ولم يكن حديثها فكرياً وفلسفياً، وإنما كان حديثاً واقعيا من صلب تفاصيل الحياة ومن تجربتها الشخصية ووقائع حياتها..فلم أجد إلا وأنا أقاطعها قائلاً:

- أنت تبحثين عن يقين..يا حواء..تبحثين عن استقرار روحي..ولأنك صادقة مع نفسك..ستصلين..وأجراسك ستصمت..لأن الأجراس تصمت حينما تصل القافلة..لكني مسكون بأسئلة أود أن أسألك إياها..
- إسأل.. يحق لك أن تسأل عن كل شيء..

لم أصدق ما سمعته..هي تمنحني حرية أن أسألها عن كل شيء..هذه المرأة التي لم تمض سوى ساعة تقريبا من تعرفي عليها صارت قريبة مني وصرتُ قريباً منها بشكل لم أتوقعه بل ولم أحلم به..!!..كيف يمكن فهم هذه العلاقات النفسية والروحية بين البشر..؟ أنا أؤمن بتنوع السرعة في الفيزياء وأشكالها..هناك أناس يمكن الوصول إليهم بسرعة توازي سرعة الضوء الخارقة..تتواصل معهم .. وتصل إليهم ويصلون إليك..بسرعة خارقة..وهذه المرأة التي أمامي هي هكذا..لقد وجدنا نفسينا في إلفة وقرب غريبين..وكأننا لم نكن نحن قبل ساعة من الزمان..فقد اكتشفت فيها

طبقات من الحنين المتجمد الذي يحتاج إلى بعض الدفء، لكي تنهمر شلالات هائلة..لذلك وجدت نفسي أتجرأ أكثر في مخاطبتها..وكأننا صديقان قديمان..فقلت لها:

- هل أنت الآن وحيدة..؟

- نعم..

- لماذا..؟ أقصد لماذا أنت وحيدة..بلا رجل..عشيق على الأقل.. لماذا..هل فقدت رغبتك في الرجال..أو فقدت ثقتك بهم..؟

نظرت إليّ بلامبالاة وقالت:

- لم يطرق باب قلبي أحد منهم..

لا أعرف لماذا فرحتُ لسماع ذلك..انتبهت إلى أمل برعمَ في أعماقي..سألت بطريقة بينّت فيها قلقي ودهشتي:

- هل هذا معقول..؟

كنت غير متأكد من يقيني في جوابها..واصلنا تراشق الأسئلة والأجوبة السريعة، لاسيما بعد أن انتبهتْ إلى ارتيابي في جوابها، إذ عقبّت:

- ربما يكون الخلل في تكويني النفسي..

- منذ متى أنت في استنبول..؟

- منذ سبعة شهور..

- لقد قلت إنك مطلَّقة..؟

- نعم..

- منذ متى أنت مطلَّقة..؟

- منذ ثماني سنوات..وبالمناسبة أن سبب طلاقي هو رفضي لممارسة الجنس مع زوجي..

- لماذا كنت ترفضين..؟

- الجنس بالنسبة لي ممارسة للحب..ولم أكن أحبه..

- لكن الجنس حاجة غريزية..أحياناً نحتاج إلى الإرتواء ليس بالضرورة تحت ضغط رغبة قوية..ثم..ألم تجدي من تحبينه..؟ هل لديك عقدة من الجنس أو الحب..؟

- لدي عقد كثيرة وليست عقدة واحدة.. فلقد أحببت مرة واحدة..كما تعرّفت

على الكثير من الرجال خلال سفراتي أو عملي..لكنني لم أضعف..

لم أفهم جملتها الأخيرة حقاً، فسألت:

- ماذا تقصدين بقولك..لم أضعف..؟

- أقصد لم أرفع ساقي لرجل..

- لكنك كما قلت..قد أحببت..؟

صمتت لحظات..أحسست أنها تسترجع ذكريات مؤلمة..وبعد لحظات قالت:

- نعم..وهذه مأساتي..هاجرت مع عائلتي المكونة من أمي وزوجها وأختي إلى مصر..وهناك أحببت شخصاً..أحد أبناء العوايل الخليجية المعروفة..أو هكذا أدعى أمامي..في البداية صور لي نفسه نبياً..بل قال لي بأنه سيرفضني إذا ما حاولت أن أغريه بمفاتني..وتطور الأمر إلى مفاتحتي بالزواج..

- ممتاز..

ابتسمت من جوابي بمرارة وحزن واضح..وقالت:

- لقد اشترط علي شرطاً صارماً..

- إشترط..؟ ما هو شرطه..؟

- ستصدم إذا ما أخبرتك به..

- استمع إليك..

- لقد اشترط عليّ أن يجلب معه رجلاً يشاركه في ليلة الدخلة..أول ليلة.. وبعد أن يمارس الرجل الغريب الجنس معي سيقوم هو بعدها بممارسة الجنس معي..أنا زوجته..لقد أرعبني هذا الشرط..كنت أتصور أنه يريد أن يختبرني..لكن للأسف كان شرطه حاسماً وحقيقياً..

صُدمت فعلاً..ظننت أنها ربما مهووسة..تحاول أن تصدمني بأشياء خارج حدود العقل والتصور..من أجل أن تتقمص دور الضحية..بعد لحظات سألتها:

- وماذا فعلت أنت..؟ كيف تصرفت..؟

- رفضته..بل رفضت كل المغريات التي قدمها لي..وتركته مصدومة..محطمة.. دمر ثقتي بالحياة..وبالحب..وبالناس.. وبالرجال..فاتصلت بطبيب أمراض نفسية وأخبرته..فنصحني بالإبتعاد عنه وعن كل ما يذكرني به..فحسب تشخصيه فأن هذا الرجل مريض نفسياً..وفعلا غيّرت وجهة حياتي..

صُدمت..حاولت أن أستجمع تفكيري لما سمعت..وقالت بفضول مشوب بريبة:

- وماذا حدث بعدها..؟ ماذا عنك.؟.
- لا شيء..تعرفَتُ على أشخاصٍ عديدين..كنتُ أبحثُ..عسى ولعل أجد من يطرق قلبي مرة ثانية، لكنني لم أفلح.. كنت أكره الرجال الذين ألتقيهم، وأعتقد أنه يمكنني أن أبدأ معهم حياتي، بعد أول فنجان قهوه..لقد ماتت رغبتي في الجنس..

كانت تتحدث ببساطة وتلقائية برغم ملامح الألم والحزن التي ارتسمت على وجهها..شعرت بالأسى لحالها فحاولت أن أرفع من معنوياتها فقلت بتعاطف:

- لكن ما جرى لك مع المليونير الخليجي ليس سبباً كافيا لزهدك بالحياة.. وبالجنس..؟

نظرت إليّ وكأنها كانت تنتظر مثل هذه الجواب..ابتسمت بحزن ولامبالاة.

طفولة في الجحيم

كانت أمواج الألم والذكريات الرهيبة تتماوج على صفحات وجهها الحزين.. لكنها كانت تحاول التماسك..تلفتتْ.. ثم رفعت رأسها إلى الأعلى وألقت نظرة على مكبرات الصوت التي تنطلق الأغاني منها وعبرت عن ضيق خفي، لكنها استرسلت بإعترافاتها الغريبة:

- لا طبعاً..القضية أبعد من ذلك..فقد تعرضت لتحرش جنسي من قبل خالي حينما كنت طفلة..ثم تعرضت للإختطاف والإغتصاب حينما كنت في الثامنة عشرة..من قبل رجالات الحزب الذي كان يحكم بلادي..لكن ليس لأسباب سياسية..؟ تزوجت في مستشفى للأمراض النفسية..حدث ذلك بعد حادثة الإغتصاب..كنت قد أُصبت حينها جراء إغتصابي بإنهيار عصبي وكآبة انفعالية.. وحاولت الإنتحار مرتين..لذلك تزوجته هرباً..أكتفي بهذا القدر..لا أستطيع الحديث..

أحسست بالارتباك من كل هذه الآلام التي ألقيت أمام فضولي فأوجعت ضميري..فقلت بأسف صادق:

- آسف..أوجعت قلبك.

كانت تتألم بشكل حقيقي..فجأة نهضتْ..ظننتها ستغادر المكان، إلا أنها أبقت حقيبتها..اتجهت نحو غرفة المغاسل..بقيت أفكر بما سمعت..كيف يمكنني أن أفصّل كل هذه الأحداث التي لم تعطني منها سوى رؤوس أقلام وعناوين صارخة..؟ عليّ أن أكون حذراً..لدي، برغم تعاطفي مع آلامها، فضول في استدرجها دون استفزاز كي تسترسل في الحديث..لا ضير من أن تكون تداعياتها غير مترابطة في سياق واحد..المهم أن أحصل على أكبرَ كمٍ من التفاصيل..أحسست بالراحة حينما رأيتها تقبل من جديد. جلستْ دون أن تنظر إليّ أو تجنبت ذلك ولو للحظات.. كان واضحا أنها أرادت أن ترتب فوضاها الداخلية بعيداً عني.. فربما هي خافت من تسرعها في الكشف عن هذه الأسرار.

ما أن جلستْ حتى تنفست الصعداء..واختفت بروحها وعقلها عني..كانت تجلس في مواجهتي..لكنها برغم ذلك كانت غائبة عن المكان قليلاً..صَمَتُّ إجلالاً لأحزانها وآلامها..كنت أتأمل وجهها، صدرها الناهد..لونها البرونزي..فكرتُ مع نفسي بهذه المرأة الغامضة التي انبجست من الغيب أمامي لتفتح لي بوابات الجحيم..هذه الروح المنسية..هذا الملاك المغتصب في الطفولة..ومن قبل مَن..؟ من قبل خالها..!! لكن هل ما ترويه صحيح..؟.

فجأة أشارتْ للنادل الذي كان على بعد أمتار من طاولتنا. اقترب النادل فقالت له بأنها تريد كوباً من الكابيتشينو..نظرت إليّ دون أن تسألني، فقلت له: لي أيضاً.

رفعت رأسها..كانت شفتاها ترتعشان ووجها يفيض بالمشاعر التي تفجرت فجأة..نظرت إليّ بتركيز وقالت:

- لقد قلت لك إنك الرب الذي قررت الاعتراف له، وسأكون أنا كما أنا معك دونما حُجب أو أقنعة..

فقلت مؤيداً وبسرعة تشجعها على البوح:

- نعم..قلت ذلك.. لكن هل تشعرين بالراحة حينما تبوحين لي بأسرارك..؟.
- نعم..جداً..
- إذن.. تحدثي..عليك أن تلقي هذه الصخور التي روحك وجسدك يعانيان من ثقلها ..

- أنا أبحث عن نفسي كروح منسية..جسدي لا يهمني.. الجسد مرحلة لها عمر محدد..الروح هي التي تستمر..تتجدد..

- أنت روح هائمة..ولست روحاً منسية..

نظرت إليّ بلامبالاة وقالت:

- لا..أنا روح منسية..كلنا أرواح مسكينة ومنسية في هذا الوجود..أنا إنسانة سئمت الكذب أمام الناس..بل وقبل كل شيء أمام نفسي..لقد سئمت أدوار البطولة.سئمت دور البطلة المضحية والمنقذة..هل تتصور أن أهلي، أمي وزوجها وأخوتي وأخواتي ينظرون إليّ كرجل..!! أنا بالنسبة لهم البطلة القوية..الصارمة..الجادة..الشرقية..التي ترفع رؤوسهم عالياً..و..و..و..و!!.

أحسست بدفق من الشفقة والحنان نحوها، فقلت بتعاطف واضح :

- لكنك امرأة..؟ امرأة تحتاج إلى الحب والحنان وللرقة..

أحسست أن نبرة صوتي قد أثرت فيها، فأيقظت بعض ضياء الأنوثة في أعماقها المظلمة، فقالت بصوت منكسر:

- أنا إنسانة ضعيفة..وأريد أن أستمتعَ بضعفي..لا أرى في ضعفي عيباً..أحبُ ضعفي الداخلي..فهو أنوثتي التي نسيتها وتناسيتها..قلبي يمر بحالة تصحر فظيعة.. ولا أريد له ذلك..

كانت مشاعري المتعاطفة معها صادقة جداً..فقلت بصوت حنون:

- لكن يجب أن تجدي نفسك..وجسدك..ولذتك..وارتعاشة جسدك..وسمو روحك..

ارتبكتْ قليلاً..لمسة من الخفر الأنثوي مست ملامحها..استرخت للحظات.. في هذه اللحظات جاء النادل وهو يحمل صينية عليها طلباتنا من الكابتشينو..وضع الكوبين مع كأسي الماء..ثم مضى..قربت هي كوب الكابيتشينو منها..أخذت تتشمم رائحته بلذة..ثم نظرت إليّ مبتسمة ابتسامة هادئة وقالت:

- أتعرف..؟ أحس أني أعرفك..وكأننا لم نتعارف قبل ساعة أو أكثر من الزمان..بل قبل سنوات وسنوات..أحس أنني أمام مرآتي..مرآة نفسي..أمام متاهة روحي وجسدي..أريدك أن تكتشف روحي..

نظرتُ إليها متفحصاً، مفكراً بالمغامرة في سؤال مرة أخرى..ثم قررت، فسألت:

- وجسدك.. كيف سأكتشفه..؟

نظرت إليّ نظرة خاصة فيها بعض الغنج الأنثوي وقالت:

- إن اكتشفت روحي ستكتشف جسدي..

- عليك أنت أن تكتشفي روحك..وجسدك..أنت أولاً..

أحنت رأسها إلى الأسفل..نظرت إلى الطاولة وكأنها تقرأ في كتاب الغيب، ثم رفعت رأسها إليّ وقالت:

- أتدري..؟ إنك زرعتَ ابتسامةً داخل روحي..شكرا لك..وهذا يشجعني أن أسترسل في بوحي لك بشكل أكثر جرأة ً..

أبديت ورعاً لم أعرفه في نفسي، فقلت:

- أنا أستمع إليك..

نظرت إلى عيني مباشرة..حدقت بتركيز وإصرار وقالت:

- أنا تائهة..وأعرف نفسي بأني تائهة..تائهة بين الوجه والقناع..تيهي يؤلمني، لأني أعرف أنني تائهة..وأعرف لماذا أنا تائهة..كمن يعرف أنه في بحر متلاطم ويوشك على الغرق..يعرف ذلك..لكنه يحاول بأي شكل أن لا يغطس إلى الأعماق.. منتظراً المنقذ..أو منتظراً الأمواج التي تدفعه إلى السواحل المجهولة..صدقني لو رويت لك قصتي فستستغرب..وربما لا تصدقني..ستتصورني مريضة نفسياً، وأن كل ما أرويه ليس سوى أوهام أختلقها..

أحسست أنني وصلت إلى بوابة الأسرار..فهي تريد أن تكشف أسرارها وتروي قصتها، لذا تمهد لها نفسياً، فقلت بنبرة مشجعة:

- أنا أخمن..بل أنا على يقين بأنكِ مررت بالجحيم..وقابلت مئات الأقنعة.. بينها أقنعة جميلة لكنها كشفت عن وجوه بشعة..لكنك أنتِ أيضا كنت ضمن المقنعين في حفلة الأقنعة التنكرية تلك..وربما كنت تعرفين أنك مقنعة لتحفظي وجهك الحقيقي..بل ربما نسيت، أحيانا، أنك مقنعة فاندمجت في الدور ونسيت نفسك.. فاستيقظت وفي الروح جروح..

كانت تنظر إليّ وكأنها تلتهم كلماتي..نظرت إليّ بنظرة تعاطف وقالت بحزن:

- ربما ما تقوله صحيح جداً..وليس أنني كنت مقنعة فحسب..وأنني كنت

أدري بأنني مقنعة، وإنما كنت ناصحة..أسدي للآخرين النصائح، في الوقت الذي كنت أنا أحتاج فيه للنصيحة..!!..كان عندي نكران ذات مجنون.. إلى أن وصلتُ إلى لحظة الإنقلاب على نفسي..وعلى كل شيء..وولدتْ لدي أنانية مشروعة..لكنني لم أنس روحي..لأن نسيان روحي هو عندي خط أحمر دائماً.. لذا لم أسقط..وهذا ما ساعدني للإنقلاب على نفسي وحياتي..

جملتها الأخيرة شوشتني، فسألت بحذر:

- هل تريدين القول بأنك لم تقيمي علاقة مع شخص ما قط..؟

نظرت إليّ بتركيز وإصرار وكأنها تريد أن تؤكد على مصداقية جوابها وقالت:

- لا..

- وكيف انقلبتِ على نفسك وحياتك..من أين انقلبت..وإلى أين..؟

نظرت إلي بتفحص باحثة عن أمكانية التصديق في وجهي ثم قالت:

- من مهندسة الى مرتزقة..إلى مغنية في ملهى..مغنية تغني في فنادق النجوم الخمس، من أجل الحصول على مالٍ أكثر، لأن شهادتي الأكاديمية أغرقتني في الديون..بينما كنتُ أنا المعيلة الوحيدة لأهلي..هل لك أن تتخيل ذلك..؟

صُدمت ..فسألت بسرعة دونما أي تفكير:

- هل أنت مهندسة..؟

- نعم. أنا مهندسة..لديّ شهادة تؤكد ذلك..تصور..بل وهذه التي تجلس أمامك كانت ملتزمة بالدين وفروضه..تصوم وتصلي..هل لك أن تتصور أن التي تجلس أمامك كانت تصلي..؟ لكنها بعد الصلاة كانت تلبس الثياب المزركشة وتتزين كنجمات السينما..تدير المفتاح في محرك سيارتها..وتذهب إلى السهرة..إلى الغناء في الملاهي..

أحسست وكأنني ملاكم عاجز، يتلقى ضربات خصمه المتتالية، فسألت بعجز واضح وبإستغراب:

- أنتِ..كنت بعد الصلاة تذهبين لتغني في الملاهي والفنادق..؟

كان انهمار كل هذه الإعترافات صادماً..سكتتْ للحظات..لم أنظر إليها..سافرتُ إلى أعماقي مفكراً بكل ما سمعت منها لحد الآن..ثم رجعت أكثر فضولاً في

معرفتها حقاً، فسألت:

- لكن أجواء الفنادق العربية، لاسيما في المطاعم والملاهي، هي أجواء تقود إلى تناول المشروبات الكحولية.وإلى الجنس..و..

فقاطعتني قائلة بحزم:

- الشرب نعم..الجنس والدعارة لا..وألف لا..ولا أريد هنا أن أبين لك أنني كنت ملاكاً..لا..لا أنكر أن هذه الأماكن هي سوق للمتعة..سوق تباع فيه الأجساد السكرانة..وتدار فيه الأقداح والكؤوس..ولا أنكر أنه كانت هناك عروض..لكن هذا يعتمد على متلقي العرض.. أتعرف.. كانوا يسمونني "الزئبق»..

- الزئبق..لماذا..؟

- لأني كنت أخرج من مثل هذه المواقف بسلام..

فضول الكاتب وربما رغباتي الغامضة فيها دفعاني إلى البحث عن التفاصيل، فسألتها :

- كيف..؟

نظرت إليّ بلامبالاة وقالت موضحة:

- كنت أدفع رشاوي كثيرة جداً كي أحمي نفسي..

- تحمين نفسك..؟

- نعم..الحماية هنا أن لا أذهب مع رجل وأفتح ساقي له..كما أني حوربت..

فقلت متسائلاً وبرغبة حقيقة في أن أعرف:

- حوربت..ممن.. ولماذا؟

- من الجميع..من الذين يعملون معي..جميع من كان يعمل في الملهى كان يغار لأني نجحت بينما أنا لست ابنة البلد..كما أني نجحت دون تقديم تنازلات في هذا العالم الغريب..

- وهل استطعت حقاً أن تعيشي حياتك بدون تنازلات..؟

أحسست أنها توترت من ملاحقتي لها بالأسئلة، لكنها قالت بنبرة متوترة قليلة:

- لست مريم العذراء..

- ماذ يعني ذلك..؟

- يعني.. أنا لست مريم العذراء كي أكون طاهرة من الأخطاء..لكن الذي عصمني عن الخطأ هو ما تعرضت له من بشاعة..الجنس كان بالنسبة لي مرتبطاً بصور التحرش الذي تعرضت له من قبل خالي..ثم بمشاهد الإختطاف والإغتصاب.. بعد ذلك تفاصيل زواجي المأساوي..ولهذا الأمر جانب كبير..فقد كان زوجي حيواناً حقيقياً..كان يضربني كي يمارس الجنس معي..لذا الجنس ارتبط عندي بالقرف..ولم يكن يهمني.. لهذا كنت قوية.. ولم أنحرف في هذا الجو المشبوه.. ربما كل هذه الأمور التي نفّرتني من الجنس هي التي منحتني القوة كي لا أهوي في هذه البئر المظلمة..

فكرت مع نفسي بأن أمامي أحداثاً جساماً كما يقال، اختطاف وإغتصاب، وزواج مأساوي..وتحرش جنسي..كيف لي أن أدخل إلى تفاصيل هذه الأحداث دون أن أدفعها إلى الخوف مني، ومن فضولي في معرفة التفاصيل..؟ ففكرت مع نفسي بأن أهم شيء أن أمنحها الأمان كي تتحدث بنفسها عن كل شيء..فقلت لها:

- أنا لستُ قاضيا أخلاقيا كي تبرري أمامي..ولا أسمح لنفسي أن أكون واعظاً.. أنا أحاول أن أتوغل معك في جحيمك..لذلك لا أدين ولا أصدر حكما عليك..فحتى لو كنتِ قد فعلتِ كل ما يمكن تصوره في هذه الأجواء فهي بالنسبة لي طبيعية..

فردت بحركة احتجاجية أخجلت سماحتي ولامبالاتي الأخلاقية، فقالت:

- لا.لا.بالنسبة لي هي ليست طبيعية..لم أكن أتناول المشروبات الكحولية إلا نادراً وعند الضرورات..ولم أتعاطَ أي نوع من المخدرات..
- لكن طبيعة العمل تفرض عليك تناول المشروبات الكحولية..
- لا..ليس هناك فرض..أنا كنت مغنية..أقدم وصلتي الغنائية وأغادر..أذهب لملهى ثان..ثالث..ورابع..كنت أغني حتى مطلع الفجر..وعند الصباح كان مدير أعمالي يقدم لي أجري قبل ذهابي إلى البيت.. هل تصدق أني كنت أجني ألف دولار في الليلة الواحدة..وهذا مبلغ كبير نسبياً.. كنت أغني في خمسة أو ستة أماكن في الليلة الواحدة..الغريب كنت أحاول العودة الى الطفولة..كل رغبات طفولتي أيقظتها..لم أترك شيئا في نفسي..كنت قد

نشأت في بيت زوج أمي الذي لم أر منه سوى المرارة والبخل..استيقظت لدي رغبة في شراء العقارات..قمت بشراء فيلا وأربع شقق بالتقسيط..طبعا ربما لم أذكر لك أن عملي كمغنية كان في القاهرة..فبعد حصولي على الجنسية الأردنية طلقت زوجي..وهذه قصة كاملة بحالها..ثم انتقلت إلى القاهرة..يعني أن قصتي مع الغناء بدأت في القاهرة..ولأني اشتريت كل هذه الشقق أخذت أعمل مثل ثور الساقية كما يقول المصريون..أي أسدد ديوني المقسطة..لم أرحم نفسي..كنت أعمل ليلياً دون انقطاع..كنت مرفهة.. أغير سيارتي كل شهرين أو ثلاثة..وكنت أشتري الحلي الذهبية بالأقساط من مافيا تابعة لرجل كبير ومهم في مصر..

* * *

كانت برغم سردها العفوي، وتلك النبرة اللامبالية في حديثها وكأن الأمر انتهى وقضي ومر، إلا أن ملامح الألم كانت تتماوج على وجهها الجميل..صمتت للحظات..غاصت في أعماق نفسها، ثم قالت:

- أنا مخنوقة..هل تعرف ماذا يعني أن تعشق الغناء..وتتاح لك الفرصة أن تغني لكنك لا تجد مكاناً لائقا سوى الملاهي الليلية..؟ هل تعرف ماذا يعني أن تستمر بالغناء لمدة عشر ساعات يومياً..تغني أمام رجال لا يسمعون.. كل نظراتهم تتركز على الجزء الأسفل من جسمي..؟ هل تعرف ماذا يعني هذا..؟ مررت بظروف نفسية صعبة..كنت أحياناً حين أرجع إلى البيت وأسعل وأبصق فأرى دماً يخرج من حنجرتي..كنت أحياناً أبكي كالأطفال من وجع ظهري وساقي..من أثر الوقوف والاستفزاز العصبي..كنت أحيانا أسمع، من رواد الملاهي والمطاعم حيث أغني، كلمات تجرحني مثل سكين غير حادة النصل..سكين عمياء..كنت أرجع فجرا منهكة..أنام بثيابي.. وبمكياجي من شدة التعب..وبرغم ذلك كنت ملتزمة..ربما لا تصدق ذلك.. كنت أصلي المساء..وبعد ذلك أذهب للغناء في الملهى..هل يمكن أن تصدق ذلك..؟ لكن ما أرويه لك هو الحقيقة.. ما كان يزيد من آلامي هو أني كنت أدفع مبالغ كبيرة رشاوى..نصف ما أحصل عليه تقريبا..
- رشاوى..لماذا..ولمن..؟

نظرت إلي مستغربة سؤالي وقالت:

- لماذا..؟..لقد أخبرتك..كنت أُخيّر بين أن أفتح ساقيّ أو الدفع..وطبعاً كنت أدفع..لكن جاءت اللحظة التي توقفت فيها..قلت لنفسي : كفى.

نظرت إليها متأملاً..وكنت أريد أن أعرف كيف يمكن لإنسان غارق في المستنقع أن ينقذ نفسه، فسألت :

- كيف قررت ذلك..؟

قالت بعصبية دون أن تنظر إليّ:

- تعبت..سئمت..أرهقت..قرفت..غير أن أمي كانت تريدني أن أواصل العمل كي أسدد ما تبقى عليّ من ديون وأقساط الشقق التي اشتريتها..فبعت إحدى الشقق..وبعت سياراتي والحلي الذهبية..وسددت ديوني..ولم يبق لي سوى فيلا وشقة في القاهرة..لكني لم أستطع العيش في القاهرة.. وسافرت.. والآن في استنبول..

- لكنك تقولين إنك منذ ثماني سنوات لم تقتربي من رجل..أي منذ طلاقك..

- نعم..

نظرت إليها مرتبكاً..كنت أود أن أسألها لكني ترددت..لاحظت هي ارتباكي وترددي..فقالت:

- يبدو أنك تريد أن تقول شيئاً لكنك متردد..قل ما لديك..ولا تتردد..

أحسست أنني أمام امرأة تعرف قراءة ما يجول في الرؤوس والنفوس، فقلت بهدوء وحذر:

- ثماني سنوات بدون جنس..ربما لديك ميول أنثوية.. كيف أنت مع رغباتك..؟

ابتسمت بحزن..صمتت للحظات ثم قالت:

- كيف أوضح لك ذلك..كنت أمارس العادة السرية..بين فترات متباعدة.. هل تصدقني إذا ما قلت لك إني لستُ بحاجة إلى الرجل..ولا للجنس.. كل ما أفكر فيه حالياً هو أن أجد بلداً أوربيا يمنحني جنسيته..ساعدتُ أختي على السفر..تعرفتُ هنا على عائلة عراقية..رجل وزوجته..تزوجا في العراق بشكل شرعي ورسمي..لكنهما الآن في السويد..وهناك لم يقدما نفسيهما كمتزوجين..عاشا معاً..الرجل طلب من أختي مبلغاً كبيراً نسبيا كي

يتزوجها على الورق..وبعد ثلاث سنوات يطلقها بعد أن تحصل على الجنسية السويدية..زوجته تقوم بهذه الصفقات مع الرجال أيضاً..تتزوجهم وتأتي بهم إلى السويد مقابل المال..الآن أختي حصلت على الجنسية السويدية.. وقد اتفقت معه على أن يتزوجني مقابل 18 ألف دولار..ووافق..لكنه زواج على الورق..

- هل فكرت بذلك جيداً..إنك امرأة جميلة..ربما سيفرض عليك العيش المشترك..!!
- سأقتله إذا تجرأ على التفكير بذلك.. اسمع ..لقد ضاقت نفسي من الجلوس هنا..يمكننا أن نذهب إلى مكان آخر..هل تعرف مول هستوريا في منطقة أكسراي..
- لا..
- طيب..يمكننا الذهاب إلى هناك..نخرج من هذه الزحمة..وهناك توجد مقاه ومطاعم..يمكننا أن نواصل حديثنا هناك..
- ليكن..ما دامت هذه رغبتك.

أشرت للنادل من بعيد بما يدل على طلب الحساب. أخذت هي تبحث في حقيبتها. جاء النادل بدفتر جلدي أسود..فتحته. رأيت المبلغ المطلوب..أخرجت محفظتي..وضعت أكبر من المبلغ المطلوب ببعض الليرات التركية، على الرغم من أن نسبة الخدمة مقطوعة وتدخل ضمن الحساب الموجود في القائمة. وغادرنا المكان.

اليد المقطوعة.. زواج الثعابين..

قادتني هي إلى منعطفات جانبية، أفضت إلى ساحة تتجمع فيها سيارات الأجرة. صعدنا سيارة..احترت هل أجلس إلى جانبها أو أجلس في المقعد الأمامي. لو جلست في الأمام فربما ستعتبر هذا تصرفاً شرقياً ذكورياً بأن تكون المرأة في الخلف دائماً..ولو جلست إلى جانبها فربما تعد هذا نوعا من التحرش غير المبرر، لكنني انتبهت إلى أنها جلست قرب الباب ولم تدخل في أعماق السيارة، ففهمت بأن علي الجلوس على المقعد الأمامي.

في الطريق كانت تشرح لي شيئاً عن أسرار المدينة وجسورها ومعالمها البارزة للعيان. كان المكان الذي قصدناه ليس ببعيد من منطقة تقسيم الشهيرة في استنبول. بالقرب من السوق الكبير (هستوريا مول) ثمة ساحة مزدحمة تقريبا بالناس..أخبرتني بأنها ملتقى للعرب.. للعاهرات واللصوص والمهربين من كل البلدان العربية، مع كثافة خاصة للعراقيين والسوريين والمغاربة..حيث يأتي الخليجيون أمثالي لشراء المتعة الرخيصة. خجلتُ من تعليقها، لكنها كانت واضحة، وباردة القسوة، مثل طبيب يشرح جثة. تذكرت أنا ما مر بي في اليومين السابقين، لكني لم أقل شيئاً.

في (هستوريا مول) صعدنا إلى الطابق الثالث. قادتني إلى مقهى (مادو) الذي كان مطعما ومقهى، فيه شرفة تطل على الشارع العام. فاتجهنا إلى الشرفة. اتخذنا من زاوية خاصة بمقعدين مجلسنا. جاءتنا فتاة تعمل هناك..قدمت لنا قائمة الطعام، إلا أن حواء السندسي قالت لها بما تعلمته خلال إقامتها من اللغة التركية بأن تأتينا بكوبين من النسكافيه مع صحن من الحلويات..

كنت أحوم كالعقاب على صيد ثمين. كنت أريد معرفة كل شيء عن زواجها.. وطلاقها..واغتصابها..وتحولها إلى مغنية..ومجيئها إلى تركيا..على الرغم من أني قد عرفت كل هذه الأشياء لكن بكلمات موجزة..أو بشروح غير وافية.. نظرتْ إليّ وكأنها كانت تتوقع أسئلتي..وتشجعني على الحديث، فقلت لها:

- لقد تحدثت عن زواجك. وزوجك الذي كان يضربك.. لكن الذي يحيرني كيف أنك تورطت بمثل هذا الزواج..؟

لم تجبني مباشرة، وإنما أخرجت من حقيبتها علبة سجائر، وأخذت سيجارة لكنها لم تشعلها، وإنما انتظرت كوب النسكافيه الذي لم يتأخر النادل في إعداده لنا.. أخذت ترتشف جرعات كبيرة من القهوة..وتذوقت القليل من الحلوى.. ثم أشعلتْ سيجارتها، وما أن نفثت دخان أول نفس لها، حتى سألتها:

- لقد تحدثت عن الاغتصاب..متى تم ذلك..؟وكيف..؟ومن قام بذلك..؟

سحبت نفساً طويلاً من سيجارتها..وأطلقت دخانه في الهواء..نظرت إلى الدخان وهو يتبدد في الهواء..نظرت إليّ وقالت:

- كان ذلك في العهد السابق..أقصد في أواخر عام ألفين..قبل ثلاث سنوات من الإحتلال الأميركي للعراق..وكنت ذات يوم في زياره لبيت عمي..ليس

عمي الحقيقي الذي هو أخو أبي المتوفي..وإنما عمي الذي هو أخو زوج أمي..وكان قد خرج من المستشفى بعد مرض ألم به..بيته كان قرب ساحة قهرمانة..في مدخل الكرادة داخل..

نظرت إليها بحنان وتعاطف..وقلت لها مشجعاً:

- سوف أتركك تتحدثين ولا أقاطعك بأي سؤال اعتراضي..فاسترسلي..

لم تعلق، وإنما واصلت:

- طيب..بتُّ عندهم ليلة..كانت ليلة متعبة..ولأن عمي ليس لديه بنات..وإنما أبناء فقط..لذا فأن زوجته استغلت وجودي عندهم فأنجزتْ كل أشغال بيتها من خلالي..نظفت لها البيت كله..وكأنها كانت تستعد لاستقبال العيد ..المهم..نمت وأنا أفكر بمجيء الصباح كي أفر من هذا البيت راجعة إلى بيت أمي..وما أن أطل الصباح حتى لملمت حالي..وغسلت وجهي.. فطرتُ بسرعة.. استأذنت منهم..وخرجت..حين صرت في الشارع العام وقفت منتظرة أية سيارة أجرة تمر..وبدل التاكسي وجدت أن سيارة من طراز البيجو، بيضاء..رقمها كما أذكره إلى الآن هو 2332..نينوى..وقفت إلى جانبي..كان فيها..ثلاثة رجال..شبان..نزل إثنان منهم، بينما كان السائق يضع نظارات سوداء على عينيه..سألني أحد الإثنين إن كان اسمي هو حواء السندسي..فأجبت بنعم..ويبدو أنهم كانوا يعرفون أنني منذ البارحة في بيت عمي..لكن كيف عرفوا ..فهذا ما لا أستطيع تفسيره لحد هذه اللحظة..كان واضحاً أنهم ينتظرونني.. وبدون مقدمات..ضربني أحدهما بقبضة المسدس على رأسي، وبحركه لحد الآن لا يمكنني تصور خفة يده وسرعتها الهائلة.. غبت عن الوعي..وحينما أفقت وجدت نفسي مشدودة ومرمية على صوفا جلدية..كان بيتاً على طراز خاص..جدرانه وأرضيته مغلفة بنوعية جيدة من الخشب..وكان أثاثه راقيا..انتبهت إلى أن على الجدران صوراً عديدة لشخص يقلده صدام نوط الشجاعة..وكانت الصورة تبين أن المكرم مقطوع اليد..ثم انتبهت على أصوات لضحك ومرح..فالتفت لأراهم جميعاً وهم يشربون الكحول..بينما ذو اليد المقطوعة بيده كأس ويسكي.. انتبهوا لي..أخذوا يتضاحكون..سألني أحدهم إن كنت عذراء ..فأجبتهم

بنعم..لكني تمالكت نفسي وسألتهم عن سبب وجودي هنا في هذا البيت..؟ وماذا يريدون مني..؟..فأخذوا يضحكون..وقال لي أحدهم: ستعرفين بعد قليل..طالت جلستهم.. سكروا..قام رجلان منهم..ألقياني على الأرض.. ومسك أحدهما بذراعي الممدودتين..بينما فرج الآخر قدمي..وقام الرجل مقطوع اليد من مكانه..اقترب مني..رفع ثوبي.. أذكر أنه كان ثوباً أبيض مزين بزهور حمر أشبه بالنقاط..أحدهم رفع ثوبي إلى الأعلى..أما هو فقد سحب سروالي..بل مزقه بيده وأذكر أنه بصعوبة فك حزام بنطاله..واغتصبني.. حاولت أن أقاوم..بل قاومت..صرخت..لكني أحسست أن صوتي قد اختفى.. أعياني التعب من أثر المقاومة..كانت رائحته كريهة..ولعابه يسيل..بل إنه بذل جهداً كبيراً في اختراقي بسبب امتلاكه ليد واحدة..أحسست بقطرات عرقه تبلل وجهي..وبعد أن ابتعد عني..قام أحدهم بنزع ملابسي عني بالقوة وبطريقة همجية..ممزقاً إياها.. صرت عارية بالكامل بينهم..فجاء أحدهم بكاميرا فوتوغراف وأخذ يصورني عارية..وراح يهددني قائلاً إذا ما كنت أنوي التبليغ عنهم..فأنهم سيفضحونني بهذه الصورة التي صارت لديهم...لا أعرف كيف أصف لك المشهد..لكني أذكر أنني سألتهم برغم كل ما جرى لي..لماذا فعلتم بي هكذا..؟ فجاء جواب الرجل المقطوع اليد ساخراً: إذهبي لقابيل العباسي..وبلغيه تحياتنا..وأخبريه بأننا الأقوى..لم أفهم شيئاً.. لكني أعرف أن قابيل العباسي هو حبيب المراهقة.. ويبدو أن ثمة منافسة أو عداء بينهما..المهم..أخذوني بالسيارة مرة أخرى.. بملابسي الممزقة.. وبنزيفي القوي..وألقوني في ساحة الحرية.. فأوقفت سيارة أجرة..استغرب السائق حالتي..كان رجلاً كبيراً في السن.. كنت أرى نظرات الشفقة في عينيه من خلال مرآة السيارة الداخلية..لم يسألني..لكنه كان يتأفف ويحوقل.. ذهبت إلى منطقة الداوودي حيث بيتنا..وما أن وصلت حتى أغمي علي..

وبرغم أني وعدتها بأن لا أقاطعها إلا أني وجدت نفسي أسألها:

- كم رجل منهم قد اغتصبك..؟
- لم يغتصبني سوى صاحب اليد المقطوعة..صاحب أنواط الشجاعة..السادي. الذي لم يكتف بإغتصابي وإنما بحرق جسدي بسيجارته..لأني كنت أقاوم،

فقد افلتت إحدى ساقيَّ..فرفسته لكني لم أصبه وإنما ساقي مست قنينة الويسكي فانكسرت.. وتناثر بعض أجزائها إلى جانبي فجرحت فخذي.. بل هو أيضا أخذ قطعة من الزجاج المكسور وجرحني بها..المهم..حين أفقت من إغماءتي...شممت روائح مقرفة..وانتبهت لوجود طبيب وممرضة وهم يحاولان التأكد من صحوتي..ثم قال لي الطبيب بأن الشرطة قد جاءت وطلبت من مستشفى الطوارىء بضرورة نقلي إلى الطب العدلي.. وفعلا أخذوني إلى مستشفى الطب العدلي..وفحصني هناك طبيب كتب في تقريره بأنني تعرضت لحالة اغتصاب وهتك لغشاء البكارة..وثمة آثار لضرب وجرح وحرق وكدمات..فبدأت الشرطة تحقق معي..وتسألني عن المغتصبين.. وسألوني إن كنت أعرفهم. فأجبت بالنفي..لكني وصفتهم للشرطة كما هم فعلاً..ورويت ما جرى لي بالتفصيل..لكني لم أذكر اسم قابيل العباسي قط.. لأن الأمر سيتم اكتشافه بعد استدعائه وسينفذون هم تهديدهم بفضحي..بعد ذلك أفقت من هول الصدمة..واسترجعت كل ما جرى لي..فأصبت بإنهيار عصبي..صرت أصرخ كالمجنونة..الأطباء حولوني إلى مستشفى (الجيبجي).. وبقيت هناك أربعين يوماً تعرضت خلالها إلى إحدى عشرة رجة كهربائية.. شخص الأطباء هناك حالتي بأنني مصابة بكآبة انفعالية..هناك حاولت الإنتحار مرتين..وبعد مرور شهر نقص وزني عشرين كيلوا لأني كنت أرفض تناول الطعام.... وذات يوم كنت جالسة على سريري رأيت شاباً لطيفاً يمر من أمام باب غرفتي..يتوقف قليلاً..يتأملني..ثم يمضي..ليرجع ثانية..وهكذا..أمي التي كانت معي انتبهت إليه أيضاً..وفي إحدى المرات التي وقف ليتأملني سألته أمي: ما بك يابني..؟ ماذا تريد..؟ فأجاب بلطف: لا أريد شيئاً ، وإنما وددت الإطمئنان على سلامة ابنتك..انتبهت أمي إلى لهجته، فسألته إن كان هو من العراق..فقال: لا..أنا من الأردن..فسألته عن سبب وجوده في هذه المستشفى..فأجاب بأنه مرافق لابن عمه الذي يعاني من الصرع.. وأنه هنا في بغداد منذ أسبوع ..وأعلن صراحة بأنه يتمنى الزواج من فتاة عراقية..فسألته بشكل مفاجئ: هل تتزوجني..؟ فأجاب مباشرة بأنه يتشرف بذلك..لكنه سأل عن حالتي فقالت له أمي بأني تعرضت لحادث اصطدام

في سيارة..فقاطعت أمي وقلت له لا..لم أتعرض لحادث اصطدام وإنما تعرضت للاغتصاب..وتوسلته أن يتزوجني ويذهب بي بعيداً عن هذه البلاد اللعينة..فوافق..وهكذا تزوجته بدون عرس. عقدت قراني في بغداد وسافرت معه إلى الأردن...لكن المفاجأة كانت تنتظرني هناك..إذ اتضح أنه قروي.. يعيش في الريف..وأهله فقراء جداً..وليس لديهم علم بزواج ابنهم..ولم يكونوا متهيئين لمثل هذا الأمر..أرادوا أن يقيموا حفلا في ما بعد لكني رفضت..بقيت أعيش في غرفة الضيوف لأشهر..لكن صدمتي الكبرى كانت في زوجي..ظننته حينما قبل بي زوجة له أنه إنسان نادر بحيث يتزوج مغتصبة..وقد احتفظت له بجميل هذا الموقف الإنساني..خاصة في مجتمع مثل مجتمعاتنا الشرقية..لكنه اتضح أنه تزوجني لأني جئته أنثى بالمجان.. ولأنه لم يكن بإمكانه أن يتزوج لظروفه العائلية الفقيرة....

توقفتْ عن الكلام..أشعلتْ سيجارة أخرى..كان كوبا النسكافيه قد فرغا خلال حديثها دون أن ننتبه..أشرت إلى النادلة وقلت لها بالإنكليزية بأن تأتينا بكوبين آخرين..ظلت هي تدخن سيجارتها إلى أن انتهت..وجاءت النادلة بالكوبين..أخذنا نرتشف منهما..ولم أسألها عن أي شيء..كنت أحترم كثافة الألم الذي سيطر عليها وهي تروي لي سيرة العذاب هذه..وبعد دقائق..أنهت كوبها..فأشارت إلى النادلة من بعيد بأن تأتيها بكوب ثالث..سألتني إن كنت أريد كوبا آخر..فقلت لها بأني لم أنته من كوبي بعد..ومرة أخرى أشعلتْ سيجارة..أخذت نفساً منها ونفثت الدخان ثم واصلتْ دون أن أسألها:

- كان فتى معقداً..يعمل النهار كله في رعي الأغنام وفي جز الصوف ولم البعر والحطب وما شابه من أعمال.. وكان لا يغتسل..يأتيني مباشرة.. برائحته الكريهة..رائحة الخرفان والبعر..وكنت لا أستطيع أن أتقبله..أحس بالتقيؤ..رائحة فمه كريهة جداً..البخر الذي ينطلق من فمه مقزز..فمه كان أشبه بمرحاض..رائحة كريهة وأشد جيفة من الخراء..وفوق هذا كله كان يريد أن يقبلني من فمي.. فكنت أدفعه جانباً لأذهب إلى الحمام كي أتقيأ ما في معدتي..فكان يشعر بالذل..ويُستفز فيأخذ في ضربي..شاتماً واصفاً

إياي بالعاهرة العراقية التي لم أترك حسرة في نفس رجل.بينما ألعب دور الشريفة العفيفة معه..إلى جانب هذا كله كان غريب الأطوار..كان يطلب مني أثناء ما هو داخلي أن أضع أصبعي في شرجه كي يستطيع أن يتلذذ بي أكثر..

شلتني هذه الإعترافات الحميمة، فقلت بارتباك:

- وأنت..كيف كنت تدبرين نفسك..؟
- كنت أذهب لأغتسل..وهناك أداعب نفسي..كنت لا أفعل ذلك إلا نادراً.. لذا كرهت الجنس..صرت أشعر بالإشمئزاز والقرف منه..ارتبط لديّ بالقسوة والإكراه..والسادية. والتقيؤ..صرت أرى في كل رغبة نوعاً من القسوة والسادية..

قلت متعاطفاً:

- يمكن تفهم ذلك.. فمن التحرش الجنسي في الطفولة..إلى الإغتصاب..إلى هذا الزواج المهين والضرب..يمكن تفهم وضعك..

نظرت إليّ بتوتر لم أتوقعه منها..سحبت سيجارة جديدة..سحبت نفساً عميقاً منها.. نفثت الدخان..لمحت ارتجافة يدها..قالت لي بنبرة متوترة:

- هذا ليس كل شيء.. ليس تحرش خالي بي في الطفولة..واغتصابي..وزواجي المقرف هما السبب الوحيد في قرفي من الجنس..
- ماذا بعد غير هذا..؟
- أمي..

فوجئت..لم أفهم ماذا تقصد..انتظرت..لم أقل شيئاً..فقالت هي بتوتر وبسرعة:

- أمي كانت تنام مع جدي...مع أبيها..!!

لوط وابنته.. العائلة المقدسة المدنسة

جملتها الأخيرة أخرستني. أذهلتني.. وجدت نفسي أتمتم بإستنكار لاإرادي:

- ماذا..؟ ماذا تقولين..؟
- لا تستغرب..أنا أكبر الأبناء في عائلتي..نحن خمسة..أنا من أب مات..

وترك أمي وحدها..تزوجت رجلاً آخر هو زوجها الحالي..الذي أنجبت منه ولدين وبنتين..أنا بنفسي كنت شاهدة على ذلك..كانت أمي جميلة جداً.. وكان جدي يعتقد بأنها ليست ابنته..أي أن جدتي..التي هي زوجته كانت قد خانته..لأن أمي كانت جميلة جداً وتختلف عنه وعن بقية بناته..أعترفت أمي في ما بعد بأنه عندما كانت مراهقة تحرش بها..وكان يداعبها..وأجبرها على أن ينيكها من دبرها..وحينما اعترضت وبأن ذلك حرام فهي ابنته.. أخبرها بأنها بنت حرام..وهي ليست ابنته..قائلاً لها بأن تنظر لنفسها في المرآة وتنظر لبقية أفراد العائلة وستكتشف ذلك بنفسها..وبما أنها كانت الكبيرة في عائلتها..فقد أخبرها..صدقاً أو كذباً بأنه حينما تزوج أمها لم تكن عذراء..وأنها بعد سبعة أشهر ولدتها..وربما كانت حاملاً بها حينما تزوجه..المهم..أقنعها بطريقة وبأخرى بأنها ليست ابنته..وما يفعله معها لا يعد زنا أب بابنته...ولكي تتخلص أمي من هذا الجحيم قبلت أمي بأول من يتقدم لها.. تزوجت أبي..أبي الذي لا أتذكره أبداً..لكن أبي مات نتيجة مرض عضال داهمه ولم يمهله طويلاً.. فلم يكن أمامها سوى أن ترجع إلى بيت جدي..لاسيما وأن جدتي قد ماتت وتركت خلفها خالاتي وأخوالي.. لذا عادت أمي بي..لتكون رهن إشارته..إلى أن تزوجت زوجها الحالي.. وكان زوجها الثاني عسكرياً..قبل بها أرملة مع طفلة صغيرة لأنها كانت جميلة جداً..لكن أنا نفسي رأيت..حينما كان زوج أمي يذهب الى معسكره ويبقى هناك فترة طويلة..كان جدي يأتي إلينا في بيتنا الخاص الجديد.. ويدخل معها في الغرفة ويغلقان الباب..وكنت أسمع أناتها ولهاثها..حينها كنت أعتقد أن جدي يضرب أمي وهي تصرخ من شدة الضرب..لم أفهم ذلك..إلى أن رأيته ذات مرة عارياً، ومستلقياً بين فخذيها..وهي تحضنه.. وتئن..بل وذات مرة ..وبعد سنوات..بعد أن صار لي أخوات وأخوة من زوجها الثاني..بات جدي الليل عندنا..واستيقظت وحدي لأراهما عاريين.. هو لم يرني لكنها كانت تلهث..والتفتت فرأتني..لم تفعل شيئا..وإنما نزلت الدموع من عينيها وهي تنظر إليّ نظرة استسلام..فخفت..ودفنت رأسي تحت اللحاف..وأخذت أبكي بصمت..والغريب أن جدي كان طيباً معي..وحنوناً..

وبالمناسبة..لم يكن ريفياً..وإنما كان ابن مدينة.. ووضعه المادي جيد.. ديالى كلها تعرفه..مدينته الأصلية..وهو الذي وجهني للقراءة حينما صرت في العاشرة من عمري..لكن في هذه العائلة المقدسة والمدنسة..تحرش بي خالي..كنت في الثالثة أو الرابعة من عمري..فأخذني في حضنه..وبدأ يداعب فرجي الصغير بأصبعه..ومرة اضجعني على ظهري..ووفتح ساقيّ.. كنت صغيرة بدون سروال في مثل هذا العمر.فأخذ عضوه بيده..واستمر يداعبني ويضعه على فرجي..ويلهث..حتى أني خفت منه..إلى أن بللني بمائه..حينها لم أكن أفهم شيئاً..ظننت أنه بال عليّ..

صُدمت..صُدمت بهذا الكم من المعلومات..وصُدمت بهذه الذاكرة المجروحة التي تستذكر أحداثاً بكل هذه التفاصيل الدقيقة وكأنها حدثت الآن وأمامي..فكرت مع نفسي بأني لا أجرؤ كتابة رواية تتحمل كل هذا الكم من التفاصيل اللاأخلاقية المهولة..هذه التفاصيل القبيحة والمقززة..وكيف يمكن للموضوع القبيح أن يكون جميلاً..؟ فأنا أعرف أن الجميل يجب أن يكون نافعاً..ففي الطبيعة هناك أشجار بشعة المنظر وذات أشواك..لكنها تعطي ثماراً حلوة جداً أو ثماراً نافعة جداً..ونجد أشجاراً جميلة لكنها لا تعطي ثماراً..وربما نجد شتلات قصيرة لكنها مثقلة بالثمار..ثم أن الحديقة المليئة بالزهور لا تعطي ثماراً.. والحياة نفسها تجيبنا بأن أجمل المباني ليست أنفعها بالضرورة.. فالمعابد مثلاً ليست مكانا نافعاً للسكن..لكن حكاية مثل هذه لا تكون جميلة..بل جليلة..لأن الجميل يقوم على اللذة..بينما الجليل يقوم على الألم..مثل التراجيديا بالضبط..لكن هنا لا يمكن لأحداث هذه الحكاية أن تكون تراجيديا..فالتراجيديا تُبنى على الألم الذي يتعرض له البطل الخيّر..بينما هنا نتحدث عن مجموعة من الأوغاد والفاسقين..عموما..لا أعتقد أن هذا كل شيء.. فأنا أعتقد أن لدى حواء السندسي الكثير مما لم تقله..وهي تقفز في المواضيع ولا تسترسل فيها كما في السرد الروائي..وليس بيدي أن أوجه تداعياتها..وها هي أمامي متوترة جداً..فجأة، وبدون تَوقع، قالت لي بتوتر مصحوب برجاء:

- دعنا نذهب من هنا..لقد تعبت..

- لك ما تشائين..

أشرت للنادلة بأن تأتينا بالحساب..وكما في المرة السابقة فقد جاءتني النادلة بصندوق خشبي صغير وفيه ورقه الحساب..دفعت المبلغ المدون مع بعض الليرات الإضافية فقالت لي بغضب بأن البقشيش والحسم الخاص بالخدمة ضمن الحساب الكلي فلا تدفع لهم زيادة..لم آبه لكلامها..غادرنا المكان.

* * *

سمعت حواء ذوالنورين قلقلة مفاتيح تأتي من الباب الخارجي. كانت تحس بالإختناق من هذه القصة..لم تكن تعرف أتتعاطف مع حواء السندسي أم لا..؟ لا .لا. هي بالتأكيد تتعاطف معها ومع أحزانها..لكنها أحست بالإختناق من قصة أمها ونومها مع أبيها..تذكرت كيف أنها كانت تكره أباها..أباها الذي كان يكره أن يراها فتاة..فربّاها على أن تكون كالصبيان.

الحركة امتدت إلى الصالة..صارت قريبةً من بابها..ثم توقفت لأنها سمعت صوت إيفا سميث الخافت، عرفت أن زوجها قد وصل.. كان الوقت متأخراً. أحسّت أنها برغم عنف هذه الحكاية ظلّت متشوقة للتوغل في أعماق هذا الجحيم مع حواء السندسي..

خفتت الضجة الخفيفة في الصالة. وهدأ كل شيء..فخمنت أنه دخل للنوم. نظرت في أرجاء الغرفة وكأنها تفتش عن إيفا نيني فم السمكة، لكنها لم تر أحداً.. عادت للغوص في "ملاك الجحيم".

* * *

المهـــربـون

حين خرجنا من مبنى (هستوريا مول) سحبتني من يدي وسط الزحمة..استغربت من حركتها العفوية تلك..بل كانت وكأنها ليست تلك المرأة المتوترة قبل لحظات.. كانت تفيض حيوية ومرحاً، لكنها كما أعرف تخفي كماً هائلاً من الحزن في داخلها.. كان لديها بطاقة للتنقل في وسائط النقل..أخذتني إلى رصيف ما..ثم أدخلتني خلف حاجز ففهمت أنه أشبه بقطار الأنفاق..جاء القطار بعد أقل من دقيقة فصعدنا..

وبعد محطات قليلة خرجنا..فوجدنا أنفسنا أمام مبانٍ ومقاهٍ في مجمع تجاري ضخم يسمى (استنبول سنتر). نزلنا الدرج الحجري..صرنا بمواجهة المقاهي..قادتني إلى مقهى واجهته زجاجية..جلسنا هناك. طلبنا فنجانين من القهوة..أحسست أنها قد عادت لطبيعتها دونما أي توتر واضح..أخذت تشرح لي بعض تفاصيل المكان.. وكيف أنها لأول مرة تصله بالمترو، فعادة أنها تصله بسيارة الباص.. وفرحت بأنها وجدت طريقاً جديداً وسريعاً إليه..رحابة المقهى..والجدران الزجاجية أضفت جواً شاعرياً على المكان..لاسيما وأن معظم رواد المكان كانوا شباناً جميلين وأنيقين وفي غاية الإسترخاء.

كنت في حيرة من أمري. كيف يمكنني أن أدفعها للحديث أكثر وأكثر عن حياتها..تساؤلي لم يكن في محله، إذ اتضح أني لم أكن في حاجة لذلك..فقد قررت بنفسها أن تعترف لي..حتى لو لم أسألها عن أي شيء..لذلك ما أن جاء النادل بفنجاني القهوة مع قطعتين صغيرتين من الحلوى..وذهب، حتى بدأت بسردها الغريب، فقالت:

- هل تعرف أنني كنت مهربة..قبل أن أكون مغنية..؟
- ماذا..؟

هذه صدمة أخرى..وصفحة جديدة..انتبهتْ للدهشة التي ارتسمت على وجهي، فقالت لي مواسية:

- صُدمت..؟ أعرف ذلك..فالتي تجلس أمامك لديها كنز من التجارب..وأية تجارب..كنز من التجارب الفاسدة..أتدري أنني اصبحت مهربة وذلك من أجل أن أساعد أهلي..فبعد الإحتلال أحيل زوج أمي على التقاعد..وخلال الحرب الطائفية هرب مع أمي وأختي إلى الأردن حيث كنت أعيش..باعوا كل شيء استطاعوا بيعه..لكن خلال أقل من ستة شهر أنفقوا كل ما كان لديهم.. توجهوا إليّ..زوجي الحيوان كان بخيلاً جداً ..لذلك بدأت مع أخيه وابن عمه أقوم بتهريب السجائر من سوريا..بالمناسبة..لم أقل لك بأني كنت أعيش في قرية على الحدود..كنت أذهب معهم في السيارة.. للتمويه..أشتري السجائر وأخبئها في الفراغات بين الباب الحديدي وبين الجلد الذي ينجده..المهم.كنت أقوم بذلك بشكلٍ مستمر..بين يوم وآخر..

وكنت أساعد أهلي وأجمع لنفسي المال..لأني كنت أريد التخلص من زوجي هذا..لكن المصيبة جاءت على رأسي..

لم أقل شيئا..كانت تنتظر مني أن أسأل عن المصيبة التي ذكرتها، لكني بقيت صامتاً.امتد بيننا صمت لثوان..قطعته هي مواصلة:

- هل تعرف أنني أم..ولدي ابن..؟

نظرتُ إليها وفي نفسي رغبة في أن أوقفها عن الكلام كي أستعيد أنفاسي من تراكم هذه المفاجئات..لكنها واصلت:

- نعم..لدي ابن..هو الآن في العاشرة..هل تعرف أن كل زواجي امتد ثلاث سنوات فقط..سنة ونصف كنت معه ..وسنة ونصف كنت زعلانة وأعيش مع أهلي في العاصمة..حيث بدأت دراستي الجامعية..لقد كنت قد ولدتُ بعد سنة من زواجي ابناً..لكن لا أعرف لِمَ الحياة تضعني في دائرة الإختبار دائماً..فما أن وفرت مبلغاً محترماً حتى تم خطف أخي في العراق..الخاطفون طلبوا خمسة (دفاتر)..أي خمسين ألف دولار..كان المبلغ كبيراً..أخوالي هناك دبروا جزءاً منه..وأنا دفعت كل ما جمعته من تهريب السكائر ولم يشكل سوى جزءٍ منه..وتكفل بالبقية أخي وأختي اللذان يعيشان في دولة الإمارات..لقد أخبرتك بأننا خمسة أخوة..أخوان وأختان وأنا..أخ وأخت لي هما منذ سنوات في الإمارات..أختي متزوجة من رجل إماراتي محترم.. كزوجة ثانية أو ثالثة..وأخي متزوج ويعمل هناك..ولم يبق سوى أختي التي هي أكبر أخوتي من أمي..لكنها مريضة جداً..وأنا أحبها جداً جداً..وأخ مختطف في العراق..المهم..كما فهمنا من أخوالي بأن المختطفين أخذوا المال..لكنهم لم يطلقوا سراحه..وقيل لنا إنهم قتلوه..لا نعرف مصيره إلى الآن..

كنت منذهلاً..ما هذه المأساة التي أسمعها..أهي حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة التي تنتهي دائما بمجيء هادم اللذات ومفرق الجماعات..؟..وكأنما لا نجاة من الموت إلا بالموت..ومن العذاب إلا بعذاب أشد منه..صرت وكأنني أمام باب

مغلق، كما في الحكايات الخرافية..كلما فتحته واجهك باب مغلق آخر..تفتحه لترى باباً ثالثاً..وهكذا..لكني وجدت حديثها عن الدراسة الجامعية فيه شيء من الإرتباك.. لربما هي ليست صريحة بما يكفي..فربما اشترت هي تلك الشهادة الجامعية لكنها تستحي أن تقول..لم أُبدِ أية ملاحظة..لأني تألمت حقاً لقصة اختطاف أخيها..

انهمكتْ فجأة في التفتيش داخل حقيبتها..أخرجت علبة السجائر..أشعلت واحدة..وأخذت تدخنها بتوتر..كانت يدها ترتجف..خمنت أنها تخفي توتراً كبيراً.. ثم قالت:

- أحيانا تمرق بي لحظات نادرة جداً أصحو فيها على نفسي.أفكر معها..وأجد أن نكراني لذاتي..ونسياني لنفسي وواقعي..هو ليس أكثر من هروب من ذاتي ومن مواجهتي لنفسي..وأن خدمة أهلي..أمي وزوجها..وبقية أخوتي.. والسعي المهووس من أجل نيل رضاهم على حساب نفسي وراحتي هو ليس سوى عبط وحماقة..وكلام فارغ..مضيعة للوقت..لكني سرعان ما أبدأ بمحاسبة نفسي لأني فكرت بهذه الأفكار اللعينة....أتدري إلى أي حد وصل نكراني لذاتي..لقد تخليت عن ابني من أجل أهلي ..

هنا لم أعد قادراً على الصمت..فسألتها مندهشاً:

- كيف..؟ كيف لأم أن تتخلى عن ابنها..؟ ومن أجل من..؟ من أجل زوج أم.؟.من أجل أم وأخت..؟ لا أكاد أصدق ..

لم تغضب.. أسبلت جفنيها..لم تنظر إليّ مباشرة..وإنما أطرقت وقالت :

- ربما أنا إنسانة معقدة..غير سوية..كنت أريد الطلاق..صبرت سنوات ثلاث هي الفترة القانونية للحصول على الجنسية الأردنية..كنت عند أهلي حينما قدمت طلبا للحصول على الجنسية..وبعد جهد جهيد..وانتظارات..ومراجعات.. حصلت عليها.. عندها قدمت طلباً رسميا إلى المحكمة الشرعية برغبتي في الطلاق من زوجي..بعد أخذ ورد..قال لي زوجي عبر وسيطه الذي هو ابن عمته، والذي يعمل في العاصمة، بأنه سيوافق على الطلاق إذا ما أعدت له ابنه..واتفقنا على ذلك..فقد كنت أعرف بأني قانونياً أمتلك حق حضانة ابني..وهكذا أعطيته ابني..على أن نلتقي في محكمة المدينة القريبة من قريته لإنهاء اجراءات الطلاق..لكن في اليوم المعني..جاءت سيارات

الشرطة لتلقي القبض على أمي وزوجها بحجة أنهم اختطفوا ابني..وألقي بهما في السجن..توسلت إليه بأن يتنازل عن دعواه ضدهما.. لاسيما وأنهما غريبان في هذا البلد..لكن دون جدوى..فذهبت إلى رؤساء العشائر في المنطقة هناك..فتدخلوا..وهكذا أخذ ابني مني من أجل أن يتنازل عن دعواه ضد أمي وزوجها.. توجهت إلى محامين من أجل الحصول على الطلاق..فنبهني أحدهم بأن عقد زواجي قد جرى في بغداد وليس في هذه البلاد..لذا يمكنني أن أتم الطلاق في العراق..فسافرت إلى بغداد.وهناك.. ومن خلال الرشاوي أنجزت الطلاق..وتمت مصادقته في المحكمة وفي الدوائر المختصة بالأمر..وجئت لتصديقه في بلد زوجي..وتمت المصادقة.. وبهذا تحررت منه..ولكي أنتقم لنفسي رفعت دعوى حضانة ضده..وحصلت على قرار رسمي من المحكمة بحضانة ابني لأنه صغير..وهكذا جيء بإبني إلى حضانتي.. لكني كرهت البقاء في هذه البلاد..وقررت مغادرتها..فكرت مع نفسي مليا..ووجدت أنه من الأفضل لي أن أترك الطفل عند أبيه..فأنا لا أرى أمامي أفقاً واضحاً..وبنفسي ذهبت إلى قرية زوجي..آخذة ابني الصغير معي..طرقت الباب..فخرج مرعوباً..سلمته ابنه..قائلة له بأني سأغادر البلاد..وأنني لا أعرف لي مستقراً..ومن مصلحة الطفل أن يبقى معه..فهو ابنه..أخذ الطفل مندهشاً..وعدت أجر خيبتي وخسراني معي..لا أدري كيف أصف لك حالتي..هل تصدق أنني أختلف عن باقي نساء العالم..إذ لم أشعر بذاك الشوق والتعلق بإبني كما يوصف حنين الأم عادة..ألعابه الموجودة في غرفته هي التي كانت تذكرني به..لكني كنت منهكة مما مر بي من أحداث..فأقدمت على الإنتحار..بعدها نُقلت إلى مستشفى الأمراض النفسية..وهناك أيضا تعرضت لرجات وصدمات كهربائية..وبعد مرور ثلاثة أشهر تعافيت لحد ما..

* * *

لم أستطع السيطرة على طريقتها في سرد لحكايتها السريعة، المكثفة بطريقة عجيبة، ولم أشأ أن أدخل معها في التفاصيل لأنها كانت في حالة نفسية غير طبيعية وهي تحدثني، وكأنها لا تعرف بالضبط عن أي شيء يجب أن تتحدث..

وكأنها كهف كُشف للنور فانطلقت منه أفاعي الذكريات هاربة..لكن هل هذه هي ذكريات أو معاناة حية مكبوتة..؟.

انتبهت إلى أننا قد شربنا قهوتنا..فأشرتُ للنادل الذي كان قريبا من طاولتنا وقلت له بالإنكليزية بأن يأتينا بكوبين من القهوة وصحناً مشكلاً من مختلف الحلويات التركية الشهيرة.. فكرت مع نفسي ربما هي تحت ضغط من المنبهات التي ولدها شرب هذا الكم من أكواب القهوة..وبدا لي أنها لا تستطيع التوقف فثمة سيل من الذكريات انطلق مكتسحاً أمام كل المحاذير ومشاعر الخجل، لذا تلفتت في ما حولها قليلاً..ثم انطلقت في الحديث:

النغمة التائهة..

- بعد أن خرجت من المستشفى مهدمة من الرجات الكهربائية التي وصلت إلى إحدى عشرة رجة، ومعافاة، كما يقول الأطباء، عدت للعيش مع أمي وزوجها وأختي..كنت أشبه بفاقدة الذاكرة..لا أحس بشيء..وكأنني ورقة بيضاء لم يخط الزمن عليها حرفاً..كنت متعبة..مرهقة..أحيانا أحاول أن أتذكر شيئاً لكني لا أستطيع..وأحيانا أحس نفسي فرحانة على حين غرة.. دون سبب يدعو للفرح..وكنت أشغل نفسي بالتنظيف والغناء..أغني لأم كلثوم وعبد الوهاب..هذه كانت هوايتي منذ فترة الصبا....وذات يوم..كنت أغني في المطبخ أغنية لمحمد عبدالوهاب..أغنية (يا مسافر وحدك..).. يامسافر وحدك..وفايتني..ليه تبعد عني..وتشغلني....ودعني من غير ما تسلم.. وكفايه قلبي أنا مسلم..ده عيني دموعها..دموعها بتتكلم..يا مسافر وحدك.. وفايتني..ليه تبعد عني..وتشغلني ....كنت أغني حينما طُرق باب شقتنا.. توقفت عن الغناء..فتحتْ أمي الباب..دخلت جارتنا التي تعيش في الشقة المقابلة..كانت منفعلة وسألت بحرارة عن التي كانت تغني قبل قليل.. أمي قالت مشيرة إليّ ..نظرت إليّ وكأنها تقيسني وتبحث عن جودتي إن كانت هناك عيوب ما..ثم قالت لي أنت كنز مخبوء..أين كنت..؟..سألتني عن المغنين الذين أحفظ أغانيهم..فقلت لها: أم كلثوم..وردة الجزائرية..عبد

الوهاب..فريد الأطرش..

- أنا أحب عبد الحليم حافظ..وعبد المجيد عبدالله..

كانت سخافة مني أن أقاطعها هكذا..ما الذي دفعني لذلك..؟ لماذا قطعت إنسياب حديثها..؟ لمت نفسي.. وقطعت سيل الجمل التي كانت في طريقها إلى فمي..نظرت إليّ وقالت:

- وأنا أحبهما أيضاً..أحب الأغاني الخليجية.. لكن دعني أحكي لك..وأرجو أن لا تقاطعني، لأني سأفقد حينها تدفق ذكرياتي.. واتشتت.

شعرت بالذنب..فقلت لها بارتباك:

- حاضر..

نظرت إليّ مثلما تنظر المعلمة لتلميذ مذنب، ارتسمت على شفتيها ابتسامة حزينة، وقالت:

- طلبت جارتنا مني أن أغني نماذج من أغانيهم..فغنيتُ لها دون أن أخجل أو أتردد..بعد ذلك التفتت إلى أمي وقالت لها بأن لديها كنزاً..دجاجة ستبيض لها ذهبا....أمي امرأة طماعة جداً..مهووسة بالمال..لاسيما وقد كانت هي في حالة مادية سيئة جداً.. لذا طلبت من جارتنا أن ترشدها إلى كيفية الاستفادة مني..ولم نكن نعرف في حينها طبيعة عمل جارتنا ..إذ كشفت لنا بأنها تدير مجموعة من الفتيات اللاتي يغنين في المطاعم والملاهي والجلسات..وأنها ستقبل أن تستخدمني مقابل مائة دولار في الليلة....لا أعرف كيف أصف لك حالة أمي،التي جمعت وضربت في ثانية واحدة ما سيكون عليه المبلغ خلال شهر، فقالت لجارتنا: يعني ثلاثة آلاف دولار في الشهر..؟..هزت الجارة رأسها..وهكذا بدأت رحلتي مع الغناء..كنت أغني الأغاني الثقيلة كما يقال..وبقية الفتيات يغنين الأغاني الخفيفة..لكني كنت أغني طوال ست ساعات، وأحيانا أكثر، ليلياً..منذ بداية المساء وحتى الساعات الأولى من الفجر.. ولم أكن استلم شيئاً..كانت أمي هي التي تقبض.. مهمتي كانت الوقوف والغناء....لكن حدث أن جاء صاحب صالات ومدير أعمال فنية، مصري الجنسية، في زيارة عابرة إلى الأردن..وزار المطعم الذي كنت أغني فيه..فأعجب بصوتي جداً وشجعني على السفر إلى القاهرة.. لكني لم

أكن أصدق كلامه..كنت أظنه يتودد إليّ.. ويتحرش بي بشكل مؤدب.. لاسيما وهو كان يلمّح إلى الثروة السريعة بشكل غامض، لكني من خلال نظراته عرفت أنه يلمّح إلى الجنس...ولا أخفيك..وجدت في الغناء تعويضاً لتحقيق ذاتي.. فقررت السفر إلى سوريا..وهناك أخذت أعمل في مطعم يتحول إلى ملهى في آخر الليل..في جرمانا..لكن صاحب المطعم استغلني بطريقة بشعة..كانت وصلتي الغنائية تكاد تكون في وقت متأخر، لكنه كان يجبرني على الحضور منذ بداية البرنامج الليلي..كنت محاصرة..صحيح أن المبلغ كان أفضل لكنني كنت أختنق..إلى أن حضر ذات ليلة رجل مسؤول من رجالات الحكم في تلك البلاد إلى الصالة..لا أعرف كيف أصف لك الأمر..هذا الرجل أعجب بي جداً..كان يدفع لصاحب الصالة مبلغاً كبيراً من أجل أن يبقيني وحدي في البرنامج..فأقف طوال السهرة وحدي أغني له.. لكن صاحب الصالة يعرف أنني لا أفتح ساقيّ لأحد..ولن أسمح لأي كان أن يقترب مني..وهذا ما فهمه الرجل المسؤول..لذا أخذ يلاحقني برواحي ومجيئي..ولم أستطع الخلاص من ملاحقاته المقيتة إلا بالهروب من هذا البلد في أول فرصة سنحت لي..حينما زار الصالة ذات ليلة رجل عماني.. لديه صالة في منطقة صلالة..سألني بشكل مباشر : لو دعوتك للعمل في صالة بسلطنة عمان..هل توافقين..؟..أوافق.. قلتها بسرعة وحسم..استغرب هو، وسألني: ألا تريدين أن تعرفي شروط العقد..وتفاصيله..؟ قلت: لا.. أريد فقط أن أتخلص من هذه الوضعية التي أنا فيها....ووافقت..لكني في تلك الأيام كنت قد حصلت على تأشير لزيارة أختي وزوجها وأخي في الإمارات..فقلت له سوف ألتحق بك بعد زيارتي لأختي..ووافق الرجل.... وهناك في الإمارات حصلت أشياء غيرت مجرى حياتي..فقد أرادت أختي وزوجها قضاء فترة أسبوعين في مكان ما..وكانت البلدان المرشحة هي تركيا ومصر..وصار القرار هو السفر إلى مصر..واستحصلوا لي معهم على التأشيرة..وفي القاهرة تذكرت صاحب الصالة الذي دعاني إلى مصر حين بدأت الغناء..والذي وعدني بأني سأكون نجمة كبيرة..اتصلت به من باب الفضول..استغرب وجودي في القاهرة...لكنه كان مريضاً في تلك الفترة..بيد

أنه لم يقصّر في خدمتي ومساعدتي إذ اتصل بشخص آخر..يعمل صحفياً يلتقط أخبار الفنانين والفنانات في الصالات لمجلة فنية تافهة.. ..طلب منه مساعدتي..واتفقت أنا بدوري مع الصحفي على المكان المحدد والإشارة التي أعرفه فيها..شرحت لأختي وزوجها الأمر..وقلت لهما بأننا سوف ننتظر..فإذا ارتحت له ولشكله فيمكننا التقدم إليه والتعريف بأنفسنا..وإذا لم يعجبني فكأننا لم نكن موجودين ونلغي الفكرة..وذهبنا إلى المكان الموعود.. وفعلاً جاء الشخص المعني..ارتحت لشخصه..وتقدمت منه معرفة بنفسي.. وهكذا بدأنا..شرح لي مصاعب العمل كمغنية في مصر..إذ عليّ الحصول على موافقة نقابة الفنانين..وهذا لن يتم إلا بإختباري غنائياً أمام لجنة من النقابة فيها أساطين الغناء..شرحت له وضعي..وكنت صريحة معه..بأني لا أذهب مع أي رجل..استغرب قولي لكنه احترم رغبتي وقال في هذه الحال عليّ أن أحصل على ترخيص للعمل في مطعم خاص بالعوائل..حيث لا مكان للجنس والعهر فيه..وفعلا وجد لي مطعماً عائلياً كان صاحبه رجلاً شهماً وافق على أن أقدم وصلة غنائية في مطعمه المحترم ليلياً..ومجاناً، ويحصل أيضاً على كل ما يتم (تنقيطي) به من قبل المعجبين..بشرط أن يمنحني ورقة تثبت عملي في مطعمه رسمياً..وقد صار ذلك الصحفي مديراً لأعمالي..فوجد لي عملاً في عدد من الصالات التي أزورها ليلياً بالتسلسل..ومن خلال علاقاته صارت الصحف والمجلات تكتب عني.. وصرت ثرية..جئت بأمي وزوجها وأختي إلى القاهرة..صرت أحصل في الليلة الواحدة على ألف دولار..اشتريت شققاً...أسكنت أهلي في واحدة وأختي في واحدة..واشتريت لنفسي فيلا..وفتحت غاليري لبيع التحفيات التي كنت أعملها وأصممها بنفسي..وحينما أخذت أفكر بنفسي..التقيت هذا الغني الخليجي..الذي حدثتك عنه..وبالمناسبة...دخلت في معمعة الدين..والبحث عن الله..والبحث عن الخلاص..كنت محجبة..ألبس المناديل ..أعيش حياتي بإزدواجية كبيرة..محجبة ومؤمنة وتؤدي الفرائض..لكني وبعد أن انتهي من صلاة العشاء..ألبس ثياب السهرة لأذهب إلى الصالات وأبقى أغني حتى الساعات المتأخرة من الفجر..كنت أضطر أحيانا وللضرورات أن أتناول

الكحول..لكني لا أنام مع الرجال.. كنت كما أخبرتك أعطي الرشاوي لأصحاب الصالات كي يعفوني من هذا الواجب..كان أصحاب الصالات ومن يعمل معي يسمونني ب: الزئبق"..أي لا أحد يستطيع أن يمسكني.. ولا أن يفتح ساقيّ..لكن صدمتي الكبرى كانت مع هذا الأمير الذي أيقظ مشاعري.. لكنه دمرني بما كشف عنه من شذوذ وخسة..وقد رافق ذلك مرض عضال أصيبت به أختي..مرض في القلب..رافقه أيضا تحول أمي إلى مدمنة لصالات القمار..كانت تأخذ مني مالاً وتختفي في صالات ماكنات اللعب..حتى وصل بها الأمر إلى سرقتي..حينما أرجع متعبة من الملاهي التي أغني فيها..كانت تفتش في حقيبتي..تأخذ مبلغا ماً..ليس كبيراً كي لا أنتبه لذلك..لكني كنت أنتبه..لأني استلم ألف دولار كل فجر بعد انتهائي من العمل..وأحيانا كانت تسرق مئتي دولار وربما أكثر وربما أقل..لكني لم أشأ أن أحرجها..المهم..فجأة انقلبتُ ..وتوقفت عن العمل..

- وكيف توقفت..عن كل هذا ..؟

نظرت إليّ وكأنها عادت من رحلة صعبة..قالت بنبرة فيها مزيج من الإحباط والمرارة:

- في زحمة الحياة نحن لا ننتبه لأنفسنا..لا ننتبه للتغيير الذي يطرأ على أجسادنا..نتصرف بنزق الشباب وبتهور..لا نرى أنفسنا بشكل حقيقي.. بينما يرى الآخرون تهدل ملامحنا وقسماتنا..وتجاعيد رقابنا أو جباهنا.. ينتبهون لبدانتنا..والشحوم المتراكمة هنا وهناك..لا ننتبه لخرائب الجسد بينما ينتبه الآخرون إليها..نحن نمشي بأجساد مهدمة لكن بكبرياء بائس.. شخصياً..وجدت نفسي فجأة مهدمة ووحيدة وسط خرائب حياتي..لم تعد لي رغبة في الحياة..هل تصدق أن السبب الوحيد الذي يشدني للحياة هو أختي المريضة..لأني لا أستطيع أن أفارقها..وإلّا لانتحرتُ وأرحتُ نفسي.. هي مريضة وتحتاجني..وأنا لا أستطيع الموت ومفارقتها..لقد صرفت عليها أموالاً طائلة لكن دون فائدة..أردت أن أضمن لها حياتها..لم أفكر بنفسي..

- أين هي الآن؟..

راودني إحساس بأنها على وشك أن تنهي حكايتها..فهي الآن هنا وقد تركت

كل ذلك خلفها وحرقت المراكب..لذلك سألتها عن أختها، فقالت لي بحزن:

- هل تعرف ماذا يعني أن يتسرب الموت إلى ثنايا وطيات كتاب حياتك..؟ حينها ستفقد معنى الفرح في المسرات كلها..وهذا ما حصل في حياتي بعد أن اقتربت أختي من الموت..وصارت مهددة منه في أية لحظة..أتدري أنني غادرت القاهرة لأن أختي كانت تخاف ولا تشعر بالأمان في الزحمة.. لذا غامرت من أجلها مغامرة كبيرة..
- كيف..؟

سألتُ بفضول. نظرت إليّ كمن تريد أن تتأكد من تقبلي لما ستكشف عنه.. وبعد لحظات استرسلت:

- ذات يوم..كنا في إحدى الأسواق التجارية بالقاهرة..وفي إحدى مطاعم الأكل السريع التقينا صدفة بعائلة عراقية..رجل وامرأة وابنهما.. كانا قادمين من السويد..تعارفنا..وتحدثنا طويلاً..وصارت بيننا ألفة.. شرحت لهما وضعنا.. ووضع أختي..فسأل الرجل عن سبب عدم مغادراتنا القاهرة إلى أوروبا مثلا.. خاصة بالنسبة لأختي حيث سيتوفر لها العلاج المجاني هناك..فسألته عن طرق الوصول إلى أوروبا..وبعد حديث طويل..تعمقت الإلفة بيننا..قال إن هناك من العراقيين الذين حصلوا على الجنسية الأوربية من العزاب..بعضهم يتزوج أية امرأة ..على الورق..لكن بشكل رسمي..مقابل مبلغ من المال.. بعد ذلك يقدم طلبا في البلد الذي يعيش فيه طالباً لَمَّ شمل العائلة..عندها تلتحق به زوجته الورقية..وتحصل على الإقامة فوراً..وبعد ثلاث سنوات تحصل على الجنسية..وعندها يتطلقان..وكل يمضي إلى سبيله.. بكلامه هذا فتح أمامي نافذة على أفق جديد.. سألته أن يجد من يستطيع القيام بذلك.. فقال هو موجود..لكنه يطلب مبلغاً كبيراً..ثمانية عشر ألف دولار..ستة آلاف دولار عن كل سنة..فوافقت..المفاجأة الكبرى كانت حينما أعلن بأنه هو يستطيع ذلك.. وشرح لنا بأنه صحيح متزوج شرعا وأمام الله ورسوله.. لكنه عند السويديين يُعد غير متزوج...لأنه لم يتزوج رسميا...اتفقت معه على أن تذهب أختي إلى استنبول..ويأتي هو إلى هناك..وتجري الأمور.. وفعلا جرى الأمر كما اتفقنا..انقضت السنوات الثلاث..حصلت أختي على

الجنسية..وانفصلت عنه رسميا..وهي تعيش الان هناك..واتفقت معه أن يتزوجني بنفس الطريقة..زواجاً ورقياً..لكن المبلغ صار مضاعفاً تقريباً..لا ضير..بعت شقتين من التي أملك..وبعت سياراتي..وأجرّت الفيلا..وجئت إلى استنبول..وها أنا أنتظر مجيئه ليعقد القران عليّ..ويصدقه في السفارة السويدية ..ليدعوني بعدها إلى السويد كزوجة من باب لم الشمل العائلي..

- ألا يشك السويديون به لأنه تزوج من أختين..؟
- لقبي العائلي يختلف عن لقب أختي..فهي أختي من أمي فقط..

كانت تتحدث ببساطة عن هذه الأمور..لكني انتبهت إلى أنها وكأنها تتحدث عن إنسانة أخرى..هي ليست هي..فراودني سؤالها الأول لي، فسألتها:

- حواء..من أنت..؟

نظرت إليّ بحزن..ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت:

- أنا لستُ أنا ..إنني هي.. التي تمشي بجانبي دون أن أراها..، والتي أكاد أحياناً أراها..، والتي أنساها مرات عديدة..، والتي تصمت عندما أتكلم..، والتي تغفر عندما أكره..، والتي تمشي عندما أتوقف..، والتي سوف تظل واقفة عندما أموت..

حين انتهت من الإجابة..وضعت علبة السجائر في حقيبتها..ونهضت..لم تودعني..ولم تلتفت..غادرت المقهى وكأنها ظل حكاية منسية. لم تكن مشاعري نحوها هي المشاعر التي كانت قبل حديثي معها..اختفت صورة المرأة الغامضة في الثوب الأسود..أنا أمام امرأة أخرى.. ملاك فر من دهاليز الجحيم..

أحسست وكأني مشلول..أشرت للنادل بالحساب..وبعد أن جاء ونقدته..ركضت نحو المحطة..اشتريت بطاقة..هبطت الدرج مسرعاً..وحين وصلت رأيتها تدخل مقصورة القطار..ركضت نحوها أريد الدخول..لكني لم أفلح..أغلقت الأبواب.. كانت هي تقف عند باب المقصورة..قبالتي بالضبط..اختلطت الأضواء..رأيت صورتي تتداخل مع صورة قامتها على زجاج باب المقصورة..تحرك قطار الأنفاق..واختفى مثل ثعبان حديدي في نفق مظلم..التفت في ما حولي..كنت وحيداً على جهة الرصيف..وبعد لحظات.. توقف القطار على الرصيف المقابل..وتدفقت الحشود

خارجة..لم أكن أعرف إلى أين أذهب..صعدت خارجا إلى الشارع..أوقفت تاكسياً وطلبت منه أن يأخذني إلى ميدان تقسيم.

* * *

وضعت حواء ذوالنورين الكتاب جانباً. نظرت إلى النافذة..كانت الفجر قد انبلج من أعماق الظلمة..وتباشيره كانت واضحة..فقد انكسرت العتمة قليلاً. كل شيء صامت..ثمة أصوات تأتي من بعيد. صوت سيارة باص نقل ركاب يأتي..ثم زعيق شبان يبدو أنهم عادوا من حانة أو مرقص وهم يصيحون ويصرخون بأعلى أصواتهم..فجأة أحست وكأن هناك شخصاً ما..لا..لم يكن شخصاً..كان وجه إيفا نيني فم السمكة يطل عليها من خلف الزجاج من جهة الشارع..وكانت تبتسم لها.. ما هذا..كيف هي خلف الزجاج من جهة الشارع..نهضت بسرعة من مكانها..جالت بنظرها في أرجاء الغرفة..فربما هي تقف في مكان ما وهذا هو إنعكاس وجهها على زجاج النافذة..لكن لا أحد في الغرفة. أحستْ بشيء من الارتباك..دست نفسها في الفراش..واطفأت النور..غرقت الغرفة في الظلام..

الفصل الثاني عشر

طُرق الوهم

أفاقت حواء ذوالنورين على ضوضاء في الشقة. كان صوت الأطفال وهم يمرحون في الصالون. انتبهت إلى أنها قد نامت طويلاً..مدت يدها إلى ساعتها اليدوية التي كانت قد وضعتها على الرف فعرفت أن الوقت فقد تجاوز العاشرة صباحاً..خمنت أن شمل العائلة قد التم، فالجدة قد جاءت بالأبناء وهم مجتمعون الآن حول مائدة الإفطار. نهضت على مهل..ترددت في أن تفتح الباب عليهم وتفاجئهم.. ارتدت ثوبها..وصففت شعرها إلى الأعلى..وفتحت الباب في هدوء.

الجميع نظروا إليها نظرات مختلفة المعاني، لكنها انتبهت إلى أن نظراتها التقتْ أولاً بنظرات الزوج آدم سميث، الذي يبدو قد عاد في وقت متأخر من الفجر بحيث لم تنتبه لذلك.. نظراتهما امتدت لثوان خاطفة لا أكثر، ثم انتقلت إلى صديقتها إيفا وابتسمت لها، وبأدب نظرت إلى الأم التي ابتسمت لها أيضا.. ألقت عليهم تحية الصباح..فبادرتها صديقتها بالإعتذار بأن الأطفال ربما أيقظوها من نومها..فابتسمت وقالت إنها هي التي تعتذر لأنها تأخرت في النوم..وطلبت السماح بالتوجه لغرفة المغاسل.

* * *

بعد الإنتهاء من الفطور جلسوا في جانب من الصالة. الجدة ذهبت مع أحفادها إلى غرفتهم..كان واضحاً أن آدم سميث لديه ما يقوله لحواء ذوالنورين بحضور زوجته إيفا.. وحينما شعروا بأنهم بمنأى عن فضول الجدة الدائم في معرفة كل شيء..قال آدم سميث موجهاً كلامه لحواء ذوالنورين:

- لقد تحدثت مع صديقي المحامي..شرحت له كل شيء كما فهمته منك

ومن إيفا.. وقد طمأنني بأن الأمور ستكون على ما ترام..سيقوم هو بكل الإجراءات الرسمية وسيرافقك إلى كل الدوائر..سيحتاجك غداً في العاشرة صباحا ليذهب معك لتقديم طلب اللجوء..والبدء بالإجراءات الرسمية.

أحست حواء ذوالنورين بدفق من مشاعر العرفان بالجميل يغمرها وبالإمتنان نحو صديقتها إيفا سميث التي كانت تجلس إلى جانبها والتي أخذت كفها وضغطت عليها من باب التعبير عن الفرح، وابتسمت لها قائلة:

- ألم أقل لك بأن آدم سيساعدك..وستحل كل مشاكلك قريباً؟!..

ترقرقت الدموع في عينيّ حواء ذوالنورين وقالت لهما:

- أنا لا أجد الكلمات التي تعبر عن مشاعر الشكر والإمتنان لكما..ولا أعرف ماذا كنت أعمل بدونكما..أنا عاجزة عن تقديم الشكر لكما..وأتمنى أن أتمكن من رد جزء بسيط من هذا الجميل الذي غمرتموني به..

ابتسم آدم سميث وقال لها بنبرة مرحة:

- ياسيدتي..أن تكوني مرتاحة ومطمئنة هو ما نسعى إليه..ولا تستعجلي.. سيأتي الوقت الذي يمكنك أن تعبري عن شكرك لنا..المهم الآن أن نبدأ الإجراءات..ستكونين عندي غداً في المكتب الساعة العاشرة وستذهبين معه إلى دائرة الأجانب..هو سيفّهمك كل شيء..وبالمناسبة هو يتحدث العربية وسكرتيرته تتحدث العربية أيضاً ..

- آه..الآن ارتحت..لأنني كنت أود أن أسألك عن كيفة التفاهم معه..

- هو مثلي..أبوه لبناني وأمه فرنسية..لكنه ولد هنا..فهو فرنسي قبل أن يكون لبنانياً..ولا تقلقي فهو يتحدث العربية بطلاقة..

تدخلت إيفا سميث مشجعة وقالت بفرح واضح وأصيل:

- لا تقلقي..هو محام شاطر جداً..ويعرف كل زوايا المحاكم والقوانين ولديه علاقات واسعة جداً لذلك اختارته الشركة الأم في أميركا ليكون محاميها ومندوبها القانوني في فرنسا..لا تقلقي..

في تلك اللحظات ركضت الإبنة الصغيرة نحو والدها وألقت بنفسها عليه متشبثة به فاحتضنها بمحبة كبيرة. ابتسمت المرأتان لهذا المنظر الذي يملأ قلوب أية أم بالحنان.

وبينما الأب كان منشغلاً بمداعبة ابنته والحديث الطفولي معها، التفتت إيفا سميث إلى حواء ذوالنورين وسألتها:

- هل تأخرت ليلة البارحة في سهرتك مع الكتاب..؟

تذكرت حواء ذوالنورين أنها كانت قد قررت مع نفسها أن تحدثها عن هذه القصة الفاجعة، لكن الوقت لم يتح لها، وها هي إيفا نفسها تسألها عن ذلك، فقالت لها:

- أتدرين..أردت أنا أن أروي لك عن الكتاب قبل أن تسأليني..نعم يا إيفا.. الكتاب يروي قصة حزينة جداً عن امرأة مرت بالجحيم..لكني لم أنتهِ منه بعد..شخصيا مررت ببعض التجارب التي مرت بها هذه المرأة..وربما عشت أشياء أشدّ هولاً منها..لذا شعرت بمعاناتها..لكني أستغرب أن تكون كاتبة القصة امرأة خليجية..أقصد تلك التي قابلتها في كنيسة نوتردام والتي اسمها حواء الذهبي..
- لقد شوقتني لقراءة الكتاب..لكن لماذا تستغربين..؟
- لأن الكاتبة امرأة خليجية مرفهة..لا يمكن لهذا الوجع العراقي أن يعرفه بتفاصيله إلا امرأة عراقية..فوصفها ومعلوماتها عن بغداد دقيقة..كما أن راوي القصة رجل..وهو نفسه آدم ابن آدم..اسمه على الكتاب..وفي داخل النص..

فقالت إيفا سميث بتساؤل:

- ربما سمعت القصة من فم امرأة عراقية..؟..وربما هي متقصدة في أن يكون الراوي هو نفسه المؤلف..الذي هو كما تقول قناع لها..

- ربما..

في تلك اللحظات جاء صوت هاتف نقال لكنه بعيد..انتبهتا كلاهما لرنين الهاتف، والتفتتا نحو جهة الصوت.. ارتبكت حواء ذوالنورين.. وقالت:

- هذا هاتفي ..الصوت يأتي من الغرفة التي أنام فيها..لكن من يتصل بي ..؟

قالت ذلك ونهضت متجهة إلى غرفتها.. بقيت إيفا سميث وهي تنظر إلى زوجها وهو يقبل ابنته ويلعب معها بشكل طفولي.. فقالت له:

- آدم..أنت تعرف صديقتي حواء دمشقية..؟

توقف آدم سميث من مداعبة ابنته وقال منتبها لما سألته زوجته:

- حواء دمشقية..؟ ألم تسافر راجعة إلى سوريا..؟
- نعم، لكنها عادت منذ أسبوعين تقريبا..
- وماذا بها..؟

صمتت إيفا لثوانٍ ثم قالت بهدوء:

- هي الآن قد تعرفت على شخص من أميركا اللاتينية..

صمت آدم سميث للحظات ونظر إلى زوجته مستفهما لكن دون أن يقول شيئاً، ثم علق سائلاً:

- ألم تكن مرتبطة مع شخص لبناني يعمل في الصحافة أو الإذاعة أو في شيء من هذا القبيل..؟كما أنك رويتِ لي مرات عديدة عن مشاكلهما..
- نعم..لكنها الآن مع شخص آخر..والبارحة قابلتهما صدفة..وقد أبدت رغبتها في زيارتنا..فلم أستطع أن أمانع..
- وما المشكلة..ليأتوا..
- متى..؟
- متى..ليأتوا في أي وقت يشاؤون..ليكن الليلة مثلا..فليس لدي شيء محدد.. لأني خلال الأسبوع لا أستطيع..

فوجئت إيفا سميث لموافقته السريعة، فهو لا يحب الدعوات المفاجئة ولأناس لا يعرفهم..كما أن معظم دعواته لها علاقة بالعمل والصفقات..لكنها في الوقت نفسه، أحست بالذنب لأنها كذبت ولم تقل الحقيقة في أن عشيق حواء دمشقية هو الذي طلب بنفسه أن يلتقي بزوجها ليحدثه عن مشاريع ربما ستقودهما للعمل معاً..

هي لديها حدس داخلي بأن آدم سانتشو ماريا زاباتو اختلق هذه الأعمال الوهمية من أجل أن يلتقيها أكثر، فأخبرت زوجها وكأن صديقتها هي التي وراء الدعوة باللقاء..وأحست بشعور غير مريح، لأنها اقتنصت رغبة خفية في نفسها بأنها بعد أن رأت صديقتها حواء دمشقية وعشيقها الوسيم شعرت بغيرة غامضة منها.. وتمنت لو أنها هي على علاقة بهذا الفتى الشيطاني المثير الملامح.. وأحست، فجأة، برغبة شديدة في رؤيته..لذا أخذت الهاتف ونهضت باتجاه المطبخ متصلة

بصديقتها حواء دمشقية، متحدثة معها عن الدعوة..وبأنهم سينتظرونهم تمام الساعة السابعة والنصف.

انهت إيفا سميث اتصالها مع صديقتها..وفي اللحظة التي توجهت فيها، خارجة من المطبخ، نحو الصالة حيث زوجها الذي استمر يلعب مع ابنته، التقت بحواء ذوالنورين وهي خارجة من غرفتها. نظرت إيفا سميث إليها نظرة مستفهمة، فانبرت حواء ذوالنورين قائلة بنبرة مليئة بالدهشة:

- أتدرين من كان المتصل..؟

نظرت صديقتها إليها بتساؤل..وقبل أن تقول شيئاً واصلت حواء ذوالنورين:

- إنها حواء الذهبي، الكاتبة الخليجية..سألتني عن أحوالي..ثم أبدت رغبتها في أن ألتقيها عند باب كنيسة نوتردام اليوم عصراً الساعة الخامسة..لم نتحدث طويلاً..أردت أن أعبر لها عن اعجابي برواية (ملاك الجحيم) لكنها أقفلت الخط فلم أتمكن من الحديث معها مطولا

نظرت إيفا سميث إليها بتساؤل، وارتسم شيء من الإحباط الخفيف على وجهها وسألت:

- وهل وافقت على الذهاب إلى الموعد..؟

أجابت حواء ذوالنورين ببراءة وتساؤل:

- نعم..هل كان يجب أن أرفض..؟

قالت إيفا سميث موضحة:

- لا طبعاً..لم أقصد أن ترفضي..لكنني اتصلت بحواء دمشقية ودعوتهما على العشاء الساعة السابعة والنصف..وأردتك أن تكوني معنا..المهم..كيف ستذهبين..؟

- لا أعرف..بالتاكسي..

- لا.لا. سيوصلك آدم..أنا مضطرة للبقاء في البيت لإعداد المائدة..

أحست حواء ذوالنورين بالحرج فسألت بنبرة فيها شعور خفي بالذنب:

- ربما علي إلغاء الموعد..كي أساعدك في التحضيرات..؟

انتبهت إيفا سميث لنبرة الإحباط والإعتذار في صوت صديقتها، فقالت بمرح ومودة كي تخفف عن صديقتها الشعور بالتقصير:

- لا.لا. اذهبي..وغيري الجو..أنا وأمي سنقوم بالتحضيرات كلها..لكن حاولي الرجوع في حدود السابعة والنصف..لديك عنواننا ..وسأكتبه لك مرة أخرى..

حينما صارتا في الصالون..لم تجلسا. توجهت إيفا سميث إلى زوجها قائلة له بأن عليه إيصال صديقتها إلى كنيسة نوتردام..حيث لديها موعد في تمام الساعة الخامسة..ارتبك الزوج قليلاً..كانت هذه المهمة مفاجئة له..لكنه استطاع أن يكتم فرحه، إذ أنه سيكون وحيداً معها..وستكون هذه فرصة له كي يتقاربا أكثر..فثمة شيء يجذبهما إلى بعضهما البعص وقد تجنبانه في حضور إيفا.

* * *

انتبهت أم إيفا إلى ان ابنتها تستعد بحماس غير عادي في إعداد الوليمة لإستقبال صديقتها حواء دمشقية وصاحبها..استغربت الأمر مع نفسها..فقد سبق لحواء دمشقية أن جاءتهم وكان الاستقبال مقبولا وليس بهذا الحماس الإستثنائي، وبهذه الرغبة في الإعداد للطعام..ثم انتبهت إلى ان ابنتها أخذت تقوم بنفسها بإعداد التبولة، وعملت خلطة خاصة للمتبل والمقبلات اللبنانية المعروفة..وأوصت المطعم اللبناني القريب أن يعد لهم صينية كبيرة من تشكيلات اللحوم المشوية من دجاج وكباب وأشياء أخرى..وفكرت الأم مع نفسها بأن الأمر ربما يخص الشخص الذي يرافق صديقة ابنتها، فربما هو شخصية مهمة..وهي وزوجها يسعيان لاستقباله بما يليق به من احترام ومهابة..ولم تتوقف الأم عند حالة ابنتها النفسية الجديدة وإنما ذهب تفكيرها إلى زوج ابنتها الذي ذهب مبكرا لإيصال حواء ذوالنورين.

خلال ذلك كانت إيفا سميث مشغولة البال بأحلام يقظتها..كيف ستستقبله..؟.. وكيف عليها تجنب غيرة صديقتها حواء دمشقية من جهة، وعدم إثارة زوجها آدم الذي لا يغفل عن كل شاردة وواردة في ما يخص علاقة الرجال بالنساء من جهة أخرى..؟..ثم سألت نفسها: " لِمَ أهتم بهذا الفتى..؟!..هل أريده لنفسي حقاً..؟.. لا.لا. كيف أجرؤ أن أخوض مثل هذه المغامرة..ماذا يجري لي..؟ هل وصلتُ إلى هذا الدرك من التهور والجنون..؟"..أحست أنها تصارع عربيد الرغبات في أعماقها.." لا.لا. عليّ أن أسيطر على نفسي وعلى مشاعري قبل أن تفضحني..وأهدّم بيتي وعائلتي بنفسي..عليّ أن أفكر بشجاعة وهدوء..وأن لا أستعجل الأمور.".. وبينما هي في دوامة الحوار الداخلي رن الهاتف النقال. انتبهت إلى أن الصوت

يصدر من هاتفها. ذهبت إليه مسرعة، وانتبهت إلى أن المتصل هو صديقتها حواء دمشقية..فوجئت..قالت بنبرة سريعة ومرحة لكن فيها ظل من العصبية:

- نعم حواء..كيفك..؟ ماذا هناك..؟ أنا مشغولة الآن في المطبخ.. أعد التبولة والمتبل....ماذا..؟

ارتسمت علامات الغضب الممزوج بالدهشة. حاولت أن تسيطر على نبرة صوتها كي لا تفضح ما يدور في أعماقها، فسألت:

- لماذا لا يستطيع..؟ لا تعرفين..؟ كيف لا تعرفين..؟ ومتى يمكنه أن يخبرك بإستطاعته أو لا..؟ ماذا..؟..بعد أن ينهي ما لديه..؟ اسمعي يا حواء..هو الذي طلب عقد مثل هذا اللقاء لأن لديه ما يعرضه على زوجي آدم..والآن هو يتملص من اللقاء بعد أن أخبرت زوجي وبدأنا بالإعداد لاستقبالكم..؟..طيب..اخبريني عندما تحصلين على جواب نهائي وتقررون المجيء من عدمه.. مع السلامة.

انتبهت إيفا سميث إلى أنها ودعت صاحبتها بخشونة وغضب مبطن..لاضير.. صديقتها ستفهم ذلك على أنه غضب ناتج عن الاستعدادات لاستقبالهم ولخبطة مساء يوم الأحد عليهم..إذ كان بإمكان العائلة أن تخرج لمكان ما..إلا أن إيفا نفسها كانت محبطة وغاضبة لأنها لن ترى آدم سانتشو ماريا زاباتو هذا المساء.. توجهت إلى المطبخ مستاءة بشكل واضح..قالت لأمها التي لاحظت الإستياء مرتسما على وجه ابنتها:

- اتركي كل شيء يا أمي..لن يأتوا..صديقها انشغل بشكل مفاجئ..وهي غير متأكدة إن كان سينتهي من مشاغله في الوقت المناسب ليأتوا ..

نظرت الأم إليها نظرات متفحصة، صمتت للحظات، ثم قالت بنبرة مواسية:

- لم يحصل شيء..ليكن.. فهذا الطعام يليق بكم..كلوه أنتم بالهناء والشفاء.. إذا جاءوا فأهلا وسهلا..وإذا لم يأتوا فأنتم أولى به..لم يحصل شي يا ابنتي..

لم تستطع إيفا أن تبقى في المطبخ أكثر..كانت قد فقدت رغبتها في الاستمرار في الإعداد للوليمة..وأرادت أن تنفرد بنفسها..لقد إستاءت من نفسها لأنها وجدت نفسها تنجذب لفتى يصغرها عمراً، بل هي تنزلق دون أي دافع من قبله..هي نفسها

لا تعرف السبب..وعليها أن تتماسك..فلم تعد تعرف نفسها.. عليها أن تواجه نفسها على حقيقتها لتعرف لماذا هي كذلك.

غادرت المطبخ بينما بقيت الأم تواصل إعداد بعض المقبلات وهي تفكر في حال ابنتها الذي انقلب بعد اعتذار صديقتها عن المجيء. لم تذهب خلفها لتستفسر منها وإنما أعدت عصائر لأحفادها..وضعت الكؤوس في صينية وذهبت إلى غرفتهم.

* * *

كان آدم سميث يسوق سيارته بهدوء محاولاً أن يُطيل الزمان والمكان كي يبقى أطول وقت ممكن مع حواء ذوالنورين التي انكمشت على نفسها، وحفزت موانعها النفسية كي لا تنجرّ معه إلى أية مغامرة وخيمة العواقب، فهي تحب صديقتها إيفا ولا تريد أن تسيء إليها بالاستجابة لرغبات زوجها المفضوحة بالتقرب إليها. فقد بدأ يسألها عن حياتها ومشاريعها..وهل تفكر أن ترتبط أم تبقى وحيدة..وهل تفكر بالحب..كيف يمكنها أن تعيش بلا حب..؟.فأوضحت له بأنها مرت بظروف صعبة وبمآسٍ جعلت من حياتها حطاماً..وهي الآن لا تفكر سوى بأن تستقر وتعيش بسلام..فبموت ابنها فقدت رغبتها في الحياة..إلا أنه لم يقتنع بجوابها..ووجد فيه هروبا من مواجهة النفس، فقال لها:

- في بحر الحياة المتلاطم ليس لنا من منقذ سوى الحب..هو القارب الذي يمكن أن نصعد إليه وينقذنا من الغرق..

لم تجبه..أحس بالخيبة من ردة فعلها الباردة على كلماته، لكنها أربكته حين سألته:

- ألا تحب أنت زوجتك..؟

ارتبك..بل حتى السيارة ارتبكت في السير نتيجة ضغطه على دواسة البانزين فجأة..لكنه سيطر على نفسه، وقال بلهجة فيها تبرير وتراجع مفضوح عن اقتحامه لعالمها:

- بالنسبة لنا..أنا وإيفا..نحن كاثوليكيان..يعني رحلتنا ليست رحلة ذهاب وإياب..وإنما رحلة بلا عودة..رحلة تنتهي بخروجنا من هذه الحياة.. لذلك الحب يأخذ أشكالاً متعددة في حياتنا..فمن الحب الجنسي إلى الحب الأخوي..الصداقي..الحب المتأتي من العشرة الطويلة..حيث تكون

الرغبات القديمة المتأججة قد هدأت وتحولت إلى مشاعر صداقة عميقة.. حيث المسؤولية.. والرعاية.. والاحترام..

- لكنك لم تجب على سؤالي..هل تحب زوجتك..؟
- طبعا أحبها..
- هل لا تزال راغباً فيها..؟
- الرغبة في الآخر ليس بالضرورة لها علاقة بالحب..
- لكن الحب قد يلهم الرغبة..
- أنتِ كنت متزوجة..وتعرفين أن الإشباع الكامل يخلق الضجر..لذلك..بمرور الوقت يكبت الزوجان عدم رغبة كل منهما في الآخر..لكنهما يستمران في الحياة معاً..ويمارسان الجنس معاً..وربما يعيشان أحلام يقظة بعيدة عن كل منهما..لاسيما حينما تتوجه الزوجة بكل حنانها واهتمامها إلى الأبناء..بحيث يمنحها الأبناء ما يفيض عليها من حنان ومحبة..وتتحول علاقتها بزوجها إلى علاقة إشكالية..فهي تستطيع أن تعيش بدونه..لكنها لا تستطيع أن تعيش بدون أبنائها..
- وأنتَ..؟
- أنا..أنا ماذا..؟
- ألا تحب أبناءك كما تحبهم إيفا زوجتك مثلاً..
- لا...ليس الأمر كذلك..لكن الرجل يختلف في علاقته بأبنائه عن علاقة أمهم بهم..هذه مسألة غريزية..نجدها حتى في مملكة الحيوان..أحياناً تضيق نفسي حتى من الأسرة والحياة العائلية..لكني لا أستطيع تخيلها بدون أولادي..

كانت حواء ذوالنورين قد نجحت في إدارة مسار الحديث، إذ صار واضحا لديها بأن آدم سميث قد تيقن من لا جدوى المحاولة معها..لكنه لم ييأس، ففتح الصندوق الأمامي الذي أمامها ومال بجسده قليلاً وكأنه يفتش عن شيء هناك.. لكنه كان يريد أن يقرب وجهه منها، فعبقت في أنفه رائحة عطرها الزكي. ارتبكت هي من حركته، ألا أنه برر ذلك بإخراج موصلاً لشحن الموبايل من كهرباء محرك السيارة، وخلال ذلك مسد بطريقة بدت غير مقصودة فخذها بساعده. فارتبكت لما شعرت به من خدر لذيذ صاحب تلك الحركة، وربما ما أنقذها أنهما اقتربا من

المكان. أوقف سيارته في شارع فرعي في شارع دانتي القريب من الجسر الذي يقود إلى الكنيسة..نزل ماشيا معها..مرشدا إياها إلى جسر نوتردام الذي يقود إلى الكنيسة..وعند الجسر ودعها..وعاد راجعا..

* * *

انتبهت حواء ذوالنورين إلى وجود عدد كبير من رسامي الكاريكاتير..ومن مختلف الجنسيات..استذكرت لقاءها مع آدم بوناروتي في فلورنسا، فأحست بقشعريرة باردة تهز جسدها، وبقلبها يخفق توقاً إليه..وسألت نفسها عما يفعله الآن هناك..وخمنت أنه بالتأكيد قد مر على الفندق ولم يجدها..أحست بحنين إليه..فقد شعرت خلال تلك الأيام بأنه كان قريباً منها وهي قريبة منه..ولولا وضعه الغريب..فربما صارت عشيقته..

قطعت عليها تداعياتها الدافئة رؤيتها للكاتبة حواء الذهبي التي كانت تنتظرها عند باب الكنيسة التي صارت على بعد أمتار قليلة منها. كانت قد نزعت العباءة.. ولبست بنطلوناً وعليه جلباب قصير لا هو بالجاكيت ولا بالمعطف..لكن لبسها كان أنيقاً جداً..و ربطة خفيفة على رأسها لا هي يشارب ولا الطرحة..تصافحتا بلطف.. ولأن حواء الذهبي تعيش في باريس منذ فترة فهي أعرف ببعض أماكنها من حواء ذوالنورين..فأخذتها عابرة الجسر ثانية متجهة نحو الحي اللاتيني القريب.. وجلستا في مقهى "دي لا هوجيت".. القريب من الشارع الذي أوقف آدم سميث سيارته فيه. المقاهي الجميلة فدخلتا إلى إحداها.

ما أن جلستا حتى جاءت النادلة. طلبتا كوبين من الشكولاته الساخنة. تبادلتا كلمات الترحيب. كانتا مرتبكتين قليلاً.. كل منهما كانت تفكر مع نفسها كيف تبدأ الحديث. انقذتهما النادلة التي جاءت بكوبي الشكولاته الساخنة. ارتشفتا القليل منها. ووجدت حواء ذوالنورين ما تبدأ به الحديث، فقالت:

- لقد قرأت القسم الأول من الرواية..إنها رائعة..وحزينة..

نظرت الكاتبة حواء الذهبي إليها بدهشة واضحة وسألتها برقة:

- أية رواية..؟

استغربت حواء ذوالنورين السؤال وفكرت مع نفسها بأن الكاتبة الخليجية حواء الذهبي تريد أن تبدي شيئاً من الرزانة بعدم اللهاث وراء المديح، لكنها أجابت بعفوية:

- رواية " ملاك الجحيم"..

فازدادت الدهشة اتساعاً على وجه الكاتبة الخليجية وقالت:

- لا أعرف عن أية رواية تتحدثين..؟لم أقرأ أو أسمع بمثل هذه الرواية..؟لمن هي..أقصد لأي كاتب..؟

صُدمت حواء ذوالنورين من دهشة الكاتبة الخليجية وأسئلتها المريبة، فقالت لها مؤكدة:

- رواية "ملاك الجحيم" التي هي لك والتي نشرتيها باسم آدم ابن آدم ..والتي أهديتني إياها..

ارتسمت علامات الاستنكار والدهشة على وجه الكاتبة، وقالت بنبرة فيها إنكار واضح:

- أنا أعطيتك رواية" ملاك الجحيم"..للكاتب آدم ابن آدم..؟وأن هذه الرواية بالأصل تعود لي..؟ متى..؟ وأين..؟ شخصياً ليست لدي رواية بهذا الاسم.. ولماذا أنشر رواية لي باسم كاتب آخر..اسم رجل..؟ كما أني لم أعطك يا صديقتي أية رواية..أنا حدثتك عن رواية كتبتها فعلاً..وودت أن تكوني أول من يقرأها..

أحست حواء ذوالنورين بأن الأمر ليس له علاقة بالرزانة المختلقة، وبأن شيئاً غير طبيعي يحدث معها أو مع المرأة التي تقابلها..فكرت مع نفسها:" ما معنى ذلك..؟..ومن أعطاني الكتاب إذن لو لم تكن هي..؟..ولماذا تنكر الآن كل هذا..؟ ..ربما "دفتـر الألم" عن إيفا ماريا الذهبي لها أيضاً لكنها أنكرته، كما أنكرت الآن أنها أعطتني روايتها "ملاك الجحيم"..!.."..فكرت بأن عليها أن تنسحب بهدوء من هذا الجلسة..فقالت لها:

- أتعرفين..أنا لا أستطيع أن أبقى معك طويلاً..ولقد أردت ان أعتذر عن المجيء..لكن صادف أن زوج صديقتي أبدى إستعداه لتوصيلي..وعليّ أن أرجع معه..

دهشت الكاتبة الخليجية..لكنها ابتسمت لها بطيبة..وقالت لها:

- أتريدين الذهاب..؟ مع الأسف..كان بإمكانك الاتصال بي والإعتذار عن المجيء، ولكنا أجلنا اللقاء إلى مرة أخرى.. لكن هذا يدل على رقيك..

وطيبتك..إذن يمكننا أن نلتقي مرة أخرى..وسآتيك بمخطوطة روايتي التي انتهيت منها..

لم تنته الكاتبة الخليجية من جملتها الأخيرة حتى قامت حواء ذوالنورين عن كرسيها وغادرت المقهى بعد أن صافحت الكاتبة الخليجية مودعة.

حين صارت في الطريق المحاذي للنهر..أخذت تسرع متجهة إلى "شارع دانتي" حيث كانت تأمل بأن آدم سميث لم يغادر بعد..لكنها فكرت مع نفسها بأن ليس هناك ما يبقيه، لاسيما وأنهم في البيت ينتظرون الضيوف. أحست بالخيبة حينما لم تجد السيارة في مكانها..ظلت واقفة في مكانها..توجهت نحو الشارع الرئيس حيث جادة "دي مونتيبيلو"..فكرت بإيقاف تاكسي..أبصرت سيارة إجرة قادمة..وقبل أن ترفع يدها لإيقافها وقفت سيارة أمامها..انتبهت إلى أن آدم سميث يبتسم لها..

حين جلست داخل السيارة أخبرها بأنه فكر بالتنزه قليلا في الحي اللاتيني.. لكنه فكر بأنهم ينتظرون ضيوفاً، فقرر العودة..وحين أدار المحرك..لمحها من بعيد تمشي مسرعة..فخمن أن صاحبتها لم تأت إلى الموعد المحدد..فألتفَ متجها إلى شارع "ساوتون" ليصل إليها قبل أن تستأجر تاكسياً.. وها هو أمامها.

الفصل الثالث عشر

المولع بستندال

رن جرس الباب الخارجي للشقة. خرجت إيفا سميث من غرفتها. نظرت إلى الساعة فرأت أنها كانت السابعة وخمساً وعشرين دقيقة..ظنت أن زوجها قد عاد.. لكنها فكرت بأن زوجها لديه مفتاح الباب فلماذا يضغط على جرس الباب..؟ أتكون صديقتها حواء ذوالنورين قد عادت..؟ لكن كيف عادت..؟...في طريقها كي تفتح الباب ألقت نظرة عابرة على المطبخ فرأت أمها قد هيأت كل شيء وتضع اللمسات الأخيرة على التبولة.

حين فتحت الباب شعرت بعظمة المفاجأة. كانت صديقتها حواء دمشقية وخلفها يقف آدم سانتشو ماريا زاباتو وهو في كامل أناقته..لم تجد ما تقوله..لم تعرف كيف تعبر عن سعادتها، لكنها في الوقت نفسه لم تشأ أن تكشف عن ذلك وتفضح حالها..، ولكي تخفي ما قد يتجسد على وجهها فقد احتضنت صديقتها، ومن خلف كتفيها نظرت إلى الرجل الوسيم الذي يقف حاملاً باقة كبيرة من الزهور وهو ينظر إليها برغبة واضحة وجرأة أربكتها. ظلت إيفا سميث للحظات ساكنة وهي تحتضن صديقتها وتنظر إليه.

انتبهت إيفا سميث إلى أنها نسيت كل غمها وغضبها من صديقتها ومنه لأنهما كانا ينويان عدم المجيء..بل أحست بإسترخاء صاف ومشاعر رقيقة هزت أعماقها مثلما تهز الريح الخفيفة غصنا ناعما رقيقا..كانت تحس بأنهم لايزالون واقفين عند الباب عندما قدم هو لها الزهور.

كانت إيفا سميث قريبة منه جداً..شمَّ رائحة عطرها الرقيق والمثير..انتبه لثوبها الأسود المثير الذي يكشف عن بعض صدرها..كما عرف بحاسته الذكورية بأنها

تعيش صراعاً بين فضيلتها ورغبتها الغامضة فيه..وخطرت في ذهنه فكرة جريئة في أن يستغل الموقف ويخطو خطوة أكثر وضوحاً وجرأة بأن يقبل يدها..لكنه ارتبك لوجود عشيقته حواء دمشقية..وبعد لحظة قرر تنفيذ فكرته..وكان في تلك اللحظات كمقامر يلقي على طاولة النرد آخر ما يملك..وبتهور وجنون..وخلال هذه اللحظات مدت إيفا سميث يدها إليه مصافحة، فأخذ يدها ورفعها إلى شفتيه طابعا عليها قبلة ناعمة لكنها ليست عابرة فقد كانت طريقته مسرحية مشحونة بالدلالات الشبقية.. فوجئت هي..ارتبكت..سحبت يدها..ولم تنظر إليه.. وإنما قادتهما إلى الصالون.. فلم يلمح هو تأثير القبلة على ملامح وجهها، لكنه انتبه إلى أنها سحبت يدها برقة وليس بتوتر ورفض..وهذه علامة طيبة تعني تواطؤاً وموافقة ضمنية، لاسيما وهي تعرف مقاصده.

ما أن جلسا على الصوفا حتى جاءت الأم من المطبخ وألقت عليهما التحية ورحبت بهما..وحينما نظرت إلى ابنتها ورأت ذلك التألق والسعادة الخفية المصحوبة بتوتر مكتوم، أدركت بشكل واضح بأن ثمة شيئا ما بين ابنتها وبين هذا الفتى اللعوب.. لكنها فكرت مع نفسها بأن هذا الفتى يصغرها كثيراً، فلا يمكن أن يكون ثمة ما يربطهما..لاسيما وهي تعرف بأن ابنتها امرأة فاضلة ولا تخون زوجها.. كما أن هذا الفتى هو صديق صديقتها حواء دمشقية..وهذا ما لا يمكن توقعه من سلوك ابنتها..إذن ربما الأمر هو فعلاً يخص مصالح زوجها آدم سميث..وخلال تلك اللحظات بالذات فتح الباب..التفت الجميع نحو الباب..كانت حواء ذوالنورين وخلفها الزوج آدم سميث. فوجئت إيفا من عودتهما معاً.

ألقيا التحية على الحاضرين وتم التعارف بين آدم سميث وآدم سانتشو ماريا زاباتو. كانت حواء ذوالنورين مرتبكة..انتبهت صديقتها إيفا لذلك..اعتذرت حواء ذوالنورين من الحاضرين وذهبت مسرعة إلى غرفتها..تبعتها إيفا سميث دون أن تثير انتباه الحاضرين.

- ما بك..؟ لِمَ رجعت مبكرة..؟ هل حصل شيء..؟

سألت إيفا سميث صديقتها التي ما أن دخلت الغرفة حتى أخذت تقلب الفراش وكأنها تبحث عن شيء مفقود. نظرت حواء ذوالنورين إليها وسألتها:

- هل تذكرين حينما كنا في كنيسة نوتردام..؟

- نعم..
- ألم أخبرك بأنني تعرّفت على كاتبة خليجية اسمها حواء الذهبي..؟
- نعم..
- وأنها أهدتني كتاباً..رواية اسمها "ملاك الجحيم" والتي نشرتها باسم رجل هو آدم ابن آدم..
- نعم..وحدثتني عن الرواية..

كانت إيفا سميث تجيب مؤكدة وتنظر إلى صديقتها لتعرف نتيجة كل هذه الأسئلة..إلا أن حواء ذوالنورين كانت شاحبة..وكلما تؤكد هي على أسئلتها يزداد شحوبها، إلى أن فاجأتها حواء ذوالنووين قائلة:

- لقد التقيت بها حسب الموعد..وذهبنا إلى مقهى هادئ..جلسنا..وحينما بدأت أحدّثها عن الرواية استغربتْ حديثي.. أنكرت أنها أهدتني كتاباً أصلاً.. بل هي أنكرت أنها كتبتْ رواية بهذا الاسم..وقالت لو كانت هي صاحبة الرواية فلماذا تنشرها باسم رجل وليس باسمها..؟ تصوري..

استغربت إيفا سميث ذلك، وسألتها:

- وماذا فعلت أنت..؟
- لاشيء..هربت منها..خفت..لم أبق معها إلا دقائق..والحمدلله كنت واقفة انتظر سيارة تاكسي حينما لمحني زوجك على الرصيف..وإلاّ كنت تأخرت.. لكن الغريب أني لا أجد الكتاب..لقد قرأت نصفه تقريبا..بقيت سهرانة حتى الفجر..لقد أخبرتك عن ذلك...لكني لا أجده الآن.. ما هذا..؟ هل أنا مجنونة..؟

ارتبكت إيفا سميث وتعاطفت مع قلق صديقتها، لكن ذهنها كان شارداً إلى الوليمة والفتى اللاتيني، وبرغم ذلك حاولت أن تبدي الإهتمام فقالت لها:

- لقد رأيت الكتاب بيدك حينما كنا في الكنيسة..وكذلك حينما جلسنا في السيارة..لكن غريب كل هذا الذي أسمعه منك..صحيح أنني لم أر المرأة التي حدثتني عنها..لكني رأيت الكتاب بيدك..بل وكذلك رقم هاتفها.. عموما لا تقلقي الآن..سنتحدث في ذلك لاحقاً.. المائدة جاهزة الآن.. لنأكل ونشرب شيئاً من النبيذ ونتحدث بعد ذلك حول الأمر بالتفصيل..

أحسّت حواء ذوالنورين بالذنب لهذا الإرباك الذي وضعت صديقتها فيه، وقالت بنبرة فيها بعض الإعتذار:

- إيفا أنا آسفة..كان علي أن أبقى معك لأساعدك..
- لا عليك...تعالي..المائدة جاهزة..
- سآتي بعد لحظات..

خرجت إيفا سميث بينما بقيت حواء ذوالنورين محاولة أن تستعيد شيئاً من هدوئها..ألقت نظرة متفحصة في كل أرجاء الغرفة وعلى السرير بحثاً عن الكتاب فلم تجده..لم تبق طويلاً في الغرفة، فخرجت كي تلتحق بالآخرين في الصالة.

* * *

حين جلست حواء ذوالنورين حول المائدة انتبهت إلى أن صديقتها إيفا توسطت المائدة من جهة وقابلها في الجهة الأخرى زوجها، كما جلس آدم سانتشو ماريا زاباتو من جهة وقابلته صديقته حواء دمشقية من الجهة الأخرى..وحينما وصلت هي دعتها إيفا إلى الجلوس على كرسي بجانب زوجها من جهة حواء دمشقية.. بينما كانت الأم قد اعتذرت عن الجلوس معهم متحججة بأنها ستطعم الأطفال وتكون معهم في غرفتهم.

انتبهت حواء ذوالنورين بحسها الأنثوي إلى أن صديقتها إيفا تحاول أن تخفي مشاعرها نحو الفتى الغندور..سألت نفسها: هل بينهما شيء ما..؟.. أتحبه أم تشتهيه..؟.. انتبهت إلى أن صديقتها ربما ستفضح نفسها، فقد كانت ترد على زوجها بنبرة عائلية عادية وبما يشبه اللامبالاة بينما كان وجهها يشرق وعيناها تتقدان حينما تنظر إلى آدم زاباتو طالبة منه أن يمد يده إلى الطعام..كانت نظراتها تشي بظمأ مجهول لشيء غامض..لا تدركه سوى النساء.

دار حديث بين الزوج والضيف الوسيم..وعلى الرغم من أن آدم سميث وسيم أيضاً وأكثر رزانة ورجولة من هذا الفتى اللاتيني، وأكثر منطقية، وعملياً في حديثه، إلا أن إيفا سميث كانت تستمع إلى إجابات الفتى اللاتيني وحديثه بإهتمام مبالغ فيه..وفي الوقت نفسه كانت تشعر في تلك اللحظات بالذات بتعاسة كبيرة لأنها امرأة فاضلة..آه لو كانت مثل صديقتها متحررة بلا قيود لاختلفت الأمور..! كانت غارقة في محاورة ذاتها بينما كان الآخرون يستمعون لنجم المائدة ..الفتى اللاتيني.

حين عادت إيفا سميث إلى الصالة ثانية التقطت جملة من الحوار الدائر قالها الفتى اللاتيني بأنه سيغادر باريس..فوجئت..فسألته بصوت فيه ارتجاف خفي إن كان يريد حقاً مغادرة باريس..؟.. أدرك هو فوراً بأن هذه المرأة الفاضلة والقوية على وشك الانهيار..لكنه ابتسم مع نفسه بأن هذه ليست إلا لحظة ضعف عابرة، لأن هذه المرأة الفاضلة سوف تنتبه لنفسها وتمسكها، وأن فضائلها وكبرياءها سوف تمنعها من الانحدار أكثر، لذا عليه الآن..الآن بالذات أن يحسم الأمر وإلا فسوف يفوت الأوان إلى الأبد..فقال بصوت مصطنع:

- سوف يحزنني فراق باريس..لكني لن أغيب طويلاً ..ربما شهر أو شهرين على الأكثر..

فكر آدم سانتشو ماريا زاباتو بأنه إلى جانب عشيقته حواء دمشقية التي بالنسبة له ليست أكثر من عاهرة رخيصة مستعدة أن تفعل كل شيء، من أجل أن ينبكها.. فكر بإصطياد كلتا المرأتين..إيفا سميث و حواء ذوالنورين..ولكن عليه أن يختار إيفا سميث فهي زوجة رجل غني..بينما الأخرى برغم جمالها المثير إلا أنها لا تعرف الفرنسية ولن يكون التفاهم سهلاً معها..ربما سيترك أمرها لأشهر قادمة..وها هي الفرصة سانحة؛ فهي على حافة الهاوية..لكنه لم يكن يتخيل بأن هذه المرأة القوية الشخصية والفاضلة سوف تنهار بهذه السهولة..بل أمست ثمرة ناضجة تنتظر من يقطفها..إنها امرأة تعبت من الفضيلة.

كان هو يستمع ضجراً لزوجها وهو يتحدث عن شركته الأم في أميركا.. وفرعها في فرنسا..وسعيهم لتطويرها في أوروبا ومحاولة فتح فروع لها في إسبانيا وألمانيا والدول الاسكندنافية..وأحس أمامه بالضآلة..أين هو من هذا المتبجح بماله ومركزه وشركته..؟ عليه أن يعبر عن احتقاره له ولماله ومركزه..عليه أن يستولي على زوجته مهما كان الثمن..لكن كيف..؟..فجأة.. تذكر رواية (الأحمر والأسود) لستندال..وكيف أن البطل أراد أن يهين زوج المرأة التي يحبها..مدام دي رينال.. فقبل ذراعها في حضوره..

راودته فكرة أن يهين الزوج آدم سميث..بل وفي الوقت نفسه يضرب ضربته القاضية بحسم أمر زوجته..فمد يده من تحت شرشف المائدة وأمسك بيد إيفا سميث.. فنفرت..وفزت..فسقطت السكينة والشوكة على الأرض..

لم ينتبه الكل لذلك..نظروا إليها..ولكي لا يحرجونها واصل الزوج حديثه متوجها لحواء دمشقية وحواء ذوالنورين بأن يصبا لنفسيهما شيئاً من الطعام، فهما بالكاد يمسان شيئاً..ممتدحاً طريقة إعداد المقبلات التي تعدها حماته..حواء ذوالنورين وحدها التي انتبهت لشيء غير عادي قد حصل لصديقتها ولم تدرك كنهه، لكنها أدركت عمق الانفعالات المكتومة في نظرات صديقتها وقلقها وانبهارها.

آدم سانتشو ماريا زاباتو لم ييأس..لقد كسب بعض النقاط حينما لم يكن رد فعل إيفا سميث فضائحيا وإنما تواطأت معه ولم تفضحه، أو تغير من جلستها، أو تنهي المأدبة أو على الأقل تشغل نفسها بالذهاب إلى أطفالها، أو تعلن أنها تكتفي بما أكلت وتنسحب من المائدة..لكن هذا لم يحدث..إذن، هذا يعني أنها موافقة.. لكن كيف له أن يتأكد..؟ عليه أن يقوم بحركة أخيرة..

ألقى نظرة على الجميع الذين كانوا منتبهين لحديث الزوج وينظرون إليه. كانت إيفا سميث تنظر إلى زوجها..لكن وجهها كان مليئاً بالترقب..وكأنها تتوقع منه شيئاً..وبلا تفكير في عواقب ما سيفعله مد يده وأمسك بكفها الممدودة على فخذها..ارتجفت..أرادت أن تسحب يدها..لكنه أمسك بها ولم يفلتها..سحبت يدها إلى الخلف لكنه كان ممسكا بها، فصارت يده على أسفل بطنها..ولكي لا تثير الانتباه سكنت..فاستقرت يده على فرجها..فاستسلمت..واسترخت يدها في يده.. وحين ضغط على كفها وجدت نفسها تشعر بخدر لذيذ..لكنها فجأة نهضت وقالت بأن عليها أن ترى الأولاد.

أحس آدم سانتشو ماريا راباتو بالرضا الكامل عن النفس..فقد حسم الأمر مع نفسه بأنها صارت له..وتحول بكليته إلى زوجها والآخرين وأخذ يحدثهم ويشاركهم بحماس..وبتعالٍ خفي..

اختفت إيفا سميث لأكثر من ربع ساعة..دب اليأس في قلب آدم سانتشو ماريا زاباتو..أخذ يفكر بأنها ربما جارته من أجل أن تتخلص من لجاجته ووقاحته.. وتجنبا لأية فضيحة غير محسوبة العواقب..لكنه لم ينس أنها لم تبد اي رد فعل علني..ولم تغير مكانها بلباقة وتجلس قرب زوجها..ثم أنه أحس بكفها مستسلمة في كفه..إحساسه لا يخطئ في فهم شبق النساء..هو يشعر بالتعاسة الآن لأنها غير موجودة..إنه يشعر لأول مرة بالحب لامرأة..إنه مستعد أن يترك جميع عشيقاته من

أجلها.إنه يشعر بأنه يحبها.

* * *

حين غادرت إيفا سميث المائدة متجهة إلى غرفة أولادها..لم تبق هناك كثيراً..إذ انسحبت إلى المطبخ..ألهت نفسها بترتيب الصحون هناك..فقط من أجل أن تخلو مع نفسها بعض الوقت وتسترجع ما جرى..كانت تشعر بالضيق من أنها الآن هنا في المطبخ وليست هناك إلى جانبه..وفي الوقت نفسه كانت خائفة.. ومتهيجة..تخاف من شبقها الذي تفجر بشكل مفاجئ وعلى غير توقع منها..وبدون وعي منها أخرجت قنينتين من النبيذ..فتحتهما بهدوء وهي في حالة وجد وشغف.. أخذت قدحاً كبيراً وملأت لنفسها كأساً..أخذت الكأس ورفعتها إلى فمها وكأنها تشرب شيئاً ما دون رغبة..عبّت الكأس إلى آخرها..شعرت بحرقة تجتاحها..وببعض الدفء والخدر يسريان بهدوء في عروقها..صبت لنفسها كأساً أخرى..ملأتها حتى سال بعض النبيذ على طاولة المطبخ..عبت الكأس الثانية..أحست بخدر واضح..لم تستطع أن تشرب الكأس حتى آخرها..شعرت بالمرارة والحرقة في معدتها..لكنها أحست بالحرارة تشع من خدها..وأحست باسترخاء واضح..فهي تعرف أن السكر يساعدها على التخلص من توترها النفسي..ما الذي يجري معي..؟ سألت نفسها.. هل أنا عاشقة..؟ هل أحببته فعلاً..؟ وكيف تركته يمسكني هكذا.؟ ولماذا لم أنهض مباشرة، بينما تركت يدي في يده..؟ هل ترى انتبهت صديقتي الغيورة حواء دمشقية إلى ذلك..؟ وماذا عن حواء ذوالنورين..فهي امرأة ناضجة وتفهم البشر بشكل جيد.. فهل ياترى انتبهت لي..؟ كيف لي أن تنهار بهذه السهولة..؟ وأمام مَن..؟ أمام هذا الغندور الذي يعامل النساء كلهن كعاهرات، بينما هو لا يختلف عن أية عاهرة تبيع جسدها مقابل المال..؟ كيف لي أن أتخلص من هذا الموقف..؟ لكنني أشعر بأني أريده..إنني أكاد أجن ..هل أحبه..؟..وكيف أحبه وأنا أعرفه ملوثاً بكل هذه الآثام والخطايا..؟ هل أريد أن يضاجعني ..؟ وهل أنا مستعدة لتحمل شتائمه وكلماته البذيئة والمبتذلة كما روتها لي حواء دمشقية..؟ لا.لا..لكن هل مشاعري نحوه هي حب حسي شهواني..عابر..مؤقت..حب اللحظة الراهنة والعابرة.. وسينتهي..؟..ثم كيف سينتهي..؟ أأسمح له بأن يضاجعني..؟..كيف..وأين..ومتى..؟ لا.لا.لا..هذا غير معقول..هذه مغامرة خطيرة.. أنا لا أستطيع أن أدوس على أخلاقي وديني..ولن

أستطيع أن أخدع زوجي وأمي بفضيلتي المقنعة..كيف لي أن أرتكهما ينظران إليّ كرمز للطهارة والنقاء والإخلاص والوفاء الزوجي..؟ كيف سأتأنق وأتعطر مدعية الذهاب إلى الكنيسة، بينما أذهب إلى شقته..؟ هل شبقي سيجعلني مستعدة للسقوط في الهاوية..؟؟..

كان سيل الأسئلة ينهمر متلاحقا في ذهنها..لكنها سمعت صوتا خافتا ثم بدأ يتعالي ليوقف سيل الأسئلة:" نعم..نعم..نعم..أنا مستعدة لكل شيء.."..لكنها سرعان ما خافت من هذا الصوت فمقعته وصاحت بصمت متوسلة صوتها الداخلي:" كيف لي أن أحافظ على عائلتي وأن أعيش مغامرة عمري في الوقت نفسه..؟ أنا أريده.. وأريد الحفاظ على عائلتي في الوقت نفسه.. نعم.. نعم..سأحافظ على عائلتي.. سأبتعد قليلا عنها..أعيش مغامرتي الفريدة لكني سأحافظ على عائلتي..لكن ماذا لو انتبه زوجي..؟ ماذا لو انتبهت أمي المحافظة..؟"... كانت مشاعرها تتأجج بفعل الاسترخاء والدفء الذي يثه النبيذ في جسدها..ونفسها.

لم تترك إيفا سميث لنفسها أن تجيب على أسئلتها التي تخص وضعها العائلي بالتفصيل..وجدت نفسها متهيجة..وفياضة بالمشاعر..ودفق من البهجة والتوق إلى المغامرة يسيطران عليها..إذن، عليها أن تسقيهم الكثير من النبيذ كي يسترخوا هم أيضاً..نعم..عليهم أن يسترخوا..أن يسكروا..لاسيما زوجها..وصديقتيها..لا..لا..لم تعد تعرف ما يدور في نفسها..أخذت قنينة من النبيذ المليئة واتجهت إلى المائدة.

حين عادت إلى المائدة وجدتهم في حمى النقاش..لم ينتبه أحد إلى حالة الانتعاش التي هي فيها..وحدها كانت تعرف أنها بدأت تسكر..كان آدم سانتشو ماريا زاباتو متألقاً..وكانت حواء دمشقية تترجم بين فترة وأخرى ما يدور من نقاش. سمعته يقول لهم بحماس:

- هل جربتم أن تخرجوا إلى البراري أو الصحراء أو تتسلقوا الجبال ذات ليلة صافية..؟ حيث تكونون هناك وحدكم..تحدقون في الظلام..لا أفق أمامكم سوى الظلام..وفي السماء نجوم متقدة..نجوم كثيرة لا تُعد..وإذا ما كانت الليلة مدلهمة فسيكون الإحساس أقوى..ستكونون أنتم والكون المظلم..ستشعرون أن كل شيء يتكلم معكم..ستشعرون أن الكون يتوحد معكم..أنتم ستكونون مركز نظر الأشياء..عندها ستكتشفون أسرار الوجود..

وستشعرون بأننا كل واحد..متوحد..

كانوا ينظرون إليه منبهرين..حتى حواء ذوالنورين التي لا تفهم الفرنسية كانت تنظر إليه بانتباه لإحساسها بأنه يتحدث عن شيء ما مثير وبنبرة مليئة بالإحساس والتوهج. شعرت إيفا سميث بنشوة تغمرها..فهذا هو حبيبها..في تلك اللحظة شعرت بسعادة الحب..إلا أنها سمعت زوجها يعلق ببرود:

- إنك تتحدث وكأنك متصوف أو صاحب رسالة دينية غامضة..

نظر آدم سانتشو ماريا زاباتو ناحية إيفا سميث التي كانت تحس بأن رأسها تلفّ..ظلت واقفة قربهم وبيدها قنينة النبيذ المفتوحة وهي تستمع للحديث دون أن تجلس، فقال بحماس وتحد:

- يقال إن للفن رسالة..وللأديان رسالة..وللأحزاب رسالة..لكل نبي رسالة.. الكل يتحدث عن الرسالة..لكن لا أحد انتبه بأن هناك رسالات مرعبة.. هناك رسالات مليئة بالأشباح وعذاب القبر والأبالسة ولهيب الجحيم.. رسالات يحاولون إقناعنا وكأنها رسالات من الله..رسالات تجسد الله مرعبا.. منتقماً..حقوداً..يكره مخلوقاته..يعد لهم الجحيم..ليعذبهم..ويتلذذ بعذابهم.. بينما يكافئ المتزلفين والوصوليين والتجار والمتملقين بالفردوس..

نظر آدم سميث إليه بعين غير راضية وقال بنبرة منتقدة:

- هذا كلام خطير..إنك تجدّف..!

لم تترك إيفا سميث للنقاش أن يتطور ويتوتر..فجلست وقالت بمرح وبنبرة فيها ثمالة لم ينتبه لها سوى الفتى الغندور :

- دعونا من هذا النقاش..ولنشرب نخب لقائنا هذا..

صبت النبيذ في الأقداح التي كانت قد فرغت من النبيذ..نظر إليها زوجها نظرة لامبالية، بينما لم يشأ الفتى اللاتيني أن لا يجيب على الزوج الذي انتصر عليه قبل قليل بأن أخذ كف زوجته ومسها، فقال بتحد:

- ربما أبدو لك أنني مندفع مثل شلال لا يستطيع السيطرة على اتجاهه.. لكنني لا ألغي الرسالات اعتباطاً..أنا شخصيا نشأت نشأة مسيحية كاثوليكية.. لكن حلمي لم يكن حلما مسيحياً بالخلاص من خطيئة لم أقترفها..أنا ابن الأرض وهذا الوجود..ولا أعرف غيره..لا أعرف قبل ولادتي أين كنت..؟

ولا من أين جئت..؟ ولا أعرف إلى أين أذهب..؟ بل ولا أدري لماذا علي أن أناضل سنوات طويلة مستكيناً إلى فكرة أو رسالة أو حتى حلم متحملا كل ثقل الوجود..؟ أنا أعتقد أننا كبشر نخاف العزلة..نخاف العطش.. نخاف الجوع..نركن دائما للزاوية التي فيها ماء وخبز وأمان وجنس..لا نغامر..لا نغامر حتى بأرواحنا وأفكارنا..شخصيا تعبت من الأحلام..أحلامي تحولت إلى خيبات..وما الخيبات إلا أحلامٌ ميتة..نحن نعاني من وجودنا.. الإنسان الحقيقي يعاني..أما الإنسان المزيف فهو لا يعاني..مثل الأزهار.. الأزهار الحقيقية تعاني..تتألم حينما تُقطف..لذلك فهي تذبل..بينما الأزهار الإصطناعية..الأزهار المزيفة فهي متوهجة ودائمة التفتح..

كان الجميع صامتين..خيم حزن مفاجئ عليهم..كان آدم سانتشو ماريا زاباتو يتحدث وكأنه يناجي نفسه..كانت عشيقته حواء دمشقية محرجة..كانت تنظر إليه مندهشة ما بين الحيرة والإعجاب..فكأنها تراه لأول مرة..فهذا الإنسان المتعب والضجر من العالم..والذي يتحدث بحكمة نبي ملحد..ليس هو الذي كان يمارس معها كل أشكال الابتذال والدعارة ويشتمها بأوسخ الكلمات..

وفي ذلك الجو المتوتر علق آدم سميث مبتسماً ابتسامة ساخرة لكنها ليست عدوانية:

- إذن نحن مزيفون..لا نعاني..نحن أزهار اصطناعية..!

توتر الجو..أحس آدم سانتشو ماريا زاباتو بالإهانة والخجل في اللحظة نفسها. فقام عن كرسيه..وقال وهو ينظر إلى آدم سميث:

- أنا آسف..أعتذر..

قال ذلك..وفي لحظة لم يتوقعها أحد..أعاد الكرسي إلى مكانه..نظر إلى إيفا سميث التي أحست بأن كل شيء ينهار أمامها..ثم إلى حواء دمشقية..وحواء ذوالنورين.. وقال وهو ينسحب خارجاً:

- شكراً لكم على هذه الدعوة..وأعتذر عن الإزعاج.. يبدو أنني خرجت عن حدود اللياقة..

وغادر المكان..بين جمود الآخرين من هذا التصرف المفاجئ..نظرت إيفا سميث إلى زوجها نظرة مؤنبة..أحست بكراهية ومقت له في تلك اللحظة..بينما

أصاب الآخرين شلل المفاجأة..حتى عشيقته حواء دمشقية لم تعرف كيف تتصرف.. فليس من اللائق أن تترك المكان أيضاً فهذه عائلة أصدقائها الحميمين..ولا تريد أن تخسرهم..كما لا تريد أن تخسر عشيقها..أرادت أن تقف ..فوضعت إيفا سميث يدها على كتفها وأجلستها..وقالت بهدوء وكأنها تخطط لأمر ما..وقالت لهم:

- اهدأوا ..سأعيده..

قامت إيفا سميث من مكانها..أحست بشيء من الداور..وكأنها سكرانة...انتبهت لنفسها وحاولت أن تسيطر على جسدها كي لا ينتبه أحد لها..كان الفتى اللاتيني قد غادر الشقة..قامت تبعته بين حيرة وذهول الآخرين..

* * *

حين صارت في الممر القصير رأته مثل ثور هائج يقف عند باب المصعد.. توجهت إليه..لا تعرف كيف تحدثه..فهي لأول مرة تكون معه وحدهما..خاصة بعد ما حصل بينهما من ملامسة..صارت قريبة منه..كانت تشعر بأنها سكرى فعلا..ولم يعد يهمها الآن شيء..فهي معه وحدهما..

انتبه الفتى اللاتيني إلى مشيتها وهي مقبلة عليه..أحس فيها بعض التراخي.. عرف أنها ثملة..وقبل أن تتفوّه بكلمةٍ..أخذها من يديها وضمها إلى صدره. أطبق على شفتيها بقبلة حارة..حاولت أن تصده..إلا أنه دفعها إلى الخلف حيث باب درج الطوارئ النازل..دخلا هناك..وأطبق عليها بكامل جسده..مقبلا عنقها وعاصراً نهديها..حاولت أن تصده..أن تسيطر على نفسها التي كانت تنهار..بل كانت في حمى الصد والدفاع تتجاوب معه دون إرادة منها.. انتبهت لنفسها ..أحست انها تغوص في عالم لم تستطع السيطرة عليه..ودون إرادة منها بدأت بتقبيله ومص شفتيه بعنف، تثيرها في ذلك رائحة التبغ في فمه، واضعة يدها بلاوعي بين فخذيه.. فالتهبت أكثر حينما وجدته منتصبا..

فجأة غيّر هو من اتجاه جسدها..فصار ظهرها أمامه..أمالها على الدرج..صار وجهها ينظر إلى قاع السلم..وبحركة كانت تتوقعها..أنزل لباسها الداخلي..وأولجه فيها.. أحست وكأنها تنهار..كانت رطبة جدا..ووجدت نفسها تمسكه كي لا يفلت منها..لم تشعر بلذة مكثفة مثلما شعرت هذه اللحظة..كان هو كالثور الهائج..ضغطت بكفها على فمها كي تكتم صرخات اللذة الهائلة التي تشعر بها..كانت ترتعش بكاملها..

ارتجاجات كهربائية لذيذة..وأحست برحمها ينقبض مرات عدة..وأحست به يملأها بمائه..بينما استمرت هي ترتجف من اللذة..

في تلك اللحظة نظرت إلى قاع السلّم..ترآى لها الرجل الأشقر الوسيم الذي رأته في فندق الشام بدمشق رافعا رأسه وينظر إليها..ويبتسم..اقترب الوجه منها جداً برغم المسافات..وغاب فجأة..ثم رأت في قاع السلم أحد الجيران وهو يصعد تتبعه امرأة محجبة.

التفتت إليه منهكة من اللهاث واللذة..بينما يداها تعدلان من وضعها المرتبك.. وتنهار على الأرض..وتغطي وجهها بيديها..وقالت:

- ماذا فعلت..؟

ارتبك هو..لم يجبها..أحست هي بأنها صحت من السكر..استيقظت من حمى اللذة..إذ فات ما فات..هي لم تعد هي بعد الآن..اللعنة على النبيذ..

بعد لحظات..حاولت الوقوف..فمد يده هو لمساعدتها..نظرت إليه..رأت أنه مرتبك..ونادم..كانت هي محطمة..محطمة من اللذة التي تركتها مسترخية..أحست لثوان برغبة في أن تتمدد في حوض البانيو الدافئ..لكنها كانت محطمة من شعور بالخجل والذل من الطريقة التي مارس بها معها..كانت كأية امرأة ضعيفة تنهار أمام شهوتها..أحست بإحتقار خفي ومكتوم لنفسها..وفي الوقت نفسه تحس بسعادة باردة..نظرت إليه بتمعن..استشعرت ندمه الصادق ونظراته الحنونة المليئة بالحب التي كانت يرميها عليها بين لحظة وأخرى ..لكنها كانت تعرف أنه ندم عابر ومؤقت.. ودون أن تشعر..أخذت يده وقبلتها. ذهل هو من تقبيلها ليده..فاحتضنها بحب، إذ أدرك شعورها بأنها ضاعت..وهي إذ تقبل يده فأنها تقوم بذلك ليس حباً وإنما انتقاما من نفسها وإذلالا لها..همست في أذنه: لنذهب..الآن...

صمت هو للحظات..ثم قال:

- لا..لا..من الأفضل أن لا أرجع معك..

نظرت إليه متفاجئة وسألت:

- لماذا..؟

نظر إليها للحظات وكأنه يقرأ ما في نفسها..ثم قال:

- زوجك ذكي جدا..وكذلك صديقتاك..نظرة واحدة إلينا وسيكشف أمرنا..

الأفضل أن ترجعي وحدك..سأنتظرك غداً في شقتي..

ذكر لها العنوان..اسم الشارع ورقم المبنى..كانت هي تصارع أمواجاً من الإنفعالات..فهي لا تستطيع فراقه..ستشعر بالتعاسة..لكنها فكرت بما قال..فأحست بأنه محق..وأن باباً من السعادة انفتح أمامها..لتبعده عن عالمها العائلي أفضل.. وليغب عن أنظار زوجها.. وصديقتيها..حفظت العنوان الذي ذكره لها..سحبها إليه ثانية يريد أن يلجها مرة أخرى..فامتنعت منفعلة..وهي تقول له:

- ليس الآن..ليس الآن..

قالت ذلك وخرجت إلى الممر..أصلحت حالها..وضعت قناعا كئيبا يشي بالإنزعاج والتوتر..ودخلت إلى شقتها.

الفصل الرابع عشر

ساعة الشك الزئبقية

الشقة شبة مظلمة إلا من مصباح صغير قرب الباب ينشر ضوءاً شاحبا على بقعة صغيرة قرب المدخل. الكل في غرفهم نيام. حواء ذوالنورين في غرفتها. الأطفال في غرفتهم..وآدم سميث في غرفة النوم، إلا الزوجة إيفا سميث فهي تتمدد الآن في البانيو ساهمة وهي تسترجع كل ما حدث خلال هذا المساء غير مصدقة ومذهولة.

انتهت السهرة بتوتر مريب. فحين عادت إيفا سميث إلى داخل الشقة وضعت قناع التجهم على وجهها. نظر الجميع إليها نظرات تساؤل، لكنهم عرفوا من تجهمها بأنها لم تنجح في مهمتها. كانت حواء دمشقية مستاءة، دون أن تعرف لمن توجه استياءها..هل لآدم سميث الذي رد على عشيقها، أو على عشيقها الذي غادر المائدة بشكل لا يليق.....مثلما كان آدم سميث مستاءً حيث انتهت السهرة بهذه الطريقة.. لاسيما وأن آدم سانتشو ماريا زاباتو وعشيقته حواء دمشقية هما من طرف زوجته إيفا، وبالتالي فقد كان يشعر بالذنب أمامها لأنهم بالأساس ضيوفها.

حواء ذوالنورين وجدت تصرف الفتى اللاتيني أهوجَ وغير لائق، فليس من المعقول أن ينهض ويغادر المائدة وهو الضيف، وكما أنها كانت تتابع الحوار من خلال ترجمة حواء دمشقية لها، لذا فأنها وجدت بأن ما قاله آدم سميث لا يستحق ردة الفعل الذي أبداها الفتى اللاتيني. وحدها إيفا سميث كانت تتلاطم في أعماقها أمواج متناقضة، لكنها وجدت في قناع التجهم إنقاذاً لعدم الكشف عما جرى وما يجري الآن في أعماقها من ردود فعل غامضة.

لم تكن مستاءة مما قاله زوجها، فقد كان زوجها محقا في جوابه..وتساؤله مشروعاً..ولا يستحق ردة الفعل البهلوانية التي أبداها هذا الحبيب المكروه..المهم

أنها الآن تحس بأن ثمة حاجزاً زجاجياً غير منظور صار بينها وبين زوجها..

كانت حينها تشعر بنشوة واسترخاء لذيذ يتعارض مع تجهم وجهها التي كانت تديره بإتقان امرأة ذات شخصية متميزة.. لكن شيئاً من الندم قد بدأ يحتل كيانها وروحها..فقد كانت لا تصدق نفسها بأنها استسلمت لهذا الفتى، الذي لم تكن له سوى الاحتقار، بهذه السرعة. كانت تشعر بما يشبه العار بسبب ضعفها..كرهت نفسها نتيجة رخصها وانهيارها الجنسي المذل..هذا الشعور القاسي بالإذلال بدأ يحتل كيانها شيئاً فشيئاً حتى هيمن عليها..

وهكذا لم تستمر السهرة طويلاً..إذ نهضت حواء دمشقية معتذرة جداً من الزوجين وكذلك لحواء ذوالنورين عن تصرف عشيقها الذي عكر صفو هذه السهرة، وانسحبت حواء ذوالنورين مرتبكة بعد أن شهدت التوتر الذي ساد بين صديقتها إيفا وزوجها، وغادرت الأم وهي تتوجس شراً من وراء تصرفات ابنتها، إذ أحست بما يشبه اليقين بأن ثمة شيئاً خفياً يربط ابنتها بهذا الفتى اللاتيني صديق حواء دمشقية.

هي الآن مستلقية في البانيو..نظفت للمرة الثانية باطن رحمها من ماء الرجل ومنيه الذي كان دافقا..فقد مضت مسرعة إلى الحمام دون أن ينتبه أحد إليها بعد رجوعها إلى الشقة بعد الواقعة..نظفت باطن رحمها بطريقة لا تترك احتمالاً علمياً للحمل..وها هي الآن، وبعد مرور ساعة تقريبا، تستلقي في البانيو، بل إنها سعت لتنظيف رحمها وغسله بمادة طبيبة معقمة للمرة الثانية لحظة دخولها الحمام.

فجأة سمعت طرقات خفيفة على الباب وصوت زوجها يسأل بخفوت وبالفرنسية:

- إيفا ..هل ستتأخرين ..؟ أريد أن أنام..لدي أعمال كثيرة غداً..

ارتبكت حينما سمعت صوت زوجها وكأنه مسكها متلبسة بالجرم..صمتت لثوانٍ..ثم قالت بصوت ضغطت على نفسها جاهدة أن يكون طبيعياً:

- نم أنت ..أنا سأتأخر..لا أشعر بالنعاس..
- طيب حبيبتي..تصبحين على خير..
- تصبح على خير

انقطع الحوار بينهما لكنها أحست أنه لايزال واقفا عند الباب يتنصت لما يجري في الحمام..تأكدت من ذلك حينما نظرت إلى اختلاف الظل والنور تحت المسافة الضيئلة بين باب الحمام والأرضية..لم تتحرك..ظلت ساكنة..إلى أن تأكدت

أنه انسحب إلى غرفة النوم بعد لحظات من ذلك. أحست أنها تخلصت من عبء ثقيل..وعادت مجدداً لنفسها..ولإسترجاع الأشياء..والتفكير فيها..وتفجرت الأسئلة في أعماقها.

* * *

كانت إيفا سميث مستلقية في البانيو تقوم بحركات لا إرادية ..حيث تأخذ بعض الماء بكفها وتلقي به على نهديها بينما وجهها يشي بشرود ذهني واضح.. أخذت تسأل، تتحدث مع نفسها بصوت تسمعه واضحاً في داخلها:" أنا لا أعرف نفسي..هل هذه أنا إيفا حقاً..؟..لماذا تقبض الكآبة على روحي..؟..لماذا لا أعرف سبب ذلك..بينما أنا التي أحلل وأكشف أسباب أعقد المشاكل عند غيري..؟ لماذا تترقرق الدموع في مآقيَّ.. ويهتز جسدي انفعالاً..وتغمرني رغبة عارمة في البكاء.. لماذا..؟ ولماذا لا أعرف السبب..؟ أيكون لأني أشعر بتأنيب الضمير أزاء زوجي..؟ لا.. لا.. لا أعتقد ذلك..فعلاقتنا هي علاقة صارت روتينية..هو أب أولادي وزوجي أمام المجتمع..لكني بمرور الوقت ابتعدت عنه نفسيا..لكن ما بك يا إيفا..؟ أنت امرأة عاقلة..مثقفة..قارئة جيدة لأفضل الكتب..لكن ما نفع العقل إذا كان لا يمنحني سوى الأفكار الحزينة والكئيبة..؟..ما الذي يجري معي..هل أنا أحب هذا الفتى دون وعي مني..؟ لا.لا.هذا ليس حباً..أنها رغبة جنسية مجنونة وشهوة عابرة..إندفاع مؤقت..استمتاع باللحظة الراهنة ليس أكثر..كما أنني متزوجة..بل إني تزوجت عن حب..لقد كنت مولهة بآدم..كان حلمي ان أكون معه..أن يتزوجني..كنت سعيدة.. الكثير من الأصدقاء يعتبرون علاقتي الزوجية وحياتي معه مثالية..لكن هل هي كذلك حقاً..؟ لماذا خنته عندما كان مسافراً لسنوات في العمل بأفريقيا..؟ ومع من..؟ مع رجل عجوز يكبره سناً بكثير..من يصدق أن كل شيء بدأ مع ذلك العجوز كتواصل وتعاطف إنساني..؟ ثم أن الحب بعد مرور سنوات من الزواج يتحول إلى واجب أخلاقي لا أكثر..لكني لم ألتزم حتى بهذا الواجب الأخلاقي..ففي الزواج نسهو حتى عن تفاصيل الطريقة القريبة من خطانا..الزواج يحتاج إلى قليل من الحب والكثير من الوفاء..وهذا يكفي كي نهتدي إلى الطريق..لكني لم أهتد..لم أكن وفية.. أنا سيئة..نعم..أنا امرأة سيئة..لكن ما العمل الآن..؟ كيف علي مواجهة الموقف الذي أنا فيه..؟ هل سأذهب للقاء هذا الجيكولو المتهور..؟لِمَ انهاريت سريعا أمام

هذا الغندور الحقير الذي لم أعلن له يوماً عن حبي..بل ولم أفكر في ذلك قطّ.. بل هو لم يعرف مني سوى الاحتقار العميق والإذلال غير المباشر..؟.لقد ذكر لي عنوانه..وكأنه كان متأكداً أنني صرت جاريته وعشيقته التابعة..".

كانت إيفا سميث ساهمة وهي مستلقية في البانيو؟. كانت تشعر بعار داخلي هي مسؤولة عنه وتتحمل وزره..فقد كانت ضعيفة أمام شهوتها الجنسية..لقد كانت كالمسحورة..فهي تعرف أنها تحتقر هذا الجيكولو الذي هو عشيق صديقتها، بينما هي التي هجمت عليه مقبلة إياها وملتقمة قضيبه..متوسلة أن يخترقها..بينما هي في اللحظات تلك نفسها كانت تكن له احتقاراً..لكنها الآن هي مستعدة بأن تلقي نفسها في المستنقع..مستعدة أن تنتحر..كانت تخبئ في أعماقها رغبة عميقة في الانتقام من نفسها.. كانت تنسج رغبة في الانتقام من خيوط حقدها على ضعفها وحقدها على جرأة ذلك الحقير في اختراقها بشكل مبتذل كما في الأفلام الجنسية.

كانت حائرة بين رغبات ملحة في الإنتقام من نفسها وبين حنين موجع لأطفالها وأمها متخيلة حالهم إذا ما هي انتحرت..!!. ترقرقت الدموع في مآقيها..هي لا تريد أن تسبب لأمها أي حزن..ولا تمتلك الجرأة على أن لا ترى أطفالها مرة أخرى وإلى الأبد..فكرت في زوجها أيضاً..صحيح أن علاقتهما شكلية..ولا أثر لوهج الحب فيها، إلا أنها تعرف أنه طيب القلب..حنون على أطفاله..عطوف يساعد كل من يسأله المساعدة..ولا يهمه إنْ كان السائل يستحق المساعدة أم لا يستحقها..كانت محطمة..أيستحق منها ما فعلته..؟ أتعترف له بما فعلت..؟ أم تُرى عليها أن تطلب الطلاق منه دون أن تجرح كرامته بالكشف عما جرى..؟ هي الآن على حافة هاوية اليأس..خطوة واحدة تسقط في الهاوية التي تفتح لها أحضانها المظلمة.

كان الماء قد صار فاتراً أقرب إلى البرودة في حوض البانيو لكنها لم تكن قد شعرت بذلك..فجأة..تناهى إلى سمعها صوت سيارة إسعاف تنطلق مسرعة وهي تطلق صفارتها المستفزة..أحست بقشعريرة.. انتبهت لبرودة الماء..وقفت في البانيو تحت الدش.. أطلقت الماء الدافئ ..أحست بدبيب الحياة يسري فيها من جديد.. خرجت من الحوض.أخذت المنشفة الكبيرة وأخذت تجفف جسدها لا إراديا بينما تفكيرها منشغل بأشياء أخرى.

لم تذهب إلى غرفة النوم ونما اتجهت إلى الصالة..وهي في برنس الحمام.

جلست على الصوفا وهي في حالة من التفكير الداخلي الشديد..نظرت إلى جهاز الموسيقى..ووضعت سمّاعات الاستماع عن بعد على أذنيها.. تمددت على الصوفا.. وبجهاز الريموت كونترول شغلت الجهاز، فانطلق صوت فيروز في أذنيها:

وحدن بيبقوا

متل زهر البيلسان..

وحدهن..

بيقطفوا وراق الزمان

بيسكروا الغابه

بيضلهن متل الشتي

يدقوا على بوابي

على بوابي

كانت تستمع في هدوء الصالون..وكأن الأغنية وكلماتها تأخذها إلى أعماق الوحشة..والعتمة..والغابة الثلجية..والذئاب الرمادية.. كانت مثل بندول يتأرج بين حدود الشك..في ساعة الشك الزئبقية..ولا تعرف متى..وكيف سقطت في بئر النوم العميقة.

* * *

في غرفتها كانت حواء ذوالنورين تجلس على سريرها مذهولة، غارقة في أعماقها، وبيدها كتاب "ملاك الجحيم" للمؤلف آدم ابن آدم.. لقد ذهلت حينما عادت إلى الغرفة بعد تفكك السهرة ورأت الكتاب على سريرها، بينما هي فتشت عنه كثيراً حينما عادت إلى الشقة بعد لقائها بالكاتبة حواء الذهبي التي أنكرت أنها أعطتها أي كتاب..فمن أعطاها هذا الكتاب إذن..؟ وأين اختفى..؟ وكيف ظهر ثانية على السرير بينما هي فتشت عنه في كل الغرفة..؟..ما السر في ذلك..؟..هل أخذته صديقتها إيفا سميث لتقرأه عند خروجها لمقابلة الكاتبة الخليجية دون أن تسألها.. وفوجئت بمجيئها السريع..لذا أعادته خفية إلى الغرفة بعد أن بدأت هي بالتفتيش عنه..؟..لكن لو كان الأمر كذلك فكيف تضعه على السرير وأمام النظر وهي تعلم

أنها تفتش عنه بل وشاركتها التفتيش..؟ لا.لا. هذا غير ممكن فهي ليست بهذه السذاجة بحيث تقوم بذلك..هل تُرى قامت الأم بذلك..؟ ولماذا تعمل ذلك..؟ من ترى جاء بالكتاب ووضعه على السرير..؟ هي متأكدة بأن الكتاب اختفى من الغرفة..فقد فتشت عنه كثيراً..ولم تجده..حتى بدأت تشك بقواها العقلية..لكن ها هو الكتاب بين يدها..؟ لكن من أين جاء والكاتبة الخليجية التي سلمته لها نفت أنها أعطتها كتاباً أصلاً..؟.

ظلت حواء ذوالنورين ساهمة..استلقت على السرير..وأخذت تنظر بتشتت إلى سقف الغرفة..ولا تعرف كيف اختفت عن عالم الحضور.

* * *

في سريره كان آدم سميث ينظر إلى نقطة بعيدة..كانت الغرفة غارقة في العتمة.. وفي أقصى الغرفة على طاولة صغيرة ثمة مصباح صغير يضيء وينشر ضوءاً قليلا وشاحباً.. لكنه لا ينير الغرفة وإنما المساحة الصغيرة التي حوله.

آدم سميث راجع تفاصيل ما جرى على المائدة..استغرب تعاطف زوجته مع هذا الفتى اللاتيني الذي قال أشياء هو يعرف أنها لا تقبل بها، بل وتعارضها لكنها الليلة كانت متجاوبة معه ومتسامحة في تقبل أرائه..ووجد أنه من غير اللائق أن تذهب هي خلفه لتعيده..كان الأجدر بصديقته حواء دمشقية أن تقوم بهذه المهمة وليست زوجته..وبحنان انتقل إلى التفكير بحواء ذوالنورين التي شعر نحوها بميل شديد..أحب هدوءها..وتشتتها..لعدم معرفتها ما يدور من حوار برغم أن حواء دمشقية كثيراً ما كانت تترجم لها..وانتبه هو إلى أنها كانت متعاطفة معه حينما رد على ذلك الفتى الغريب الأطوار..والأحمق.. فكر مع نفسه بأنه غداً سيكون معها.. صحيح أنه اتفق مع المحامي على انجاز معاملة اللجوء لها ..لكنه ينوي أن يدعوها إلى الغذاء بعيداً عن الأعين المتلصصة عليها..أخذ يتجول في خيالات اليقظة..ولا يعرف كيف انزلق إلى منحدر النوم.

الفصل الخامس عشر

دوامة بلا قرار

اجتازت إيفا سميث بسيارتها شارع (روي لا فاييت) مفتشة عن شارع (روي دي بارادايس) حيث العنوان الذي وصفه لها آدم زاباتو..كان عليها أن تقطع شارعاً فرعياً جانبياً كي تصل إلى العنوان المقصود.. أوقفت سيارتها أمام مطعم (ناناشي).. قرب المبنى شبه القديم حيث تقع فيه شقته.

* * *

حين صحت صباحاً كان زوجها في الحمام..أيقظت الأطفال..وبينما هي تعد الفطور، توجهت إلى غرفة صديقتها حواء ذوالنورين وأيقظتها طارقة عليها الباب.

اجتمع الكل حول المائدة..كان ما يشبه الاتفاق غير المعلن بين الجميع على الصمت عما جرى مساء أمس. الزوج آدم سميث حاول جاهداً أن يتحاشى نظرات زوجته، لكنه لم يغفل أن يلقي بين الفينة والأخرى نظرة عابرة لكنها متفحصة على حواء ذوالنورين..إيفا سميث اشغلت نفسها مع الأطفال محاولة ألاّ يبدو عليها التوتر والإنفعال والانشغال الذهني..حواء ذوالنورين حافظت على رزانتها واحترامها لمضيفيها، لكنها في أعماقها كانت تحس بشيء من الراحة والاسترخاء المشوب بشيء من الخوف الغامض لأنها سوف تغادر هذا البيت بتوتراته الغامضة.

غادروا البيت في وقت واحد..هي أخذت الأطفال إلى مدرستهم، بينما ذهب زوجها وصديقتها لمقابلة المحامي وإنجاز معاملة طلب اللجوء السياسي..انتبهت إلى أنه كان يستعجل المغادرة والانفراد بصديقتها بحجة أن المحامي ينتظرهما الآن..لم تشعر بأي إحساس من الغيرة.

أوصلت الأبناء الى مدرستهم..وفي طريق عودتها إلى البيت اتصلت أمها بها

على جهاز الموبايل إلا أنها لم تجب إلّا بعد محاولة الأم الثالثة للاتصال بها.. وحينما شعرت بنبرة القلق الخفي في صوت أمها وهي تسألها عن حالها وما يجري في عائلتها وجدت نفسها تتهرب من الإجابة، ثم ادّعت بأنها تعاني من التهاب في أحد أسنانها وعليها الذهاب الى عيادة طبيب الأسنان..لذا أنهت الحديث بسرعة.

عادت إلى شقتها مشغولة الذهن..أمواج تتلاطم في أعماقها..أحسّت وكأنها في كهف مظلم تتوسطه بحيرة عميقة مظلمة، يرقد فيها حيوان عملاق يفترس كل من يمر قريب البحيرة، بينما هي تتقدم بخطواتها دون هدى..تبحث عن منفذ للخلاص من هذه الكهف المظلم..

لاإراديا أعدّتْ لنفسها كوب قهوة جاهزة..سكبت قليلاً من الحليب على القهوة.. خطتْ كالسائرة في النوم متجهة إلى الطاولة حيث جلست على كرسي هناك. وأنهمرت الأسئلة الساخنة في ذهنها..كانت تحاور نفسها: " هل عليّ الذهاب إليه..؟ أليس هذا منتهى الضعف..؟ أين شخصيتي القوية التي كانت مثار إعجاب كل الذين من حولي، بل وحتى أنا نفسي كنت أتعجب من قوة إرادتي في بعض المواقف..فما الذي جرى لها الآن..؟ لماذا أنا مترددة في أن أقرر عدم الذهاب، وأحسم الأمر ..؟ لا.لا. أنا أريد الذهاب..أريد أن أعرف إلى أين تقودني هذه النزوة الشيطانية.. لا.لا.لا. أريد أن أثبت لنفسي بأني شخصية قوية تواجه الأمر، بحيث سأذهب إليه وأغادره دون أن أدعه يلمسني ولو بأصبعه، حتى لو توسل إليها راكعا على قدميه..!! ..لا.لا. لا بد لها أن أدفع حساب ضعفي وانهياري مساء أمس..، فلقد تصرفتُ بشبق الكلبة..وبوقاحة لا تليق بكل ما آمنت به من قيم وإيمان مسيحي.. لكن يا لوقاحتي وجرأتي..!! كيف تصرفتُ هكذا بينما زوجي وأطفالي وضيوفي على مقربة أمتار مني..؟ ومع من فعلت هذا..؟ مع شاب أرعن وصفيق..!!..أنا أعرف أنه اخترقني ليس عن حب..فهو عشيق صديقتي..بل أنا أعرف كيف هو يتصرف معها، فقد اعترفت لي بأنه على علاقة بنساء أخريات يدفعن له أموالاً كي يضاجعهن..فكيف تورطتُ أنا معه..؟ هل يريدني طمعا في مالي ومال زوجي..؟ لا.لا. عليها أن أتماسك وألاّ أندفع إلى الحضيض بقدمي وبإرادتي الشخصية.. عليّ أن أحافظ على عائلتي..لا..لا.. لديّ إحساس غامض بأن حياتي العائلية قد تحطمت..!! تحطمت وتكسرت وتشققت..!!..لكن، ربما، شكليا لم تتهشم واجهتها

الزجاجية بعد، ولا تحتاج إلا للمسة صغيرة وينهار كل شيء.. نعم..نعم..لقد انهار كل شيء..، وأنا السبب، وعليّ أن أعاقب نفسي، أن أعاقب غروري بنفسي، أن أذل نفسي.. نعم..عليّ أن أذل هذه الكبرياء الكريهة وذلك من خلال التمرغ بالوحل، من خلال المعاناة الحارقة التي يمكن أن تطهرني..نعم..ربما سيطهرني شعوري بالذل..ويجعلني أكثر تواضعاً وأكثر حرصا على عائلتي..نعم.نعم..عليّ أن أكون أكثر تواضعاً من خلال إذلال النفس وتحمل معاناة الشعور بالخطيئة..فلم أعد ذلك الملاك الحارس الذي يرفرف بجناحيه على عائلتي وزوجي وصديقتي، وعلى كل من يطلب مساعدتي..أنا الآن روح منسية في كهف الحيرة المظلم التي تمتد في قاعه بحيرات من الماء المظلم والأسود.. ".

فجأة، نهضت دون أن تكمل شرب كوب القهوة..لاإراديا ذهبت إلى غرفة النوم..وأمام طاولة الزينة أخذت قنينة العطر ورشت منه على جيدها وخلف أذنيها وعلى فتحة صدرها..وغادرت الغرفة..ثم الشقة.. صعدت سيارتها..واتجهت بتصميم كبير إلى شقة الفتى الذي يثير فيها كل هذه المعاناة.

* * *

في الطريق كانت تتمنى لو أن للسيارة أجنحةِ لتطير فوق الطرقات والزحمة لتهبط قرب باب البيت الذي يسكنه..استنفرت أعصابها حينما كانت تمر بزحامٍ في طريق ما أو ساحة ما..بل انتبهت لنفسها حينما شتمت مع نفسها شخصاً، سائقاً آخر تذاكى وانتهز الفسحة الموجودة أمامها فصار أمامها..ولا إراديا وجدت نفسها تضغط على زمور التنبيه احتجاجاً..لكنها سرعان ما انتبهت لنفسها..ما الذي يجري معها..؟ هل هذه حالة امرأة تريد إذلال نفسها ومعاقبتها أو أنها حالة امرأة متلفهة للقاء عشيق..؟ كانت تتهرب من مواجهة الجواب على هذا السؤال.

هي الآن في سيارتها بشارع (روي دي بارادايس)..أمام مطعم (ناناشي) بالقرب من رقم المبنى الذي يعيش هو في إحدى شققه. كانت مترددة..هل تخرج من سيارتها وتذهب إليه..ها هو باب المبنى ذو الطوابق الثلاثة قريب منها..مبنى قديم بباب خشبي أبيض ضيق وقديم..كانت مترددة تتصارع فيها رغبتان تتجاذبان بين أن تذهب أو أن ترجع أدراجها.

فجأة..خيل إليها أنها ترى وجها شبحياً ينظِر إليها من زجاج النافذة المغلقة

لاصقاً به..فزّت..ضغطت على زر جانبي فأخذت زجاجة النافذة بالهبوط لتختفي في المكان المخصص لها في هذه الحالات..رأت وجه امرأة غجرية فتية..ذات جمال وحشي..لم تقل المرأة لها شيئا وإنما مدت يدها مستجدية..ارتبكت إيفا سميث..مدت يدها إلى حقيبتها..وأخرجت محفظتها..وسحبت منها ورقة نقدية من فئة الخمسة يورو ونقدتها إياها وكأنها تريد أن تتخلص منها بأسرع وقت..المرأة الغجرية لم تصدق ذلك..فأخذت تنظر إلى الورقة وتقلبها بين يديها، وترفعها أمام نظرها، وكأنها تريد أن تتأكد من أنها ورقة أصلية وليست مزيفة.

لا إراديا رفعت إيفا سميث زجاج النافذة وأغلقتها..اجتاحتها رغبة عارمة في أن تخرج من سيارتها لتصعد إليه..لكنها الآن صارت على يقين من ضعفها..على يقين من أنها لن تمانع من أن يضاجعها لو أراد..هل تريد هي ذلك أيضاً..؟ ماذا لو امتنع هو عن مضاجعتها..؟ أتهجم عليه هي كما حدث عند فسحة درج الطوارئ..؟.. لا.لا.لا. هي جاءت لتنهي هذا الموضوع..لكنها الآن غير واثقة من أي شيء..

فجأة..أدارت مفتاح محرك السيارة وانطلقت راجعة..غادرت المكان هاربة من ضعفها..إذ أحست بدبيب الإثارة..وبتدفق الدم إلى منطقتها السفلية..لذا قادت سيارتها مخالفة السير فلم تقطع الشارع إلى نهايته لتعود أدراجها..وإنما استدارت في الشارع مباشرة..كان الشارع خاليا..وانطلقت متجهة إلى شارع (روي لا فاييت)..

غمرتها نشوة الانتصار بأنها تغلبت على اندفاع رغبتها الغامضة في أن تكون معه..قطعت شارع (روي لا فاييت) منتشية..لكن نشوة الانتصار على نفسها بدأت تتلاشى شيئاً فشيئا كلما صارت تبتعد عن بيته وشارعه..وحينما صارت على مقربة من تقاطع (بوليفار هاوسمان) كانت نشوتها قد تحولت إلى ندم..وهزيمة..وكمن يلقي بنفسه في حوض الماء عن القفاز العالي وهو خائف.. استدارت بسيارتها عند ساحة مترو الأنفاق (جاوزي دي انتين) ورجعت تقطع شارع (روي لا فاييت)، لتستدير عائدة إلى (روي دي برادايس)..وعندما صارت هناك..استغربت حين رأت موقفها السابق أمام مطعم (ناناشي) لايزال فارغا..فركنت سيارتها هناك..وبدون أي تفكير خرجت من السيارة..واتجهت إلى الباب الخشبي الأبيض..نظرت إلى لوحات مفاتيح الجرس وأمامها أسماء سكان المبنى..قرأت اسمه..هو يعيش في الطابق الأخير..إذن هو يعيش في طابق السقف المنحني للمبنى..ضغطت على زر الجرس..ففتح لها. دخلت.

لم يكن في المبنى مصعداً..اضطرت للصعود مشياً..وبالرغم من أنها كانت تصعد..فقد كانت تشعر بأن قدميها تهبطان بها إلى دوامة تمضي إلى قاع رهيب.. وكأنها تخطو في فراغ..تحتها هاوية سوداء مظلمة. تشعر وهي ترتقي الدرج خطوة خطوة بأنها تهبط للقاع..

الأفكار تحاصرها..تثقل عليها..يجب أن تثبت له بأنها ليست ضعيفة..لكنها خلال ذلك وجدت نفسها قد وصلت إلى الطابق الثالث الذي كان فيه شقة واحدة فقط، على خلاف الطابق الأول والثاني الذي انتبهت لوجود شقتين متقابلتين في كل منهما..وهناك رأته واقفا عند الباب..في سروال قصير وقميص مفتوح الأزرار.. وعلى وجهه ابتسامة المنتصر الساخرة..

أحست بقشعريرة تسري في أوصالها..وأن روحها تنكمش..شعرت بكراهية نحوه..لاسيما وأن ابتسامته أشعرتها بضعفها ووضاعتها أمامه..وأرادت أن تثبت له عكس ذلك.

حين وصلت عنده لم تكلمه..ولا هو تحرك عن الباب ليفسح لها الطريق.. دخلت دون كلام..بل إنها احتكت به عند مرورها من خلال الباب..دخل خلفها مبتسما وهو يغلق الباب بالمفتاح..كانت هي مستفزة..شعرت بندم حقيقي لأنها جاءت إليه..أحست بهول ما قامت به ماذا تفعل بنفسها..؟ لماذا هي الآن هنا..؟.. لكنه لم يدعها تواصل تساؤلاتها..اقترب منها..كانت هي متوترة ومتأهبة للهجوم.. ابتسم وهمّ باحتضانها فأوقفته بيدها وهي تقول بتوتر:

- توقف..واسمع.. أنا لم أجئك إلى هنا إلا لكي أقول لك..إن ما فعلته البارحة كان خطأً كبيراً..ويجب ألاّ يتكرر..

نظر إليها مذهولا من سماعه ذلك..فوجئ..صمت لثوان..نظر إليها ثم ابتسم ساخراً وهو يقول:

- ألهذا جئت..؟ كان يمكنك أن توفري على نفسك عناء المجيء..ولا تأتين أبداً..هل أنت متأكدة أن هذا ما تريدينه حقاً.. وهذا هو ما جئت من أجله..؟

نظرت إليه وكأنها بدأت تحس بأن حصونها شرعت بالاهتزاز..لكنها أرادت أن تبقى على موقفها، فقالت:

- نعم..جئت لأقول لك ذلك بنفسي..كي أنهي الموضوع...كي لا تظن بأن كل شيء كما تهوى..وأن عدم حضوري ربما بسبب الظروف..لذا جئت أن أقول لك ذلك وأضع نقطة على ختام السطر.

نظر إليها بلا مبالاة وكأنه يرى مشهدا متكرراً..وقال لها بوقاحة:

- ألم تأتي لكي أنيكك..؟هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين أن أنيكك..؟ ألم تكوني طوال الطريق إلى هنا تتخيلين نفسك في أوضاع لا تستطيعين أن تفعليها مع زوجك الوقور..؟!

أحست وكأن جردلاً من الماء البارد قد صُب على رأسها، إذ أنها لم تُخاطب طول عمرها بمثل هذا الخطاب المبتذل والوقح وبهذه الكلمات البذيئة والمباشرة.. فقالت غاضبة:

- إنك وقح..ومبتذل..وسافل..ومنحط..

ابتسم بوقاحة وهو يتقدم منها..وقال:

- أعرف.. أعرف أنني وقح..لكني لست أكثر ابتذالا منك..أنت تعرفين جيدا أنك جئتِ لأنيكك..فلا تظهري لي بمظهر القديسات..

- أنت سافل..

كان قد وصل إليها وصار أمامها وقريبا منها جداً..وقبل أن تنهي كلمتها كان قد مسك ما بين فخذيها بكفه..فوجئت بوقاحته..ارتدت للوراء..ورفعت كفها لتضربه.. أمسك بها..دفعها إلى الصوفا فسقطت عليها..ومضى إليها وهو ينزع سرواله.. أدركت أنه قادم إليها..كان عاريا من الأسفل..ومنتعظاً..أرادت أن تنهض لتدافع عن نفسها.. لكنه كان سريعا..إذ وثب وصار بين ساقيها..رفع ثوبها..فتبين له سروالها الأسود الشفيف..سحبه جانباً..مد يده إلى فرجها الذي كان رطبا جدا..كانت تدافع عن نفسها محاولة استعادة توازنها..وكلما كات تسعى للنهوض كان يدفعها فتسقط ثانية.. وأثناء ذلك كان قد لامسها..التحم بها..وأولجه فيها بقوة..وفي تلك اللحظة أحست بالخدر اللذيذ..وشللاً في الإرادة..انتهز هو تلك اللحظة..فاقترب من وجهها والتقم شفتيها في قبلة شبقية ساخنة..ولم تمض إلا ثوان..حتى وجدتْ نفسها تتجاوب مع إيقاع دخوله وخروجه فيها.. وهو يقول من خلال لهاثة:

- ألا يعجبك هذا..؟

لم تكن تجيب عليه لفظا..فكان يكرر وهو يدفعه فيها:

- ألا يعجبك هذا..؟ ألا أيعجبك..؟ قولي..تكلمي..

كان يصرخ بها ويدفع بقوة..فجأة..أخذت تصرخ لاهثة بشبق ودون إرادة منها:

- بلى..بلى.. يعجبني...يعجبني..

لم تمض إلا دقائق قليلة حتى كان قد انتهى منها..قذف في أعماقها..كانت هي ترتجف من اللذة..ورحمها يرتعش قابضاً على قضيبه..متدفقا بتيارات خدر كبير.. وسكن كل شيء..بعد لحظات وكأنها أفاقت من كابوس مرعب..دفعته عنها..فلم يصدها..لملمت نفسها..نظرت إليه بغضب وقالت:

- عليك اللعنة..يا سافل..

لملمت حالها بسرعة..كانت تهرب من نفسها ومن كل شيء غير مصدقة ما جرى.. غادرت الشقة على عجل.

بقي آدم سانتشو ماريا زاباتو مستلقيا على الصوفا وهو يبتسم..وكأنه يستعيد مشاهد متكررة لنساء عاش معهن مثل هذا الموقف الذي جرى مع إيفا سميث.

* * *

في طريق العودة إلى البيت كانت إيفا سميث تلعن نفسها وتشتمها وتطلق على نفسها أوسخ الألفاظ..كانت تتحدث بصوت عال مع نفسها داخلياً..تسأل نفسها بحرقة، كيف انتهى بها الأمر إلى هذا الدرك من الإذلال..؟ أخذت تستعيد في ذاكرتها نظراته الساخرة إليها..أحست وهي تقود السيارة بغضب مرّ يغلي في أعماقها.. كان صوتها الداخلي يصرخ: " نعم..لقد كان ينظر إليّ بسخرية نظرته إلى عاهرة رخيصة.. شرموطة تافهة تدعي الشرف والكبرياء..نعم..بدا وكأنه كان متيقناً من أنني رخيصة برغم كل هذه المظاهر من الرزانة والرومانسية التي تشع بها شخصيتي..كان على يقين بأنني جئت إليه ليضاجعني..لذلك كانت كل نظرة من نظراته تحرقني وتهينني.. لكن يا لحقارتي فقد استمتعت بما قام به..بل وتجاوبت معه..صحيح أنني كنت أقاومه وأشتمه..لكنني كنت أعرف أيضاً أنني في أعماقي كنت أريده ألاّ يستمع لي، وأن يقتحمني ويتوغل فيّ برغم رفضي الظاهر..إنني أدرك الآن بأنني حين خرجت من البيت كنت أريد أن أعاقب نفسي من خلال المجيء إليه بنفسي..لكنني كنت أعتبر مجيئي إليه هو إهانة كبرى لي، وأقسى عقوبة يمكن أن أعاقب نفسي بها..

كنت أريد أن أقول له بأن كل شيء لم يكن سوى نزوة..وقد جئت إليه بالفعل.. لكنني لم أكن أتصور هذه النهاية..!!..لا..كانت ثمة رغبة غامضة لديّ في أن يكون الذي كان..لماذا أكذب على نفسي..؟ الآن هو يعتبرني عشيقته..يضيفني إلى سجل عشيقاته العديدات..سيكون مصيري مصير حواء دمشقية..وبقية العاهرات الفاسقات اللائي يدفعن له كي يخترقهن..أهذا هو مصيري..؟ أيمكن أن يصل بي الأمر بأن أدفع له وأنفق عليه..؟ أيمكن أن يكون هذا مصيرك يا إيفا سميث..؟..أيها الملاك الحارس...ملاك الخير.. والرزانة..والفضيلة التي تمشي على قدمين..؟.نعم.. نعم.. أشعر الآن بأنني سقطت في كهف مظلم..وأنني أهبط الآن سلالم الحضيض..إلى القاع..حيث لا خلاص..".

* * *

حين وصلت إيفا سميث إلى تلك النتيجة المرعبة أحست بالإنهيار..وجدت نفسها تخرج عن خط السير بشكل عشوائي..كادت تصطدم بسيارة أخرى مسرعة، كان سائقها أكثر انتباها فتجنبها وهو يطلق صفير تنبيه طويلاً ويشير بيده تعبيراً عن استغرابه لجنونها وتهورها..

سببت إرباكاً في السير لبقية السيارات أيضاً..أخذ بعض سائقي السيارات يطلقون صفير التنبيه لها تعبيراً عن احتجاجهم..لم يكن يعنيها أي شيء، بل هي لم تنتبه لكل صفارات التنبيه..أوقفت السيارة على جانب الطريق..أحست وكأنها أمام طريق مسدود..وضعت رأسها على مقود السيارة وغاصت في أعماقها.

لم تعرف كم مر عليها من الوقت وهي على حالتها تلك..حين رفعت رأسها، انتبهت إلى سيارة شرطة المرور، ورأت شرطياً يتقدم إليها ويقف قرب الباب إلى جانبها..كانت شاردة الذهن..مجيء الشرطي أعادها إلى الواقع الذي كانت غائبة عنه.. أنزلت زجاج النافذة فألقى عليها التحية وسألها إن كان لديها مشكلة أو تعرضت لشيء أو هي تعبة تحتاج لمساعدة..فشكرته بارتباك على ذوقه، وأجابته بأنها أحست بدوخة قليلة لذلك أرادت أن تستريح قليلا..فألقى التحية ثانية ومضى..حركت مفتاح التشغيل وانطلقت متجهة إلى البيت.

وهي تحرك مقود السيارة انبثق في أعماقها تصميم بأن لا تنحدر إلى الحضيض أكثر..بأن تقاوم ضعفها أمام حمم بركان شبقها الذي تفجر بشكل غير مفهوم لها

في هذه المرحلة من العمر..هي لم تعد تلك الفتاة الجامعية المغامرة..المتحررة.. التي تتوجه للجنس بوعي من أجل أن تحس به وتعرف سره..لقد تزوجت وأنجبت أولاداً..فما الذي جرى لها..؟..نعم عليها أن تقاوم ضعفها..لكن كيف..؟ فهي برغم كل هذا التصميم لا تضمن عدم انهيارها ثانية، وعدم ذهابها إليه مرة أخرى..!!.

فجأة..وكأنما أضاء مصباح في غرفة مظلمة..تبيّنَ لها الحل..عليها القيام بخطوتين للخلاص من هذا العار الذي تشعر به..أولاً أن تتقدم بطلب الطلاق من زوجها.. وثانيا الانتحار..لكنها سرعان ما سألت نفسها: ما علاقة الطلاق بالانتحار..؟..وبما أنها أرادت أن تنتحر فما جدوى الطلاق..؟..لم تجد جوابا واضحا على سؤالها..لكن كان ثمة صوت داخلي يقول لها بأن زوجها هو السبب..كيف..؟ لم يكن واضحا لها كيف صار هو السبب في ما وصلت إليه..لكنها أحست بأن إهماله لها..سفره الدائم..وإحساسها بأن لديه مغامرات ربما دفعها لمغامرتها..وهي ستعاقبه بالانتحار.. وتتركه مع الأطفال يواجه المسؤولية..ولكن، وبلا إرادة ووعي منها أحست بالدموع تترقرق في مآقيها حينما تخيلت أولادها وهم يتامى بدونها.

كانت طوال الطريق مهووسة بفكرة الانتحار..سمعت نفسها تحدثها بصوت داخلي مقنع: أنا لا أخاف الانتحار..حاولت ذلك ذات مرة حينما كنت في الجامعة.. حين وصلت إلى اليأس من كثرة علاقاتي الجنسية بحيث أخذت أنظر إلى نفسي كعاهرة مبتذلة..وصلت حينها إلى قاع اليأس..كنت أحتقر نفسي..بل مشكلتي كانت أني برغم كل علاقاتي الجنسية مع مختلف الرجال لم أكن أستمتع بشكل حقيقي..ولم أعرف اللذة، إلا بعد أن أنتهي من الممارسة وأذهب لغرفة الحمام كي أداعب نفسي وأستحضر كل أحلام اليقظة..نعم في ذلك الوقت يئست من نفسي..وأحسست أني أنثى عاطلة..وفي لحظة ما أقبلت على الانتحار بقطع شريان يدي..لكني ارتعبت حينما رأيت الدم..فشددت على جرحي الذي لم يكن عميقا.. وهاتفت صديقتي خائفة متوسلة أن تنقذني من جنوني الذي اكتشفته حين رأيت الدم..وهكذا تم انقاذي..كان ذلك نهاية لفصل عبثي في حياتي..تغيرت بعد هذه الحادثة..توجهت للدين..وللكنيسة..ولأفعال الخير.. للنشاطات الإنسانية..وتكلل ذلك بزواجي السعيد.. وبمجيء الأطفال.. فما الذي جرى لي الآن..وكأني عدت مراهقة

شبقة..؟ أنا نفسي لا أجد تفسيراً..أجل.. يجب أن أضع حداً لهذا الضعف وألاّ أنجر مع التيار..فالذي يسبح مع التيار وليس ضده لا ينسجم مع ذاته..ولا يجدها.. وحده الذي يسبح ضد التيار يمسك بذاته وقدره بنفسه..

* * *

دخلت شقتها. اتجهتْ مباشرة إلى الحمام..كانت مسكونة بفكرة عدمية بأن تضع حداً لضعفها..فتحت حنفية الماء الساخن بعد أن أغلقت الحوض بالمسدّ المطاطي.. فتشت في الصندوق الزجاجي المعلّق قرب المرآة الكبير عن علبة ما.. أخذتها ووضعتها على حافة الحوض..أخذت قدحا كان موجودا هناك.. وملأته بالماء من حنفية المغسلة..ووضعته إلى جانب علبة الحبوب..نظرت إلى نفسها في المرآة..تأملت وجهها..اقتربت لترى أعماق عينيها.. وكأنها تفتش عن شيءٍ مفقودٍ.. سمعت صوتها الداخلي يقول:

- ليتني أكون صريحة مع نفسي وواضحة وصافية كالمرآة..

كانت حالتها النفسية مستنفرة..ثمة نظرة عصبية مريضة تطل من عينيها..نظرة تشع مرارة ويأساً..نظرة تائهة في اللاشيء.. بدت وكأنها ممسوسة ومسكونة بفكرة عنيدة..

مدت يدها إلى الماء الذي ملأ نصف الحوض تقريبا..كان البخار يتصاعد قليلاً..فتحت حنفية الماء البارد قليلا.. ثم دون أن تذهب لغرفتها..بدأت تنزع ثيابها بطريقة عشوائية ..تعرت.. وبحركة هادئة هدوءاً أقرب إلى الشرود دخلت الى حوض الماء.. تمددت فيه..دون أن تستخدم أي معطر أو ما يشي بنية للاسترخاء أو التحمم..

ظلت لدقائق متمددة في حوض الماء دون أن تفعل أي شيء..بل لم تنظف رحمها من علق آدم زباتو..وكأنها لا يهمها مخاطر ذلك..نظرت إلى قنينة الحبوب التي أخرجتها من الدولاب الزجاجي..حدقت إليها بتركيز وتصميم.. ظلت للحظات طويلة تنظر إلى العلبة..ثم بحركة لاإرادية مدت يدها..أخذت العلبة..فتحتها..ملأت كفها الأخرى بالحبوب..كانت حبوباً منومة تستخدمها عادة في حالات الأرق.. وبدون أي تردد وضعت الحبوب في فمها..ثم مدت يدها إلى كأس الماء وأخذت رشفات منه...وبصعوبة ابتلعت الحبوب..

بعد ثوان قليلة..أخذت تشعر بإنقباضات في معدتها..وبدوارٍ في رأسها.. دوار

كمن يجلس في دولاب يلتف سريعاً سريعاً.. أحست بالخوف الشديد..هي تكره هذا الشعور بالدوران وإلتفاف الأشياء ودورانها حولها..هذا الشعور المصاحب لمغص وتقلصات مصحوبة بحرقة في المعدة..

فجأة..قفزت من الحوض واتجهت للمغسلة..ومدت اصبعها في فمها حتى لامست لوزتيها.. وفي ثوانٍ أخذت تتقيأ..جلست عند حوض المرحاض وأخذتْ تدفع بأصبعها إلى أعماق فمها..تتقيأ..وتتقيأ..لا.لا.إنها لا تريد أن تموت..وبلا شعور منها أخذت حقيبتها التي كانت على الأرض إلى جانب ثيابها المتكومة..أخرجت تليفونها..اتصلت بأمها..وخلال لحظات جاء صوت الأم..ولم يكن لها سوى أن تقول لأمها بصوت متعب ومتقطع وبنبرة مليئة بالخوف: ماما..الحقيني..أنا عملت شيء مجنون.. انتحرت..حالتي سيئة لكن أنا حية.. الحقيني..بلعت حبوباً..تقيأت.. نعم تقيأت كل شيء..أنا في الشقة..الحقيني..لا تخبري آدم..الحقيني بسرعة.

تقيأت إيفا سميث كثيراً..أخرجت كل ما في جوفها..وكأنها كانت تتقيأ حياتها كلها..لم يكن الوقت قد مر على ذوبان الحبوب وليبدأ تأثيرها المميت..لكنها كانت منهكة من عملية التقيؤ..

بتعب شديد ضغطت على مقبض انزال الماء..ونهضت بصعوبة...انحنت أمام المغسلة..غسلت وجهها..وفمها..وقفت عاريةً ومتعبة..أخذت البرنس..لبسته بتمهل العاجز..خرجت متعبة من الحمام..شاحبة الوجه..ألقت نظرة إلى الصالة وباحة الشقة.. شعرت أن كل هذه الأشياء حبيبة إلى نفسها..وكأن الطاولة والكراسي حولها..المصابيح في السقف والزوايا..التحفيات الكريستالية..الصوفا..وكل تفاصيل الشقة تنظر إليها هي، وتعاتبها على ما أقدمت عليه..وأن كل هذه الأشياء فرحة الآن بعودتها إلى الحياة..بيد أنها تشعر بالتعب والدوار، لذا اتجهت بتعب إلى الصوفا وألقت نفسها عليها متمددة..أحست بكل شيء يدور حولها..هي متعبة..وتحس بأنها مخدرة..

فكرت مع نفسها ربما هي لم تتقيأ كل شيء..أرادت أن تقوم إلى الحمام ثانية لكنها لم تستطع..تمنت أن تصل أمها بسرعة..شعرت بشوق عارم لرؤية أولادها..هي لا تريد شيئا من هذه الحياة سوى رؤية أولادها..لا تريد أن تغادر الحياة وتحرم من رؤيتهم..إنها مخدرة.. رأسها يلتف..الأشياء تدور في رأسها..إنها تريد أن تتنفس.. تريد الحياة..تريد أن يتوقف هذا الدوران في رأسها..تحس بضعف شديد.. كيف

أقدمت على هذه الحماقة..؟ رأسها يدور..كل شيء يدور ويلتف..لم تعد تستطيع أن تفكر..إنها تغرق في دوامة مظلمة..هل هي تعاني سكرات الموت..؟ أتموت هي الآن.؟ إنها لا تستطيع أن تسيطر على نفسها..لا تستطيع البقاء صاحية لتراقب موتها..إنها تغيب في لجة من المياة المتلاطمة السوداء..دوامة تأخذها إلى قاع بلا قرار.. أين أنت يا أمي..؟ أنا أموت..أمـوووت.

الفصل السادس عشر

في لجة المياه العميقة المعتمة

أفاقت حواء الحلو على طرقات على الباب الخارجي. فتحت عينيها. أرادت أن تتحرك فلم تستطع ذلك بسهولة..شعرت بأن وجهها متشنج قليلا..، حتى من الجهة غير المشوهة..وثمة رجفة في عينيها. أحسّت برضوض في كتفها وأحد مرفقيها.. انتبهت الى خيط من الدم قد نزل على جانب من صدغها نتيجة اصطدام رأسها بحافة الباب..هي لا تذكر شيئا..كيف ومتى بدأت نوبتها..لا تذكر سوى برقاً هائلاً.. موجعاً كوخز إبرة في بؤبؤ العين.. وخزة لم تستمر سوى ومضة برق..ثم غرق كل شيء في البياض..

كانت الطرقات تتوالى على الباب الخارجي..وانتبهت إلى أن نور الصباح يغمر الصالة..هذا يعني أنها نامت منذ لحظة نوبة الصرع التي تعرضت لها عصر يوم أمس إلى الآن..لكنها تذكرت أنها رأت حلما..حلمت بتلك المرأة اللبنانية نفسها، التي تكرر رؤيتها كلما غرقت في لجة النوم والغياب عما يحيط بها.

حاولت بكل ما تملك من قوة أن تحرك جسدها الشحمي المترهل..فاستندت على كوعها غير المرضوض..جلست..ثم أمسكت بجانب من إطار الباب القريب.. ونهضت..إذن أنها نامت الليل كله هذه المرة، حيث أنها تغيب عن الواقع لفترة لا تطول عن الساعة الواحدة بعد أي نوبة صرع تنتابها..صحيح أنها تبقى لأيام قد تصل إلى أسبوع أو أكثر متعبة، مرهقة، مشتتة الذهن، وكئيبة، وقد تسقط منهكة وهامدة كالذبيحة، لكنها عادة تصحو بعد النوبة بساعة.. وأحياناً بأقل من ذلك.. فما الذي جرى لها هذه المرة..؟ ومن يطرق الباب..؟ هل هو ابنها..؟ لا..فلديه مفتاح الباب الخارجي..إذن لا بد أن يكون ساعي البريد..!.

نهضت بصعوبة..مشت سرحانة..مضطربة النفس..لكن كأنها شبعت من النوم. كانت وهي في طريقها إلى الباب تفكر برؤيتها الغريبة لتلك المرأة اللبنانية الجميلة.. حيث تراءت لها أزقة وشوارع وجسور لفلورنسا..ثمة ألوان..وأصوات وطنين..عادة هي لا ترى في نوباتها أي شيء..إذن هذة الرؤيا تجسدت لها في النوم الذي تلى نوبة الصرع وانفكاكها عنها.

* * *

فتحت الباب. قابلها وجه امرأة شرقية..جميلة بشكل أخاذ..وجه يشبه الوجوه الجزائرية أو المغربية..انتبهت إلى أن الوجه ارتسمت عليه ملامح خوف وصدمة لرؤيتها، لكن ذلك لم يدم سوى لحظة خاطفة..إذ ارتسمت ابتسامة طيبة على الوجه الشرقي الأنيق للمرأة..وقالت:

- السلام عليكم..
- وعليكم السلام..
- أنا جارتك الجديدة..حواء بنآدم من الجزائر..
- أهلا وسهلا بك.. وأنا حواء الحلو..من العراق..أهلا وسهلا بك..
- الحقيقة أنا جديدة..وفي المصعد قالت لي إحدى الجارات بأن في الشقة المقابلة لشقتي تعيش امرأة عراقية.. ففرحت ..وأحببت أن أتعرّف عليك وأقدم لك نفسي..

كانت حواء الحلو العراقية خلال كلام الجارة الجديدة حواء بنآدم تدرسها بسرعة..فوجدت نفسها تسترخي وتستطيب رفقتها.. وحينما انتهت الجارة الجديدة من جملتها الأخيرة..رحبت بها حواء الحلو داعية إياها للدخول:

- أهلا وسهلا بك..تفضلي..لنشرب كوبا من النسكافيه.. ونتعارف أكثر..أهلا وسهلا بك...تفضلي..

- أرجو أن لا يزعجك هذا..فربما أنت مشغولة..

- لا أبداً..لست مشغولة..لقد صحوت من النوم قبل لحظات..أهلا وسهلا بك ..

قالت ذلك وفسحت لها الطريق كي تدخل.

صحيح أن الجارة لم تكن تتوقع أن تكون جارتها بهذه البشاعة الجسدية.. بهذا الترهل الشحمي غير المتناسق..بل وبهذا الوجه المشوي والمشوه والذي ذكرها

بأفلام الرعب الأميركية، إلا أنها استشفت روحا رقيقة ومسكينة وراء هذه البشاعة.. أحست نحوها بالتعاطف.. واختفى خوفها الذي ومض في اللحظة الأولى من رؤيتها.

جلستا متقابلتين على الصوفة الجلدية.كان ثمة ارتباك وتوتر بينهما، لكنه توتر البدايات وإيجاد الطريق للتواصل. كل منهما كانت تنتظر الأخرى بتوتر خفي، وكل منهما أرادت أن تكسر الصمت وتبدأ لتشجع الأخرى على التواصل..لذلك..قالتا في وقت واحد:

- شقتك جميلة..
- أهلا وسهلا..

ابتسمتا لبعضهما البعض..وبرغم عدم ترابط الجملتين إلا أنه كان كافيا للتواصل وللدخول في الحديث من بوابته الأرحب..تقبل للآخر.. ردت حواء الحلو مبتسمة:

- شكراً جزيلا..هذا من لطفك..وذوقك..
- هل أنت هنا منذ زمان..؟
- منذ أشهر..كانت هنا امرأة عراقية عمياء..ماتت في هذه الشقة..بعدها أعطتني دائرة المساعدات الاجتماعية حق السكن فيها..أعيش هنا مع ابني..وأنت..؟
- أنا استأجرتها..أنا قصتي طويلة..أنا مطلقة..لدي ابنة في العشرين من العمر.. أعمل في مكتب سياحي تابع لخطوط الطيران الفرنسية..وكنت أعمل سابقا في صالون للحلاقة النسوية..و..

قاطعتها حواء الحلو وقد أثير لديها فضول معرفة جارتها الجديدة التي بدت أنيقة في ثيابها وحركات وجلستها، فقالت لها:

- لأعد القهوة ونواصل بعدها...

حين قامت حواء الحلو متجهة إلى المطبخ أحست حواء بنآدم بأنها تعرف هذا الجبل المترهل من الشحم، بل وأحست معها بالأمان، ثم أخذت تنتقل بنظراتها في أرجاء الصالة، ولمحت الغرفتين المتجاورتين، وما أن رأت رفوف الكتب حتى قامت لا إراديا واتجهت إلى الغرفة.. وقفت عند الباب أخذت تقرأ عناوين الكتب من خلال على ظهرها الظاهر للعيان..حين أحست بحركة صاحبة الشقة قادمة من المطبخ رجعت إلى مكانها..لكنها لم تستطع أن تجلس إذ لمحتها حواء الحلو التي عادت من المطبخ وهي تحمل صينية عليها كوبان من القهوة وكوز صغير مليئ

بالحليب، فابتسمت حواء بنآدم لها وقالت مبررة قيامها:

- لديك مكتبة جميلة..أنا أقرأ كثيراً..القراءة هوايتي ومتعتي الرئيسة..لذلك جذبتني الكتب إليها فلم أستطع المقاومة فقمت لأراها..
- لا عليك..هذه كتبي..أو في الحقيقة بعض كتبي..أنا أيضا أحب القراءة.. والروايات بالتخصيص..
- إذن يمكننا تبادل الكتب والروايات فلدي أنا أيضا مكتبة ممتازة..

* * *

- أنا حواء الحلو..عراقية..عمري41 عاماً. وزني ثقيل يبلغ 135 كيلو غرام.. طولي 165 سنتمر..أرملة..لدي ولد عمره 21 عاماً..مصابة بالصرع منذ أن كان عمري سبع سنوات..يقال إنه مرض وراثي أحيانا..لكن لا أحد في عائلتنا مصاب بالصرع..وعلى الرغم من أن المصابين بالصرع يكونون عادة نحيلين إلا أنني سمينة فوق العادة..وأنا أعرف أن شكلي غير مقبول..بل ويثير النفور ربما لكن ليس لدي في الأمر حيلة..هذا الشحم المترهل هو مرض..وليس سمنة..ربما اضطربت حياتي وجسدي نتيجة كل هذا الكم من الأدوية التي تناولتها خلال عشرات السنين..لا أعرف..أنهيت دراستي الثانوية في مدينتي التي تقع جنوب بغداد..هل سمعت بمدينة واسط..؟.

ارتسمت ملامح الانتباه على وجه حواء بنآدم..وقالت بفرح مشوب بشك:

- أعرف المدينة التي بناها الحجاج الثقفي بين الكوفة والبصرة..وأعرف رساماً إسلامياً معروفا لقبه الواسطي..
- بالضبط..لكن واسط تلك الآن اندثرت..وهي تبعد عن المحافظة التي ولدت فيها..واسمها الكوت..لكن الحكومة أخذت تعرب كل أسماء المحافظات العراقية فسُميت الكوت بواسط..أنا من تلك المدينة التي يحيطها نهر دجلة من ثلاثة جوانب مكونا شبه جزيرة..المهم..ولدت وترعرعت في تلك المدينة..لم أكمل دراستي الجامعية..

قاطعتها الجارة الجديدة سائلة بشفقة:

- لماذا..؟
- ..لم أكمل دراستي الجامعية بسبب حالتي المرضية..فقد كانت نوبات الصرع

في فترة المراهقة قوية جداً..ومتقاربة الحدوث..أحيانا تحدث أسبوعياً..وأحيانا تتكرر مرتين في الشهر..وكثيراً ما كانت تفاجئني النوبة ولا أحد بالقرب مني..فيحدث أن أتعرض لأذى جسدي..أعض لساني أو ينكسر مرفقي أو يُشج رأسي..أذكر أن أمي في طفولتي حتى فترة متأخرة من صباي كانت تدور بي في رحلات طويلة إلى الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء وبلد وعلي الشرقي والحي..وأضرحة الأئمة الأطهار.. والأولياء..وأضرحة النساء من آل هاشم..تطلب شفاعتهم من أجل شفائي وإخراج الجن والشياطين من جسدي الضعيف..حيث قال لها البعض من الدراويش والفوالين وكتّاب الأدعية بأني مسكونة بالجن والشياطين، ولا أحد قادر على إخراجهم من جسدي إلا الأولياء والأئمة الأطهار من آل محمد..وبما أني من مدينة الكوت..فقد وجد والديّ صعوبة في تقبل فكرة أن أذهب إلى بغداد للدراسة في جامعاتها إذ لا أحد معي ليهتم لأمري إذا ما جاءتني نوبة الصرع..كما اعترض أحد أخوتي..وكان متعصبا دينياً بأن أذهب للدراسة في جامعة مختلطة، أما أخي الأصغر آدم الذي كان قد توجه إلى أفكار اليسار والشيوعية فقد ساندني ودافع عن حقي في أن أتعلم وأن تكون لدي شهادة تضمن لي مستقبلي في الإعتماد على نفسي..لكن ياحبة قلبي عليه لم يستطع أن يقنع بقية أهلي..أخي آدم هذا تم اعتقاله في نهاية السبعينات ضمن الحملة على الشيوعيين وتم إعدامه في بداية الثمانين بتهمة الإنتماء للجماعات الإسلامية الموالية لإيران..تصوري ..هو شيوعي واتهم بتهمة الانتماء لحزب اسلامي موالٍ لإيران..! وبعد سنوات تم إعدام أخي المتعصب دينياً أيضا..وبالتهمة نفسها..لكني كنت حينها قد تزوجت من الملا هابيل..المقرئ للقصائد التي تروي مأساة الحسين في شهر محرم.. قبل أن أتزوج كان أخي المتدين قد تزوج..وانفصل عنا.. فساعدني أخي في تطوير نفسي وقراءة الكتب والروايات..كان هو منتمياً إلى الحزب الشيوعي العراقي..وكان يحمل أحيانا كتباً بدون غلاف..قصداً كي لا ينتبه أحد لها.. أو مغلفة بورق الصحف العراقية كي لا يكشف عنوانها.. كتب لماركس وانجلز ولينين من إصدارات دار التقدم السوفيتية بموسكو..

وأذكر أن كتاب (أصل العائلة والملكية الفردية) لفريدريك أنجلس وكتاب (الدولة والثورة) كانا منعطفاً في حياتي..هل قرأت شيئا لماركس وانجلز ولينين..؟

فوجئت الجارة الجزائرية بما سمعت، فلم تكن تتوقع أبداً منذ أن رأت جبل الشحم المترهل هذا أن تجد نفسها أمام إنسانة مثقفة.. قارئة.. وحينما لمحت رف الكتب غيرت نظرتها، لكنها لم تكن متيقنه، فبعض الناس يضعون الكتب كديكور وليظهروا بمظهر المثقفين..لكنها الآن وهي تستمع لها أدركت بشكل خاطف مقولة تؤكد بأن المظاهر خداعة..ولا تستهين بأي إنسان مهما كان..فالذهب والألماس ينطمرات تحت أطنان من الفحم والرمل..والدر الحقيقي في أعماق البحار المظلمة..بل راودها شعور بالمهابة أمام حواء الحلو..فهي لم تقرأ ماركس ولا أنجلز أو لينين..وإنما ثقافتها الفرنسية الحديثة أدبية بالأساس..شعرية وروائية..والفكر الفلسفي فيها يأتي مكملاً..فهي قرأت شيئا من كتب الفلسفة وباللغة الفرنسية..قرأت لنتيشة ودريدا..لفوكو وهايدغر.. لذا شعرت بالإحراج من سؤال حواء الحلو..فأجابتها بطريقة غير مباشرة..:

- قرأتهم من خلال شروحات المفكرين الآخرين..لاسيما كتاب جاك دريدا (شبح ماركس)..هل قرأته..؟
- لا سمعت عنه..وقرأت عرضا عنه في صحيفة عربية تصدر في لندن..

حواء الحلو ارتبكت أيضاً..فهي أمام امرأة جميلة..أنيقة..مثقفة..تقرأ باللغة الفرنسية..صحيح أنها تعرف الأسماء التي ذكرتها لكنها لم تقرأ إلا نتفاً لهم..بل قرأت أدبيات سوفيتية تسفّه كل تلك الأسماء التي ذكرتها .

عدم قراءة حواء الحلو لكتاب دريدا منح حواء بنآدم شعورا خفيا بالتفوق.. فقالت لها بنبرة المتفوق الغامضة:

- دريدا يحاول أن يفكك ماركس والماركسية..لاسيما بعد سقوط الإتحاد السوفيتي..لكن دعينا من هذا الآن..واصلي.. فقصتك مثيرة جدا..

أحست حواء الحلو براحة نفسية..فهذا خلصها من شعور الارتباك أمام امرأة قرأت أشياء هي تجهلها..فقالت ببطء وهي تنظر إلى جارتها الجديدة نظرة زجاجية يتميز بها المصابون بالصرع عادة:

- برغم خروج أخي من البيت للسكن مع زوجته ألا أنه كان المهيمن على مصيري.. وبعد اعتقال أخي الشيوعي..أسرع أخي الإسلامي المتدين بأن وجد لي زوجاً..زوجني وكأنما أراد دفني حية..
- هل كان أكبر منك عمراً..؟ قاطعتها حواء بنآدم

لم تجب حواء الحلو مباشرة، وإنما قامت بتثاقل من مكانها..نظرت لجارتها قائلة:

- إنه أكبر مني بعشرين عاماً..انتظري..سآتي بإبريق القهوة..وأكمل لك..وأريد أن أنهي قصتي بسرعة كي أسمع قصتك.. فأنا متشوقة لأسمع منك..أيضاً.

كانت حواء بنآدم تنظر اليها وهي تتجه إلى المطبخ..تتأمل اهتزاز الشحم المترهل مع حركتها الثقيلة..شعرت بشفقة نحوها..وبشعور خفي بالإحباط..فقد كانت تتمنى أن تجد جارة أكثر مرحا وأكثر حيوية من هذه المرأة المشوهة المسكينة..جارة تستطيع أن تخرج تقضي معها بعض الأماسي أو أيام العطل..لكن مع هذه المرأة التي ترعب الناظر إليها للوهلة الأولى لا يكون الأمر مريحا..في تلك اللحظات بالذات كانت حواء الحلو تفكر بأن الله، الذي صارت تؤمن بوجوده مؤخرا..قد عطف عليها وشملها بلطفه حين أرسل إليها مثل هذه الجارة الجميلة والأنيقة والمثقفة والتي تقرأ الكتب بالفرنسية..هذه المرأة التي سوف تمنح أيامها بريقا ورديا أو بنفسجيا.. فحياتها قاتمة..هي التعاسة تمشي على قدمين..هي الخيبة متورمة بكل هذا الشحم المريض والمترهل..كانت تشفق هي على نفسها أيضا.

عادت حواء الحلو بابريق القهوة الزجاجي..جلست على الصوفا مقابل الجارة الجديدة..صبت في الكوبين الفارغين أمامها بعض القهوة الموجودة في الإبريق الزجاجي..ودون أن تنتظر إشارة للبدء في الحديث أو تبادل كلمة مجاملة واصلت حديثها:

- الملا هابيل الذي زوجوني إياه لم يكن رجلاً سيئاً..رجل نحيل مثل قصبة.. أو عود ثقاب..حينها لم أكن مترهلة مثلما أنا الآن..برغم أن العقاقير التي كنت أتناولها قد أثرتْ على قوامي.. لكن مشكلة الملا هابيل كانت الأفيون..كان يدخنه مع أصدقائه..كنا نسميه في العراق (الترياك)..يأتون به من إيران..وكان زوجي يدخنه مع أصدقائه..يجتمعون في غرفتي الوحيدة التي كنا قد أستـاجرناها في بيت عائلة فقيرة محتاجة للنقود بحيث تؤجر

إحدى غرف بيتها..ولم يكن زوجي يستطيع الإقتراب مني إلا بعد أن يكون منتشيا بعد التدخين..بل أحيانا كان يأتيني وأنا في النوم..أحس بشيء ما يصعدني..ويلجني بنعومة..كان خفيفا جداً..وكان سريعا في ما يقوم به.. لذلك كنت أنزعج من اقترابه مني..وبرغم ذلك..فبمحاولاته الغريبة زرع في رحمي بذرته المباركة..التي تفتحت عن ابني..حيث ولدت ابنا..ولم تتكرر الحالة..وكم حاولنا متقصدين ذلك..بل صار مهووسا من أجل أن ينجب ثانية.. لذلك لم يدعني أنام..ذكرياتي عن ذلك كانت سيئة..وأسوأها أن إحدى نوبات الصرع مسكتني وهو يمارس معي..كانت فضيحة..لأن جارتنا صاحبة البيت، أم آدم، هبت لمساعدتي..وحينما دخلت الغرفة كنا على تلك الحال..طبعاً أنا لا أذكر شيئاً..وإنما حدثتني جارتي في ما بعد.. وكنا نضحك على الحادث..يمكنك تصور ذلك..الملا هابيل..الرجل القصبة من شدة النحول..عار وأنا مرفوعة الثوب إلى الأعلى..مصروعة..أرتجف، وأتشنج بقوة، وأهتز، وأصرخ، وأزبد، وغائبة عن الوعي..بينما المسكين كان مثل سحلية نحيلة تم القبض عليها..والفضيحة كانت، كما روت لي جارتنا أم آدم، أن تشنجي وصل إلى حد أن فرجي قبض على عضوه الرقيق في رحمي ولم يستطع أن يخرجه..ههههههه..

أطلقت حواء الحلو ضحكة متكسرة الموج وخجولة..بينما ابتسمت جارتها ولم تضحك لباقة..لكنها أحست بمودة نحو هذه المخلوقة البائسة التي تضحك ساخرة من مأساتها..كان واضحا على وجه حواء الحلو أنها خجلة من رواية هذه الحادثة، بل وخجلها من ضحكها وسخريتها..وكأنها تتذكر مشهداً لم تذكره بالتفصيل في حديثها..لأنها فجأة غرقت في ضحكة لم تستطع أن تتوقف عنها إلا بعد أن دمعت عيناها بينما ظلت جارتها تبتسم لها بطيبة منتظرة أن تكمل حكايتها..وحينما انتهت خجلت من ضحكتها واستغفرت قائلة:

- اللهم أجعل ضحكي خيراً..

نظرت إلى جارتها بتلك النظرة الزجاجية..وكان واضحا أنها خجلت من ذكر هذه الحادثة..إلا أن جارتها كانت تنظر إليها بطيبة مما خفف عنها الشعور بالذنب..

انتبهت فجأة إلى أن جارتها كانت تركز على الجانب المشوي من وجهها وتنظر إليه بخوف ونفور خفي تجاهد أن تحتويه بطيبتها وشفقتها عليها، فابتسمت بحزن وقالت:

- ربما تريدين أن تعرفي سر هذا الجانب المشوي من وجهي والذي صار يخيف الأطفال..أليس كذلك..؟

ارتبكت الجارة حواء بنآدم لأنها أدركت بأن حواء الحلو قد اقتنصت نظرتها الخائفة ونفورها منها،فقالت مدارية ارتباكها:

- لا أبداً...لكن إذا أردت أنت أن تروي ذلك..فهذا شيء آخر..

نظرت حواء الحلو إليها بحزن مفاجئ وقالت:

- هذا شيء آخر فعلا..فبعد سنوات..ذات ظهيرة صيف..جاءتني نوبة الصرع وأنا جالسة أمام الطباخ الأرضي ذي العين الواحدة..نحن نسميه بالعراقي (البريمز)..كنت أقلي سمكا..وكان الوقت ظهيرة صيف..كنت جالسة أمام المقلاة التي كان يغلي الزيت فيها..كان الجو حارا جدا..وفي لحظة انتابتني النوبة..في تلك اللحظات أنا لا أعرف شيئا..ولا أذكر شيئا..ومضة برق.. ولا أذكر شيئا.. بعدها..حين أفقت وجدت نفسي في المستشفى مشدودة الوجه بالضمادات الطبية والمراهم الصفراء اللون.. وافتهمت في ما بعد بأني في اللحظة التي انتابتني فيها النوبة سقطت للأمام..وصار نصف وجهي في المقلاة حيث شوي مع السمك.. بقيت في المستشفى فترة طويلة..أجريت لي عمليات تجميلية.. ولم يكن بالإمكان أحسن مما كان.. فهذه البشاعة كانت أفضل ما يمكن لجراحة التجميل أن تصل إليه آنذاك..طبعا ..ابني كان صغيرا حينما تعرضت للحادث..وحينما رآني للمرة الأولى بعد خروجي من المستشفى ارتعب..وهرب إلى حضن والده صارخا برعب..وقد احتاج الأمر طويلا وسعيا مهموما من أجل أن يراني من جهة الوجه السليمة، أي يرى بشكل جانبي دوما..إلى أن كبر وتعود..وأخذ يشفق علي..طبعا الأفيون أهلك زوجي..مات زوجي سعيداً..مخدرا بالأفيون..لم يكن يهمه أي شيء مما يجري حوله في العالم..لكن مصائبي لم تكن تنحصر في موت زوجي وأنا تلك المرأة المريضة مع صبي صغير..وإنما مصيبتي كانت بإعدام أخي الشيوعي..ثم إعدام أخي المتدين.. وتشتت عائلته..لاسيما بعد

أن تزوجت أرملته من رجل آخر..ولم يكن من معين لي في تلك البئر المظلمة التي وجدت نفسي فيها سوى القراءة..نعم..قرأت بنهم..كنت أقطع الليالي الطويلة وانا أقرأ..لاسيما الروايات..إلي أن طرق بابي خلسة أحد أصدقاء أخي الشهيد الشيوعي..كان مرعوبا..ومرتبكا..لا يستطيع أن ينطق بما يريد..لكني أدركت أنه مطارد..بقي ليلتين مختفيا في البيت الصغير الذي كان زوجي الملا هابيل قد أستأجره بثمن بخس منذ سنوات..وذات فجر خرج متجها إلى جبال كردستان ملتحقا بالأنصار الشيوعيين..لكنه وعد بمساعدتي..وفعلا بعد شهر وطرقت بابي امرأة خمسينية..سلمت علي وأخبرتني أنها من رفاق أخي الشهيد الذي يبدو أنه كان معروفا بينهم..وأنها جاءت لتأخذني إلى مكان آمن مع إبني..وهكذا بدأت رحلتنا..قضيت فترة قصيرة في دهوك..ثم تركيا..إلى أن وصلت إلى ألمانيا...وها أنا هنا منذ سنوات أعيش مع ابني الذي صار في التاسعة عشرة من عمره..عموما.. لا أعرف أين قرأت بأنه ليس أمام الإنسان إلا طريقة واحدة للخلود في هذه الدنيا، هو أن ينسى أنه سيموت.. وأنه فان..لذلك عليه مقاومة الرحيل ونسيانه..لكني تعبت من هذه الدنيا..تعبت..ولولا أني لا أستطيع مفارقة ابني لغادرت هذه الدنيا غير آسفة..لكنني لا أتحمل أن لا أراه..لذلك لا أريد الرحيل..ليس حبا بالحياة وإنما حباً بابني..وأنت..؟

كان واضحا فضول حواء الحلو لمعرفة جارتها. فكانت ملامحها تشي بالترقب والفضول، بينما ارتبكت الجارة وقالت:

- أنا قصتي لا تختلف كثيرا عنك..فلقد تزوجت وأنا صغيرة..كنت يتيمة الأب إذ مات أبي وأنا طفلة صغيرة..لذا تعلقت برجل أكبر سنا..رجل يكبرني بعشرين عاماً..رجل يعمل في التجارة، لكنه مثقف..رجل يختلف عني..فهو يحب أن يكون ضمن القطيع ولا يحب التميز والانفراد..رجل محافظ. بل هو محافظ جدا.. لكنني ندمت بعد مرور الوقت. ...لاني بدأت أتخفى منه كما أتخفى من بقية القطيع..بدأت أنفرد واستقل بشخصيتي... لقد عشت طفولة معقدة.. توفي أبي وعمري ثلاث سنين واضطرت أمي للعمل فاعطتني لخالتي..فعشت مع خالتي وأبنائها وجدي وجدتي..وحينما

توجهت خالتي وزوجها وأطفالها إلى باريس ذهبت معهم لكنني عدت لأن جدتي لم ترغب في البقاء من دون أطفال... فعشت مع جدي وجدتي في وهران.. طبعا لم أبق في باريس سوى أشهر..كان عمري أحد عشر عاما..يعني أني عشت مراهقتي في الجزائر..على الرغم من أني كنت أقضي العطل عند خالتي في باريس لانها كانت بمثابة أمي .. أكملت دراستي الثانوية والجامعية والعليا في وهران..دائما كنت متحررة..لكنني لم أكن جريئة..جريئة كنت في خيالي فقط..كنت شاطرة جداً في المدرسة ودائما الأولى في كل شيء حتى في الرياضة. كنت أحب أستاذ اللغة العربية.. مع أني كنت في قسم الرياضيات..كان رائعا وكان يحبني كتلميذة شاطرة.. وهو الذي أحضر لي مجموعة كبيرة من الكتب، فقرأت نجيب محفوظ وطه حسين واكتشفت محمد إقبال وعشقت الفلسفة. ودخلت قسم الفلسفة بعد بكالوريا الرياضيات..أشياء كثيرة..مشوار عمر..لكني شعرت بإنتكاسة في قسم الفلسفة..شعرت بخيبة في مستوى التدريس وغباء الطلبة..هناك تعرفت بشكل حقيقي على نيتشه وسارتر ثم حنة ارنديت..وكذلك الفكر الصوفي في الثقافة العربية..ابن عربي والحلاج.. والشعر الفرنسي والأدب الفرنسي لأني حضرت ليسانس فرنسية..طبعا المغرب العربي كله متأثر بالتصوف..أكثر من المشرق..أنا لا أحب الفلسفة الإسلامية لكني أحب الفكر الصوفي...اكتشفت ذاتي مرتين..المرة الأولى وأنا أقرأ..والمرة الثانية عندما التقيت بعمتي كذلك..كنت ضائعة قبل لقائي...ربما تسألين أين كانت كل هذه السنوات؟..ببساطة..لم أكن قد التقيت بها من قبل لأني كنت بعيدة عن أهل أمي..ربما ستسألين كيف أثرت بي..؟ والجواب هو أني أشبهها في الطبع كثيرا..كنت أشعر بغربة مع أهل أمي..لأني مختلفة.. أنا متريثة كثيرا وهادئة وأهل أمي على العكس تماما..اكتشفت أنوثتي مبكراً..عندما أصبحت مراهقة..أصبحت فتاة ممتلئة وجميلة وتغيرت نظرة الجميع لي.. لكن لا يذهب بك الفكر بعيداً..فأول تجربة لي كانت مع زوجي..لكن قبل الزواج..كنت في الرابعة والعشرين..وكان يكبرني بعشرين عاماً.. وبرغم ثقافتي الفرنسية إلا أني كنت أرغب المحافظة على عذريتي..لأسباب دينية..

عادات..تقاليد..قناعة..كنت محاطة برجال أذكياء..لكني لم ألتق بعد برجل أذكى مني..لقد التقيت بمثقفين لكن أجسادهم غبية..كنت أحلم بأن ألتقي برجل يدوخني بفلسفته..أن ألتقي بفيلسوف حقيقي..

في تلك اللحظة رن منبه الساعة في غرفة النوم..انتبهت المرأتان له..نهضت حواء الحلو بصعوبة كبيرة وهي تتوكأ بكفيها على الصوفا من كلا الجانبين..نهضت بين نظرات الجارة المتعاطفة والمليئة بالشفقة وهي تقول:

- انتظري..سأوقف هذا المنبه المزعج..وأعود لتكملي لي قصتك..وتحدثيني عن فلسفتك..أتعرفين لقد قرأت ذات مرة من يقول بأنه لمؤلم حقا أن تدرك النساء بأنهن آخر من يعرف من هي المرأة.. يبدو أننا لم ولن نعرف من نحن..

ابتسمت الجارة حواء بنآدم لها بمودة وقالت:

- لقد عشت حياتي بشكل متقد..لكن خبا كل شيء مع هذا الزوج التعيس.. سأروي لك كل شيء..

نظرت حواء الحلو إليها بفضول وانتباه وقالت:

- انتظري سأعود حالاً..

اتجهت إلى غرفة النوم..واختفت فيها..أوقفت المنبه..أحست برغبة في النوم.. جلست على حافة سريرها..أحبت أن تستلقي وتنام، لكنها تذكرت ضيفتها التي تجلس في الصالون..تحركت ببطء شديد نحو الصالون..وعند باب غرفتها فوجئت.. بأنه لا أحد يجلس في الصالون.. ظلت واقفة فترة طويلة مثل تمثال أبكم..ومع مرور اللحظات أحست وكأن الأمر طبيعي..وأنه لم تكن هناك أية امرأة..ولم يطرق بابها أحد أصلا.. عادت لسريرها..جلست على حافته مرة أخرى..وبصعوبة شديدة أمالت نفسها على السرير مستلقية..أغمضت عينيها..رأت وكأنها غاطسة تحت الماء.. تنظر إلى شعاع الشمس فوق سطح الماء.. وشيئاً فشيئا بدأت العتمة تهبط ويخفت الضوء..هي تهبط للقاع.للقاع..للقاع المظلم..عتمة مطلقة..إنها تختنق..لا هواء..لا ضوء..إنها تختنق..

* * *

فزت حواء الحلو في غرفتها بالفندق وهي تشهق..وكأنها كانت غارقة في لجة

الموج.. انتبهت إلى أن جسدها مبلل بالعرق.. ظلت لثوان ساكنة في الفراش..نظرت إلى سقف الغرفة الأبيض..سمعت ضجيجا يأتي من الشارع العام..لم تتذكر أنها رأت شيئا في المنام..سوى عتمة تشبه عتمة البحر في الأعماق..نهضت متجهة إلى الحمام..أحست بالحيوية حينما تذكرت بأن صديقتها سوف تأتي اليوم.

الفصــل الســـابـــع عـــشر

خطوات نحو الهاوية

كان معظم الموظفين ينظرون من خلال الكابينة الزجاجية الواسعة إلى مديرهم آدم سميث وهو يتحدث مع محامي الشركة الذي هو صديقه الشخصي أيضاً. لا أحد يعرف ما كان يدور بينهما..حتى سكرتيرة مكتبه..الفتية والمثيرة..كانت مستغربة من تركه ضيفته حواء ذوالنورين في مكتبه مرتبكة، والتي جاء معها قبل ربع ساعة، لكنه لم يجالسها، وإنما ذهب مباشرة إلى مكتب محامي الشركة، بل وأوصاها هي أن تقوم بخدمتها..وما زاد من استغرابها أنه لم يستدع المحامي إليه في المكتب كعادته، وإنما ذهب إليه بنفسه.. ما الذي يجري..؟ كان الفضول يتأجج في داخلها لمعرفة ما يجري بينهما من حوار..فليس هذا من عادته.

في مكتب محامي الشركة كان آدم سميث قلقاً..ومنفعلاً قليلاً..بينما كان المحامي ينظر إليه بانتباه ويقول له بجدية ممزوجة بمرح وتعاطف خفيف:

- كن حذرا يا صديقي آدم..أنت بدأت تخوض مغامرة خطيرة..هذه المرأة ستطحنك، لم يعد الأمر نزوة كما في كل مرة..

نظر آدم سميث إلى صديقه وسأله وكأنه أمام طبيب معالج:

- ربما هي نزوة أيضا..لا أعرف..

نظر صديقه المحامي إليه وقال له بنبرة واثقة وكأنه يلقي مرافعة لاثبات حججه :

- النزوة يا صديقي آدم هي رغبة تخرج عفوياً..دونما جذور مباشرة في الأعماق..هي رغبة مفاجئة في تحقيق شيء لا يوجد أي مانع في تحقيقه.. أي في الضفة الأخرى من عالم الرغبات الغامض..أنت لا تجيب برغبتك هذه على سؤال النزوة الملح: لِمَ لا أفعل ذلك..؟ وإنما أنت الآن تتجه

بكليتك مقاداً بوعي نحو هذه العلاقة لتجيب على سؤال الرغبة الأعمق: لماذا أفعل ذلك..؟ كما يقول أريش فروم..لا أعرف..ربما أنك تهرب من ضجر ورتابة حياتك الزوجية..؟ لكن لو كان الأمر كذلك فلماذا اخترت صديقة زوجتك..؟ ..لو كانت نزوة كما تقول..فهي نزوة مجنونة..لكنها ليست نزوة..إنها ليست حباً..لكنها شيء أبعد من النزوة..وهنا الخطر.. فهذه المرأة ستخرجك من منطقة العقل لكي يطحنك الحب..وستتعذب وربما ستحطم حياتك..

نظر آدم سميث إليه بانتباه..لكنه لم يكن مستاءً من كلام المحامي، بل أيّده دونما تراجع عن إندفاعه في هذه المغامرة، فقال بنبرة هادئة كمن يحدث نفسه:

- ربما.. لا أعرف بالضبط كيف أشرح لك ذلك...أحس نفسي مثل قمر يدور في مدار كوكب هائل الجاذبية، لا يستطيع الفلتان من المدار حتى لو شاء ذلك..أتعرف كم هي مثيرة..إنها تقترب مني في بعض اللحظات.. أحس أنها تحتاجني..ترغب فيّ..أو توحي لي بذلك..لكنها فجأة تبتعد..تنفر ببرود..تتحفظ بتثاقل..ثم تعود لتقترب مني..تحدثني عن نفسها قليلاً...ثم تبتعد مرة أخرى..وتقول لي: حدثني كما تحدث صديقة لك..أقول لها إني لا أستطيع أن أخاطبك كصديقة، وإنما كامرأة خرافية..فتصمت..ثم تقول لو تعرفني جيداً لغيرت موقفك مني..

امتد بين الصديقين صمت مشحون بالدلالات..حاول المحامي خلاله أن يستوعب كل ما قاله صديقه..أحس بأن صديقه يدور ليس كقمر حول كوكب وإنما كجرذ في مصيدة لا يجد منفذاً منها..أحس بتعاطف معه..ألقى من خلال جدار المكتب الزجاجي نظرة على حواء ذوالنورين التي كان يراها تجلس في مكتب صديقه مدير الشركة، والذي يفصل بينهما مكتب السكرتيرة، تأمل جمالها..أحس بقلبه يخفق نحوها، وعرف ورطة صديقه، فقال بتعاطف واضح:

- أنت درويش يا صديقي..لا أعرف ما يجب أن أقوله لك..أنت خبير بالنساء.. وقد وجدتك في حالات كثيرة تعيش في هيام وشوق للنساء الجميلات والمثيرات..لكن كل تلك المرات كانت نزوات..هذه المرة هي مصيبة سوداء.. إنني أحذرك كصديق..انتبه لنفسك ولخطواتك...

نظر آدم سميث إليه وكأنه لم يكن قد سمع شيئاً، فقال مواصلاً تداعياته الداخلية عن حواء ذوالنورين:

- هي مثقلة بالكثير من التكلف الاجتماعي، تلزمها عاصفة تنزع عنها كل ماهو غير أصيل فيها. إنها على قدر كبير من الشاعرية، لكنها تنوء تحت وطأة المواضعات الاجتماعية..وربما هي تتحفظ معي لأنها ترزح تحت وطأة تأنيب الضمير لصداقتها لإيفا زوجتي..لكنها امرأة رقيقة جداً، برغم حزمها الظاهر وتحفظها ومواضعاتها الاجتماعية..آه لو تتخلص معي من بعض أقنعتها..لا أخفيك أنا مهووس بها..فهي رقيقة جداً..رومانسية ومثيرة جنسيا في الوقت نفسه..مكتملة الأنوثة لا ينقصها إلا من يجعلها تحس بالأمان الذي افتقدته يوماً...لا أعرف متى..؟ وكيف حدث ذلك..؟..لكنها تفتقد الأمان وربما لا تشعر به معي لأني زوج صديقتها....

نظر المحامي إليه نظرة استغراب وسأل:

- كيف لا تعرف عنها شيئاً..؟

- الذي عرفته من زوجتي إيفا أنها أرملة..قتلوا زوجها وانتحر ابنها..وهربت من العراق إلى سوريا..ومن هناك إلى إيطاليا بجواز مزور..روسي..وهي صديقة إيفا..لا أعرف كيف..لم أدخل في التفاصيل..وها هي قد وصلت باريس..

صمت المحامي للحظات..كان يفكر في شيء بعيد..ثم قال:

- سأعرف منها كل شيء..فأنا سأكون محاميها..ولا بد أن تشرح لي كل شيء.. لكن أريد أن أعرف منك أولاً وبصراحة متناهية: ماذا تريد منها..بالضبط..؟ إنني أراك في ورطة..فالأمر يبدو لي أبعد من رغبة في مضاجعتها..

فوجئ آدم سميث بالسؤال الواضح والصريح. نظر إلى صديقه نظرة حائرة، وقال بنبرة مشوبة بالحيرة والقلق:

- لا أعرف بالضبط..وحينما أقول لك ذلك فلأني حقا لا أعرف ماذا أريد منها..بالتأكيد ليس الزواج..فأنا متزوج.. ولدي أولاد..وأعترف هنا بأني أعيش رغبة مهووسة في مضاجعتها..لكن يا تُرى هل سينتهي هوسي بعد ذلك أو أنه أبعد من ذلك..؟ ..هل أريدها عشيقة لي..؟ ربما..لكن كيف وهي

صديقة زوجتي إيفا..؟ لا أعرف حقاً ماذا أريد وماذا ينتظرني..
نظر المحامي الصديق إلى آدم سميث وقال بنبرة هادئة مشوبة بسخرية مبطنة :
- وهي..هل فكرت أنها ربما لا تريد مثل هذه العلاقة..وربما لا ترغب فيك أصلاً..؟
نظر آدم سميث إلى صديقه المحامي.. تأمله للحظات وكأنه كان يريد أن يستوعب ما قاله، ثم قال بنبرة فيها بعض التردد:
- لا.. لا أعتقد ذلك..قلت لك إنها تقترب مني أحياناً ثم تبتعد فجأة، وكأنها تخاف من نفسها..ويبدو لي أنها لا تستطيع أن تتجه نحوي بالكامل إلا إذا تورطت معي في غواية ما..
نظر إليه صديقه متفكراً في كلماته، ثم سأل :
- غواية ما..؟..لكن ألا تخاف من أنها تذهب معك في الغواية إلى أقصاها وعندما تستوي ثمرتك تنسحب وتتركك لاشتعالاتك، ربما تتلذذ بالأمر..؟ ألا تخاف أن ينكشف أمرك أمام زوجتك إيفا..؟..ألا..
فقاطعه آدم سميث وكأنه يحدث نفسه:
- ليس هذا مهما لي الآن أن تتركني في ما بعد..المهم الآن كيف أغويها..
أحس المحامي بأن الحوار مع آدم سميث من أجل أن لا يتورط في مغامرته صار لا يجدي نفعاً الآن، فقال له مستسلماً وابتسامة يائسة ترتسم على وجهه :
- إذا كان الأمر قد وصل بك إلى هذا الحد..فابحث عن غواية تليق بك وبتاريخك النسوي على الأقل..لكن لا تعتمد عليّ في هذا..ثم إذا ذهبتُ بها الآن إلى مركز شرطة الأجانب وقدمنا لها طلب اللجوء السياسي فأنك لن تراها..لأنهم سيحجزونها لديهم في معسكر خاص باللاجئين الأجانب.. وهم الذين سيحددون مصيرها..صحيح أنا سأكون محاميها لكني لن أستطيع تغيير قرار حجزها عندهم لحين تحديد وضعها قبل ثلاثة أو أربعة أيام كخطوة أولى..ثم..ألا تخاف من إثارة غيرة تلك(وأشار برأسه إلى السكرتيرة التي كانت تنظر إليهما بين فترة وأخرى)..
نظر آدم سميث إلى المحامي مفزوعاً دون أن يقول شيئاً، التفت نحو مكتبه ليلقي نظرة على سكرتيرته..ثم على حواء ذوالنورين عبر الجدران الزجاجية فرآها

تنظر إليه نظرات رجاء وخوف..في تلك اللحظة دخلت سكرتيرته الخاصة لتسأله إن كان يحتاجها في شيء ما، فقال لها بأنه لو احتاجها لناداها..ذهبت السكرتيرة منكسرة..التفت هو إلى صديقه المحامي سائلاً بنبرة فيها شيء من التوسل:

- دعك من هذه الآن..(مشيراً رأسه إلى السكرتيرة التي خرجت للتو)..وأخبرني ..أليست هناك طريقة ما نستطيع تجنب كل إجراءات الحجز الإلزامي وما شابه..؟

صمت المحامي للحظات وقال وكأنه وجد مخرجاً من هذا الوضع لكنه لم يكن متأكداً من موافقة صديقه ومديره آدم سميث عليه، فقال بنبرة غير واثقة:

- هناك حل آخر..لكني غير واثق من إمكانية تحقيقه..

فقاطعه آدم سميث بلهفة قائلاً:

- هاته..قل لي ما هو..؟

نظر إليه المحامي ليتأكد من استقباله لما سيقترحه كحل، وحين وجد لهفة صديقه لسماعه قال:

- قوانين الإقامة في فرنسا تتيح أمكانية الحصول على الإقامة لمواطني أوروبا إذا ما حصلوا على عقد عمل رسمي..

- ماذا يعني هذا..؟

- يعني لو حصلت المدام على عقد عمل رسمي فسيكون بإمكانها الحصول على الإقامة الرسمية..والعيش في فرنسا معززة مكرمة.. وسيكون بإمكانها ال..

قاطعه آدم سميث قائلاً:

- فلتعمل لها عقداً الآن..

فوجئ المحامي من قرار مديره، فانتبه إلى أن الأمر خرج من كونه نزوة رجل نحو امرأة مثيرة، فهنا عليه شرح الجوانب القانونية وأبعاد هذه الخطوة..فقال بنبرة المحامي ورجل القانون:

- حصول المدام على عقد يفترض فيه تحديد نوعية العمل..والمرتب والجوانب القانونية التي ستكون على الشركة الإلتزام بها نحوها..فهل تدرك أبعاد ذلك..يا مديري وصديقي..؟

- ليكن..المهم تبقى قريبة..
- لكن من قال إنها سترضى بذلك..؟ ثم..ماذا ستقول المدام إيفا زوجتك لو عرفت..؟ أليس من الأفضل أن تفاتحها في الأمر..عندها ستوفر على نفسك مشاكل محتملة..؟
- ممكن..لكن علي أولاً أن أفاتحها هي ..
- أكيد..

نظرا لبعضهما. نهض آدم سميث منفعلاً وفي أعماقه يتدفق فرح ممزوج برغبة عارمة. نظر إلى صديقه محامي الشركة، ابتسم له وقال له وهو يغادر:
- شكراً لك..
- على الرحب..

وغادر المكتب متجها نحو مكتبه منفعلاً.

* * *

حين مر بمكتب السكرتيرة لم يلق عليها سوى نظرة عابرة واتجه نحو مكتبه غالقا الباب الزجاجي عليهما كي لا يسمح للسكرتيرة بالدخول عليه أو التنصت لما سيقوله. كانت عينا حواء ذوالنورين مشدودتين إليه..أخذ يشرح لها صعوبة تقديم طلب اللجوء السياسي لأن ذلك يعني أنهم سيأخذونها إلى كمب ربما سيكون خارج العاصمة..وستضطر للعيش مع مختلف الناس..من الأفارقة والغجر وربما بعض العراقيين.. مضيفاً تعقيدات أكثر مما هو معقد في الواقع..

لم تكن حواء ذوالنورين مهيئة نفسياً لمثل هذه الحياة الصعبة التي أثارت تفاصيلها رعبها، فأحست أنها تنهار نفسياً، وبدأ الحزن يشع من نظراتها، فزادها ذلك إثارة وجمالاً ..فجأة قال لها:
- لكني لن أتركك..وقد سألت محامي الشركة عن حل..وليس أمامنا سوى حل واحد..
- ما هو..؟

همست حواء ذوالنورين بإنكسار، فقال لها بنبرة المنتصر الواثقة:
- أن يتم تعيينك في الشركة..
- ماذا..؟

قالت حواء ذوالنورين متفاجئة..فقال وهي يلبس قناع اليائس:

- ليس أمامنا من حل آخر..سأعمل لك عقد عمل..وعلى أساس عقد العمل يمكنك الحصول على الإقامة ..

- لكني لا أعرف أي شيء..لا اللغة الفرنسية..ولا أجيد أية مهنة يمكنني أن أعمل بها في شركتكم..ثم كيف ستعطونني مرتباً شهرياً وأنا لا أعمل..؟كما أنني أساساً لا أحتاج للراتب..فلدي ما يمكن أن أتدّبر به عيشي..

نظر إليها بعينين حاول أن يخفي في أعماقهما أسرار رغبته، وقال:

- هذا ليس مهماً الآن..اللغة الفرنسية ستتعلمينها..تدخلين دورات لتعلم اللغة.. أما عن عملك في الشركة..فسنرى كيف نرتب الأمر..اتركي هذا الأمر عليّ.. مرتبك لن يؤثر على الشركة أبداً..لكن..

صمت آدم سميث ملتبسا قناع الحيرة ..نظرت إليه منتظرة أن يوضح ما يعيق الأمر..إلا أنه تجهم قليلاً..فسألته بتردد واستحياء:

- ولكن لماذا..؟ هل هناك مشكلة..؟

رفع رأسه إليها قائلاً بتردد مصطنع:

- هناك مشكلة صغيرة..وسأكون صريحاً معك..أنا لن أتردد في مساعدتك.. لكن هناك إيفا..

- إيفا..؟ ما بها..؟ ولماذا هي مشكلة..؟

سألت مرتبكة دون أن تفهم.. نظر هو إليها متأملاً مثلما ينظر الذئب إلى طريدته منتظراً بحكمة لحظة الإنقضاض..فقال بهدوء وبنبرة مشحونة بالطيبة والعفوية والتردد:

- أنا أستطيع اليوم، بل الآن، أن أطلب من المحامي أن يعد عقد العمل وتوقعينه فوراً..بل وتذهبين معه لينهي لك اجراءات الإقامة..لكن المشكلة هو أنك صديقة زوجتي إيفا..ولا أعرف عمق علاقتكما..وطبعا هي طلبت مني أن أساعدك في قضية اللجوء..لكن الآن الأمر اختلف..إذا كنت مستعدة لبهذلة التنقل بين معسكرات اللاجئين فسنقوم بذلك أيضاً..لكن ما أريده لك ربما سيذهب بتفكير زوجتي إيفا إلى سوء فهم..

- سوء فهم..لم أفهم..؟ ماذا تقصد..؟

سألت حواء ذوالنورين مرتبكة، لكنها كانت تشعر بشكل غامض بما يقصده..

نظر هو واستعد للإنقضاض عليها فقال بحنان:

- ربما ستشك بأنني أفعل كل ذلك لأن بيننا علاقة خاصة..
- علاقة خاصة..؟ ماذا تقصد..؟

نظر إليها وكأنه يدرس أعماقها..هل يقتحم أو يتراجع..وأخيراً قرر فقال:

- يعني أن بيننا علاقة حب مثلا..أو أنت عشيقتي..لا أعرف كيف ستفكر..؟ لكنها ربما ستشك..لأنها انتبهت لاهتمامي بك وبقضيتك..
- لكنها مهتمة بقضيتي أصلاً..فهي منذ لقائنا الأول في دمشق..ومن ثم في فلورنسا..

كانت كلمات حواء ذوالنورين صادمة جداً على آدم سميث..هل يفرح أو يتأثر لغفلته..فحواء ذوالنورين لم تعترض على كلامه بأن تكون بينهما علاقة أو أن تكون عشيقته وإنما ردت على سبب عدم رضا زوجته إيفا على مساعدتها..لكن ما معنى اللقاء في دمشق وفلورنسا..متى سافرت هي إلى دمشق وإلى فلورنسا..؟ هو لا يعلم أي شيء عن ذلك..! ما الذي تفعله هناك..؟ ومتى كان ذلك..؟ ولماذا لم تخبره..؟ لكن متى..متى..؟..هي دائما موجودة في البيت..؟ أحس نفسه وكأنه يعيش مع امرأة أخرى غير إيفا التي يعرفها..لكن عليه أن يتماسك ما يستطيع..كان ما سمعه عن لقاء هاتين المرأتين في دمشق ثم فلورنسا صدمة حقيقية..أحس أنه فقد بسببها رغبته الرومانسية بهذه المرأة المثيرة الجالسة أمامه..بل أراد أن ينتقم لغفلته..لذلك تماسك نفسياً، وخطط لإستدراجها في الكلام كي يحصل على أكبر قدر من المعلومات.. فسألها بهدوء:

- هل كانت دمشق مكان لقائكما الأول..أم بيروت أيضا....
- لا.. دمشق..لقائي بها كان صدفة في فندق الشام..في المصعد..حيث توقف بنا..وكانت هي معي.. وتعارفنا هناك..
- متى كان ذلك بالضبط..؟ أفي سفرتها الأخيرة إلى هناك..؟ لأنها تسافر إلى هناك دائما..

كان يكذب..وهو يعرف أنه يكذب لكنه أراد أن يستدرجها بالإدعاء بمعرفته بسفر زوجته..أجابت حواء ذوالنورين دون أن تنتبه لاستدراجها:

- كان هذا قبل شهر تقريبا..أعتقد أنها كانت قد جاءت إلى صديقتها حواء

دمشقية التي كانت قد أقدمت على الانتحار..

- حواء دمشقية..؟ صديقة هذا الفتى الأرعن..؟
- نعم..لقد رأيتهما في المطار معاً..في الليلة التي سافرت أنا فيها إلى فلورنسا..
- آها..لكن إيفا جاءتك إلى فلورنسا..هل كانت وحدها أم مع حواء دمشقية..؟
- لا.لا. كانت وحدها..أنا لا أعرف كيف أشكرها..كنت مترددة..وخائفة.. فجاءت بنفسها إلى فلورنسا..ثم رافقتني إلى باريس...لذلك استغرب أن تشك..ولماذا تشك..؟

صمت آدم سميث للحظات..كان يوازن مابين الاسترسال في تتبع سفر زوجته، أم ينقض على هذه الأنثى المثيرة التي تجلس أمامه والتي تدلت ثمرتها أمامه:

- لأني بصراحة معجب بك..وهي تعرف ذلك..

ارتبكت حواء ذوالنورين من مكاشفته لها بهذا الوضوح..لمح هو ارتباكها وغرورها الأنثوي فواصل:

- نعم..أنا معجب بك جداً..معجب جدا..بشخصيتك..برقتك..وأنوثتك..حتى أني صرت لا أستطيع أن أتصور أنك ستغادرين البيت..لذلك تحدثت مع المحامي بأن يكون وضعك على أفضل ما يكون..لكنه درس وضعك من كل الجوانب..وليس أمامنا سوى الحل الذي اقترحه بأن تكون إقامتك على الشركة من خلال عقد عمل ..
- وإيفا..؟

سألت بشك في شيء من التواطؤ..فقال لها حاسما الأمر:

- لا نخبرها بأي شيء..سأقول لها بأنك انتقلت الى معسكر للاجئين..
- والشركة..؟!
- أية شركة..سوف تنتقلين بعد قليل لشقة تابعة للشركة..مجهزة بكل شيء..ولن تكون لديك أية علاقة بالشركة..فقط من أجل الحصول لك على إقامة.. لمدة سنتين أول الأمر ثم لثلاث في ما بعد..لأن العقد سيكون لخمس سنوات..
- هل هذا يعني أني لن أراها ثانية..؟

- لا..أكيد سترينها..لكن ليس الآن..على الأقل لأسبوع أو أسبوعين..سأرتب أنا الأمر..
- أنا خائفة..
- لا تخافي

كانت حواء ذوالنورين مستسلمة لقدرها الذي يدور بها مثل الدوامة..بينما تأججت في نفس آدم سميث روح انتقام خفي..وصار مليئا بغضب مكتوم ضد زوجته..فجأة نهض عن مكتبه واقفا..واتجه نحو باب المكتب ملتفتا إليها..وجدها مثل بقرة مستسلمة للذبح..تنظر إليه بتوسل..فقد صار منقذها..ووجودها في باريس مرتبط به..أحست أنها أمام هاوية غامضة.سمعته يقول لها:

- لا تخافي..أنا موجود..

ثم خرج متجها إلى مكتب المحامي ليعد لها عقد عمل ولينجز معاملة إقامتها في باريس ونقلها إلى الشقة التابعة للشركة.

* * *

ما أن أغلق آدم سميث باب المكتب الزجاجي حتى تفجرت الأسئلة في أعماق حواء ذوالنورين..توترت ملامح وجهها..وبدأت حمم الأسئلة تتطاير في أعماقها..كادت تصرخ وهي في المكتب، وكأنها ليست نلك المرأة الوديعة المسالمة والمستسلمة لإرادة هذا الرجل المتهيج مثل ثور في زريبة تنتظره فيها بقرة للسفاد..كانت تسمع نفسها تصرخ بالأسئلة:" لماذا لم أرفض مقترحه..؟ كيف أعمل كل هذا من وراء ظهر صديقتي إيفا..؟ أعرف ما يريده مني..أعرف أنه يريدني محظية له..لكني لست سهلة ومبتذلة إلى هذه الدرجة التي يتصورني فيها..لا..لا.. تف عليك يا حواء..أبعد كل هذه العذابات يأتي من يريد أن يمتلكك من خلال إقامة في باريس..؟ أأنت في حاجة إلى ذلك..؟ نعم.نعم..أنا هربت من العراق..من الجحيم..لكني لست مضطرة إلى أن أتحول إلى محظية لشهريار معاصر يحاول أن يستغل الوضع الذي أنا فيه..!!..سأغادر باريس إلى أي بلد آخر..بل يمكنني أن أغادر إلى أي بلد عربي يقبل تواجد العراقيين على أراضيه بدون إعاقة..بلد بعيد عن مشاكل العراق والعراقيين.. يمكنني أن أسافر إلى لبنان..لا.لا..لبنان فيها عراقيون أيضا..بل ربما إلى تونس..أو

الجزائر..لا.لا..ربما إلى المغرب..نعم..سأسافر إلى بلد عربي..أو سأحاول الرجوع إلى إيطاليا..أو أسافر من هنا إلى أي بلد..ماذا جرى لك ياحواء..؟ لماذا كنت ساكتة وهو يدير لعبته بشكل مفضوح..؟كيف لم تدافعي عن صداقتك مع إيفا..زوجته..؟ لماذا تركته يدغدغ مشاعرك الأنثوية بالحديث عن غيرتها الخفية منك..؟...لكن لماذا شحب وجهه حينما حدثته عن لقائك الأول بإيفا في دمشق..ثم في فلورنسا..؟لم يكن يستطع أن يخفي إرتباكه..هل هو يشك بها..أو بكلامي..؟..كيف..كيف..كيف كنت مسلوبة الإرادة ياحواء..؟ يجب..يجب أن تتماسكي..وترفضي التوقيع على أي عقد..قولي له بأنك لا تستطيعين ألاّ تخبري زوجته إيفا..فهي صديقتك الوحيدة.. وأنت لا تخونين الصداقة.. وإنك مستعدة لتحمل كل مصاعب حياة اللاجئين..وفي أسوأ الأحوال تغادرين باريس..يجب أن تكوني قوية يا حواء..لم يعد لديك ما تخسرينه..لقد خسرت كل شيء منذ زمان..كل الخسارات المقبلة لا تعني شيئا.. أنت صرت لن تحسي بطعم الفوز ولا بألم الخسارة والفقدان.. أن تبحثي سوى عن الأمان الداخلي..فالعالم لا يعنيك.. فلم هذا الابتذال من أجل البقاء في باريس وأنت تعرفين أن كل المدن تتشابه بالنسبة لك منذ أن فقدت ابنك..!! لا.لا.لا توقعي على العقد فأنت لا تعرفين الفرنسية..وربما ستوقعين على بنود ستهدد وجودك في هذه البلاد إذا ما لم تطاوعيه..ارفضي..وقولي لا..وأذهبي لصديقتك إيفا..هي الوحيدة التي يمكنها أن تمنحك الأمان..نعم..لا توقعي.."..

كانت حواء ذوالنورين تحدّث نفسها داخليا بحرارة..وكانت تبدو كذلك للناظر منشغلة في تأملاتها الداخلية..كان التوتر العصبي واضحا على وجهها. كانت لا تشعر بما يدور حولها..فجأة..فُتح الباب ودخل آدم سميث ومعه محامي الشركة الذي كان يحمل بيده أوراقاً خمنت أنه العقد الذي حدثها عنه..نظرت إليهما نظرة خوف وترقب وكأنها لبوة محاصرة..فوجئ آدم سميث بحالتها تلك.. فلم تكن بهذا الخوف والتوتر حينما تركها قبل دقائق..كانت منستسلمة ووديعة..لكنها بدت له الآن مستفزة ومتوترة..ابتسم لها وقال:

- لقد أعددنا لك العقد..وسيقوم الأستاذ بكافة الإجراءات الرسمية..ليس عليك سوى أن توقعي العقد..

مد يده في جيبه وأخرج حلقة مع بعض المفاتيح ووضعها على طاولة المكتب

وهو يبتسم بشكل غامض:

- وهذه مفاتيح الشقة..

نظرت إليها بتحفز وقالت بصوت بالكاد يُسمع:

- لن أوقع على أي شيء..

هيمن صمت ثقيل ومفاجئ على الجميع..لم يستطع أي من الرجلين أن يقول شيئا..نظرا لبعضهما نظرات مليئة بكلام أخرس..مرت لحظات من الصمت ثقيلة.. قطعها آدم سميث، الذي حاول ألاّ ينفجر غاضباً، بالسؤال بنبرة غضب مكتوم:

- لماذا..؟ لماذا لا تريدين أن توقعي..؟ هل حصل شيء..؟

لم تنظر خواء ذوالنورين إلى أي منهما وإنما كانت تنظر إلى المفاتيح على طاولة المكتب نظرة فارغة وإن بدت للآخرين متوترة، وقالت بصوت خافت لكن فيه بعض العناد:

- لا أوقع..هكذا ببساطة..لا أريد..

نظر الرجلان إلى بعضهما نظرات مستغربة تعبر عن عجزهما لمعرفة ما يجري. التفت آدم سميث إليها وقال بنبرة فيها شيء من التوتر:

- لكن يمكنك أن توضحي لنا السبب في رفضك التوقيع على الأقل..ففي النهاية أنت من يقرر..

ظلت حواء ذوالنورين صامتة للحظات، كما استمرت في نظرتها للمفاتيح، ثم قالت بنفس النبرة الخافتة..لكن دون عناد:

- لأني رأيت فجر هذا اليوم رأيت حلما غريبا..إشارة من الغيب..لم أفهمه في حينها..بل نسيته..لكنني الآن، بل حينما ذهبت لإحضار العقد تذكرته..

- رأيت حلماً..إشارة من الغيب..ماذا تقولين.أي حلم..؟ وأية إشارة..؟

صاح آدم سميث بعصبية..نظرت إليه نظرة ساخنة وشاخصة..أحست بأعماقه ترتجف لها..

صمتت للحظات..ارتجفت ملامحها وكأن ذكرها لابنها أثر عليها..كانا يتوقعان بأنها ستنهار باكية لكنها لم تكن..كانا ينتظران أن تكمل..أحسا وكأنهما ماخوذان بهذا الحلم الغريب..واصلت هي بالنبرة نفسها:

- كانت هناك صور..لكنها في الوقت نفسه ليست صورا..وكأنها شاشة.إذ كانت

الوجوه تنبض بالحياة..كنت جائعة.. رأيت بيضتين وقطعة من المقانق.. أخذت البيضتين بكفي..لكن كانت لدي أيضاً رغبة في أن أقضم شيئا من قطعة المقانق..إمسكت بها بصعوبة..وحينما رفعت كفي التي فيها البيضتان وقطعة المقانق..صاح ابني وهو في الصورة..لا.لا تأكلي..وصحوت..لا أعرف.. لكن صرخة ابني وهو في الصورة النابضة: لا..لاتأكلي..لا تزال ترن في أذني..وهي إشارة من الغيب بأن لا أوقع العقد..هكذا ببساطة لن أوقع على شيء..ولا أريد أي شيء..

كان الجميع وكأنهم في لحظة خارج سياق عالم التجارة والإدارة..عالم الأساطير والأحلام..إلا أن ذلك لم يستمر سوى لحظات..حيث انتبه آدم سميث إلى أن سيلا عارماً بدأ ينسف جرف ساحله الهش، فقال محاولاً إقناعها بنبرة فيها رجاء ويأس خفي:

- لكن لا حل أمامك غير أن توقعي على العقد..ما علاقة هذا الحلم بالتوقيع ..؟

فجأة نظرت إليه بتركيز شديد وقالت:

- ألم تفهم الإشارة يا أستاذ آدم..؟..ابني ينهاني عن فعل ذلك..ولن أوقع مهما كانت النتائج..

كان المحامي عاجزا عن قول شيئ وقد ولد في أعماقه إحساس بالتعاطف مع هذه المرأة والإعجاب بحدسها الأنثوي العميق..فقد فسر حلمها بشكل مباشر بأن البيضتين و قطعة المقانق معاً يشكلان عضو الرجل وخصيتيه..إنها أرادت أن تمسك بهما وتقضمهما..وهو ما كان ينتظرها لو وقعت على العقد..وسأل نفسه إن كانت فعلا قد رأت مثل هذا الحلم أم أنها اخترعته الآن..وفي كلتا الحالتين أحس بالرضا عن نفسه لسرعة تفسيره الفرويدي لحلم هذه المرأة المثيرة..إنه أمام امرأة متميزة حقاً.. واستيقظت في أعماقه رغبة في أن ينقذها من الورطة التي تنتظرها لو وقعت على العقد..لكنه لم يستطع أن يعلن عن رغبته في مساعدتها أمام مديره..فظل صامتاً.. فجأة سمع مديره وصديقه آدم سميث وهو يقول له بنبرة عصبية قليلاً ويائسة:

- لماذا أنت صامت..؟ قل شيئاً..وضح لها صعوبة وضعها القانوني هنا في

فرنسا..مع جواز مزور..! بين لها الفوائد التي ستحصل عليها من توقيعها على عقد العمل الذي يحلم به مئات الألوف من الناس..قل شيئاً..

أحس المحامي بالحرج لكنه لم يستطع أن يرفض طلب مديره، فتقدم قليلا منها وتنحنح مع نفسه وقال لها بهدوء:

- مدام حواء..أنت دخلت فرنسا بجواز سفر مزور كما فهمت..وأن هذا الأمر يُعد جريمة قانونية لو تم الإمساك بك.. وهذا ربما لا يكون مشكلة لو أنك قدمت طلباً للجوء السياسي..حيث ستنقلين عنوة إلى الأماكن التي تخصصها الجهات الرسمية..وهي عادة أماكن وبيوت خارج العاصمة..أو

استمر المحامي يشرح لها تفاصيل عملية اللجوء مبالغاً في وصف الصعوبات التي ستواجهها..ومبيناً لها كيف أنه سيستخرج لها الوثائق الضرورية اللازمة..وكيف أنها بعد سنوات يمكنها الحصول على الجنسية الفرنسية..ظل يتحدث ويتحدث.. لكن حواء ذوالنورين كانت وكأنها غير معنية بالكلام..وحينما لم يجد المحامي ما يقول..نظرت إليه بأدب وقالت:

- أنا أشكرك جدا لتوضيحك..لكن أرجو فهم موقفي..أنا لا أستطيع التوقيع الآن..لقد رأيت حلماً فيه إشارة لي بأن لا أوقع..دعني أفكر..أنا لدي جواز رسمي وحقيقي..ولم يشك أحد بي..فقد خرجت به من سوريا ودخلت إيطاليا ولم يشك بي أحد..ولا أعتقد أن الفرنسيين سوف يكتشفون ذلك.. ثم أني أفكر أن لا أبقى في فرنسا..ربما سأغادرها راجعة إلى إيطاليا..أو سأسافر إلى أي بلد عربي..
- ماذا..؟..

صاح آدم سميث بدهشة مشوبة بغضب..نظرت هي إليه بهدوء وقالت بتسامح:

- نعم أستاذ آدم..أنا لا أريد أن أسبب إحراجاً لأي كان..سأبقى بعض الوقت هنا في باريس..وسأفكر في الوضع..ربما سأرغب في البقاء وحينها لن أجد أفضل من عرضك الكريم..أو سأغادر باريس..ربما حينها سأتجه إلى أحد البلدان العربية..لا أريد أن أثقل عليكم.. سأحاول إستئجار غرفة في فندق أو أن أجد شقة صغيرة..

تدفقت الحيوية في روح آدم سميث وتألق وجهه وكأنه قبض على شعاع من الأمل..وقال :

- أنت لا تثقلين على أحد..وفي كل الأحوال..سواء وقعت على عقد العمل أم لا..فشقة الضيوف موجودة..ويمكنك السكن فيها إلى أي وقت تشائين.. ويمكنك من الآن أن تعتبريها شقتك..هذه هي المفاتيح على الطاولة.. لتكن عندك.. لدينا نسخة أخرى منها في الشركة..سآخذك الآن إليها لترينها بنفسك..هي في منطقة حيوية..قريبة من الشانزالزيه..مؤثثة ..لا تحتاجين فيها سوى ثيابك الخاصة..

لم يجد الرجلان ما يقولان أكثر..التفت آدم سميث لمحاميه وهو يقول له:

- إذن..فلننتظر ما ستقرره مدام حواء..هيا بنا الآن إلى مكتبك..

غادرا المكتب..عند الباب انتبه آدم سميث إلى سكرتيرته التي كانت تنظر نحوهما محاولة أن تقرأ ما فيها من أسرار..بينما ظلت حواء ذوالنورين في المكتب..كانت تشعر بأنها قوية..واستغربت من نفسها لهذه القوة التي تفجرت في أعماقها فجأة.. وأحست بمتعة أن تقول: لا.

الفصل الثامن عشر

الملاك الحارس

أفاقت إيفا سميث من غيبوبتها. وجدت نفسها في سريرها بغرفة النوم..وهي في ثوب نوم خفيف..رأت بياض السقف، والثريا الكريستالية التي تتدلى من السقف، والمصابيح الصغيرة المتلألئة. في اللحظات الأولى ظنت أنها تحلم..ثمة دوران داخل جمجمتها..كل شيء يدور.. المصابيح داخل الثريا تدور..ثم استقرت الأشياء..مالت برأسها يساراً فرأت أمها جالسة بقلق إلى جانب سريرها..أدركت بأن أمها هي التي جاءت بها إلى السرير وهي التي ألبستها البيجاما..ابتسمت أمها لها ابتسامة مغتصبة لم تمح القلق المشع من عينيها والمرتسم على ملامحها..حاولت هي أن تبتسم لها أيضاً..لكنها أحست بتشنج في فمها، فابتسمت بعينيها..أحست بالأمان لوجود أمها بالقرب منها..سمعت أمها تقول لها بعتاب وغضب مكتوم:

- حمد الله على سلامتك..يا مجنونة..ماذا فعلت بنفسك..؟ ولِمَ..؟

أرادت إيفا سميث أن تجيب لكن فمها كان متشنجا..وشفتاها لم تطاوعاها لتشكيل الكلمات، فردت أمها بسرعة:

- لا عليك..لا تجهدي نفسك الآن بالشرح..المهم سلامتك..سنتحدث عن ذلك في ما بعد..المهم الآن أن تقومي بالسلامة..

شعرت إيفا سميث بدفق من مشاعر العرفان نحو أمها إذ أعفتها من الشرح عن سبب إقدامها على الانتحار..بعد لحظات حاولت إيفا أن تجلس على السرير فساعدتها أمها واضعة الوسادة خلف ظهرها..متكئة على مسند السرير..ثم غادرت الأم الغرفة.

لم تفهم إيفا سميث لماذا خرجت..إلا أن الأم سرعان ما عادت وهي تحمل

كأساً مليئة بعصير البرتقال الطازج.. تناولت إيفا كأس العصير وأخذت ترتشف منه رشفات كبيرة..إلى أن أفرغت الكأس..كانت الأم تنظر إليها برضا..وبدأ تأثير العصير السريع عليها إذ بدأ وهج الحياة يعود إليها..واستعادت صحوها الذهني.. ظلتا صامتتين.

أحست إيفا سميث أنها تريد أن تبوح لأمها أو على الأقل تفسر لها شيئا عما جرى..لكنها في الوقت نفسه كانت تريد أن تبقي ذلك سراً..لذلك سرعان ما وجدت مخرجا من حالتها تلك حينما سألت أمها بنبرة خافتة وعاجزة:

- هل اتصلت بآدم..؟
- لا..أنت قلت لي بأن لا أتصل به..
- وهو..ألم يتصل ..؟
- لا..لم يتصل..

خمنت الأم بأن ابنتها تخفي شيئاً..وأنها ربما تشاجرت مع زوجها إلى الدرجة التي دفعها للإقدام على الانتحار..وربما لصديقتها حواء ذوالنورين علاقة ما بالموضوع.. نظرت الأم إليها نظرات فاحصة ثم سألتها بحنان:

- مالك يا ابنتي..؟ ألقي الحجر الثقيل الذي يجثم على قلبك..فضفضي لي أنا أمك..ما بك..؟
- ما بي شيء يا أمي..

نظرت الأم إليها نظرات مؤنبة وقالت لها مستفسرة بنبرة عصبية مكتومة:

- هل حدث بينك وبين زوجك خلاف..؟
- لا..

صمتت الأم وهي تنظر إليها متفحصة وكأنها تريد التأكد من مصداقية جواب ابنتها، إلا أن إيفا لم تترك لها مجالاً، إذ قالت بنبرة حاسمة كان وقعها على الأم صادماً:

- لكني أريد الانفصال عنه..

توترت ملامح الأم وتأجج الغضب في نظراتها..لم تجب مباشرة..صمتت لحظات..كانت إيفا تنتظر ردة فعلها..ولما تأخرت الأم في أن تقول شيئاً، واصلت إيفا قائلة:

- لكني لا أستطيع أن أصدم الأطفال..وأحرمهم من أبيهم..

فقالت الأم وكأنها تشن هجوماً، فهي لا تستطيع أن ترى خراب عائلة ابنتها:

- ولماذا تريدين الانفصال..؟ماذا حدث كي تقدمي على الانتحار، ثم على التفكير بالانفصال..؟ هل ضبطته يخونك..؟

لم تستطع إيفا سميث أن تشرح لأمها تفاصيل ما جرى..كانت تعرف بأن أمها لديها تصوراتها غير المتعاطفة مع زوجها..وأنها تراه هو السبب لما قامت هي به.. لذلك وجدت من غير الانصاف أن لا تدافع عنه، لكنها في الوقت نفسه لا تريد أن تفضح نفسها، فقالت لها:

- ماما..آدم ليس مذنباً..وهو لا يعلم بأني أقدمت على محاولة انتحار مجنونة.. كما لا يعرف أيضاً بأني أريد الانفصال.. وليست لديه أية فكرة عما يدور في رأسي..إلى جانب أننا لم نتشاجر أبداً..لكني لم أعد أستطيع الاستمرار بالعيش معه..وفي الوقت نفسه خائفة من العيش وحيدة..

كانت الأم تحدق في وجه ابنتها وتلتهم كل كلمة تنطق بها، وتحللها سريعا مع نفسها، محاولة أن تعرف ما تخبئه هذه الكلمات، لكنها ظلت عاجزة عن فهم رغبة ابنتها وأسبابها..ولكي تفهم ما جرى ويجري قبل وقوع الكارثة العائلية، غيرت من أسلوب حديثها مع ابنتها ذات الشخصية القوية، فقالت لها بهدوء وحنان وتعاطف أقرب للنصيحة:

- ما بك يا ابنتي..؟ لماذا تدمرين حياتك بيديك..؟ آلاف النساء يحسدونك على حياتك العائلية..على مركز زوجك.. وأبنائك..وعلاقتكما..فما الذي جرى..خاصة وأنت تقولين أنه ليس السبب..؟ أنت تدمرين حياتك يا ابنتي.. إعقلي يا ابنتي..وحدثيني فربما يمكنني أن أساعدك..!!..فضفضي لأمك يا ابنتي..

نظرت إيفا سميث لحظات إلى وجه أمها وكأنها تزن الموقف لتقرر إنْ تبوحْ لها بما جرى أم لا..ثم قالت بنبرة حازمة وإنْ كانت خائفة:

- لا تجبريني يا أمي..لست مضطرة إلى تقديم أي إيضاح عن نفسي وعما جرى، طالما أنني لم أؤذِ أحداً ..

- كيف لا تؤذين أحداً..؟ إنك تؤذين عائلتك..زوجك وأطفالك..وتؤذينني

أنا أمك..؟

أحست أن أمها محقة في كلامها، وشعرت بتأنيب ضمير خفيف، لاسيما حينما ذكرت لها الأطفال وزوجها..فقالت لأمها بنبرة فيها رجاء خفي:

- ستأتي اللحظة التي أوضح لك فيها كل شيء..لكن ليس الآن يا أمي..

نظرت أمها إليها بقلق، لكنها حاولت أن تسيطر على انفعالاتها، وقالت باستياء مكتوم:

- وفكرة الإنفصال المجنونة..؟

نظرت إيفا سميث إلى نقطة ما في الدار المقابل بتركيز ..وقالت:

- أريد أن أعيش وحدي..دون أن أشعر بالوحدة..صرت أخاف من التواصل مع الآخرين وفي الوقت نفسه أخاف أن أكون وحيدة..

لاإراديا نظرت الأم إلى الجهة التي ركزت عليها ابنتها نظرتها، فلم تر شيئا مميزاً..خافت قليلاً من حالة ابنتها النفسية..أدركت أن ابنتها تنوء تحت حمل ألغاز وأسرار كبيرة..ومخيفة.. لذلك وجدت نفسها تقول لها بنبرة هادئة:

- اسمعيني يا ابنتي..أحس أنك لم تقدمي على ما أقدمت عليه من تهور وجنون إلا لسبب قوي جداً..فأنت القوية والعاقلة..وحينما تحاولين الانتحار فهذا يعني أن هناك سببا هائلا ومخيفا..وبما أن زوجك كما تقولين لا علاقة له بالأمر..فمن الأفضل أن لا تحدثيني..لا أريد أن أعرف..فالمعرفة ستجلب لي الألم.. أريد أن أبقى في أوهامي عن عائلة ابنتي المثالية والسعيدة.. فماذا سيحصل لو انقشعت أوهامي..؟ حينها سأسقط في هاوية اليأس..وأنا لا طاقة لي على اليأس..ثم أني على ثقة أنك ستراجعين نفسك..وتقدمين تفسيراتك لذاتك وعقلك وضميرك..وأعتقد أنك ستفعلين الصواب..

نظرت إيفا سميث إلى أمها بعينين غائمتين، مليئتين بالدهشة، وكأنها تتعرف إلى أمها لأول مرة، بل وشعرت بتأنيب ضمير، إذ كيف لها أن تعذب هذه المرأة.. فهي تحتاجها..تحتاج حنانها وتحتاج وجودها إلى جانبها بكل ما أوتيت من قوة.. وبلا شعور أخذت كف أمها وقبلتها، بينما انحنت الأم وقبلتها من رأسها، وظلتا هكذا للحظات إلى أن قطع صوت الموبايل الموجود في الصالة عليهما احتضانهما.. فافترقتا.. قالت الأم:

- إنه هاتفك..أكيد أنه زوجك.. ماذا أقول له إذا ما كان هو المتصل..؟
- لا تقولي شيئاً الآن..أريد أن أستعيد أنفاسي..وتفكيري..كي أعرف كيف أتصرف معه..
- وإذا أراد أن يتحدث معك..ماذا أقول له..؟
- قولي له إن ضرسي يؤلمني..وقد عدت من عند الطبيب..فدخلت أنام قليلا..
- يا ابنتي..هل الضرس يؤدي إلى كل هذه الآثار..؟في أي زمان نحن وفي أي مكان..؟ هل نحن في الضيعة..؟ هذا عذر مفضوح..هل ضرسك يمنعك من أن تردي على زوجك..؟ يفضل أن تجيبي عليه بنفسك..
- لا أريد أن أتحدث معه..لا أستطيع ..

نظرت أمها إليها وكأنها أدركت بأن ابنتها قد أخطأت بحق زوجها وهي تتعذب بشكل هائل بل وقد أقدمت على الانتحار..لكن أيعقل ذلك..؟ ومع من انزلقت..؟ فجأة تذكرت حالة ابنتها عصر اليوم الفائت حيث كانت متحمسة ومزاجها رائق وهي تعد الوليمة لصديقتها حواء دمشقية وصاحبها..وكيف تعكر مزاجها حينما اتصلت صديقتها لتخبرها بأنهم ربما لا يستطيعون المجيء..وكيف استعدت بكامل أناقتها لتلك الوليمة..علما أن صديقتها حواء دمشقية ليست ضيفة فهي من أصدقاء العائلة.. لقد انتبهت لمزاج ابنتها الغريب ..لكن أمن المعقول أن ابنتها العاقلة قد تورطت في علاقة آثمة..؟ لا.لا.هذا غير معقول..ولا تستطيع تصديقه..

ظل الهاتف النقال يرن دون أن يقترب منه أحد إلى أن توقف الرنين..حاولت إيفا النهوض عن السرير..نظرت أمها إليها.. ابتسمت هي لأمها بإرتباك وقالت:

- حان موعد الأطفال..
- أنا سأذهب إليهم..ارتاحي أنت..المهم أن تستعيدي صحتك بسرعة..قبل أن يأتي زوجك ويراك بهذه الحالة..ولا تقلقي فقد أعددت الغذاء للأطفال..

غادرت الأم الغرفة..وبعد لحظات سمعت إيفا سميث باب الشقة وهو يغلق. ظلت في سريرها..لكن ما أن صارت وحدها حتى استيقظت ذاكرتها مستعيدة كل ما جرى لها هذا النهار.. لكنها لا تريد أن تقلق نفسها الآن بالأسئلة، فقد تعبت بما فيه الكفاية حتى نسيت نفسها، وقيمها، وعائلتها..وأمها المسكينة.. لقد كانت على شفا خطوة وثوان من الموت..لقد أدركت الآن أن البشر يستمدون شوقهم المقلق

إلى الأبدية والحياة الأخرى الهانئة من حبهم العميق لهذه الحياة..

* * *

حاولت إيفا سميث أن تبعد نفسها عن التفكير، لكنها لم تستطع أن تقاوم سيل الصور والمتدفقة مثل حمم بركان هاج وتفجر..خافت من نفسها..تذكرت جملة أمها حينما قالت لها: أريد أن أبقى في أوهامي..وهي أيضاً تريد أن تبقى في أوهامها.. لكنها تخاف هذا الظلام الممتد في أعماقها..تحتاج لشمعة..شمعة صغيرة..شمعة واحدة فقط..ستكتفي بها لتنير لها وجهها وما يحيطها على الأقل..

بهدوء مدت ساقيها خارج السرير واستندت على حافته، ونهضت..كادت تسقط عندما خطت أولى خطواتها..كانت ترتجف..أحست أن ساقيها بالكاد تحملانها.. اتكأت على الحائط القريب من الباب..وشيئا فشيئا خرجت إلى الصالة. وبخطوات بطيئة وحذرة مشت إلى المطبخ..فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة ماء باردة..صبت لنفسها..وشربت كأس الماء إلى آخره..أحست بالانتعاش الداخلي..أعدت لنفسها كوباً من قهوة النسكافيه.. رشفت منه قليلاً..أحست بالنشاط واليقظة يدبان في كيانها ورأسها..أخذت كوب القهوة واتجهت إلى الصالة ثانية..

جلست على أول كرسي حول المائدة..الكرسي الذي كان زوجها يجلس عليه مساء أمس..شعرت وكأنها تستعيد وضعها الطبيعي.. لكنها كانت تحس وكأنها ولدت من جديد..وأن هناك ما يشبه الإنقلاب قد وقع في نفسيتها ومزاجها..فبدلاً من أن تنتقم من زوجها وتؤنبه وتطلب الطلاق منه أحست أنها مذنبة أمامه..وأنها تحبه.. وستكون وفية له..صحيح أنه حساس جداً..وقد تستحوذ عليه حالة خوف من جرح مشاعر الآخرين..مما يدفعه للإنكماش على ذاته، والصمت في الكثير من الأحيان.. بل ويكتم غضبه..ويعيش في دنيا خاصة به.. حيث تخفي نظراته اللامبالية أحياناً الكثير من الكلام الأخرس..بحيث كثيرا ما لا تستطيع أن تحصل منه على نتيجة واضحة..إذ هو يفضل أحياناً الاختباء وراء الألفاظ..بحيث لا تعرف هل هو يقول نعم أو لا..؟!بل كثيرا ما يكون مرحاً من أجل إخفاء مشاعره..لكنه زوج محب لها.. هي تعرف أنه يحبها جداً..على الرغم من أنه نادراً ما يقول لها ذلك ..وهو يعبد أطفاله..ويحب عمله جداً..لكنها أيضا تحس أحيانا أنه ليس هنا..ليس معها..وكأنه يخفي شيئاً..هل هو يخفي شيئاً حقاً..؟ أيمكن أن تكون له عشيقة..؟ ومن تكون

يا تُرى..؟..آه كم تتمنى لو كانت لديه عشيقة، فعلى الأقل ستكون مرتاحة الضمير وكأنها لم تخنه..وإنما قامت بمثل ما قام هو..لا أكثر..هي خانته مرات ومرات لكنها خانته معه..أي أنها كانت معه وكانت تحلم بغيره..لكن ماذا عليها أن تفعل..؟

انتبهت إلى أن كوبها فارغ..نهضت بهدوء..اتجهت إلى المطبخ وأعدت لنفسها كوباً آخر من القهوة صبت عليه شيئاً من الحليب هذه المرة..عادت إلى الصالة.. جلست على الكرسي نفسه..وتدفقت الأسئلة من جديد..ماذا عليها أن تفعل..؟ إنها لا تستطيع نسيان ما جرى..لا تستطيع نسيان كل هذا الذل..هي لا تريد أن تموت.. بل الآن تنظر إلى ما قامت به لم يكن سوى حماقة هائلة..وكذا الأمر مع قرارها بطلب الطلاق والانفصال عن زوجها..كانت لحظة يأس وضعف..نعم..عليها أن تعيد ترتيب الأشياء..أن تلغي كل ما له علاقة بآدم سانتشو ماريا زاباتو..وبحواء دمشقية..أن تكون هادئة..وتنتبه لعائلتها..أن تجلس في الصف الأخير..كي يمكنها رؤية الجميع.. تتأملهم..تراهم من الخلف..من حيث لا يرون أنفسهم..لكن من قال إنه ليس هناك من لا يراقبها..ويجلس خلف صفها..يراها من حيث لا تراه..؟ أرعبتها فكرة وجود شخص ما يراقبها.. أيراقبها زوجها دون أن تدرك ذلك..؟ ..

في تلك اللحظات رن هاتفها النقال..نهضت عن الكرسي واتجهت إلى الطاولة الصغيرة قرب الصوفا الجلدية..نظرت إلى الاسم المضيء على الشاشة فعرفت أن المتصل هي أمها، رفعت الهاتف وأجابتها:

- نعم ماما..

أخبرتها أمها بأنها ستأخذ الأطفال معها إلى مطعم الوجبات السريعة في المول الكبير، وأنها ستأتي بهم بعد ساعة ونصف أو ساعتين ..لذلك عليها هي أن تتناول شيئا كي تستعيد حيويتها وتعمل معدتها بشكل طبيعي..وحين أبدت إيفا سميث عدم رغبتها في تناول الطعام، ألحت عليها أمها بأن تتناول شيئاً من شوربة الخضار التي أعدتها..فوعدتها بأن تقوم بذلك.

أخذت الهاتف معها ورجعت إلى حيث كانت جالسة تشرب النسكافيه بالحليب.. وقبل أن تجلس رن الهاتف وهو بيدها، فنظرت إلى الشاشة فرأت اسم صديقتها حواء دمشقية..أحست بالمفاجأة..لم تجب..جلست على كرسيها..توقف رنين الهاتف..وضعت الهاتف على الطاولة..وأخذت تنظر إليه بخوف.. وترقب.ارتشفت شيئاً من قهوتها..

فكرت مع نفسها عن سبب اتصال حواء دمشقية بها..أتراها عرفت شيئاً مما جرى مساء أمس وصباح هذا اليوم..؟ أترى ذاك النذل زباتو قد أخبرها ليفضحها وليحط من قدرها أمامها، وهي التي تعتبرها ملاكها الحارس..؟.

رن الهاتف مرة أخرى..ظل يرن دون أن تمد يدها..وقبل أن يكف عن الرنين مدت يدها إليه وضغطت على الزر الأخضر، فجاء صوت حواء دمشقية منهاراً.. ولم يكن أمام إيفا سميث إلا أن تتلبس دورها المعتاد مع حواء دمشقية..دور الملاك الحارس..والراهبة التي تتقبل اعترافاتها..ففهمت منها بأنها في حالة نفسية صعبة جداً..هي تريد أخبار خطيبها وحبيبها آدم المفتي بأن جنينها ليس منه..وإنما من عشيق آخر..لكن ذلك سيحطم حياته..لاسيما وهو قد وافق على الزواج منها حينما أخبرته بأنها حامل..ولم يطرأ في ذهنه أن يسألها إنْ كان الجنين منه أم لا..؟ ورغم أنها وافقت على الزواج..لكنها تتعذب بأنها لا تستطيع الفكاك من عشيقها آدم سانتشو ماريا زاباتو.. ولا تريد أن تفقده أيضاً..هي تريد الاحتفاظ بالإثنين.. تريد الاحتفاظ بآدم المفتي كزوج تحبه جداً..وتريد أن تقضي حياتها معه..وتريد آدم زباتو عشيقا دائماً..وهي في حيرة..لذا ستقدم على خطوة جنونية وتخبر خطيبها وحبيبها آدم المفتي بكل شيء..وليكن ما يكون..لكن صرخة مفاجئة انطلقت من فم إيفا سميث وقالت لها بصوت نشيط بما لا يتلائم مع حالتها التي هي فيها، بنبرة تحذير أمر لكن بصوت خافت عليل:

- إياك أن تقولي له شيئاً..هل فهمت..إياك أن تخبريه بأن الجنين ليس منه.. وإن لديك عشيقاً..ستخسرين حينها كل شيء...ولا تحققين شيئاً..فلا هذا الفتى يقبلك لأنه رجل عاهر..وستخسرين حبيبك الذي لم تصدقي أنه وافق على الزواج منك..بل وإنك ستدمرين حياته بحقيقتك.. اسمعيني جيداً.. نحن البشر أرواح منسية..ومسكينة..ولا نستطيع تحمل الألم النفسي..يفضل أحيانا أن يعيش الإنسان مخدوعاً لكن في سلام على أن يعيش معذبا ومدمراً باسم الحقيقة..! ثم أنك ستضمنين لطفلك حياة كريمة مع رجل طيب..سيغدق عليه فيوضا من الحنان لاسيما وهو يشعر بالإبوة على كبر.. فحتى لو أخبرته وقبل بك على مضض..فأنه لن يقبل بطفلك ولا يعامله كمن من صلبه مهما كانت الأحوال..ماذا ..ماذا ِتقولين..؟ أقول لك إياك

أن تفعليها..لأنك ستخسرين كل شيء.. وعشيقك النذل هذا يريد الحصول على كل شيء دون أن يعطي أي شيء..إنه حصن مغلق..قلعة مسورة بخندق مائي آسن وعميق..لا يثق بأحد..ولا يمكن لأحد أن يثق به..اسمعيني..لا تتهوري..ولا تنطقي بأي حرف.. هل فهمتينني جيداً..؟ سنتواصل مساءً.. انتبهي لنفسك..واضبطي حالك.. وإياك أن تنطقي بأي حرف..

أغلقت الهاتف..أحست بتعب شديد من هذه المحادثة..بعد لحظات من الصمت..هدأت..استرجعت حالتها ونبرة صوتها وعصبيتها وهي تحدث صديقتها حواء دمشقية..بل واستغربت للنصيحة التي أسدتها لها..فكرت مع نفسها..بغرابة الكائن البشري..وبغرابة المرأة. ظلت جالسة على كرسيها..تنظر إلى نقطة مجهولة.. نقطة في هاوية أعماقها.

الفصـــل التاســع عشـــر

شـقـة في شـارع سانت دينيـس

حين خرجا من المكتب، كانا قد اتفقا بأن يؤجلا أمر التوقيع على العقد الآن، مع قبول عرض السكن في الشقة التابعة للشركة.. «فما دام لدى حواء ذوالنورين تأشيرة إتحادية لكل أوربا لمدة شهر قابل للتمديد مرتين، فهذا يعني بأن لديّ الوقت الكافي للتفكير بروية واقناعها.. لابد من اقناعها بتوقيع العقد»..هكذا فكر آدم سميث.

انطلقا بالسيارة نحو الشقة التي تقع في شارع (روي سانت دينيس). في الطريق إلى الشقة أخذ آدم سميث يعيد عليها فوائد توقيعها على العقد مرة أخرى، وكيف أنه يفعل ذلك من أجلها فقط.. فليس من السهل الحصول على عقد عمل حتى بالنسبة للفرنسيين والأجانب المتجنسين والذين ليست لديهم مشكلة الإقامة في فرنسا.. فكيف بأجنبي..!! بل ولم يصل إلا منذ أيام..؟! وعليها أن تقدر ذلك..

كان يحاول أن يرهبها بأفضاله غير المقبولة منها..أن يبين لها تضحياته المرفوضة من قبلها..والتي لم تستطع أن تتبين أهميتها وقيمتها حسبما كان هو يعتقد..وها هو يفيض بأفضاله عليها بمنحها شقة مفروشة مجانية..بينما كان حدس داخلي أشبه باليقين في داخلها يؤكد لها بأنه يسعى بكل ما لديه من ذكاء عنكبوتي مخاتل إلى أن يستدرجها إلى شبكته لتكون عشيقة سرية له..لذا غمرها شعور بالإشمئزاز منه.. وأدركت نذالته..فهو يعرف أنها صديقة زوجته قبل أن يتعرف هو عليها..وأن علاقتها بزوجته إيفا من التفاهم والعمق الذي لا يمكن للكلمات أن تجسده..فقد جاءت زوجته إيفا إلى فلورنسا خصيصياً لتعبرها إلى باريس من أجل أن تتجاوز خوفها الطبيعي من التنقل بجواز سفر مزور..برغم أن جواز السفر هذا قد تم تزويره بإتقان شديد لا يستطيع أحد أن يكتشفه إلا أجهزة المخابرات المختصة..فالذي أنجزه هو

ضابط في المخابرات السورية..لكن هذا الرجل الوسيم والغني الجالس جنبها، زوج صديقتها، يقودها الآن إلى شقة يحلم أن تكون وكراً لنزواته..وهو لن يستطيع أن يفهم بأنها لن تخون صديقتها..صحيح أنه رجل مثير.. وأنها متعطشة لإرواء ضمأ جسدها المتوتر..لكنها لا تريد ذلك معه. راودها شعور مزيج من الخوف والغضب والاشمئزاز.. شعرت أنها صارت مثل ذبابة وقعت في بيت عنبكوت..صحيح أنها لاتزال بعيدة عن قبضة العنكبوت..لكنها ضمن شبكته المميتة..عليها أن تقاوم وألاّ تسقط..ولأنها تعرف أن الرجال أغبياء..أطفال كبار..عقلهم لحظة استيقاظ غولة الشهوة يكمن في قضيبهم..لذلك عليها أن تروضه..أن لا تمانع وترفض بحزم وٍإنما تراوغ.. إلٰى أن تجد اللحظة الحاسمة للقفز من هذه الشبكة العنكبوتية.

- أنا مدمن كـلام..لذلك لا تستغربي مني إذا ما تحدثت كثيراً وفي مواضيع مختلفة خلال دقائق..لكني في الحقيقية أتحدث كثيرا لأني أصمت كثيراً..أو لأقل أنني أهرب من نفسي..فلا تحكمي على شخصيتي من خلال ثرثرتي..

لم يكن من السهل على حواء ذوالنورين أن تتماسك، إذ كان غضبها الداخلي واشمئزازها قد وصل مرحلة الغليان..لإختيارها هي بالذات كمشروع عشيقة سرية.. لكنها كانت واثقة من شيء في داخلها وهو أنها لن تكون عشيقته..ولن تنام معه مهما حاول أو توسل أو سعى لإغرائها..ووجدت نفسها تقول له بلؤم واضح وبنبرة سعت جاهدة أن تكون محايدة:

- نحن نراقب أقنعة الآخرين..لا نرى وجوههم لأنهم يضعون الأقنعة عليها.. نراقب أقنعة الآخرين التي يظهرونها لنا..حتى الكلام هو قناع قد يخفي الإنسان وراءه عكس ما يبوح به..لكن الناس تحب الحديث والثرثرة.. صحيح أن هناك أحاديث مهمة ومفيدة للسامعين..فالعلم في الجامعات يتم خلال المحاضرات التي يلقيها الأساتذة والعلماء..والمحاضرات حديث.. حديث مفيد..لكن الحديث التافه هو عندما يتحدث الإنسان عن نفسه.. حديث يومي عادي وتافه ودائم عن مشاكل العمل..والأولاد والمدارس.. وأين سيقضون أو قضوا الإجازة الصيفية أو الشتوية..عن مشاكل الجيران.. والزحام والطابور..والملابس..والموضة..والطبخ..لكننا جميعا نقوم بمثل هذه الأحاديث..ونستمع إليها من الآخرين أيضاً..أي نحن نتبادل التفاهات..

والأحاديث التافهة..وكلنا يفعل ذلك..الحاجة الى الحديث عميقة في داخلنا..
وكذا رغبتنا في سماع الآخرين لتفاهاتنا..لذلك..أنا لا أحكم عليك من خلال
حديثك..ثم أنت لم تتحدث كثيرا..بل ولم تتحدث عن نفسك أصلاً..كنت
تحدثني عن فوائد التوقيع على العقد.

حين بدأت حواء ذوالنورين بالكلام شعر آدم سميث بأنها تعنيه في ما وراء الحديث..لكن هذا الإحساس زال قبل أن تنتهي هي ببعض الجمل التي كانت بضمير الجمع..أحس أنه أمام امرأة ليست سهلة..فقال بنبرة غامضة:

- إنك امرأة حكيمة...رغم قناعتي بأن الحكمة تأتينا دائما متأخرة..وفي الوقت الضائع..وأحيانا ليس الإيمان بالحكمة سوى حماقة..لكن المشكلة لو أن الإنسان يعرف ما ينتهي إليه لما بدأ أي شيء في حياته..

نظرت حواء ذوالنورين إليه نظرة جانبية متسائلة ومتفحصة..أحست أنها أمام شخص متناقض..متعدد الوجوه..مرح وحزين في الوقت نفسه..ثرثار لكن ثرثرته تكشف عن صمت داخلي رهيب..غني لكنه في الوقت نفسه بائس وفقير..مدير لشركة كبيرة ومحاط بعشرات الموظفين لكنه وحيد..يحب عائلته لكنه نادم على أنه تزوج أصلاً..من يراه يحس أنه إنسان ناجح بكل المقاييس بيد أنه يحس بأنه فاشل أمام نفسه..ذئب نهاش بإمتياز..وعطوف ورحيم في الوقت نفسه..كتلة من التناقضات..لذا ليس من الصحيح الحكم عليه بسرعة بأنه يريدها عشيقة له فقط..
أليس من الممكن أنه يفعل كل ذلك محاولة منه في أن يساعدها..؟ لكن لماذا..؟
لا..فعل الخير لا يحتاج للسؤال : لماذا..؟.

انتبه هو إلى أنها تنظر إليه. أدرك أنها تفكر في ما قاله، انتبه لأمواج الشك والريبة في أعماقها..لم يستسلم..أحس برغبة في الكشف عن نفسه أكثر فواصل:

- لا تنظري إلي كمدير لشركة أميركية في فرنسا..أنا شخصياً لست أميركيا..
وفي الوقت نفسه لست فرنسيا..ولا لبنانياً.. أنا ذاكرة مثقوبة..أنا من هؤلاء
السذج الذين يؤمنون بالخير..ويعيشون في الوهم..يبغضون العنف والكراهية..
مؤمن بالحياة..لكن مشكلتي تكمن في أني لست راضياً عن حياتي..ولا
أعتقد أن هناك من هو راضٍ عن حياته..فحين أرى الشر في كل مكان..
حين أرى دناءة الموظفين حولي..حين أرى الأكاذيب في الكلام المعسول..

في التحية المبالغة فيها..في المدائح المجانية..في النهب والسلب والخداع المقنن بنصوص مصاغة بطريقة لا يفهما حتى الذين كتبوها..حين أرى الكل يستغلك..الكل يريد منك..ولا يفكر أحد ما في أن يعطيك شيئاً..عند ذاك أحتقر نفسي وأحتقر الأشياء..أحاول جاهدا تجاهل البشاعة والدناءة..لكني لا أستطيع..كمن معدته مليئة بالحموضة وتصل إلى حلقه لكنه لا يستطيع التقيؤ أو تخفيف هذه الحموضة التي تحرق حنجرته..ربما ما يساعدني في الإستمرار في الحياة هو أني أعرف هذا الشر حولي ومصدره..!! لكني لا أملك القدرة لضرب جذوره..لذا أنكفئ على نفسي..أهرب للهو.للمرح المبالغ فيه..أنا إنسان حزين ومعطوب من الداخل..أنا روح تائهة..منسية..لا تنظري لكل هذا الهيلمان الذي أنا فيه..أتعرفين..الشر هو القاعدة الثابتة.. هكذا كان في جميع الأزمنة..الشر المغلف بالنوايا الطيبة..والخير هو استثناء..حتى صار العمل الطيب والخير والخالي من أية نية أو مصلحة يثير الشكوك.. أنتِ..أنت مثال حي على ذلك.أليس رفضك التوقيع على العقد كان سببه هو شكك العميق في دوافعي بأن أقدم لك هذه الخدمة..؟ وربما إزداد شكك حينما طلبت منك أن يبقى كل ذلك سراً بيننا، ولا تعلمه زوجتي إيفا..!..ثم.. ألا تشكين الآن وفي هذه اللحظة..وأنت معي في هذه السيارة بنواياي..؟ ألم ترتابي في سبب تقديمي شقة مفروشة لك، كي تسكني فيها ما تشائين من الوقت مجاناً..؟..ألم تراودك مختلف الأفكار السيئة حول ذلك..؟ ألم تراودك جميع الاحتمالات..بإستثناء أن أقدم لك كل هذه الخدمات مجرداً من أي غرض دنيء..مجرداً من منفعة آنية أو مستقبلية.. مجرداً من كل أنانية..؟ أنت لم تفكري قط بأنه يمكنني أن أقوم بكل هذا..وأكثر من هذا، فقط من أجل أن أشعر بسعادة روحية ونفسية وعقلية بأني قمت بعمل طيب، قدمته لإنسانة أشعر أنها طيبة وخيرة ولا تؤذي أحداً..إنسانة ربما هي مثلي..روح تائهة..ومنسية..في غابة هذا العالم..!!.

فوجئت بقدرته الخارقة في معرفة ما يدور ويموج في نفسها من أفكار..كيف عرف أنها تشك في نواياه..؟ وأنها رفضت التوقيع على العقد لخوفها من هذه النوايا..؟ لاسيما وأنه أشار إلى أن زوجته إيفا تغار منها لأنه يمدحها..وربما ستشك

بأن بينهما علاقة..؟ إشارته تلك لم تكن بريئة أبداً..أليس هذا هو هجوم ذكي منه لتحطيم كل حواجزها النفسية وكل شكوكها نحوه..؟ لو صح هذا فأنها أمام رجل خطير..لكن لماذا تشك فيه إلى هذه الدرجة..؟ لماذا لا تفكر مثلما قال بأنه يقدم لها كل هذه الخدمات مجرداً من أي غرض دنيء..مجرداً من أية منفعة آنية أو مستقبلية..مجرداً من الأنانية..؟..وإنه يقوم بذلك من أجل أن يشعر بالسعادة التي يخلقها القيام بعمل طيب فقط..؟..لا.لا.لديها إحساس غامض بأنه يلعب معها..وأن كل ما يقوله ليس سوى قناع جديد..عليها أن تكون حذره منه..ثم لماذا يعتقد الرجال بأنهم يستطيعون مضاجعتها بسهولة..؟ وأنها ستوافق رغباتهم..أهي رخيصة وسهلة إلى هذا الحد..؟ أم أنها تبدي فضولاً أنثويا لا إرادياً نحو الرجل من دون قصد منها، فيلتقط الرجال الإشارة ليقتربوا منها بهذه الوقاحة والمباشرة..؟..لقد كان ذلك مع آدم الملا في بغداد، ومع صديق ابنها قابيل العباسي الذي تزوجها عنوة..ومع آدم الشامي..حتى آدم بوناروتي أرادها أن تكون عشيقته..لكنها كانت تنصاع لكل هؤلاء.. فهل هي ضعيفة إلى هذا الحد..؟ وهل هي التي تشجعهم على ذلك..؟.

هبطت عليها كآبة مفاجئة حينما مرق طيف ابنها في ذاكرتها..أحست بارتعاشة في أعماقها..ماذا كان يقول عن تصرفاتها..؟ فجأة وجدت نفسها خارج الزمان والمكان..كانت في أتون الذكريات..سألت نفسها سؤالاً مفاجئا لم تسأله لنفسها سابقاً: هل كان ابنها آدم ذوالنورين يعرف بأن صديقه قابيل العباسي قد تزوجها رغماً عنها..؟ كيف لم تسأل نفسها هذا السؤال من قبل..؟..صحيح أنها سمعت المتصل بهاتف زوجها يقول دون أن يعرف بأنها كانت على الهاتف من الطرف الآخر بأن آدم ذوالنورين دخل إلى غرفة المكتب وشاهد الفيديو الخاص بإغتصاب أمه..وإنه هبط إلى الطوابق السفلى من البيت..وأعدم جميع المخطوفين الموجودين هناك كلهم..ثم انتحر.. أحست بالدمع يترقرق في عينها..ولم تستطع أن تمنع خيطا من الدمع نزل على خدها، دونما إشارة لبكاء..

فجأة، انتبهت إلى توقف السيارة. كان آدم سميث قد اصطف على جانب رصيف يسمح لوقوف السيارات. أحست بالحرج حينما انتبهت إلى أنها تتخبط في دوامة ذكرياتها الحزينة..انتبهت إليه، وكأنها لم تنتبه إليه..فقد صارت ملامح وجهه

حزينة، وصارت نظراته أكثر عمقاً وشروداً، وفقدت ذلك البريق الذي كان يشع منها، بريق الرجل المهيمن المتسلط والواثق من نفسه، المرح المقبل على الحياة .. سألت نفسها إن كانت هذه هي ملامح آدم سميث ولم تنتبه، أم أنه ألقى قناعاً جديداً على وجهه..؟كيف يمكن أن تتحول ملامح الشخص وكأنه خرج توا من غرفة المكياج..أو العكس وكأنه مسح المكياج والدهون والمساحيق عن وجهه..؟.. ووجدت نفسها تعتذر عن شرودها أثناء الطريق فقالت:

- أنا آسفة..لا أعرف ما الذي جرى معي..

لم ينظر في عينيها مباشرة، بل حاول أن يتهرب من النظر إلى وجهها، قائلاً بنبرة حزينة متعاطفة:

- لقد كنت تبكين..بل تنتحبين..

استغربت حواء ذوالنورين لكن لم تتذكر أنها بكت بصوت مسموع..وسألت بإستغراب غير مصطنع:

- كنت أبكي..بل وأنتحب..؟

- نعم..كنت تنحبين نحيباً مراً يقطع نياط القلب..كنت أخرسَ وعاجزاً أمام كثافة الألم الكامن في نحيبك..يبدو أنك مررت بأهوال ورعب ومأساة كبيرة..لم أستطع أن أفعل شيئاً..سألتك حينها أن تكفي عن النحيب..وأن تقولي لي ما الذي دفعك إلى النحيب..لكنك لم تلتفتي إليّ حتى..كنت غارقة في أعماقك وكأنك لست جالسة إلى جانبي في السيارة..كنت عاجزاً أن أساعدك.. وفكرت مع نفسي بأن البكاء والنحيب ربما سيساعدانك.. فسكت وتركتك إلى أن هدأت..لكنك برغم ذلك كنت في عالمك..واستغرب أنك عدت إلى نفسك في لحظة توقف السيارة بالتحديد..

إرتبكت حواء ذوالنورين..لا تذكر أنها انتحبت..صحيح أنها كانت مختنقة في دوامة ذكرياتها الأليمة..لكنها لا تذكر شيئاً آخر..أتراه يريد أن يوهمها بأنها انتحبت..؟ ولِمَ يفعل ذلك..؟ ما مصلحته وغايته..؟ لكن..ألا يمكن أن يكون ما قاله صحيحاً..؟ ربما هي من كثافة ألمها وارتباكها كانت تنتحب في لحظة هستيريا لم تنتبه لها..؟ عموما..إنها تشعر براحة نفسية لا تعرف من أين أتتها..تحس بنوع من الإسترخاء الداخلي..

دخلا المبنى.. صعدا المصعد..كانت محرجة..حاول هو أن يكون تلقائياً وعفوياً في حركته.. توقفا في الطابق السادس..كان الطابق يضم ثلاث شقق..اثنتين متقابلتين وواحدة في الوسط..توجه آدم سميث الى الشقة التي تقع على يسار المصعد.. أخرج المفتاح وفتح الباب..داعيا إياها للدخول..ارتبكت لثوانٍ..لكن ارتباكها اختفى ما أن وطئت الشقة بخطواتها الأولى..لقد وجدت نفسها في شقة هي طبق الأصل في تصميمها وتوزيع غرفها من شقة العائلة حيث تسكن صديقتها إيفا سميث.. لكن ثمة اختلاف في تفاصيل الأشياء..فالمائدة لا تقع بالقرب من المطبخ وإنما في زاوية أخرى حيث صالة الاستقبال في شقة إيفا..والصوفا تتوسط المسافة ما بين غرفتها حيث تنام هي والمطبخ..بل وحتى اللوحات هي ذاتها لكن تم توزيعها بشكل مختلف..مع لوحات إضافية أخرى.. انتبه إلى الدهشة التي ارتسمت على وجهها..خمّن أنها تذكرت شقتهما العائلية..ابتسم بحزن..لم يعلق شيئاً وإنما قادها ليريها الشقة..وانتبهت إلى أن الغرفة التي تنام هي فيها في شقة العائلة ليس سوى مكتبة عائلة ومكتباً حيث طاولة الكتابة وجهاز الكمبيوتر..كانت رفوف الكتب تحمل كتباً بالعربية والفرنسية والإنكليزية.. انتبهت إلى الطاولات التي عليها بعض الكتب والمجلات أيضاً..وفي إحدى الزوايا كان هناك جهاز لبثّ الموسيقى..وإلى جانبه حامل اسطوانات وأقراص موسيقية مدمجة..وعلى أحد الجدرات شاشة تلفزيونية كبيرة جداً.. وحين دخلت إلى المطبخ وجدته مختلفا في تصميمه عن المطبخ الذي في شقة العائلة...أحست بأنها ليست شقة للضيافة..وإنما شقة تؤكد على شخصيتها وتفردها..أهي أمام شخص مريض..مزدوج الشخصية..؟ وإلاّ..لِمَ يكرر الأشياء ذاتها التي في شقة العائلة..ولو بطريقة مختلفة..؟!

قادها إلى غرفة النوم..فتح الباب ولم يدخل..دخلت هي..رأت غرفة أنيقة وبسيطة..مريحة للنفس..لم تتوقف كثيرا عندها إذ أحست بالإحراج من رؤية السرير العريض.. خرجت مسرعة..انتبهت أنهما خلال تواجدهما في الشقة لم يتبادلا حديثا سوى جملة واحدة منه عندما دخلت إذ قالها لها: تعالي أريك الشقة.

حينما صارا عند الصوفا دعاها للجلوس قليلاً وسألها ان كانت تحب أن تشرب قهوة أو شاياً أو عصيراً فشكرته وطلبت قهوة بالحليب. جلست هي.. لكنها لم تكف عن محاولة إيجاد تفسير منطقي لما تراه..فالشقة أنيقة ومريحة..لكنها صارت

على يقين بأنها ليست شقة للضيافة..

عاد آدم سميث وهو يحمل كوبين مليئين بالقهوة..أعطاها كوبا وجلس قبالتها.. ارتشف من كوبه قليلاً ثم سألها بهدوء:

- هل أعجبتك الشقة..؟
- نعم..ولكن..

نظر إليها وكأنه يتوقع ما ستسأل عنه فسألها:

- ولكن..؟ ولكن ماذا..؟
- هي لا تبدو شقة للضيافة..وإنما شقة خاصة جدا..
- صحيح..هي ليست شقة للضيافة..لدى الشركة شقتان..الشقتان الموجودتان في هذا الطابق أيضا..لكن هذه الشقة هي شقتي..
- شقتك..؟

نظر إليها محاولاً ان يدرس إمكانية التوضيح اكثر، ثم قال:

- نعم شقتي..لو كنت قد وقعت على العقد لكنت أخذتك إلى واحدة من شقق الضيافة المجاورة..لكن بما أنك لم توقعي ففضلت أن تسكني أنت في شقتي..لحين أن تقرري..وإذا قررت عدم التوقيع ستبقين هنا..
- لكنها شقتكم..

نظر إليها نظرات متفحصة وبتركيز..ثم قال:

- إنها شقتي أنا...لا أحد يعرف عنها شيئاً..
- ولا زوجتك إيفا..؟!
- ولا زوجتي إيفا..هنا عالمي الصغير..هنا أجيء أحيانا كي اقرأ أو أكتب بعض الخربشات..أو أسمع الموسيقى بصوت عال..أحيانا أدعي السفر لإنجاز بعض الأعمال..لكني لا أسافر..إنما أجيء هنا..فهنا أحس أنني أنا..هناك أنا الأب المدير..رجل الأعمال..المدير العام للشركة..يعمل تحت يدي العشرات من الموظفين والموظفات..هنا أنا الجالس في الصف الأخير من القاعة..
- ولماذا الصف الأخير..؟
- الذي يجلس في الصف الأخير يرى الجميع أمامه..يراهم من الخلف، من

حيث لا يرونه أو يرون أنفسهم ..فالذي يجلس في الخلف يرى الأشياء بوضوح..

- نعم..لكنك تراها من الخلف..لا ترى وجوه الجالسين وما يفكرون فيه.. ثم ما الذي يجبرك على هذه الحياة السرية..ألا تستطيع أن تقوم في بيتك بما تقوم هنا به..؟
- هل تصدقين أنه ليس من السهل أن أحقق كل ما أريد في بيتي..؟!
- لكن لماذا ليس سهلا أن تحقق هذه الأشياء وهي أمور بسيطة بل وممتعة..؟ ولا أعتقد أن زوجتك إيفا ستعترض على قراءتك للكتب أو سماع الموسيقى..
- هل تعرفين يا حواء..أنا في البيت دائما أتحاشى دور المثقف..؟ أحاول أن أبدو رجل أعمال ناجح.. فزوجتي إيفا تحبني في شخصية المدير الناجح.. رجل الأعمال صاحب المال والنفوذ..ولا تتعاطف مع شخصية المثقف..

نظرت إليه وكأنها تتبين صدق ما قال، فقالت:

- لا أعتقد..
- سأقول لك شيئاً..الزواج عقد تملك قاهر..والحياة الزوجية في يومياتها تشبه المحاكم..أحياناً هي محاكم تفتيش خانقة ومرعبة..وأحياناً هي محاكم جنائية..فكل حركة خاضعة للتجريم والعقوبة..وأحيانا محاكم شرعية..فيها ما هو مسموح وما هو غير مسموح..أنا شخصيا أعتقد بأننا لكي نحس بطعم الحياة..أو بدقة أكبر نحس بأننا نعيش حياتنا بشكل حقيقي..؛ يجب علينا أن لا نوهم أنفسنا بأن الحياة ستكون لطيفة معنا..وأنها ستبتسم لنا دائما..على العكس..يجب أن لا ننسى أبداً بأن الحياة قاسية وغادرة وبلا رحمة..

استغربت حواء ذوالنورين ما سمعته ورأته، فقالت بنبرة مترددة وغير واثقة:

- إنني أستغرب ممّا تقول..ظننتكم عائلة سعيدة..عائلة مثالية..

ابتسم آدم سميث ابتسامة حزينة ومرة وقال:

- لا توجد عائلة مثالية..وربما لا توجد عائلة سعيدة بالمعنى الحقيقي..بل أنا شخصيا لا أدري إن كانت زوجتي إيفا سعيدة معي أم لا..؟ربما هي تتحمل الحياة معي بسبب الأطفال..؟ فالحياة أحيانا توقظ فينا حاجة غريبة

هي الحاجة للخضوع..

- لكني لحد الآن لم أفهم..ما الضرر في أن تقرأ أو تسمع الموسيقى في شقتك العائلية..؟

نظر إليها مستغرباً، وقال بتساؤل:

- ألم تلاحظي شيئاً في هذه الشقة..؟ ألا ترين أنني أستنسخ حياتي العائلية لكن بطريقة أخرى..بطريقة أحبها أنا..

- نعم..نعم..لاحظت أن الأشياء هنا..الأثاث.. اللوحات..هي نفسها في شقتكم هناك..لكن توزيعها مختلف..

- نعم..هنا حياتي كما أشتهيها..

نظرت إليه نظرة متسائلة، وكأنها تعبر عن عدم اقتناعها بما قال:

- ألا ترى أنك تبالغ قليلاً في إيجاد خلاف وهمي في علاقتك بزوجتك إيفا..وأنك تبحث عن تبرير لنفسك لتمارس حياة خاصة وسرية..؟ أنتم الرجال هكذا..تبحثون عن أي شيء يبرر لكم أن تعيشوا حياتكم الخاصة..

كان آدم سميث ينظر إليها نظرات متفحصة وكأنه يحاول اختراق جمجمتها وأعماقها وما تفكر فيه..كان يدرك بحسه الشَخصي أكثر من إدراكه عبر التجربة بأنه لا فائدة ترتجى من حواء ذوالنورين فهي لن تفهمه..وهي متعلقة بصديقتها ربما لأنها صديقتها أو من باب التضامن الأنثوي الغريزي..لذلك حاول أن ينهي حواره معها.. فقال لها بنبرة واضحة بإنهاء الحوار:

- على أي حال هي الآن شقتك..تسكنين فيها ما تشائين..كل شيء جاهز فيها..وأي شيء تحتاجينه يخص الشقة وغير الشقة فهذه بطاقتي فيها كل أرقام هواتفي الخاصة وفي العمل..

وأخرج بطاقة من جيب سترته الأعلى وسلمها لها فأخذتها مرتبكة من نبرة صوته وانتهاء الحوار ليس بلا إتفاقهما وحسب، وإنما بإفتراقهما النفسي..وأحست بعدم الراحة لانتهاء الحوار هكذا.. فجأة، قام واقفاً مستعداً للمغادرة..وهو يقول لها بنبرة فيها شيء من الحزم والفرض:

- سأخبر إيفا بأنك ذهبت مع المحامي إلى دائرة الأجانب..وأنهم ربما حجزوك عندهم وأرسلوك إلى إحدى مخيماتهم أو البيوت المخصصة للاجئين التابعة

لهم..ويمكنك أن تتصلي بها في ما بعد..ربما اليوم..أو غداً..الأمر متروك لك..هل لديك أشياء لدينا في البيت يمكن أن أجلبها لك..؟

ارتبكت حواء ذوالنورين من طريقته الحازمة، ثم قالت:

- ليس لدي الكثير..حقيبة صغيرة لا أكثر..
- سأجلبها لك..لكن بعد أن تتصلي بها..لا تحتاجين شيئا هنا في الشقة.. فالعصائر موجودة..الخبز والأجبان والمربى.. والمكسرات بأنواعها..وأكياس المرق المجفف..والخضروات المجمدة..وأنواع السجق..وفي كل الأحوال.. إذا ما احتجت شيئا فهذا الشارع مليء بالمطاعم وسوبرماركتات..

ارتبكت..لم تجد ما تقول..فجأة رن هاتفها النقال..توقف آدم سميث أيضاً ليعرف لا إراديا من المتصل.. نظرت إلى شاشة الهاتف فقرأت الاسم الذي حفظته: حواء الذهبي..أحست برجفة تجري في أوصالها..ما الذي ذكرها بها في هذه اللحظات.. كانت في حالة من الارتباك بحيث لم تعد تدرك هل هذا الإتصال جاء لإنقاذها أو ليزيد ارتباكها ويضفي عليه ألغازاً جديدة..أخذت تحدث المتصل بنبرة منفعلة لكن بهدوء:

- نعم..أهلا أساتذه..(صمت للحظات)..لا أبداً لم تزعجيني..(صمت للحظات)..ماذا..؟ نلتقي..؟أين..؟..في المكان السابق نفسه..عند كنيسة نوتردام..؟متى..؟(صمت للحظات)..بعد ساعة..؟ ماذا..تريدين أن تعطيني مخطوطة روايتك الجديدة..؟ (صمت)..سأكون هناك..لا.لن أتاخر..مع السلامة.

نظرا إلى بعضهما البعض..كانت هي مرتبكة وتائهة..وكذلك بدا هو مهموماً.. وكأنه أخطأ..انتبهت هي إلى ملامحه..أحست بعدم الارتياح..فهي لا تريد أن تخسره.. صحيح أنها لا تريده..ولا تستجيب لنواياه..ولا تفكر بأن تكون عشيقته أبداً..لكنها، ولا تدري لماذا، لا تريد أن تفقده..؟ لا تريد أن تفقد رجلاً يحسسها بأنوثتها..وبأنها امرأة مرغوبة..لذا وجدت نفسها تسأله نبرة فيها ضعف أنثوي لتستعيد الحوار معه:

- هل كنيسة نوتردام بعيدة من هنا..؟
- لماذا..؟ هل تريدين أن أقلك إلى هناك..؟
- إذا كان الأمر لا يضايقك..؟ يمكنني أن آخذ تكسي..

نظر إليها لثوان..ارتسمت على وجهه ابتسامة مغتصبة..فهو يعرف هذا الغنج الأنثوي..لعبة الكر والفر الأنثوية..وقال:

- حتى لو كانت كنيسة نوتردام في أقاصي العالم فأني سأقلّك إليها..

ارتبكت هي لكلماته..وقالت بإنكسار وكأنها تحدث نفسها:

- أشكرك.إنني أثقل عليك حقاً..ولا أعرف ما يجري معي..فكل خططي تغيرت..فليس هذا ماكنت أتوقعه من مجيئي إلى باريس..

أحس هو بأنها تريد أن تجره للحديث بعد أن وجدت إنسحابه عن التواصل معها..حيث صارت أكثر هدوئاً وتفهماً..وقال في نفسه إنها من هاتيك النساء اللواتي إذا أقبلت عليهن يجفلن ويخافنك أو يتعززن ويتكبرن عليك..بينما إذا جفوتهن وأهملتهن وألغيت اهتمامك بهن فأنهن يسعين خلفك ويبذلن الكثير من أجل استعادتك..وهذه الحواء لن تختلف عنهن..لذا عليه أن لا يهرع بسرعة إلى أول نداء منها..عليه أن يكون أكثر رزانة..فقال بنبرة فيها شيء من اللامبالاة:

- لا أعرف ما الذي كنت تتوقعينه من مجيئك إلى باريس..؟ لكن الشيء المؤكد الذي يجب أن تعرفيه هو أني سأقلك إلى حيث تطلبين الذهاب.. وأنك تستطيعين البقاء في هذه الشقة بقدر ما تحبين..

قال ذلك واتجه نحو باب الشقة..ظلت هي واقفة للحظات..تيقنت من نفوره الواضح منها..استغربت.." أنا لم أفعل ما يفرض هذا النفور..لقد تحدثت عن الرجال بشكل عام..أيكون قد شعر بالإهانة وكأنني تحدثت عنه..؟" سألت حواء ذوالنورين نفسها..وهي تتبعه إلى خارج الشقة..أغلق هو باب الشقة بالمفتاح وسلمه لها.. وقال لها بأنه سيكتب لها عنوان الشارع والمبنى والشقة..كي تعرف أين تسكن.. ويمكنها التحرك بسهولة سواء بالتاكسي أو عبر قطار الأنفاق..لاسيما هناك محطة تحمل اسم الشارع.

الفصل العشرون

شعلة زرقاء في مغارة مظلمة

كانت الساعة الجدارية تشير إلى العاشرة إلا ربعاً..ومعظم الطاولات غادرها النزلاء وآثار استخدامهم للصحون والطعام لا تزال واضحة..والمرأة التي تعمل في الخدمة بملابسها السوداء كانت تحاول تنظيف الموائد وترتيبها، فموعد نهاية فترة الفطور الصباحي لم يبق عليها سوى ربع ساعة أخرى.

في القسم الأول من مطعم الفندق المنقسم إلى نصفين..فسحة أولى صغيرة تنتظم فيها ثلاث طاولات وتمتد من جانب آخر مائدة الفطور، أما القسم الثاني الذي يفصله عن الأول حائط على طول القسم الأول إلا من فتحة عريضة نسبيا مقابل باب الدخول..كانت حواء الحلو اللبنانية جالسة تتناول افطارها..

لم تكن حواء الحلو ترى أياَ من الجالسين في القسم الآخر. ارتشفت بعضا من الشاي مع قطعة من الخبز المحمص التي طلتها بطبقة خفيفة من الشكولاته.. فجأة غصت باللقمة وكادت تشرق بالشاي الذي كانت للتو ترتشف منه، حينما تعالت صرخة حيوانية وتهشم صحون وانقلاب طاولات في القسم الثاني من المطعم. صرخة حيوانية جريحة ذكرتها بصرخة الحلم..وتراكض بعض الجالسين على موائد الفطور من نزلاء الفندق..وقامت هي أيضا لترى ما حصل..

رأت فتىَ نحيلاً في العشرينات من العمر..وهو يرفس برجليه ويديه والزبد يسيل من طرفي شفتيه وقد غاب سواد عينيه بحيث لا يُرى منها سوى البياض..بينما حاول البعض الإمساك برجليه وذراعيه ونزع أحدهم سترته ووضعها تحت رأسه..أحست بالخوف من هذا المشهد..فقد عرفت بأن هذا الفتى قد تعرض لنوبة صرع قوية.

فجأة رن هاتف موبايل من نصف المطعم حيث كانت تجلس..ذهبت إلى

طاولتها..ظنت أنه هاتفها النقال.. فلم تجده على الطاولة لكن الرنين قد استمر ففتشت في حقيبتها عن هاتفها فلم تجده أيضا..عرفت أنها نسيت جهازها في غرفتها بعد أن ربطته بجهاز شحن البطاريات.

توقف الرنين لكنها برغم ذلك انتهبت إلى أن الصوت كان يصدر من جهاز هاتف نقال وضع على الطاولة التي تمتد لحمل صواني الفطور. أحست بانقباض في نفسها.جلست على كرسيها..لم تستطع الأكل..لكنها أجبرت نفسها على ارتشاف شيءٍ من الشاي..في تلك اللحظات لاحظت موظف الفندق يقف عند فتحة الباب الخارجي المؤدي إلى المطعم ونادى بأعلى صوته مخاطبا الجميع:

- سينيورا هواا الهلـو..

نظرت حواء الحلو إليه بتساؤل وقالت بالإنكليزية:

- نعم..أنا هي..حواء الحلو..ما الذي حصل..؟

توجه إليها موظف الإستعلامات مقترباً من طاولتها ذات الكرسي المخصصة لشخصين لكنها كانت تجلس عليه وحدها، وقال لها بتهذيب :

- ثمة شخص على الهاتف يطلبك..اتصلنا بك على الغرفة لكن لم يجبنا أحد..فخمنت أنك هنا..

- سآتي حالاً..

- آسف أنني أخبرك ذلك وأنت على مائدة الفطور..

- لا عليك..أنا قادمة..

نهضت حواء الحلو دون أن تكمل فطورها.. وقبل أن تغادر القاعة التفتت إلى موظف الخدمات في المطعم وقالت لها:

- سأعود بعد قليل..اترك كوبي على حاله..

نظر موظف الخدمة التي بدا من ملامحه هندياً وقال بالإنكليزية وهو يحني رأسه على طريقة الاحترام الهندية:

- أنت تأمرين سينيورا..

حين أخذت سماعة الهاتف الأرضي في مكتب الاستعلامات جاء صوت صديقتها الخليجية حواء الذهبي متلهفاً وسائلاً..استغربت حواء الحلو من أن صديقتها لم تتصل بها على الهاتف النقال وعبرت عن دهشتها:

- ماذا تقولين..اتصلت لكن لا أحد يرد..؟ متى..؟ قبل قليل..؟ نعم..نعم.. نسيت هاتفي في الغرفة..أنا كنت الآن في المطعم أتناول فطوري..ماذا.. لم تحصلي على حجز؟؟ طيب..هنا..لحظة..؟ ماذا..جناح..؟ سأسأل ؟

توقفت حواء الحلو عن الحديث عبر الهاتف وتوجهت لموظف الاستعلامات وسألته إن كان هناك جناح فارغاً..فأوضح لها بأن الأجنحة كلها محجوزة..توجد غرفة في الطابق السادس أيضا ستكون جاهزة عند الساعة الحادية عشرة..أخبرته بأن صديقتها قد وصلت فلورنسا وأنها تتصل من المطار..وستصل بعد قليل..وأنها بحاجة لهذه الغرفة..فاتفقا بحجزها لها لكنه أوضح بأنها ستدخلها عند الساعة الثانية عشرة فقط..وإذا ما وصلت الآن فعليها الانتظار حتى منتصف النهار..اتفقا..وواصلت حواء الحلو حديثها مع صديقتها موضحة لها تفاصيل حديثها مع موظف الاستعلامات.. وقالت لها بأنها ستنتظرها.

لم تكن حواء الحلو تعرف صديقتها حواء الذهبي إلا من خلال صفحات التواصل الاجتماعي..حيث نشرت حواء الحلو صور لوحات رسمتها، فعلقت حواء الذهبي عليها بنصوص ولغة أدبية جميلة، وعرفت أنها كاتبة قصصية وروائية فصار ذلك سببا للتواصل الخاص بينهما، وصارتا تلتقيان في التواصل الخاص أكثر مما تتواصلان على جدار الفيسبوك، ثم تبادلتا أرقام الهاتف واتصلتا ببعضهما، وصار الاتصال بينهما أسبوعياً، إلى أن حدثتها حواء الذهبي بقصة ابنة خالتها حواء صحراوي، ومقتلها الغامض في جزيرة إسكيا، ومحاولتها المجيء لاستكشاف تفاصيل هذه الجريمة الغامضة، كما انتهزت حواء الحلو فرصة غياب زوجها كي تزور فلورنسا أيضا..وبرغم أن حواء الذهبي أرادت التوجه إلى نابولي ومنها إلى جزيرة إسكيا إلا أنها فضلت أن تلتقي بصديقتها حواء الحلو في فلورنسا وتتعارفا وجها لوجه وتقضي معها بضعة أيام ثم تغادر لمواصلة مهمتها التي جاءت من أجلها إلى إيطاليا.

حين وقف التاكسي بعد نصف ساعة تقريبا من الاتصال الهاتفي كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة..وحينما دخلت..انتبهت حواء الحلو إلى صديقتها التي لم ترَ سوى صورتها في مراسلة خاصة بينهما لأنها لا تضع صورتها على جدار صفحتها في التواصل الاجتماعي..ورأت أمامها امرأة شابة فارعة الطول، تلبس بنطلوناً وعليه

جلباب قصير لا هو بالجاكيت ولا بالمعطف..لكنها ثياب أنيقة جداً..وكانت تشد رباطا خفيفا على رأسها لا هو باليشاب ولا هو بالطرحة..بل يكاد رأسها يكون مكشوفاً، وكانت تسريحتها كلاسيكية حيث تشد كل شعرها إلى الوراء وتضبطه من الوراء بمشد. وجهها مستدير، بملامح دقيقة، ذات عينين واسعتين يحيطهما خط كحل خفيف.

من اللحظة الأولى عرفتها حواء الحلو..استقبلتها بالأحضان والقبل على الطريقة الشرقية..بينما سحب سائق التاكسي الحقيبة إلى داخل الفندق.. وخلال لحظات تمت تسوية أمور حجز الغرفة..لكن حواء الحلو دعت صديقتها للذهاب معها إلى غرفتها لتغتسل وترتاح حتى يحين موعد استلام غرفتها التي هي في الطابق السادس أيضاً.

بعد ساعة من الوقت تقريباً استلمت حواء الذهبي غرفتها..رتبت ثيابها وأشياءها الأخرى في غرفتها، ثم خرجت مع صديقتها حواء الحلو للتجول في فلورنسا ولتناول الغداء أيضاً.

* * *

حواء الحلو لا تعرف مدينة فلورنسا جيداً، فحركتها لا تتجاوز الشارع الرئيسي الذي يقود إلى الكنيسة الكبرى وساحة سنيوريا وما يحيطها من قصور وآثار وصولا إلى جسر فيتشيو..وقد قادت صديقتها إلى هذه الأماكن..وحينما أخذ التعب منهما مأخذه عادتا، فدخلتا مطعما يقع ضمن ساحة (بيازا ديللا ريبوبلكا). ثم توجهتا للجلوس في مقهى يطل على الساحة..وبرغم أن الجو لم يكن حارا جداً إلا أنهما طلبتا صحنين من الآيس كريم..وأخذتا تتذوقانه بهدوء..

كانت أواصر المعرفة بينهما قد تشكلت من خلال حواراتهما عبر صفحات التواصل الاجتماعي، لكن حواء الحلو كانت راغبة في أن تتعرف على شخصية صديقتها أكثر..خاصة مجيئها لكشف أسرار مقتل ابنة خالتها حواء صحراوي كما أخبرتها عبر تواصلهما الافتراضي..لذا بادرتها بالسؤال:

- ثمة سؤال يشغلني ولم أسألك عنه..وهو: لماذا قُتلت ابنة خالتك ..؟ وهل جئت لكتابة رواية عنها..؟

نظرت حواء الذهبي إليها بقلق وقالت:

- الحقيقة أني ما عدت قادرة على رد تساؤلات خالتي المسكينة التي فُجعت

بموت ابنتها الجميلة..لم أعد أستطيع الهرب من استفساراتها الملحة..لم أستطع الهرب منها واللوذ إلى الصمت..ثمة عبثية اختطفت تلك المرأة الجميلة..التي هي ابنة خالتي..الحاصلة على درجة الدكتوراه في الآداب وبتخصص عن شكسبير..لقد قُتلت بطريقة غامضة..وجدت مقتولة وملقاة في حوض السباحة في الفندق الذي نزلت فيه بجزيرة إسكيا..يا إلهي كم صار الموت سهلاً في هذه الحياة..؟ ..عالمنا صار مزكوماً برائحة الموت ولا غير..وحينما ألوذ إلى الكتابة أحس وكأني فقدت لغتي !

لم تفهم حواء الحلو مقصدها..فليس هذا جواب على ما سألته..أحست أن طبيعة صديقتها اللغوية ملتوية، ليست واضحة بما يكفي بالنسبة لها، لذلك أعادت سؤالها بطريقة أخرى:

- هل جئت إلى هنا لتكتبي عنها..أو لتعرفي كيف قُتلت..؟

إلا أن حواء الذهبي بدت وكأنها لم تسمعها فاسترسلت في حديثها:

- كم مرة ومرة أفز من نومي وأنا على وشك أن أصرخ ، أتعوّذ من الشيطان وأعود في محاولة لمصالحة النوم..نومي حتى هذه اللحظة مقلوب..رأسي تضج بأفكار لا أستطيع فك سلاسلها عن بعضها البعض..لكنني أعلم أن لدي الكثير مما يستحق أن يُروى..سأحاول ترتيب أفكاري، عليّ الغوص في بئر الأسرار المظلمة..

انتبهت إلى أن عليها أن تجاريها في طريقة حديثها، فقالت:

- لكني من خلال حوارنا على صفحات التواصل الاجتماعي وجدتك منكمشة قليلاً على ذاتك..ومشغولة..بينما أنا أفهم بأن الكتابة تحتاج تواصل أكبر مع العالم والناس..شخصيا فكرت بأنك نفسك يمكن أن تكوني بطلة رواية..

نظرت حواء الذهبي إليها للحظات وكأنها تبحث عن شيء ما في وجه صديقتها، ثم قالت:

- أنا..؟ أنا يمكن أن أكون بطلة في رواية..؟ يبدو أنك لا ترين مني سوى ما تحبين أن تري..!! أنا روح منسية ومسكينة..روح تائهة..أنا شجرة الليل الحزينة..مازلت أحاول أن أفهم ماذا تريد الحياة مني، وليس ما أريد أنا من الحياة..!!فهي لم تدع لي خيارات مغرية..العالم فقد بصره وبصيرته..

أعتقد أن العميان يعرفون كيف يستدلون على وجهتهم، لأن كل حواسهم متقدة؛ لذا لن يتوهوا..ما عدا المبصرين فهم عميان الحياة..!..بالمناسبة أنا برغم قدرتي على كتابة حكايات الآخرين، لكني أعجَز أمام فيض حكاياتي وتزاحمها من سردها على نحو يرضيني ويعبّر عن حقيقة ما كنت أنوي حكايته..لذا أتجنب الروي..

- لماذا..؟
- لأني عشت تجربة مرة..
- هذا نبع مهم للحكي والسرد..كلنا عشنا الخيبات والمرارة..
- لا..أنا أختلف عن الأخريات ربما..فلقد أحببت أنا الآخرَ أكثرَ مما يجب، بينما أحبني الآخر أقل ما يجب..لقد أحببت إنسانا مليئاً بالعقد..

أحست حواء الحلو بأن البشر مخلوقات تعيسة.. فقد كانت تعتقد بأنها الوحيدة التي تعيش في سجن مظلم.. فها هي ترى هذه المرأة الجميلة..الثرية..الحرة..تقبع في قاع بئر مظلمة..أحست بتعاطف معها، وأرادت أن تسمع منها، فسألتها:

- كيف..؟
- كان يلعب معي لعبة الألغاز، خوفاً أو حفاظاً على نفسه..كان لا ينطق أسمي أبداً..كان يختلق الكذب من تحت الأرض..ليؤكد لي بأنه أعزب.. بينما هو متزوج..لقد أنكر زواجه، وكانت زوجته حاملاً في شهورها الأخيرة !!!..كان يتكتم على زواجه.. وصادف أن رأيته، دون أن يراني، أنا كنت منقبة..كان ذلك في مول مدينتنا الكبير.. وكان هو مع امرأة مكشوفة الوجة، عربية الملامح، لكن بملابس نساء البلاد..عرفت أنها زوجته..فهي كانت ببطن منتفخة تشير إلى قرب الولادة.. لحظتها اتصلت به هاتفيا وسألته عنها قال لي بأنها الخادمة..؟!!!..استغرب اتصالي..أراد أن يراني..سأل عن وجودي..فلم أدله على نفسي..ثم عرفت أنه ارتبط بعلاقة جديدة مع امرأة عربية من جنسية أخرى وتخلى عن العربية الأولى التي ولدت منه ابنة.. حينها سافرتُ إلى باريس..أردت أن أتخلص من عبء هذه العلاقة..إنه شخصية مزيفة..قامة من كذب يمشي على الأرض..بل كان ذئباً ناعماً.. يتمسح بضوء غيره..عرفته جيداً، وعرفت قاع روحه النتنة..أتدرين أن هناك

أرواحاً حدباء..نتنة..لا ترتاح ولا تستكين إلا إلى الضعفاء ليتمكنوا من السيطرة عليهم وبشروطهم..!! مرة سألني بالهاتف: هل أنت جميلة..؟ فأجبته بأنه من الصعب جداً أن أقول بأني جميلة أو أدعي، فالجمال مسألة نسبية جداً..فما يكون عندي جميل ومذهل، ربما هو عند الآخر عادياً وليس ذا قيمة..أتذكر جوابه الذي صدمني حين قال: كل شيء يمشي عندي !!!!.. يومها احتقرت نفس..

أحست حواء الحلو بتعاسة صديقتها، لكنها في الوقت نفسه اكتشفت كبرياءها ونبل روحها، وعلقت على جملتها الأخيرة:

- يمكنني أن أتصور خيبتك..وصدمتك..وأتفهم هذه المشاعر القاسية مع واحدة مثلك..

نظرت حواء الذهبي إلى حواء الحلو بطريقة متوترة وقاطعتها:

- أتدرين ما هو أسوأ ما استطاعه هذا النذل..؟

نظرت حواء الحلو إليها عاجزة عن تخمين ماذا فعل..فظلت تنظر لصديقتها دون جواب، فانتبهت الأخرى لعجزها، فأجابت قائلة:

- لقد استطاع أن يزعزع ثقتي بنفسي وبالآخرين..حتى صرت أتجنب كل من يعزف على وتر الشرف والوفاء والنبل..لقد هز ثقتي في العالم كله..، ووصلت إلى نتيجة مفادها أنه ليس من الضرورة أن نخوض كل التجارب السيئة لنتعلم، فالكثير منها يُخلّف ندباً ليس من السهولة إزالة آثارها..

وجدت حواء الحلو نفسها مندفعة لترد عليها، فقالت لها:

- صحيح ما تقولين لحد ما..أي صحيح أننا لا نحتاج لكي نضع يدنا في النار لنعرف أنها تحرق، لكن أحيانا توجد تجارب لابد من خوضها.. فالسباحة مثلاً.. فمهما رأينا من يسبح، أو قرأنا كتب فن السباحة، لن نتعلمها بدون النزول الى الماء..ليس بالضرورة أن نكون جميعنا سباحين مهرة، فهناك طوق نجاة يساعدنا لتعلمها، ويمكن تعلمها في حوض مغلق.. لكن المهم أن نتعلم السباحة. أن نخوض التجربة..هكذا هي الحياة..

نظرت حواء الذهبي إليها مبتسمة، إذ أعجبها مثال السباحة، وقالت:

- حاولتُ تعلم السباحة مرة وكدت أغرق..لذلك أفضل الجلوس على الشاطئ

والتمتع بمشهد البحر عن بعد..

ردت عليها حواء الحلو بتعاطف ومودة:

- عليك تعلم السباحة ياحواء..لن تغرقي فقلبك النبيل سيحملك فوق الأمواج المهلكة دائما..

ابتسمت حواء الذهبي وقالت:

- السباحة في الكتابة أفضل..وكما قلت لك فأنا لا أثق بأحد..

في تلك اللحظة تمنت حواء الحلو لو ان آدم بوناروتي موجود معهما لكان قد رد عليها بطريقته السجالية ومشاكساته الفكرية..لكن فجأة خطر في ذهنها سؤال مفاجئ وقالت لصديقتها:

- أنت جئت الآن من باريس..؟

نظرت حواء الذهبي إليها مستغربة سؤالها المفاجئ ..صمتت لثوان ثم قالت:

- أنا لا أزال في باريس..

- لم أفهم..كيف لا تزالين في باريس..؟

- نعم لا أزال في باريس..

ابتسمت حواء الحلو لها بمودة وقالت بنبرة فيها شيء من المزاح:

- لكن هنا الآن في فلورنسا..!

- ببساطة..أنا هنا وهناك..

انتبهت حواء الحلو لطريقة صديقتها الملغزة في الحديث فقالت مستوضحة:

- تقصدين أنك هنا..لكن روحك وقلبك ومشاعرك هناك..؟

حاولت حواء الذهبي أن تتجنب النظر إلى صديقتها وقالت وهي تنظر إلى الطرف الآخر من الساحة، حيث كان أحد الرسامين قبالتها يرسم تخطيطا لسائحة تجلس أمامه وظهرها يتجه إليهما :

- أفهميها كما تشائين..لكني هنا وهناك..

استغربت حواء الحلو جواب صديقتها..تشوشت عليها بعض الأمور..ثمة غشاوة ضبابية أمام إدراكها للأمور..وبرغم أنها كانت على يقين كامل بأن التي تجلس أمامها هي صديقتها الافتراضية حواء الذهبي إلا أنها كانت في اللحظة نفسها ليست على يقين كامل بأنها هي..فالتي أمامها تتحدث بطريقة مختلفة..أحست وكأنها ليست أمام

الصديقة البسيطة والرومانسية التي كانت تتحدث معها على صفحات الفيسبوك..ثمة شيء ما ليس مضبوطاً في كل ما روته..إنها هي صديقتها حواء الذهبي من خلال صورتها..لكنها ليست هي أيضا.. أيمكن أن لا تكون هي..؟ كيف..؟.

لم تواصل حواء الحلو البحث في تساؤلاتها الأخيرة إذ انتبهت إلى أن صديقتها ليست معها..فقد كانت تنظر إلى الجهة الأخرى..وحينما وجهت نظرها نحو الجهة التي تنظر إليها انتبهت إلى وجود آدم بوناروتي وأمامه سائحة ما تجلس..أحست بفرح غامر..فلقد كانت تبحث عنه وتنتظر لقاءه منذ يومين..وها هو أمامها مصادفة.. كأن ثمة ما يشبه الغرابة في كل ما يحدث، فقد كانت قبل لحظات تتمنى لو أنه موجود ليرد على مفاهيم صديقتها ويعيد صياغة لغتها..أشارت له من بعيد فلم ينتبه لها..التفت حواء الذهبي إليها مستغربة حركتها، فانتبهت حواء الحلو لنظرتها فأجابت دون أن تنتظر سؤالا:

- هذا فنان عراقي اسمه آدم بوناروتي..
- هل تعرفينه..؟

سألت حواء الذهبي متعجبة..فابتسمت لها حواء الحلو وقالت:

- هو إنسان رائع..يعيش في إيطاليا منذ أكثر من عشرين عاما..لو كان يجلس معنا لأدخلك في متاهاته ..
- هكذا أذن..؟

أحست حواء الحلو بشيء من التحدي والانحياز العصبي الأعمى نحو الرسام الذي لم ينتبه لوجودهما، فقالت لصديقتها:

- نعم هكذا..يقول عن نفسه بأن في تلافيف دماغه وفي أعماقه غابة من الشكوك..لكن ثمة شمعة تقوده إلى يقين العدم..العدم العظيم..اللامرئي..

كانت حواء الذهبي تسمع حديث صديقتها إلا أنها كانت تنظر بعمق وكأن عينيها مسباران للتوغل في أعماق ذلك الرسام الذي يجلس قبالتهما في الطرف الآخر من الساحة..بينما استمرت حواء الحلو بالتلويح له عن بعد..فجأة توقف هو عن الرسم..وسلّم التخطيط للسائحة الأجنبية.. وفي تلك اللحظات انتبه لتلويحة حواء الحلو..فلوّح لها بدوره وتوجه نحوهما.

حين صار عند طاولتهما أحس آدم بوناروتي بالصدمة..ارتبك..تغيرت ملامح

وجهه..كان واضحاً أنه رأى هذا الوجه أمامه..بل هو الوجه الذي أنجزه عصر الأمس في لوحته الجديدة.

* * *

قادهما آدم بوناروتي إلى أزقة ودروب وساحات تقود إلى منطقة سان جيوفاني، عبر شارع (فيا دل غيغلو) حيث ضريح عائلة (دي ميتشي) الفلورنسية الشهيرة، والتي تضم رسومات ومنحوتات شهيرة للفنان ميخائيل أنجلو بوناروتي..ودخلا المبنى لزيارة الضريح والاستمتاع بكل كنوزه الفنية الباهرة..إلا أنه انتبه إلى ارتباك حواء الذهبي ومحاولاتها ثنيهم من زيارة الضريح..فعلى الرغم من أنهم وقفوا في الطابور الذي يمتد من داخل المبني حتى الشارع إلا أنها كانت تحاول أن تثنيهم عن الزيارة دون سبب مبرر..إلى أن قالت لهم بأنهما يمكنهما زيارة الضريج بدونها إذا أرادا.. فهي ستنتظرهما خارجاً..متحججة بأنها لا تجد في نفسها الرغبة الان لمثل هذه الزيارة التي تحتاج صفاء روحيا واستعداداً نفسياً..واقترحت مواصلة التجوال حيث يمكنهم تخصيص وقت آخر لزيارة الضريح.. فوافقوا رضوخا عند رغبتها..فبالنسبة لآدم بوناروتي قد زار الضريح مئات المرات، لذا توجهوا إلى ساحة (بياسا ديللا سينيوريا) حيث تنتشر المقاهي. وهناك جلسوا في مقهى تطل على الساحة. جاءهم النادل بأكواب الكابتشينو الكبيرة..أخذوا يرتشفون منها بتلذذ..

كان آدم بوناروتي مشغول الذهن بهذه المرأة الغريبة..كيف تراءت له ورسمها وهو لا يعرفها..؟ من هي..؟. انتبهت حواء الذهبي لشروده الذهني وانشغاله بالتفكير، وحدست أنه يفكر فيها فقالت له بطريقة ملغزة:

- مالي أراك مشغول الفكر..؟! إنك تصعد مع الموجة العالية، والهادرة، لكن احذر، فالموجة العالية لا تنساب بهدوء، وإنما تبدأ بالإلتفاف قبل أن تنحدر وتتحطم..وعندها تأخذك إلى الأعماق..إلى الأعماق الهادرة هناك في الأسفل..!

استغربت حواء الحلو هذه الفاتحة من النقاش بينهما، ونبرة التحذير المليئة بالألغاز في صوتها وهي تتوجه إليه وكأنهما يعرفان بعضهما البعض علماً أنهما ألتقيا قبل ساعتين لا أكثر..لكنها أرادت أن تستمتع بما سيدور بين هذين المخلوقين.. الروحين المنسيين في متاهات هذا الوجود مثلها..وانتظرت بمتعة رد آدم بوناروتي

لها..وكادت تشعر بالخيبة حينما رأت أن آدم بوناروتي لم يتأثر بكلام صديقتها وكأنه غير معنيٍ به..لكنه التفت إليها فجأة وقال بلا مبالاة واضحة لكن بنبرة فيها تحدٍ مبطن:

- أعتقد أن كاتباً فرنسياً كتب ذات مرة بأنه ليس أمام الإنسان إلا طريقة واحدة للخلود في هذه الدنيا، هو أن ينسى أنه فان..

نظرت حواء الذهبي إليه بتركيز..ابتسمت له بمودة وقالت بنبرة العارف:

- هذه جملة وردت في مسرحية لجان حيرود..لكنك يا آدم تؤول كلامي حسب هواك..كما يبدو لي أنك تطرح الكثير من الأسئلة على نفسك..

هيمن شيء من التوتر الخفي بينهما. كانت حواء الحلو تراقبهما وكأنها ترى مسرحية لا شأن لها بها..ابتسم آدم يوناروتي بحزن ونظر إلى حواء الذهبي وكأنه يريد التوغل إلى أعماقها، وقال:

- ما بين الخروج من عتمة الرحم إلى ضوء الحياة..والعودة إلى الظلام ثانية ثمة رحلة من المعاناة..ولا معنى لهذه الرحلة بلا أسئلة..ولكل منا أسئلته.. مهما كانت بسيطة..وساذجة..

لم تشأ حواء الذهبي أن يتوتر الأمر بينهما..لذلك حاولت تلطيف الجو بينهما، فقالت:

- وهل تجد أسئلتك تجلياً لها في لوحاتك التي ترسمها..؟ لو كان الأمر كذلك فهذا يعني أنك ترسم بشكل ساحر وجذاب وجميل..

ابتسم لها بلامبالاة وقال وكأنه يحدث نفسه:

- الساحر..الجذاب..الجميل..هذه أشياء مختلفة عن بعضها ولا يمكن أن تكون مجتمعة معاً..

فجأة وجدت حواء الحلو نفسها تسأله، فقد أحست أن هذا الأمر يعنيها أيضاً، فسألته:

- كيف..؟ كيف أن الساحر والجذاب يختلف عن الجميل ولا يمكن أن يكونا معاً..؟

فجأة التفت كلتاهما إليها، وكأنما انتبها لوجودها معهما، نظرا لبعضهما البعض للحظات، ثم توجه آدم بوناروتي إلى حواء الحلو قائلاً:

- الاعتقاد بأن الجميل يجب أن يكون ساحراً وجذاباً هو خطأ شائع..فالجذاب ليس بالضرورة جميلاً..صحيح أن الجميل لديه من الغموض الذي يمكنه أن يجذب المتلقي، لكن الجذاب في ذاته يسحب المتلقي المنجذب بعيداً عن التأمل النزيه بحد ذاته..الجميل يدفعك إلى إدراكه..الشر نفسه ممكن أن يكون جذاباً..الشهوات كلها..الرغبات..الهيمنة..السلطة..كلها يمكنها أن تجذبنا..لكن هل هي جميلة..؟ الجميل يجب أن لا يحمل أي ظل من ظلال الشر..حتى وإن لم يكن نافعاً بالضرورة..

فجأة قاطعته حواء الذهبي سائلة:

- وماذا عن الجليل والسامي..؟

التفت إليها وأحس وكأنه في قاعة إمتحان..أراد أن ينهي حالة السجال المهيمنة على جلستهم.. فقال بنبرة من تعب من الأسئلة والأجوبة:

- أعتقد أن علماء الجمال توقفوا عند مفهوم الجميل..والرائع، والجليل، والسامي..وهي مصطلحات متداولة في علم الجمال..ولا أريد هنا أن أستعرض طروحاتهم لكني أعتقد أن الإنسان ذا الخلق الجليل لا ينظر إلى الأشياء وإلى الآخرين من خلال الإحتكام لإرادته ولذائقته..فهو يتقبل رذائلهم وكراهيتهم وأحقادهم دون أن تثير فيه كراهية أو حقداً ضدهم.. فهو يتأمل سعادة الآخرين دونما حسد، حتى فضائلهم لا تعنيه ولا تدفعه إليهم..بل حتى سعادته أو تعاسته لا تؤثر في أحكامه عليهم..هو يكتفي بذاته..ويحتفي بجمال الأشياء بذاتها..و..

قاطعته حواء الذهبي سائلة بمكر:

- هل تعتقد أن هذه السمات الجليلة هي التي تمنح الإنسان صفته الإنسانية..؟
- لا أدري..لكني أدرك شيئاً واحداً..هو أن الإنسان لن يستطيع أن يكون إنساناً جليلاً دون أن تتأجج الرحمة في كيانه..الرحمة إزاء المخلوقات الضعيفة، بل إزاء جميع المخلوقات، بشراً، حيوانات، نباتات، الرحمة هي التي تمنح الإنسان صفته الإنسانية..لا العقل..لا الذكاء..لا القوة..لا المال.. والثروات والجاه..وإنما الرحمة..أن يكون الإنسان رحيماً تلك الميزة التي يسمو بها..وتمنحه الجلال..لأنها سمة الخالق نفسه..الإنسان الرحيم هو

الإنسان الجليل.. فكل سمات الجلال التي ذكرتها لا يمكن أن تكون في الإنسان الذي لا يتوهج بالرحمة على المخلوقات..ويتوحد مع الوجود بكامله..

كانت حواء الحلو تستمع بإنفعال لهذه المحادثات الذكية بين شخصين غامضين بالنسبة لها. فجأة ارتسمت علامات التعجب والذهول على وجه آدم بوناروتي..كان مشدوها..انتبهتا إليه، فسألته حواء الذهبي وكأنها أدركت ما جرى، وعلى وجهها إبتسامة غامضة:

- ماذا..؟ ماذا رأيت..؟
- أنتِ..

ارتبكت حواء الذهبي..التفتت إلى حواء الحلو وعلى وجهها ارتباك وتساؤل،بينما سألته حواء الحلو مباشرة:

- ما بها..؟
- إنها الليل..

نظرت حواء الذهبي إليه وكأنها تعرف ما يقصد..لكنها ادعت عدم الفهم فسألت:

- الليل..؟ أنا الليل..؟ ماذا تقصد..؟
- أنت المرأة التي نحتها ميكائيل أنجلو بوناروتي كتمثال يجسّد تعاقب أوقات الزمن.. فقد نحت الليل كامرأة والنهار كرجل والفجر كامرأة والغروب كرجل..أنت الليل..

قهقهت حواء الذهبي محاولة أن تسفّه الأمر وتدير الحوار..فقالت له:

- أنت رومانسي..ويبدو لي من كثرة رؤيتك لهذه المنحوتات فأنك تراها في وجوه الآخرين..
- من..؟ أنا رومانسي..؟
- ولماذا تعتبر ذلك وكأنه شتيمة..أنا شخصيا كنت رومانسية حالمة كلما اتيحت لي فرصة لأكون كذلك..وكنت متسلطة كلما سنحت لي فرصه لأكون متسلطة..وكنت أنثى بكل غنج الأنثى..أنا كما ترى امرأة بسيطة أنهكتها مشاعر المحبة..

انتبهت حواء الحلو إلى أن التي تتحدث ليست صديقتها حواء الذهبي..فهي

ليست التي تحدثت لها قبل ساعات..فحتى لغتها اختلفت.. وانتبهت لآدم بوناروتي يسألها:

- ألم تتعبي من الأقنعة..عبر كل هذه الأزمنة..وهل أنت امرأة بسيطة حقاً..؟.. ولماذا أنهكتك مشاعر المحبة..؟..لماذا تترفعين بمشاعرك؟ لماذا لا تعيشين هذه المشاعر؟

ظلت حواء الحلو تتنقل بين وجهيهما وكأنهما عاشقان التقيا بعد سنين من الفراق.كانت مأخوذة بجو الحوار.. وانتظرت بشوق إجابة صديقتها، التي بدأت بالحديث قائلة:

- لست مقنعة دائماً..أقنعتي محدودة، فبساطتي تجعلني عفوية أحياناً أكثر مما ينبغي..شعوري بالمحبة نحو المجهول عميق جداً..لا أتقن الإحساس بالكراهية تجاه من يؤذيني..سريعة النسيان..كثيرة السفر في عوالم اللامرئي.. ضقت ذرعاً بتفاهة الواقع المرئي.. مللت الخيبات البشرية..أحاول أن أتخلص من الماضي الذي كنته دون جدوى..

انتبهت حواء الحلو إلى جواب صديقتها، وأيقنت أنها ليست نفسها التي تحدثت معها عن خيباتها وعن عدم ثقتها بالآخرين..لا..هذه تتحدث بلغة مختلفة..لكن لماذا..؟ ألأنها تريد أن تنال إعجاب الرجل..بينما كانت تحدثها هي لأنها امرأة مثلها..؟. سمعت آدم بوناروتي يقول وكأنه يحدث نفسه:

- إنك تفجرين الأسئلة في عقلي ونفسي..أحس حضورك وروحك يطويان خيبات كثيرة..لكن الخيبات ما هي إلا أحلام ميتة..أين تكمن خيباتك الكبرى؟

نظرت حواء الذهبي بحزن وقالت وكأنها تستعيد عصوراً من الأحلام والخيبات :

- وددتُ لو أن أحلامي ماتت فعلاً..لكنني رأيتها تتحطم..تتهشم جمجمتها.. تنكسر وتتهاوى أمامي ركاماً من الحطام الجريح وأعتذر إذا ما تجنبت الحديث أكثر عن أحلامي وخيباتي..

ارتبك آدم بوناروتي وقال:

- أنا الذي علي الإعتذار..لمحاولتي إزاحة الصخرة عن بوّابة مغارة الأحلام الميتة..

- أبداً..أنت تحاول اختراقها بأشعة روحك..لقد اقتربت كثيراً من عالمي..

لا أعرف..لقد أربكني هذا التوغل الدقيق..فأنا امرأة تهشمت مراياها الصغيرة قبل الكبيرة..امرأة نسيت كل الأسرار الغامضة و تنازلت عن لغة الأنوثة وقواعدها..

أحس آدم بوناروتي بنبرة الأسى والشجن في صوتها، فقال لها برقة متناسيا وجود حواء الحلو معهما:

- أنت يا سينيورا حواء الذهبي امرأة استثنائية..أعرف حذرك وأتفهمه..فأنا الذي اقتحمت سكونك..لكنني أحسست بشيء غامض نحوك..فمذ رأيتك، أحسست أنني أعرفك..أنا أعرف ميلك للصمت..لذا أنت قليلة الكلام..،وإذا ما تكلمت لفترة طويلة فهذا يعني أنك تهربين من نفسك..فصمتك هو اللغة العظيمة التي تمنحك البهاء والغموض..وأنت نفسك تعرفين نفسك.. وتعرفين حواء الذهبي الأخرى التي في أعماقك والتي هي أنت أيضاً.. لكن الأخرى أكثر غموضاً منك..فتلك هي التي تتوهج في قلب الجوهرة الزرقاء..بل هي الشعلة الزرقاء السنية..تلك الشعلة التي تتوهج في قلب المغارة المظلمة.. عموماً..لنغلق على حواء الذهبي الأخرى التي في أعماقك قليلا..الآن على الأقل..لكن لدي سؤال: ماذا تكتبين بالضبط..؟ هل تكتبين قصصاً..؟ طبعاً يمكنك أن لا تجيبي لو كنت متعبة وتريدين الراحة أو عدم مواصلة الحديث..

ابتسمت حواء الذهبي بتعاطف ومودة وقالت:

- نعم..أنا أكتب الرواية وأنواع أخرى من السرد...
- هل نشرت كتاباتك في كتب مستقلة..؟
- نشرت رواية اسمها (ملاك الجحيم) لكن باسم رجل هو آدم ابن آدم.. وكتبت قصة طويلة بعنوان (دفتر الألم)..ولدي رواية طويلة أخرى..لم أنشرها بعد..

تدخلت حواء الحلو لتوضح ولتذكرهم بأنها موجودة أيضاً، فقالت:

- هي هنا لكشف أسرار جريمة قتل ابنة خالتها..وتريد أن تكتب رواية عن ذلك..
- ابنة خالتك قُتلت في إيطاليا..؟ كيف..؟ ومتى..؟

نظرت حواء الذهبي إليه بنظرةٍ وكأنها تفك له لغزاً وقالت:

- ابنة خالتي هي حواء صحراوي..وجدت مقتولة في حوض السباحة بفندق

في جزيرة إسكيا.. بالقرب من نابولي..

- ماذا..؟

هبّ آدم بوناروتي واقفاً..وقال:

- أتدرين أن صديقي الرسام آدم الغفاري كان قد التقاها قبل يوم من مقتلها.. ورسم لها تخطيطاً.. وقد اعتقلته الشرطة لهذا السبب..لكنه كاد يجن بسببها.. لقد رسم لها عشرات التخطيطات.. والبورتريهات..واللوحات الزيتية..

نظرت حواء الذهبي وقالت بحزن:

- أعرف..أعرف..كل هذا..

نظر آدم بوناروتي إليها وهو يجلس وكأنه بركان يخمد وهو يقول وكأنه يحدث نفسه:

- تعرفين...؟ كيف..؟

- أعرف ذلك منذ زمان..فقد كنت هناك..في إسكيا..وفي الفندق نفسه..

- ماذا..؟

صرخت حواء الحلو لاإراديا..صمت آدم بانوروتي للحظات..كان يحس وكأن ما يجري غير منطقي ومليء بالأسرار..نظر إلى حواء الذهبي وسألها بطريقة غريبة:

- وماذا عن الشعر..؟ أتكتبين الشعر أيضاً..؟

استغربت حواء الحلو هذه الانعطافة لتغير اتجاه الحديث، فسكتت لترى ما وراء السؤال والجواب من ألغاز مبهمة..كما فوجئت حواء الذهبي بهذه القفزة في الحوار..سكتت لثوان وأجابت وكأنها لتجاريه ولتعرف ما وراء سؤاله من قصد:

- نعم..أتعوذ بالشعر من روحي المنسية والتائهة في أفق العدم..أقرأه وأكتبه أيضاً.. أنا أحاول من خلاله أن أكون نفسي فلولاه لتناثرت رماداً ..

استمع آدم بوناروتي إليها باهتمام واضح ثم سأل:

ـ هل لي أن أسألك عن عمرك..!!كم هو عمرك..؟ولو يقال إنه لا يحبذ أن يسأل الرجل امرأة عن ذلك..

ابتسمت حواء الذهبي من سؤاله وقالت بنبرة فيها بعض المزاح:

- عمري..؟ أنا في منتصف الثلاثين..وربما أنا أعيش منذ آلاف السنين.. كنت في الطفولة أسأل أمي وبعدها معلمتي عن الله.. أمي كانت تجيبني

بأن الله في السماء، بينما المعلمة صفعتني على وجهي حينما سألتها لأتأكد من جواب أمي..!! ..منذ تلك اللحظة أخذت أتفحص السماء، وأسأل نفسي: أين الله..؟ لماذا لا يجيبني الله لو كان موجوداً في السماء..؟..في بعض الليالي الباردة كنت أفكر في الله وأقول أنه الآن يشعر بالبرد..فآخذ غطائي وأتسلل إلى السطح خلسة لأعطيه الغطاء..لكني كنت أشعر بالخوف والوحشة..فأنزل مسرعة لأختفي في فراشي.. كنت أحيانا أضع الطعام على السطح كي يأكل إذا ما جاع..كنت أشعر أن الله وحيد وأعزل..فهو لم يلد ولم يولد..فليس لديه أهل يعتنون به..كنت طفلة.. لكني كنت أنتظر اللحظة التي يجيبني فيها.. لكن بدل أن يجيبني صرت أسمع أصواتاً وهواجس في أعماق جمجمتي..صرت أرى أحلاما غرائبية..حين صرت في المرحلة المتوسطة انتابني هوي القراءة.. ولكني برغم ذلك كنت أبحث عن الله في كل ما أقرأ..ولم أجده في الكتب.. حتى في الكتب المقدسة وجدت رباً مخيفاً..منتقماً.....ذات ليلة مقمرة رأيت وكأن السماء تنشق وتكشف عن أعماقها..وكأنها بوابات من الغيم الأبيض.. ورأيت طيراً يخفق بجناحيه المتعبين بين تلك البوابات.. فجأة رأيت رأس مخلوق هائل الحجم..وكبير كبر الأبواب فارتعبت من النظر إليه..حتى أني لم أتبين ملامحه الهائلة.. لكني كنت أوطّن نفسي على النظر إليه..وكلما اختلست لحظات بالنظر إليه خفقت آلاف الأجنحة غير المرئية، وتطايرت في السماء أوراق كتب بالية.. حين قصصت رؤيتي على أمي أخذت تدعو لي بالبركة واليمن..وتقول لي إن الأوراق المتطايرة هي من أوراق اللوح العظيم..ودعتني إلى إعادة قراءة القرآن..كانت تقول لي بأن القرآن كلام الله..إزداد ارتيابي وترامت حيرتي.. كيف يتكلم الله..؟..الغريب أنني كنت واعية إلى أن صلاتي وقيامي كان ضحكاً على نفسي، فأنا لم أجد نفسي مذنبة أو مخطئة كي استغفر، في صلاتي ودعائي، عن شيء وظلم لم اقترفه..!! وبرغم ذلك عشت متزمتة له ولنواهيه.. لكني خلعت ذاك الطمر لما قرأته ملياً..بيد أن هسيس الأصوات الغامضة لم يتوقف في أعماق جمجمتي حتى اللحظة ..

كان آدم بوناروتي وحواء الحلو صامتين..ينصتان إليها بفضول..فجأة قاطعها

آدم بوناروتي مستغلاً لحظة توقف في الكلام فسأل:

- هل أنت متزوجة..؟

نظرت حواء الكرخي إليه لثوان بارتباك ثم قالت وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة حزينة:

- حتى هذه اللحظة تحيط بي تلك الأصوات..لاسيما لحظة القراءة أو الكتابة..أسمع الأصوات الغامضة والصامتة عالياً في أسئلتي وشكوكي.. عشقت الله..كنت أشعر وكأنه يوغل في غيابه فيَّ ، أشتاق له وأريد لقاءه.. هكذا صرت أعبده وأهجس فيه، بل صرت أحب شكوكي.. شعرت أنه يحب شكي فيه أيضا..

أعاد آدم بوناروتي سؤاله بإلحاح:

- هل أنت متزوجة..؟

صمتت حواء الكرخي للحظات ثم قالت وكأنها تحدث نفسها:

- لا..لست متزوجة..وسأروي لكما طرفة.. ذات مرة تقدم لخطبتي شخص ما..فنان مسرحي.. فسألته هل أنت إنسان ؟ إعلم أن جوابك سيكون صداقاً مبدئيا لموافقتي، فضحك علي ولم أره بعد..

نظر آدم بوناروتي وحواء الحلو لبعضهما البعض..تبادلا نظرات صامتة مليئة بالغرابة..لم يعلقا على طرفتها، فواصلت هي الكلام:

- عشت حياتي منسجمة مع تلك الأصوات الغامضة ومع خفق الأجنحة غير المرئية..عشت مع العدم..تعرفت على نيتشه وببرديائيف الروسي الفرنسي.. كنت أستهجن من ينعت نيتشه بالإلحاد..إني أراه قريباً من الله أيما اقتراب.. وكان الصوت الغامض يهمس لي بمحبة، يرافقه خفق الأجنحة غير المرئية: إن من يكره يعش عاشقاً لمن كره..!! وعرفت فيما بعد أن تلك عادة الملاحدة..فمن كثرة تفكيرهم في الغائب المطلق يصبحون خاضعين له في التأمل والتفكير..

أحس آدم بوناروتي بأن حواء الذهبي تحاول أن تتحدث بلغة صوفية..لغة لا يطيقها هو..فهي لغة تضفي على الوضوح غمامات من الغموض..لذا سألها بشكل واضح ومباشر:

- وكيف تقاومين اندفاعات الغزيزة..؟ اعذريني على جرأتي في السؤال.. فأنا أحب أن أعرفك عن قرب..وبشكل حقيقي..

ابتسمت له وكأنها تسمع مشاكسة طفل صغير وعنيد:

- أقاومها بالكتابة الماجنة حيناً وبالقراءات الإيروتيكية حيناً آخر..
- أتكتبين تعبيراً عن رغباتك وشبق الجسد..؟ وهل تنشرين ما تكتبين..؟ أم أنك تكتبين لنفسك في لحظة التوهج..وكذا في القراءة..؟؟..
- نعم.. تلك كتابات خاصة تنتابني حين توهج الرغبة الجسدية التي أمزج لذتها بالمطلق اللامتناهي..
- إلى أين أنت ماضية ..؟
- إلى شرفة اللازورد..
- هل أنت عرافّة..تتحدثين وكأنك تتعوذين..؟
- لا أريد العرافة فقد بتّ أضنى وأختنق على الرغم من لوذي بها ..عموما دعك عن كل هذا ..إعرض عنه..لا تستمع لما أقول فروحي سوداء..

فجأة وجدت حواء الحلو تقول لها بلهفة وإنجذاب:

- روحك ليست سوداء..

نظرت حواء الذهبي إليها بمودة وطيبة وواصلت كلامها:

- أريد أن أتحرر من عبودية ذاتي..عبودية أسئلتي وشكوكي.. فأنا لا زلت مقيمة برزخ الشك..لا أخاف الجحيم..فيكفي أن أنطق باسمه حتى تنطفئ نيران الجحيم كلها..أنا من هواة النأي الأبدي..

صمتت هي ولم تكن لدى آدم بوناروتي الرغبة بالاسترسال في مثل هذا الحوار الغامض..أحس وكأنه أمام امرأة أخرى ليست تلك المرأة التي كان يحدثها قبل قليل..أما حواء الحلو فقد كانت منجذبة لها لحد الدهشة على الرغم من أنها لم تفهم من حوارها الأخير شيئاً واضحاً.

انتبهت حواء الذهبي إلى البرود الذي ساد بينهما نتيجة للغتها الغامضة التي تحدثت بها. فجأة نهضت عن كرسيها وقالت لهما بأنها تريد الذهاب إلى المغاسل.. أحس آدم بوناروتي وحواء الحلو بشيء من الارتياح فهذا يخفف شيئاً من التوتر الذي ساد الحديث.

مر أكثر من نصف ساعة على ذهاب حواء الذهبي إلى المغاسل..كان القلق قد أخذ يتصاعد شيئا فشيئا لديهما..نهضت حواء الحلو متجهة إلى المغاسل لتتأكد من حالة صديقتها فربما تعرضت لشيء ما هناك إذ أن تأخرها كل هذه المدة يثير الريبة.

بعد دقائق عادت حواء الحلو قلقة وعلى ملامحها خوف واضح وقالت لآدم بوناروتي بعجلة وتوتر:

- لا أحد في المغاسل..ولا في المرافق الصحية..أين هي..؟ أين ذهبت..نحن نجلس مقابل المغاسل ..فإذا ما كانت قد خرجت فمن المؤكد كنا رأيناها ..فأين اختفت ..؟

أدرك آدم بوناروتي بأن شيئاً غامضاً قد جرى..وقد سبق له أن عاش مثل هذه التجربة..أحس بخوف شرس ينقض على أعماقه..تذكر كل شيء مع المرأة التي كان اسمها إيفا ماريا بوناروتي..التي تجلت وكأنها أم زوجته الميتة..لكن اتضح أنها روح فرعونية غامضة..قطعت له قضيبه بسكين المطبخ..لذا وجد نفسه ينهض عن كرسيه مذعوراً ، ولا إراديا، يغادر المقهى.

استغربت حواء الحلو تصرفه..ظلت حائرة لا تدري ماذا تفعل..ولا إراديا وجدت نفسها تتجه مرة أخرى إلى المغاسل لتفتش عن صديقتها الغامضة..وفي الوقت نفسه تفكر في حالة الذعر التي أصابت آدم بوناروتي.

الفصل الحادي والعشرون

في مهب التحولات

رنّ الهاتف النقال. استمر بالرنين. نظرت إليه إيفا سميث بعينين جامدتين وكأنهما تنظران في الفراغ، لكنها تحس بالفراغ في داخلها هي، فذهنها متعب وتحس بنفسها عاجزة عن التفكير بأي شيء، بل كانت تحس وكأنها تفكر في كل شيء وفي الوقت نفسه تحس بأنها لا تفكر في أي شيء..

كانت تعرف أنها قضت ليلة قلقة..شكرت العذراء إلى أن زوجها لم ينتبه لحالتها النفسية حينما عاد مساء..وشكرت الرب إلى أنه نفسه كان مرهقاً من متاعب العمل وكان مشغول البال، لذا تصاعد شخيره بعد دقائق من نومه..وحتى في الصباح لم يكن طبيعياً..كان قلقاً شارد النظرات..ولم تسأله هي شيئاً..كما أن صديقتها حواء ذوالنورين جاءت متعبة ومرتبكة، وكانت تشكو من صداع شديد فدخلت غرفتها مباشرة..حتى أنها لم تتمكن من أن تسألها عنما جرى معها بصدد قضية اللجوء.. وهذا من حسن حظها لأنها لكانت تريد أن تختلي مع نفسها، ولمم تكن في حالة تساعدها على المجاملة..لكن من يا تُرى يطلبها الآن..أيكون زوجها..؟.

نظرتْ إلى شاشة الهاتف. كان رقماً غريباً. عادة هي تكتب أسماء من تحتفظ بأرقامهم فتظهر أسماؤهم على الشاشة وليست أرقامهم. توقف الهاتف عن الرنين. مر خاطر في ذهنها بأن هناك من أخطأ في الرقم..فكرت مع نفسها بأن المتصل لو كان يطلبها هي بالذات لتكرر الاتصال بها..وفي تلك اللحظة بالذات رن الهاتف ثانية..نظرت إلى الشاشة فرأت الرقم نفسه.. عاندت فضولها ولم ترد..توقف الهاتف عن الرنين..أخذت تجول بنظراتها في جوانب الشقة دونما قصد محدد. ولم تمر سوى لحظات حتى رن الهاتف للمرة الثالثة..نظرت إلى الشاشة فرأت الرقم نفسه..

في تلك اللحظة قررت الإجابة..حالما همّت بالإجابة ؛ إذا بصوت رجل يحييها بنبرة جريئة..عرفته فوراً.. أحست وكأن تياراً كهربائيا قد مسها..فقالت له متعجبة وبنبرة في غضب واضح:

- من أين أتيت برقم هاتفي..؟..(لحظة صمت)..ممن..؟ صديقتي حواء دمشقية..؟ متى..؟ اسمعني ..أرجو أن لا تتصل بهذا الرقم مرة أخرى وإلا سأشكوك عند الشرطة بتهمة التحرش والإزعاج..هل فهمت..؟

وأغلقت الهاتف في وجهه.

كانت غاضبة..بل كانت تتميز غضباً..أرادت أن تتصل بصديقتها حواء دمشقية لتصب عليها لعناتها، لكنها برغم انفعالاتها المتأججة كان عقلها الأنثوي صافياً.. فكرت بأنها لو قامت بذلك فأن صديقتها ، وكرد فعل منها وكغيرة نسائية، ستتصل به وتتشاجر معه..وحينها ربما سيخبرها هو بما بينهما..فهو وقح وداعر ونذل..لذا كظمت غيظها.

نهضت عن كرسيها..غضب جامح يتأجج فيها، يرافقه إحساس فائض بالعزلة.. أخذت تذرع الشقة طولاً وعرضاً..وجدت نفسها لا شعوريا تعد خطواتها في الطول حتى الباب الخارجي وعرضاً ما بين غرفة النوم والنافذة المطلة على الشارع في الصالون..صارت تعرف كم خطوة طول الشقة وكم خطوة عرضها..أحست بأنها هدأت قليلاً..انشغالها بعد خطواتها ساعدها أن تهدأ قليلاً.. خلال هذه الوقت الذي ربما استمر في حدود نصف الساعة كان الهاتف قد رن تسع مرات..كانت تعرف أنه هو يلح في الاتصال..فكلما كان الهاتف يرن تتجه إلى الطاولة حيث وضعت الهاتف وتنظر إلى شاشته..وأخيرا صمت الهاتف ولم يرن بعدها.

كانت تفكر بنفسها كيف أنها قضت سنوات عمرها تتصرف وفق أهواء الآخرين، ووفق نظرتهم إليها، أو ما تتوقعه من تقييم لها، لا وفقاً لقناعاتها. انتبهت إلى أن حياتها ليست سوى أرشيفٍ للأتيكت والمجاملات والابتسامات المستعارة التي يجب أن تحفظ بشكل مضبوط وكيفية استخدامها بشكل دقيق في اللحظة المناسبة..كانت تحس بغضب من نفسها، ومن ضعفها أمام الأخلاق الاجتماعية المنافقة.. وبدون شعور منها وجدت نفسها تتوجه إلى غرفة الضيوف حيث تنام صديقتها التي فكرت لحظتها بأنها الآن مع زوجها ليأخذها إلى محامي الشركة كي يقوم بتقديم معاملة اللجوء لها..

فتحت باب الغرفة..أحست بفزع كبير لا إرادي..رأت امرأة في ثوب أسود، تضع وردة حمراء على شعرها..وشالاً على كتفيها.. تقف عند نافذة الغرفة المطلة على الشارع..تنظر إلى خارج المكان..وفي اللحظة التي فتحت هي الباب التفتت المرأة إليها..صُدمت..أغلقت الباب فوراً..وبعد ثوان كانت خلالها تراجع نفسها.. أمن المعقول أنها رأت امرأة في الغرفة..؟ امرأة لا تتذكر بالضبط أين رأتها..أم أن ذلك من تهويمات ذهنها المتعب ونفسها القلقة..؟..قررت مع نفسها أن تدخل الغرفة لتتأكد من أن ذلك ليس وهماً..فتحت الباب بعد ثوان.. كانت الغرفة خالية من أي مخلوق..لا أثر للمرأة.. اقتنعت أن ذلك من أوهام ذهنها..لكنها فكرت بأنها تعرف هذه المرأة التي استحضرها ذهنها.. نعم.نعم.إنها من نساء رينوار. تذكرت الآن.. أحست أنها وجدت التفسير لرؤيتها ..فقد زارت المتحف قبل يومين مع صديقتها.. ورأت لوحات كثيرة لرينوار..وبالتأكيد هذه المرأة استحضار خفي لا واع لتلك الزيارة..لكن لماذا هذه المرأة بالذات..؟..لم تشغل نفسها كثيرا بالبحث عن الجواب.

دارت بنظرها في الغرفة. رأت الكتاب الذي يحمل عنوان (ملاك الجحيم) لآدم ابن آدم ملقىً على السرير. لا إراديا وجدت نفسها تجلس على حافة السرير..ظلت هناك جالسة تجول بنظراتها التائهة في أرجاء الغرفة..لا تعرف كم مر من الوقت عليها وهي تجلس على حافة السرير، لكنها كانت حاضرة في الغياب!.

نهضت من السرير بطريقة آلية وغادرت الغرفة..حين صارت في وسط الشقة أخذت تذرع الشقة طولا وعرضاً..استهوتها هذه اللعبة العبثية..وبدون إرادة منها كانت صورة آدم زاباتو وبسمة المنتصر الساخرة التي ارتسمت على وجهه تحضر أمام عينها الداخلية..ولاإرادياً وجدت نفسها تستحضر كل المشاهد التي جمعتها به..كانت تحس بالغضب من نفسها حينما تتصيد مشاعرها نحوه فتجد أنها ليست غاضبة منه بقدر غضبها من نفسها وضعفها.

كانت قرب باب الشقة حينما سمعت صوت باب المصعد يُفتح..وأصوات وقع أقدام في الممر تتجه نحو شقتهم..توقفت عن المشي.. أحست بالتوتر حينما صارت الخطوات قرب باب شقتهم..ثم خيم سكون غريب..ظنت أنها كانت تتوهم مرة أخرى..

فجأة رن جرس باب الشقة. أحستْ بالرعب..وسرت في جسدها قشعريرة باردة..من ترُى يطرق الباب..؟..كان بينها وبين باب الشقة خطوات قليلة..مرقت في خاطرها توقعات سريعة ومتعددة.. ولم تكن قد استقرت على توقع محدد حينما مدت يدها لتفتح الباب.

حين فتحت الباب وجدت نفسها وجها لوجه معه..تراجعت من هول الصدمة والخوف..بينما انتهز هو هذه الفرصة فتقدم داخلا في الشقة غالقا الباب بظهره متكئا عليه..فانطبق مطلقاً صوتاً قوياً.

كان يحدق فيها برغبة صريحة وبإغراء مكشوف..انقضت دقيقة وهما صامتان ينظران إلى بعضهما البعض..هي تترقَب خائفة ومرتبكة مع إعجاب غامض في أعمق أعماقها لتصرفه الجريء والوقح..وها هو يقول لها كلاماً إباحياً مكشوفاً من خلال نظراته..أحست بفقدانها السيطرة على نفسها..شعرت بأنه لو استمر دقيقة أخرى ينظر إليها بهذه الرغبة والإغراء لانهارت أمامه..ولكي تقاوم ضعفها انسحبت إلى داخل الشقة..تبعها..لم تخطُ سوى خطوات قليلة حتى أحست به وهو يحتضنها من الخلف مقبلاً عنقها ومداعباً نهديها بيد بينما يده الأخرى تجوب في منعطفات جسدها المثير، لتستقر ما بين فخذيها.. بل ومد يده داخل بجامتها ليمسك بفرجها.. بينما كانت هي ترتجف من الرهبة والشهوة والغضب..وكانت مستغربة من نفسها لكونها شبه مشلولة..تريد ولا تريد..وانتبهت إلى أنه كان يجرها من يدها إلى الصوفا في الصالون بقوة..ووجدت نفسها مقادة معه رغماً عنها..وكأن هناك قوة تجذبها وتشلّ مقاومتها.

انتبهت إلى أنه يحاول أن يعريها..ويحاول أن ينزع بيجامتها.. وهو يدفعها على الصوفة..استغربت من شللها وعدم استطاعتها القيام بأية حركة دفاع عن نفسها، وهالتها وقاحته وجرأته المتهوّرة..كان ذهنها منشغلا باحتمال دخول زوجها أو أمها والأطفال في تلك اللحظة مصادفة ويجدوها في هذا المشهد..لكنها في تلك اللحظات نفسها كانت أيضاً تحاول خنق صوت الضمير و عدم الانتباه لإحساسها الأخلاقي الذي كان قد دفعها إلى محاولة الانتحار.

نعم..فعلى الرغم من أنها كانت على وشك الانهيار أمام قوته من جهة، وأمام قوة الرغبة التي تفجرت فيها فجأة، برغم إرادتها، إلا أن وعيها كان صافياً..كانت تفكر مع نفسها في تلك اللحظات بأنه يجب عليها ألاّ تستسلم له مهما كلف

الأمر..انتبهت إلى أن العرق أخذ يسيل منه ممتزجاً بعطره الرجولي..انتبهت إلى أنه يعتصر نهديها ويقبل حلمتيها..كانت عنقه مبتلة بالعرق..وفروة رأسه قريبة منها.. كانت تشم رائحة ذكورته التي تبث الخدر في مسامات جسدها..

أحست أنها على وشك أن تفتح ساقيها له وتلتهم شفتيه بقبلة مجنونة..لكن فجأة..توقف كل شيء..مع صوت ارتطام شيء ما..وسال دم على وجهها وعلى قميص بيجامتها المفتوح..وعمّ هدوء في جسده للحظات.

أحست أنها صارت خفيفة..ابتعد عنها ثقل جسده..رأته وهو يبتعد عنها..ينهض واقفاً..انتبهت إلى أنه لم يستطع أن ينزع بنطاله بالكامل..لكن قضيبه كان خارج فتحة البنطلون...وانتبهت إلى أنها كانت تمسك بمنفضة السجائر الثقيلة بيدها اليمنى..!.. ما الذي فعلت..؟!لم تنتبه إلى أنها في حمى الدفاع عن نفسها كانت قد تلمست أقرب شيء منها لتدافع عن نفسها..وكانت منفضة السجائر قريبة منها فمسكت بها وهوت بها على رأسه.

كان قد انسحب عنها بسرعة خاطفة..تلفت كالمجنون في ما حوله، ثم ركض إلى الحمام..كانت هي مشدوهة حتى أنها لم تغير من وضعها إلا قليلا..لكنها ظلت مستلقية ولم تنهض عن الصوفا..خرج هو من الحمام ماسكاً منشفة صغيرة ضاغطاً بها على رأسه..وغادر الشقة دون أن ينظر إليها وكأنها غير موجودة.

سمعت باب المصعد يفتح ويغلق ثانية..ظلت هي مشدوهة برهة..شبه مشلولة التفكير..ماذا فعلت؟ لقد ضربته بمنفضة السجائر الزجاجية بكل قوتها على رأسه..لكن فجأة..لا تعرف كيف تفسر ذلك..أحست وكأنها استيقظت من كابوس..أحست بصحوة غريبة في ذهنها.. وببرودة في انفعالاتها..ونشاط متدفق غريب يسري في كيانها.. أحست انها نسيت كل ما جرى لها معه..عليها الآن أن تهتم بالتفاصيل الجديدة.. بقميص بيجامتها الذي تلوث بالدم..وببعض نقاط الدم التي لوثت بلاط الأرضية.

نهضت بسرعة..توجهت إلى باب الشقة الذي كان ما يزال مفتوحاً..أغلقته.. ذهبت بسرعة إلى غرفة الحمام..نزعت قميص بيجامتها.. حاولت أن تنظف المنطقة الملوثة تحت ماء الحنفية..لم يذهب الدم بالكامل..فأخذت قطعة الصابون ودعكت المنطقة الملوثة به..وغسلته حتى زال الدم ولم يبق سوى أثر لا يشي بالدم..وبرغم ذلك نزعت كل ملابسها ووضعتها داخل الغسالة ووضعت المواد المنظفة وضغطت

زر التشغيل..مشت عارية إلى غرفة النوم..وهناك ارتدت ثيابها بالكامل. خرجت إلى الصالون. عادت إلى المكان الذي جرى فيه مشهد محاولة الاغتصاب..ثم عادت ثانية إلى الحمام..ومرة أخرى عادت إلى الصالون بجردل فيه ماء وماسحة للتنظيف..وأخذت تمسح قطرات الدم..مسحت كل شيء..لكن البِلاط اصطبغ بأثار حمراء.. وقفت مبتعدة عن المكان قليلا ونظرت إلى الأرض التي نظفتها للتو.. ابتسمت وقالت لنفسها :" لن ينتبه لها أحد إلا إذا جاء شارلوك هولمز".. كانت تقوم بكل ذلك وكأنها ليست هي وإنما امرأة أخرى.!

أعادت أدوات التنظيف إلى مكانها..اتجهت إلى المطبخ..أعدت لنفسها كوبا من النسكافيه..عادت لتجلس على كرسيها حول الطاولة.. " ياله من يوم عاصف"..قالت لنفسها..كانت تحس أنها ودعت تلك المرأة التي كانتها..؛ فهي الآن ليست هي.. إنها الآن روح منسية..في منعطفات المتاهة الغامضة..هي الآن امرأة مختلفة..كانت الأفكار تزاحمها الآن..ربما هي مجرمة..؟..هي لا تعرف عمق الجرح الذي سببته له.. ربما هشمت جمجمته..؟..ربما سيموت خلال أيام إثر ذلك..؟ وماذا لو ذهب إلى مركز الشرطة وشكاها..؟ ماذا ستقول وتبرر ما فعلته..؟ ستقول إنه اقتحم عليها شقتها وحاول اغتصابها..طيب..لكن ذلك جرى في شقتها..فكيف وصل إليها دون أي آثار لاقتحام الشقة أو آثار عنف من قبله..؟ ثم لماذا جاء...؟ألم يكتف مني.. أأثيره إلى هذا الحد..أيشتهيني هكذا بجنون بحيث يقتحم علي شقتي..؟..أيحبني..؟ أمن المعقول أنه يحبني إلى هذه الدرجة المجنونة..؟ ..كيف سأعرف ذلك..؟.

استرجعت إيفا سميث كل التفاصيل التي مرت وكأنها تشاهد فيلما سينمائيا ليست هي طرفاً فيه، على الرغم من أنها تشاهد نفسها على شاشته أيضاً..فجأة راودتها فكرة غريبة..أن تتصل به هاتفيا..أخذت الهاتف..لا يزال رقمه موجوداً على شاشة الهاتف..أخذت الهاتف.. ضغطت على الرقم..لكنها فجأة أغلقت الهاتف..لا.لا. عليها الانتظار..عليها أن تعرف نتائج ما فعلت حتى المساء حيث سيتضح كل شيء.

* * *

كانت الظلمة تغمر الشقة..وكانت إيفا سميث لا تزال جالسة على كرسيها حول الطاولة..لم تتحرك عنه منذ وقت طويل جداً..كانت تحدث نفسها" إذن جاء المساء..ولم يرن هاتفي قط..لم يتصل أحد بي..لا زوجي الذي يتصل أحيانا بدون

أية مناسبة سوى للإطمئنان علي وعلى الأولاد..ولا أمي التي أخذت الأولاد معها ..ولا صديقتي العراقية التي صار الغموض يحيطها وكأنها ليست تلك المرأة التي عرفتها في دمشق وفلورنسا..نعم..ثمة شيء ما يجري معها ولا أعرفه..فقد عادت مساء أمس مرتبكة وكأنها كانت تخفي شيئاً..ادعت بأن لديها صداعاً ودخلت غرفة نومها..ولم تخرج إلا صباحاً حيث ذهبت ثانية مع زوجي لاستكمال أمورها التي لم أسألها عنها..!!..ثمة شيء ما يدور حولي بالتأكيدا..شيء لا أعرف كنهه..!!.. بل وأين صديقتي اللعوب حواء دمشقية..؟..حتى الحقير آدم زاباتو نفسه لم يتصل مهدداً وواعداً بالإنتقام..!!..أنا مهجورة وخائفة..أريد أن يتصل بي أي كان..حتى لو كان الاتصال بالخطأ..المهم أن لا أُترك هكذا وحيدة ومعزولة وخائفة مما سيأتي..!!.

الفصـــل الثـاني والعـشـــرون

وهم الحقيقة..كرامات الشيخ المبروك

حواء ذو النورين تجلس وحيدة في سيارة التاكسي، تستذكر التفاصيل الغامضة لما حدث عصر أمس حتى اللحظة التي هي فيها.. تتذكر كيف أنها توجهت من شقتها التي في شارع روي سانت دينيس إلى كنيسة نوتردام مع آدم سميث الذي طلبت منه توصيلها إلى هناك.

تتذكر جيداً كيف أن صديقتها الكاتبة الغامضة حواء الذهبي اتصلت بها لتعتذر عن تعذّر حضورها وتطلب تأجيل اللقاء إلى وقت لاحق..تتذكر الآن أنها لم تتمالك نفسها حينما سمعت ذلك فسألتها:

- لماذا..؟ هل حدث شيء ما..؟

صمتت الأخرى للحظات ثم قالت ببرود:

- لا ..لم يحدث شيء..كل ما هناك أنني الآن في فلورنسا..

- فلورنسا..؟! سألت حواء ذوالنورين متعجبة.

- نعم..حالياً أنا في فلورنسا..

استغربت حواء ذوالنورين من إجابتها. انتبهت إلى أن آدم سميث يقود السيارة ويتنصت للحوار..انكمش حينما انتبه للتوتر الذي أصابها..لم تأبه لتنصته..سألت صاحبتها بعتاب مصحوب بنبرة تساؤل:

- لكنك اتصلت بي قبل قليل وطلبت مني أن نلتقي..فكيف ذلك..؟ هل كنت، حينما اتصلت بي، في فلورنسا أو في باريس..؟ أنا لا أفهم..

فجاء صوت حواء الذهبي واضحا بشكل مثير وكأنها تجلس جنبها:

- نعم كنت في باريس..وفي فلورنسا في الوقت نفسه..
- لا أفهم..!!!
قالت حواء ذوالنورين بنبرة قاطعة
- ليس مهما الآن أن تفهمي.. سأشرح لك ذلك في ما بعد..
لكن حواء ذوالنورين ألحت في سؤالها وكأنها لم تسمع الأخرى تعدها بالتفسير في ما بعد.
- كيف يمكن ذلك..؟ كيف يمكن أن تكوني في مكانين مختلفين في الوقت نفسه..؟ هذا غير منطقي..؟!
فجاء الجواب حاسماً وغامضاً :
- وما هو المنطقي في حياتك يا عزيزتي حواء..؟! سأتصل بك في ما بعد..
انقطع الاتصال. انتبهت إلى أن آدم سميث أحس بشيء من عدم الارتياح من مسار الحوار بين حواء ذوالنورين وصديقتها على الجانب الآخر من الهاتف..كانت لحظتها تقرأ ما يدور في ذهنه من تساؤلات..استغربت لهذه القدرة التي تلبستها في تلك اللحظات..أدركت أن آدم سميث من خلال ما سمعه من حوار يحس بأن شيئاً غامضاً يربطها مع تلك المرأة الغامضة التي تواجدت في مكانين..وفي دولتين مختلفتين في آن واحد.. وكانت تشعر بوضوح بالأسئلة التي أخذ يسأل نفسه "ربما هي إنسانة مصابة بفوبيا معينة..أو أنها تعيش حالة من حالات التوحد وتستحضر أشخاصاً لا تراهم إلا هي..؟ وأن هذه المرأة التي تتحدث معها ليست سوى وهم من أوهامها..!! ..لا..لا..لقد سمعت بنفسي رنين الهاتف لمرتين..حينما كنت في الشقة وطلبت المرأة الأخرى اللقاء معها..والآن، وهما في الطريق إلى الموعد، حينما اتصلت لتعتذر عن اللقاء..كيف هذا..؟".. استغربت أنه يفكر فيها بهذه الطريقة.. أهي كذلك حقاً..؟ لكنه لم يتوغل في هذا الغموض كثيراً..إذ كانت رغبته في أن يكون معها قد استيقظت مجدداً.. لذا حاول أن يستغل الموقف..فسألها:
- هل تأجل الموعد..؟
تتذكر الآن كيف أنها لم تجبه. وإنما طلبت منه بأن يعود بها إلى الشقة.. كما تتذكر بأنه عاد بها دون أن يتبادلا أية كلمة طوال الطريق.. فقد ساءها أن يفكر بأنها ربما مصابة بمرض التوحد..أو لديها فوبيا استحضار الأشخاص. لذلك حينما

وصلا إلى البناية طلبت منه أن لا يصعد معها..كان واضحا أنه استغرب تصرفاتها.. لذا لم يحاول أن يضغط عليها.

تتذكر أنها حين نزلت من سيارته توقفت عند باب البناية. لم تدخلها وإنما أخذت تتمشى في الشارع حتى وصلت إلى نهايته حيث هناك ما يشبه قوس النصر وتماثيل صغيرة..وأحست أن الوقت قد حان لتعود إلى الشقة حيث صديقتها إيفا سميث.. لكنها تشعر بارتباك شديد..كيف ستشرح لصديقتها ما جرى بينها وبين زوجها..ومجيئها إلى الشقة..!!..لا..لا..عليها أن لا تجلس معهم وتدعي أن لديها صداعاً إلى أن تتمكن من السيطرة على كل هذا الدفق من مشاعر القلق والارتباك؟..

تتذكر الآن أنها نفذت ما قررت فعلاً..ادعت بأن لديها صداعاً قوياً وأنها تريد أن تنام..حتى أنها اضطرت إلى ابتلاع حبة من (الباندول) ودخلت غرفتها..وأغلقت على نفسها الباب..لكنها ظلت إلى ساعات الفجر الأولى تفكر بكل ما يجري معها.. أحست أنها في متاهة غامضة..وأنها ليست سوى روح منسية في دروب هذه المتاهة.

لكنها لا تعرف لماذا أرادت هذا الصباح أن تأتي إلى هذه الشقة الغامضة..؟ حيث ادعت بأنها تريد أن تواصل قضية اللجوء وتلتقي محامي الشركة..لكنها ما أن جلست في السيارة حتى طلبت من آدم سميث أن يوصلها إلى الشقة..استغرب هو من هذا الطلب..وأحس بدفق من الفرح ينساب في أعماقه..لكنها حين وقف السيارة أمام مدخل البناية طلبت منه بوضوح أن يتركها وحدها ولا يصعد معها لأنها تريد أن تنفرد مع نفسها.. نظر هو إليها نظرات مليئة بالدهشة..لم يقل شيئاً وتركها تنزل من سيارته بينما انطلق هو بسرعة معبراً عن غضبه..بينما عاشت هي تجربة غامضة جديدة زادتها حيرة وتيهاً.

* * *

حين دخلت كابينة المصعد نهار هذا اليوم..وأغلقت الباب بدأ المصعد بالتحرك صاعداً دون أن تضغط على رقم الطابق السادس الذي فيه شقتها..خافت أول وهلة.. لكنها بعد لحظات فكرت أن هناك من طلب المصعد قبل أن أن تضغط على الزر الذي يحمل رقم طابقها..بيد أن المصعد كان من السرعة بحيث لم يمكنها من أن تضغط على الزر، إذ رأت أن كابينة المصعد قد وصلت الطابق السادس بسرعة خاطفة.. توقف المصعد..أحست وكأن هناك من يدعوها للخروج..استغربت ذلك..

فتحت باب الكابينة..وأسرعت فيما يشبه الركض إلى شقتها خائفة..فتحت بابها ودخلت..أغلقت الباب من الداخل، ووضعت المفتاح في الثقب كي تحس بأمان أكثر.

في تلك اللحظات بالذات تناهى إلى سمعها صوت خطوات تركض في باحة الشقة وتتجه نحو غرفة النوم لتغلق بابها بقوة..التفتت منذهلة..لم ترَ شيئاً..أحست بفزع طاغ..هي تعرف أن الشقة خالية إلا منها.. وقد تركت آدم سميث في سيارته، بل رأته يتحرك حينما حانت التفاتة منها عندما وصلت إلى باب البناية..إذن..من تراه في الشقة..؟ وفي غرفة النوم بالتحديد..؟ وكيف أنها لم ترَ الشخص الذي يفترض أنه كان في الصالون عندما دخلت..؟

تتذكر أنها حينما اقتربت من وسط الشقة رأت كوباً يتصاعد منه بخار خفيف.. اقتربت أكثر..ألقت نظرة على الكوب فرأت أنه مليء بقهوة ممزوجة بالحليب. خمنت أن القهوة قد أُعدّت قبل قليل..فهي حارة ويتصاعد البخار منها.. التفتت إلى ما حولها..جالت ببصرها في أرجاء الشقة لتبحث عن أي أثر لوجود شخص ما..كان كل شيء ساكناً ولا يشي سوى بالحياة الصامتة..سمعت حركة صادرة من غرفة النوم..أحست بالإرتباك..أخذ قلبها يخفق بسرعة كادت تخنقها..كانت تتنفس بصعوبة..اقتربت شيئا فشيئا من غرفة النوم..كانت متأكدة من وجود شخص ما في الداخل..لكن من هو..؟ وكيف دخل..؟ تتذكر أنها سألت نفسها :" لماذا لم يأت آدم سميث على ذكر أي شخص يحتمل أن يسكن معها..؟ أيكون هذا الشخص هي منظفة الشقة التي ربما تحمل مفتاحاً..؟ لا..لا..هو لم يخبرها بوجود منظفة للشقة..".

تتذكر الآن وهي في التاكسي بأنها حين صارت قرب الباب سمعت حركة من يصفف الثياب في دولاب الملابس..تمالكت نفسها واستجمعت جرأتها..قبضت على مقبض الباب وحركتها نحو الأسفل وهي تندفع إلى الغرفة..وقفت منذهلة.. لم يكن ثمة أحد في الغرفة..لكن ما أدهشها أن باب خزانة الملابس الخشبية ما زال مفتوحاً، بل ويتحرك كأن شخصاً كان يفتش في الخزانة..!!

حين اقتربت من خزانة الملابس ألقت نظرة على المرآة التي تتوسط بابها.. فزت حينما رأت ثمة امرأة تقف خلفها..قفزت من هول المفاجأة..التفتت إليها فلم تجد أحداً..تتذكر الآن بأنها لم تستطع أن تحتفظ بملامح تلك المرأة..فقد كانت رصاصية اللون وتكاد تكون بلا ملامح مثل قناع ياباني..حينها فكرت ربما

كل هذه من الضغط النفسي الذي تعرضت له، والذهول الذي اعتراها بعد اتصال الكاتبة الغامضة حواء الذهبي..؟!

غادرت غرفة النوم..وقفت عند بابها..فجأة راودها شعور غريب لم تعرف كيف تفسره أو تصفه. مرت على كل مواقع أزرار الكهرباء في الشقة..ضغطت عليها.. أضاءت الشقة بكاملها..وكأنها كانت تخاف الظلمة..وحين عادت إلى الصالون لم تجد كوب القهوة الساخنة الذي رأته عند دخولها إلى الشقة.

تتذكر أنها أمضت ساعات وهي جالسة على كرسي جلدي وثير..وأحست بأن العتمة أخذت تتسرب إلى الشقة..هل حل المساء دون أن تنتبه..؟.

كانت طول الوقت تفكر مع نفسها بكل هذه الرؤى الغريبة..شعرت برغبة في أن تشرب شيئاً ساخناً..فكرت أن تعد لنفسها كوباً من الكابيتشينو..فجأة سمعت ضجيجاً يأتي من خارج الشقة..أدركت أنه ضجيج المصعد وهو يتوقف عند الطابق السادس، ثم باب المصعد وهو يفتح. راودها فضول لمعرفة القادم..نهضت.. مشت مسرعة إلى باب الشقة وألقت نظرة من عدسة الباب السحرية التي تتوسط القسم الأعلى من الباب بمستوى النظر..حدقت من خلالها إلى خارج الشقة..ارتبكت حينما رأت الرجل الأشقر الوسيم الذي التقته في فندق الشام بدمشق، ثم التقته في فلورنسا، وها هي تراه الآن هنا في باريس..بل ويسكن الشقة المجاورة لها..!! لكنها لم تر إلى أي شقة قد اتجه..!!

أخذت أنفاسها تتلاحق من الصدمة..أبعدت عينها عن العدسة السحرية، لكنها ظلت واقفة عند الباب.. راودها فضول لمعرفة الشقة التي سيتجه إليها الرجل الأشقر الوسيم.. فقرّبت عينها ولصقتها بالعدسة.. قفزت من الرعب إلى وسط الشقة..فقد رأت الرجل الأشقر الوسيم يقف أمام شقتها ويبتسم في وجهها وكأنه يعرف أنها تنظر إليه!!.

تذكر أنها كانت مرعوبة..فجأة.. سمعت قلقلة مفتاح في ثقب الباب.. انطلقت من فمها صرخة رعبٍ لاإرادية فقبضت بكفها على فمها وكأنها تريد أن تكتم صوتها كي لا يسمعها أحد. ركضت إلى الصالون..التفتت لاإراديا نحو الطالولة التي تتوسط الصالون..رن جرس الشقة الخارجي. أحست وكأنها أصيبت بالشلل.. لكن فجأة وجدت نفسها تركض إلى المطبخ.

تتذكر الآن أنها أغلقت الباب على نفسها . رأت سكينة مطبخ كبيرة ملقاة على طاولة المطبخ. أخذت السكينة، وكأنها تريد أن تدافع عن نفسها بها. في تلك اللحظة بالذات رن هاتفها. فزت..سقطت السكينة من يديها..أخذت تفتش بارتباك عن هاتفها الذي كانت قد خبأته في حقيبتها..رأت اسم آدم سميث.. ضغطت على الزر الأخضر..وقبل أن تقول شيئاً جاء صوت آدم سميث وهو يقول لها:

- هل أنت بخير..؟ أنا عند الباب..لماذا لا تفتحين..؟..

أحست وكأن آدم سميث هو مخلصها من محنتها وبطلها المنقذ، فقالت له بلهفة:

- سيد آدم..أرجوك..أين أنت..؟

- ماذا حدث..؟ أنا عند باب الشقة.. لقد ضغطت على الجرس ولا أحد يفتح..جئت لأدعوك إلى العشاء..

وبدون أن تجيب..وضعت الهاتف النقال والحقيبة على الطاولة القريبة.. ركضت إلى الباب الخارجي..نظرت من العين الساحرة.. رأت آدم سميث يقف أمام الباب مبتسماً..فتحت له الباب..ولا إرادياً ألقت بنفسها عليه..فاستقبلها بأحضانه.. لكنها سرعان ما انتبهت لنفسها..فسحبت نفسها قائلة بارتباك:

- آسفة.. كدت أموت من الرعب..لا أريد أن أبقى في هذه الشقة..

- ماذا..؟

سألها آدم سميث ذلك بتعجب وهما يدخلان الشقة. نظرت حواء ذوالنورين إليه بانكسار وخوف وارتباك..وقالت:

- هذه الشقة مسكونة..رأيت فيها أشياء غامضة ومريبة..ثمة شخص كان في غرفة النوم ..رأيت شبح امرأة في مرآة خزانة الملابس.. كما كان هنا على الطاولة كوب قهوة ممزوجة بالحليب..ثم اختفى فجأة..

تتذكر الآن أن آدم سميث نظر إليها وعلى وجهه ابتسامة تشي بالتعاطف والبراءة وعدم التصديق وكأنه يستمع إلى طفل يبالغ في حكايته أو لامرأة تؤمن بالسحر والشعوذة والأشباح..أدركت هي بأنه لا يصدق حكايتها..فقالت له بعتاب:

- يبدو أنك لا تصدقني..!! أتظن أني أختلق كل هذه الأشياء..؟ أو أني امرأة غير طبيعية..؟

تتذكر كيف ارتبك وقال باستحياء:

- لا..لا.. عفواً..أنا آسف..ليس الأمر أني لا أصدقك..لكن حكايتك غامضة.. بل أحس بأن هناك شيئاً ما غير طبيعي يجري معك..فاليوم أيضا قلت إنك على موعد..لكن صاحبتك كانت في إيطاليا..

فقالت له يائسة:

- ألم تصدق ذلك..؟ ألم أكن معك حينما اتصلت بي في الشقة وطلبت أن ألتقيها قرب كنيسة روتردام..ثم اتصلت ونحن في السيارة..واعتذرت عن اللقاء لأنها في فلورنسا..؟ ألم تكن شاهداً على كل ذلك..؟
- بلى..
- إذن كيف لا تصدق ما رويته لك عما جرى في هذه الشقة..؟
- على أية حال..دعينا نمضي الآن..

تتذكر الآن كيف أنها قالت له:

- لدي رجاء وحيد..
- أنت تأمرين..
- لا أريد البقاء في هذه الشقة..أيمكن أن أذهب إلى فندق هذه الليلة.. وسنرى ما يمكننا فعله غدا..

صمت للحظات ..نظر إليها وكأنه يدرس ما طلبت..ثم ابتسم وعلى وجهه علامات تفكير بعيد وقال:

- لك ذلك..سنبحث لك عن فندق..المهم لنخرج الآن..
- دعني آتي بحقيبتي..

ذهبت حواء ذوالنورين إلى المطبخ لتأتي بحقيبتها.. فتحت الثلاجة..صبت لنفسها كأساً من الماء..شربته دفعة واحدة..وضعت هاتفها في حقيبتها وخرجت. نعم أنها تتذكر كل ذلك بوضوح..وتتذكر حينما خرجت إلى الصالة لتغادر الشقة معه..وقفت مذهولة..فلم يكن ثمة أحد في الشقة..تقدمت بضع خطوات مفتشة في أرجاء الشقة بنظراتها..أحست بقشعريرة باردة تسري في أوصالها..ركضت مسرعة لتغادر الشقة..أغلقت الباب وراءها دون أن تلتفت..اقتربت من المصعد الذي كاد يطبق بابه..لمحت الرجل الأشقر الوسيم الذي كان ينظر إليها من خلال الباب قبل انطباقه كليا..وهبط المصعد..لم تقف منتظرة المصعد كي يأتي إليها المصعد مرة

أخرى صاعداً..وإنما هبطت الدرج مسرعة وكأنها تهرب من أشباح تطاردها..وحينما وصلت الطابق الأرضي.. وجدت أن بواب البناية قد وضع حاجزاً بلاستيكيا مثلثاً أصفر اللون أمام المصعد يشير إلى أنه عاطل.. استغربت..فقد كان المصعد يعمل قبل لحظات.!!

تتذكر الآن أنها حينما خرجت إلى الشارع كانت مرعوبة..في تلك اللحظات بالذات شعرت ببلل في ما بين فخذيها..مع شعور خفيف بالألم..أدركت أن العادة الشهرية قد جاءتها على غير موعدها وبشكل مفاجئ..أحست بالقلق..ليس لديها محارم كي تستخدمها فجميع أشيائها في شقة صديقتها إيفا سميث..مرت سيارة تاكسي.. أوقفتها..فتحت حقيبتها وأخرجت ورقة كانت صديقتها قد دونت عليها عنوان البيت. أعطتها للسائق الذي لم يقل شيئاً..ألقى على الورقة نظرة سريعة ثم أعادها إليها.

* * *

اتجهت إيفا سميث إلى الباب لتفتحه للطارق..كانت المسافة بين المائدة وباب الشقة فرصة لها لكي تستعيد أنفاسها وترتب القناع على وجهها وشخصيتها..فقد ارتبكت حينما وصل زوجها قبل ساعة من موعد قدومه المعتاد..!!

ألهت نفسها بإعداد وجبة عشاء معقدة كي تصرف معظم وقتها في المطبخ.. لكن الآن وقد تم إعداد كل شيء فعليها أن تجلس قبالته حول المائدة..وقد جاء هذا الزائر لينقذها من هذا الوضع المرتبك الذي وجدت نفسها فيه..هي لا تستطيع التركيز..بل هي تفكر في آدم زاباتو الذي ضربته بمنفضة السجائر..فمرة تفكر بحالته الصحية وبالجرح الذي سببته له فتأخذها موجة من الخوف من أنها قد آذته..ومرة تخاف من أنه سيشكوها عند الشرطة..كما أن زوجها ذكي إذ يستطيع بسهولة أن يكتشف حالتها وقلقها الكثيف..صحيح أنه لم ينتبه مساء أمس لشحوبها بعد فشل انتحارها البائس..لكن أمواج قلقها الآن تمتد بعنف..وستفضحها ملامحها ونظراتها.

لم تفكر بالزائر وهي تتجه لتفتح الباب فقد كانت شبه ميتقنة من أن القادم هو أمها التي تأتي في كثير من الأحيان بدون أية إشارة على مجيئها.

حين فتحت الباب وجدت صديقتها حواء ذوالنورين أمامها..أحست بأنها قد أُنقذت..فوجود صديقتها سيؤجل الأسئلة المحتملة من قبل زوجها..أخذت صديقتها بالأحضان ورحبت بها بحرارة.. وبينما هي تقودها إلى المائدة..قالت لها:

- جئت في الوقت المناسب..نحن على مائدة العشاء..لقد أخبرني آدم منذ أن وصل قبل ساعة بأنك أجلّت موضوع اللجوء..وأنك ذهبت للقاء صديقة لك اتصلت بك حينما كنتِ في المكتب.. لماذا لم تدعيه يوصلك إلى مكان الموعد..؟ لقد أخبرني بأنك كنت مصرة على أخذ تاكسي..ما هذا يا حواء..لِمَ هذه الحساسية..؟ كان بإمكانه أن يوصلك إلى أي مكان تريدين ثم كيف أنت اليوم..هل زال الصداع..؟..

فوجئت حواء ذوالنورين بهذه التفاصيل التي جرت عصر أمس..وليس اليوم..!!.. ارتبكت..لم تعرف ماذا تقول، لذا نطقت بكلمات غير مترابطة..:

- شكراً..أنا بخير..وأنا أعتذر عن تصرفي مساء أمس..كان صداعي قوياً ومزاجي متعكر..لقد نمت كجثة..وأما عن الكاتبة الخليجية..فنعم..لقد اتصلت بي كي ألتقي بها.. ولم أشأ أن أحرج أحداً بأن يوصلني..المهم.. هذه كاتبة غريبة الأطوار..لقد اعتذرتْ.. اتضح أنها في فلورنسا.. وليست في باريس..!!
- كيف..؟ماذا تقولين..؟ ما معنى اتضح أنها في فلورنسا..؟
- لا أعرف..سأخبرك في ما بعد..

انتبهت إيفا سميث لارتباكها فقالت لها:

- لا عليك..دعينا نتعشّ الآن..وسيكون لنا حديث طويل..!

كانت الصديقتان مرتبكتين. كل منهما مشغولة مع ما جرى معها من أحداث ذلك اليوم، لكنهما كانتا تسعيان إلى أن تكونا طبيعيتين. كان آدم سميث والأطفال قد بدأوا بتناول العشاء..قام لها آدم سميث مرحباً..وقبل أن تقول هي شيئاً سمعت زوج صديقتها يسألها:

- كيف كان اللقاء..؟.

فوجئت حواء ذوالنورين..نظرت إليه..كان وجهه جاداً ونبرة صوته رزينة..ارتبكت أكثر..سألت نفسها " هل هو يلعب معها..؟ لماذا يسألها وهو يعرف كل شيء..؟ لماذا روى لزوجته ما جرى عصر أمس..؟ ثم كيف كان هو عندها وفجأة هو هنا في البيت مع عائلته..؟ ..وها هي صديقتها تقول لها بأنهما كانا منذ ساعة يتحدثان عنها..؟ كيف هذا..؟ ومن الذي كان عندها في الشقة قبل قليل..؟" . لكنها كانت مضطرة لإجابته فقالت بنبرة حاولت أن تخفي ما استطاعت من التوتر الذي يعتريها:

- جيداً..كل شيء على ما يرام..

التفت إلى صديقتها بإشارة إلى عدم رغبتها في الحوار..همست في أذن صديقتها، ثم قامتا معاً متجهتين نحو غرفة الحمام..عادت إيفا سميث بعد لحظات..ولم تمض دقائق حتى عادت حواء ذوالنورين وهي أكثر هدوءاً مما كانت عليه.

* * *

حين صارت حواء ذوالنورين في غرفتها جلست على حافة السرير. كانت مأخوذة بهذا الغموض الذي لف أحداث ذلك اليوم.. لم تكن متيقنة من أي شيء.. هل هي في حالة هلوسة وشيزوفرينيا وإنقطاع عن الواقع بحيث ترى كل هذه الأمور الغريبة، أو أن هذه الأشياء جرت لها بالفعل..؟

سمعت طرقاً خفيفاً على الباب.. فزت..وقبل أن تجيب فتحت إيفا سميث الباب ودخلت. أطبقت الباب خلفها..اقتربت منها وسألتها بإهتمام ومودة:

- هل كل شيء على ما يرام..؟ ماذا جرى معك..؟ ألم تقابلي المحامي..؟ أردت أن أعرف منك لأني لم أفهم شيئاً محدداً من زوجي آدم حينما سألته..لم أفهم لماذا أجلت مسألة طلب اللجوء إلى فرنسا..؟ هل بدر منه أو من المحامي شيئاً ما دفعك إلى ذلك أو كما قال بأن اتصال المرأة الخليجية دفعك إلى مغادرة الشركة..؟

أحست حواء ذوالنورين بحرج كبير لكنها سيطرت على نفسها، وقالت:

- فعلاً ..جاءني نهار أمس اتصال هاتفي من تلك الكاتبة الغامضة..وطلبت أن تلتقيني عند كنيسة نوتردام.. وألحت على مقابلتي..لكنها لم تأت إلى الموعد..بل اتصلت وقالت إنها في فلورنسا.. والغريب أن بين الاتصالين فترة قصيرة لا تحتمل أي تفسير أو تخمين بأنه حدث شيء ما بينهما..!
- غريب!..
- نعم.. غريب..!

فجأة سمعت الصديقتان صوت أغنية فرنسية يأتي من الصالة..صوت شجي حد البكاء أجبر المرأتين على الاستماع إليه لفترة ليست قليلة..فقالت إيفا سميث موضحة بهدوء وبنبرة حنونة:

- إنه جاك بيريل..وهذه من أشهر الأغاني الفرنسية..

- صوته حزين..لكني مع الأسف لا أفهم الفرنسية..

- سأترجمها لك....

كان صوت الأغنية ينساب في فضاء الشقة ويصل إليهما واضحا ورقيقاً.. وكانت إيفا تترجم الكلمات المنهمرة كالمطر الحزين بشكل مباشر، لكنها لم تبدأ ترجمتها من البدء وإنما من لحظة إنصاتهما لها:

لا تهجريني..لا تهجريني
سأهديك لآلئ من مطر
آتية من بلاد لا تمطر السماء فيها
سأحفر الأرض إلى ما بعد موتي
لأغطي جسدك ذهبا وضياء
سأقيم مملكة
حيث الحب سيكون ملكاً
ويكون الحب فيه شريعة..
وتكونين أنت الملكة..
لا تهجريني..لا تهجريني
سأؤلف لكِ كلمات مبهمة
وستفهمينها..
سأحدثك عن هذين العاشقين
اللذين شهدا، مرتين،
قلبيهما يحترقان..
وسأحكي لكي قصة ذلك الملك
الذي مات من الحسرة
لأنه لم يستطع أن يلتقيك..
لا تهجريني..لا تهجريني
وكم رأينا تدفق اللهب من بركان
كنا قد ظنناه منطفئا وقديماً..
وبدا لنا أراضيَ محروقة

أعطت قمحا كثيراً
أفضل من أي نيسان..
وعندما يأتي المساء
ليلهب السماء
فالأحمر والأسود
لا ينسجمان؟
لا تهجريني..لا تهجريني
لن أبكي بعد الآن
لن أتكلم بعد الآن
سأختبئ هنا من حيث أراك
ترقصين وتبتسمين
و أستمع إليك
تغنين ثم تضحكين
اسمحي لي أن أكون
ظل ظلك
ظل يدك
ظل كلبك
لكن لا تهجريني..لا تهجريني

كانت إيفا سميث منسجمة مع الأغنية وهي تترجم كلماتها بنبرة حزينة..وكانت صورة آدم زباتو يتراقص أما عينها الداخلية فحاولت أن تجبر نفسها على تجاهل ما يدور في أعماقها.. أما حواء ذوالنورين فقد تأثرت بالأغنية وكلماتها فعلقت برقة وحزن:

- ياه..كم حزين صوت هذا المغني..إنه يتوسل..: اسمحي أن أكون ظل ظلك..ظل يديك..ظل كلبك..لكن لا تهجريني..يا له من عاشق عظيم..
- نعم..إنها من أشهر الأغاني الفرنسية على الرغم من أن المغني بلجيكي الأصل..لكن أود أن أسمع منك شيئاً يخص زوجي آدم..

ارتبكت حواء ذوالنورين فهي لا تستطيع الاستمرار في الكذب فسألت:

- شيئاً يخص زوجك..؟ لم أفهم..؟ ما علاقتي بزوجك..؟

نظرت إيفا سميث إلى صديقتها المرتبكة وخمنت أنها قد أحرجتها فقالت لها بمودة:

- لا عليك.أنا لا أقصد بأن لديك علاقة بأية شيء يخصه.. وإنما أردت أن أسألك إن كنت قد لاحظت اليوم من خلال تواجدك في المكتب أيَّ شيء مريب..؟ هل تشاجر مع أحد..؟ هل اتصل به أحد ما فأزعجه..؟كيف كان مزاجه عندما كنت معه هناك..؟..فقد عاد مرتبكا..محبطاً..حزيناً..رغم محاولاته أن لا يبدي ذلك..وها هو يضع هذه الأغنية العاطفية الحزينة..

أحست حواء ذوالنورين بشيء من الراحة حينما تأكدت من أن صديقتها لم تشك بأي شيء جرى بينها وبين زوجها..لكنها تذكرت بسرعة خاطفة الاتصال الهاتفي الذي جاءه عندما كانا في الشقة أمس، كيف ارتبك هو وخرج مسرعا لينزوي في المطبخ ويتحدث هامساً..وقد أدركت بأنه كان يتحدث مع امرأة من خلال ضمير المؤنث وأيضا حينما طلب اللقاء في فندق..لكن حواء ذوالنورين لم تخبر صديقتها عن ذلك..لأن الأمر سيفضحها هي أيضاً..لذلك قالت ببراءة:

- لا..لم ألاحظ أي شيء خاص أو مريب..ثم أني لم أتواجد في المكتب طويلاً إذ خرجت بعد ربع ساعة تقريباً..
- وهل كنت طوال الوقت تتجولين وحدك..؟

ارتبكت حواء ذوالنورين للحظات لكنها سيطرت على ارتباكها وقالت:

- نعم..لقد تجولت في المناطق القريبة كنيسة نوتردام..تذكرت الفيلم المأخوذ عنها..قصة الأحدب الذي يعشق الغجرية.. ثم تنزهت قليلاً على جانب نهر السين..تذكرت انتحار المفتش الذي كان يطارد البطل في رواية "البؤساء" لفيكتور هيغو..
- واو..تتذكرين تلك الرواية..وتذكرت المفتش غافير أيضاً..
- لا أتذكر اسمه..لكنني أتذكر أنني كنت أكرهه جداً عندما قرأت الرواية..أنا أخاف رجال السلطة وكل هؤلاء الرجال الذين يطاردون الآخرين كالقضاء المحتوم..كالكابوس المخيف..كالطاعون الأسود..

انتبهت حواء ذوالنورين إلى أن صديقتها إيفا سميث شاردة التفكير..إذ لم تعلق

على كلامها..كانت تائهة النظرات..أحست أنها تدير حواراً مع نفسها بصمت..استغربت من تحول حالتها النفسية بهذه السرعة..فكرت مع نفسها: هل تشك بها أو تشك بزوجها..؟ لِمَ السؤال عن حالة زوجها النفسية..؟

بالمقابل كانت إيفا سميث تفكر بحالة زوجها المريبة..سألت نفسها عن السبب الذي يدفعه إلى أن يستمع إلى هذه الأغنية الحزينة المليئة باللوعة والتوسل..ويعيد سماعها..؟ ما الذي يدفعه إلى ذلك، لاسيما وأنه شخصية مرحة وقوية..؟! أتراه عرف شيئاً عمّا جرى بينها وبين آدم سانتشو ماريا زاباتو..؟ هل انتبه إلى شحوبها بعد عملية الانتحار الفاشلة..؟..هل انتبه لقلقها وارتباكها وخوفها..؟ لا.. مستحيل.. من أين يعرف ذلك..؟

في تلك اللحظات بالذات سمعت حواء ذوالنورين وقع خطىً على السقف وما يشبه سحب طاولات ثقيلة..ظنت أنهم سكان الشقة التي فوقهم لكنها استغربت أن السقف من الهشاشة بحيث يوصل كل هذا الضجيج. نظرت إلى صديقتها فوجدتها ساهمة وكأنها لم تسمع شيئاً، فسألتها بهدوء مستفسرة:

- هل جيرانكم الذين يعيشيون في الشقة التي فوقكم يثيرون الضجيج هكذا دائماً..؟

انتبهت إيفا سميث لسؤال صديقتها وكأنها أيقظت من غفوة لسؤال وسألت:

- ماذا تقولين..؟ أي جيران..؟
- ألا تسمعين ضجيج العائلة التي تعيش في الشقة التي فوقكم..وصوت وقع خطى وكأن امرأة تلبس حذاء بكعب عال تجري مسرعة تارة وبهدوء تارة أخرى..كما أنهم يسحبون طاولات ثقيلة كما يبدو..

نظرت إيفا سميث إليها للحظات وكأنها تتردد أن تقول شيئاً ثم حسمت أمرها وقالت:

- ليست هناك عائلة تعيش في الشقة التي فوقنا..هناك رجل مغربي عجوز يعيش وحده..وهو لا يأتي في هذه الفترة من السنة..يأتي أحياناً ويبقى لشهرين أو ثلاثة ثم يغادر إلى بلاده..رجل مبروك..من ذوي الكرامات..
- من ذوي الكرامات..وما هذه الأصوات التي تأتي من شقته..؟
- شقته مسكونة كما يقال..

- مسكونة..؟ قالت حواء ذوالنورين برهبة.

نظرت إليها إيفا سميث وقالت بما يشبه اللامبالاة:

- نعم مسكونة..ذات ليلة..وكان لدينا ضيف عزيز جاء من لبنان للعلاج.. أبقيناه لدينا للعناية به أكثر..وفي ساعات الفجر الأولى تعالت ضجة عالية من الشقة في الطابق الأعلى..استمر الأمر لفترة طويلة..وأخذ يتكرر كل ليلة..وذات ليلة صعدت مع زوجي إلى الطابق الأعلى، ونحن في حالة غضب شديد وكنا مصممين على تعنيف هؤلاء الجيران بل وفكرنا بتهديدهم بأن نشكوهم إلى الشرطة.. طرقنا الباب على أصحاب الشقة في تلك الساعات الأولى من الفجر..فخرج إلينا، بعد لحظات، شيخ مسن..ويبدو أننا أيقظناه من النوم..لكن العجيب أننا ما أن رأيناه حتى اختفى غضبنا وتوترنا العصبي..وحينما أخبرناه بالضجيج والإزعاج المتكرر ليلياً ..ابتسم بطيبة ودعانا إلى الدخول للتأكد من أنه لا يوجد لديه أحد..وأنه يعيش وحده في الشقة.. وأنه كان نائما..بل إنه ينام مبكراً عادةً..ثم قام باعداد الشاي المغربي الأخضر لنا في ذلك الفجر الغريب..وحينما أردنا الاعتذار عن شرب الشاي..دعانا لتجربته..وأدعى بأنه سيريحنا جداً..وهذا ما حصل.. وكأن في شايه سحراً ..ثم كشف لنا شيئا عن سر الضجيج..ابتسم وقال لنا: لا تخافوا إنها الأرواح المنسية.التائهة ..تأتي بين فترة وأخرى عندي وتمضي..!

ارتسمت علامات الخوف والترقب على وجه حواء ذوالنورين وسألت بصوت خافت وكأنما كانت تخاف أن تسمعها تلك الأرواح المنسية:

- وهل اختفت الأرواح المنسية التائهة..؟

- نعم..لكنها تعود كل شهر أو شهرين..حتى عندما يكون الشيخ المبروك ذو الكرامات في المغرب..

صمتت حواء ذوالنورين للحظات..ثم سألت:

- وهل تؤمنين بذلك..؟ وما هي الكرامات التي تصفينه بها..؟

لم تجب إيفا سميث مباشرة وكأنما كانت تفكر في الإجابة. امتد الصمت طويلاً ثم قالت:

- لا أدري إن كنت أؤمن أم لا..؟..هناك أشياء غامضة في هذا الوجود.. ثمة ظواهر لا يمكن تفسيرها بالمنطق العقلي والفهم العلمي الذي ندعيه.. ظواهر ملموسة تخترق قوانين الفيزياء المعروفة..حكايات وظواهر لا يمكن سماعها إلا في المصحات العقلية.. لأنها ضرب من الجنون..لكنها برغم ذلك حقيقية..وحدثت وتحدث.. ثم أننا أخذنا نسأل عن الرجل من بعض العرب والمغاربة الذين يعرفهم زوجي آدم..فقالوا لنا بأن الشيخ من ذوي الكرامات..هو أمازيغي..يعيش في جنوب مملكة المغرب..لديه مدرسة على قمة جبل.. ولديه حوالي تسعمائة طالب علم..يقضون في مدرسته ما بين عشر سنوات إلى عشرين سنة..لا أحد يعرف من أين جاءوا.. ولا إلى أين يذهبون بعد تلك السنوات..لا يخرجون من تلك المدرسة الغامضة النائية..من يزر تلك المدرسة يرهم ويشعر بوجودهم..لكنهم يختفون في الليل..لا تجد في المدرسة أحداً.. لا تجد سوى تكية الشيخ الجليل ذي الكرامات..
- بدأت أخاف..

نظرت إيفا سميث إليها بمودة وقالت بثقة:
- لا تخافي..هذا الرجل طيب ومبروك ولا يؤذي أحداً..ويمتلك قوة روحية هائلة..حدثونا عن قوته الروحية وكراماته كثيراً ..يعرفها أهل البلاد تلك.. رووا لنا قصصا لا يصدقها العقل..
- أنا سمعت أن بلاد المغرب هي بلاد السحر والسحرة..أنا أخاف السحر..
- لكنه ليس بساحر..هو شيخ جليل..لديه قوى كونية غامضة..
- أتصدقين ذلك..؟
- لا أدري..لكني رويت لك ما جرى معنا..مع هذه الأرواح المنسية التي تسمعين ضجيج حركتها الآن..

مع استرسالها في الحديث كانت إيفا سميث تتوتر ويشرد ذهنها..انتبهت حواء ذوالنورين إليها وسألتها:
- هل أنت بخير يا إيفا..؟ هل كل شيء بينك وبين زوجك على ما يرام..؟ أراك متوترة..وقلقة ..وحائرة.. هل أستطيع مساعدتك..؟

فوجئت إيفا سميث بإدارة حواء ذوالنورين لمسار الحديث ومواجهتها بهذه الأسئلة المباشرة، ارتعشت شفتاها وقالت محاولة أن تبتسم:

- لا.لا. لايوجد أي شيء غير طبيعي..كل شيء تمام..إنني هكذا أفكر كثيراً.. وكأن التفكير مهنتي..ومن هنا لا أحد يستطيع مساعدتي..على أي حال.. سأتركك ترتاحين..ولا تخافي..ستختفي الأصوات بعد قليل..

قالت ذلك وقامت مغادرة الغرفة.. بقيت حواء ذوالنورين وحدها..تفكر في الأرواح المنسية..والرجل الشيخ ذي الكرامات.. وصديقتها التي تخفي سراً هائلاً وعذاباً كبيراً.

الفصل الثالث والعشرون

دهاليز الأحلام

أفاق آدم بوناروتي. فتح عينيه..كانت الشقة معتمة..أحس بالعتمة تدور في دوامات سوداء مظلمة..أحس بدوار وصداع في رأسه..حرك رأسه قليلاً فرأى قنينة نبيذ فارغة على الطاولة القريبة من الصوفا الجلدية التي تمدد عليها. خمن أنه شرب نبيذاً كثيراً كعادته منذ مغادرة حواء ذوالنورين لفلورنسا..إذ اكتشف بعد رحيلها بأنه يحبها بشكل جارف، فقد كان يجهل عمق تلك العاطفة التي كانت تكمن في أعماقه نحوها..فبرغم تجاربه الطويلة مع النساء لكنه لم يكن ينتبه لعمق مشاعره التي يكنها لها.

كان يكره نفسه لأنه لم يكاشف حواء ذوالنورين بما يكفي عن حبه لها أثناء وجودها في فلورنسا..كان يلعن كبرياءه.. إذ هو يكره أن يظهر عواطفه نحو المرأة..فهو يعدّ ذلك ضعفاً..بل انتبه إلى أنه إنسان حقود.. ربما لأنه تعرض للخيانة الزوجية.. لقد سمّمت الأحداث التي مر بها حياته..صار حقوداً في كل تصرفاته..حتى في حبه..فهو يحب بحقد..كان يفكر منذ صدمة رحيلها بكبريائه التي أججت فيه مشاعر الحقد..ومنذ رحيلها المفاجئ صار يشرب بشكل يومي متواصل حتى أنه لم يخرج لعمله في رسم وتخطيط وجوه السائحين لفلورنسا.

لم يفق آدم بوناروتي من غفوته بسهولة..أحس بشلالٍ فوضوي متدفق من الصور والشخصيات التي تتداخل في ذهنه..وجوه غريبة وأحداث غامضة..يتذكر الآن بأنه رأى في المنام كابوساً غريباً..فكر مع نفسه بأن الأحلام بل وحتى الكوابيس دائماً ما تكون غامضة، لكنها مكتظة بالمعاني والدلالات.

نهض عن الصوفا..خطى مترنحاً إلى حيث زر الكهرباء..أضاء المكان..ولا إراديا

توجه إلى جميع مصادر الضوء. أخذ يضيء مصابيح الزوايا. أضاء المطبخ..توهجت الشقة بالضوء..أحس بشيء من الوضوح في ما حوله..الضوء يمنحه الأمان..وقف عند باب المطبخ..أخذ يجول بنظره في أرجاء الشقة وكأنه يبحث عن شيء ما.. فجأة توقف نظره عند حامل اللوحات (الاستاند)..انتبه إلى وجود لوحة هناك.. اقترب منها بينما الدهشة تمتد في أعماقه مثل موج المد..وقف أمامها..اللوحة تجسد ثلاثة وجوه غريبة لثلاث نساء لا يعرفهن.

جلس على الصوفا ثانية..تأمل اللوحة المثبتة على المسند القريب..ركّز بصره في الوجوه متأملاً..وهو لا يتذكر أنه رسم هذه اللوحة..فكر مع نفسه " هذه اللوحة لا تزال طرية ولم تنشف بعد..وهذا يعني أنني رسمتها قبل أن أغفو.. لكنني لا أتذكر أنني رسمت هذه اللوحة فكيف جاءت إلى شقتي..؟».

نهض ثانية عن الصوفة..اقترب من اللوحة..دقق النظر فيها..فجأة..وكأن نافذة فُتحت على الأفق في ذهنه..أدرك ان هذه الوجوه رآها في كابوسه..وتدفقت الصور كشريط سينمائي في أعماقه ..بدأ يتذكر ما رآه في منامه بأنه التقى امرأة لبنانية اسمها حواء الحلو قرب "بوابة الفردوس".. اصطدمت به..اعتذرت..تعارفا..إتجها إلى دكان إسكافي في زاوية من شارع ما..ثم ذهب معها إلى المطعم..لكنها بعد حديث لا يتذكره جيداً غادرت المطعم منزعجة..ثم رآها في المنام وهي نائمة في غرفتها بالطابق السادس من الفندق نفسه الذي كانت تسكنه حواء ذوالنورين..ورأى كيف أن هذه المرأة التي اسمها حواء الحلو رأت في منامها كابوساً عن امرأة عراقية تحمل الاسم نفسه لكنها تعيش في برلين..وأن تلك المرأة العراقية كانت مترهلة.. جبلاً من الشحم المترهل..وكانت مشوهة الوجه فنصف وجهها قد تشوه حرقاً.. لا.لا.لا.. لقد رأى أيضا كيف أن تلك المرأة العراقية حلمت في منامها بحواء الحلو اللبنانية في فلورنسا..!! ثم انتابت تلك المرأة العراقية المترهلة نوبة صرع ألقت بها كالجثة على الأرض..وكيف جاءت جارتها الجزائرية التي قدمت نفسها باسم حواء بنآدم..وكيف روت كل منهما شيئا من سيرتها الذاتية..!!

فكر آدم بوناروتي مع نفسه عن تفسير فوضى هذه الأحداث..وسأل نفسه من يا تُرى كانت تحلم بالأخرى..؟ من هي الحقيقية منها..؟ كيف يا تُرى كان يرى في الحلم ما كانتا تحلمان به..؟..ثم تذكر حضور تلك الكاتبة الخليجة الغامضة..

التي تتواجد في فلورنسا وباريس في آن واحد..! لا.لا.لا يمكن أن يكون ذلك كله قد جرى في المنام..!! ثم كيف جاءت هذه اللوحة إلى شقته..؟ من رسمها..؟ وكيف تجسد وجوه النساء اللاتي رآهن في المنام..؟!

كان آدم بانوروتي يحس بدهشة..وعيناه كانتا مليئتان بالغموض المفكر وتسطعان بضوء بارد حتى أنه نسيَ صداعه..وأخذ يجهد نفسه في البحث عن تفسير منطقي لكل ما رآه..وراح يفكر مع نفسه :" المرأة اللبنانية حواء الحلو وصديقتها الكاتبة الخليجية الغامضة التي اسمها كما أظن حواء الذهبي..تسكنان، حسب ما جاء في أحداث الحلم، في الفندق الذي كانت تسكنه حواء ذوالنورين.. وهو ليس ببعيد من هنا..فلماذا لا أذهب لأتأكد من وجودهما..؟؟..أمن المعقول أنني رأيتهما في المنام..وأنني نهضت من نومي ورسمتهما دون أن أعي أنني كنت نائماً..؟؟».

لم ينتظر طويلاً..توجه إلى المطبخ..فتح الثلاجة. أخرج قنينة ماء بارد..أخذ يرتشف منها بلهفة وكأنه يعاني من عطش شديد..ظل للحظات يفكر في كل ما رآه في منامه مرة أخرى..يعيد صياغة الأحداث في ذهنه..يبحث عن رابط بين ما رآه وهذه اللوحة التي تنتصب على المسند الخشبي. أحس بالعجز عن تفسير أي شيء..غادر المطبخ..اقترب من اللوحة..تأمل الوجوه الثلاثة.. وانتبه إلى نفسه بأنه يعرف هذه الوجوه..ويعرف أسماء صاحبة كل وجه منها..!!. وبدون أن يتعب نفسه بالتفكير أكثر غادر الشقة متجها إلى فندق " ماتا لوكا" في شارع 27 أبريل القريب من شقته التي تقع في شارع " فيا سانت آنا».

لم ينتظر المصعد وإنما هبط مسرعاً على السلّم..لكنه حين صار في الشارع تذكر أنه لم يطفئ أضواء شقته..أراد أن يعود أدراجه إلا أن رغبته في التأكد من وجود المرأتين كانت أقوى؛ فمضى إلى حيث يريد دون أن يأبه للأمر.

* * *

حين وصل آدم بوناروتي إلى الفندق واجهه وجه فتاة شابة سمراء جداً ذات جمال آخاذ خمن من أول نظرة لها بأنها هندية أو سيرلانكية.. ابتسمت له حينما رأته داخلا ومتجهاً نحوها..ألقى عليها تحية المساء وسألها عن المرأتين، ذاكرا لها اسميهما حسبما ما كانتا تسميان في الحلم.

فتشت الفتاة الجميلة السمراء جداً في شاشة الكمبيوتر عن الاسمين فلم تجدهما

بين النزلاء فأجابته بالنفي. أحس بأنه منجذب لهذه الفتاة الجميلة..فسألها بمودة ورقة عن بلادها إذ كان من الواضح أنها ليست إيطالية..فابتسمت له وقالت إنها سيرلانكية لكنها مولودة في إيطاليا..في تلك اللحظة رن الهاتف في مكتب الاستقبال فتوجهت الفتاة إليه..فأخذ يتأمل جسدها الفتي ويتفحص تفاصيله المتناسقة.

لم يخرج من مكتب الاستقبال. أحس بانشداده لهذه الفتاة السيرلانكية الجميلة.. تمنى لو يرسمها..لو تأتي إلى شقته لتقف أمامه عارية كموديل..لكن كيف يقنعها بذلك..؟ وأحس أنه نسي ما جاء من أجله وما كان يقلقه منذ أن أفاق من غفوته.

أنهت الفتاة السمراء جداً مكالمتها والتفتت إليه مبتسمة وفي نظراتها سؤال عمّا يمكنها أن تقدمه له من خدمة..ابتسم لها..وقبل أن تسأله قال لها بأنها جميلة جداً..فوجئت الفتاة لثوان من كلامه، ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة عذبة جداً ممتزجة بخجل زادها جاذبية..شكرته على المديح..لكنه واصل قوله بأنه لا يمدحها وإنما يقول لها الحقيقة فهو رسام..أحست الفتاة بشيء من الفرح الخفي..وأعجبها ما قاله..فسألته عن طبيعة رسوماته..فلم يصدق هو أن تمنحه فرصة للحديث..فأخذ يشرح لها طبيعة رسمه..وأنه يتمنى لو يرسمها في لوحة خاصة له..إذ أنه يجدها جميلة جداً وذات جاذبية خارقة..ارتبكت الفتاة من كلامه وأحسّت أنه يبالغ في مديحه كي يوقع بها، لكنها برغم ذلك أحبّت هذه المبالغات في وصف جمالها.

في تلك اللحظات دخل فتى أشقر مع صديقته الشقراء أيضاً..اقتربا من مكتب الاستقبال..صمت آدم بوناروتي والفتاة موظفة الاستقبال ..ذكر الفتى رقم الغرفة بالانكليزية..أسرعت الفتاة السمراء بإعطائه مفتاح الغرفة.. وحينما ابتعدا متجهين نحو المصعد نظرت الفتاة السمراء إلى آدم بوناروتي بتردد..فسألها أن كانت ترغب في أن يرسمها..ابتسمت الفتاة ونظرت بتوجس ممزوج بالخجل وقالت إنها لا تدري..فألح عليها قائلاً بأنه يسكن في مكان قريب من الفندق..على مبعدة دقائق..

سألها عن موعد انتهاء فترتها فقالت له عند التاسعة مساء، إذ يأتي زميل لها لمواصلة العمل الليلي..فقال لها سيمكنها المرور عليه إذا أحبت..وأنه لا يؤخرها كثيراً..فهو سيرسم لها تخطيطا أوليا وسيكمل اللوحة لاحقاً..

كانت الفتاة مترددة..تريد لكنها تخاف الذهاب إلى شقته لأنها تخمن ماذا يمكن أن يحدث هناك..بينما كان هو يقرأ تقاسيم وجهها ويخمن ما يدور في أعماقها من

انفعالات..فجأة أخذ ورقة من دفتر ملاحظات صغير موجود على مسند المكتب وكتب عليه رقم هاتفه وعنوانه..قال لها هذا هاتفه وعنوانه..وإنه ينتظرها..فوجئت الفتاة..لم يترك لها فرصة للتردد والاعتذار إذ غادر مكتب الاستقبال..وعند الباب التفت إليها مبتسماً فرأى على وجهها دهشة مشوبة برضى داخلي.

حين صار آدم بوناروتي في الشارع لم يكن يفكر في أحداث منامه وإنما في هذه الفتاة السيرلانكية الجميلة جداً..فجأة توقف..وكأنه تلقى ضربة شلته عن المشي..فكر مع نفسه:" كيف حصل الذي حصل معي.. ربما أنا الآن نائم أيضاً.. وأن ما أراه ليس سوى حلم مثل أحلامي مع النساء الثلاث..؟..". لم يتحرك ويفق من شروده إلا حينما اصطدم به رجل عريض المنكبين مر على الرصيف الضيق من جانبه. فكر مع نفسه:" إذن..ما أراه حقيقة وليس حلماً..لقد تعبت من الأحلام ودهاليزها الغامضة..".. اتجه إلى قلب المدينة وفي ذهنه يتألق وجه الفتاة السيرلانكية السمراء جداً..والجذابة جداً.

الفصل الـرابـــع والعشرون

برجا الحمل..والجوزاء

استيقظت حواء ذو النورين على صوت إيفا سميت وهي تدعوها لمشاركتهم فطور الصباح..ثم تناهى إلى سمعها الصياح المرح للأولاد.. قالت لصديقتها بأنها ستلتحق بهم بعد قليل.

ظلت حواء ذوالنورين مسترخية في سريرها لدقائق..نظرت إلى سقف الغرفة.. تذكرت الضجيج الغامض الذي جاء من السقف وفسرته لها صديقتها بطريقة أشد غموضاً..خطرت في بالها رغبة في لقاء هذا الشيخ ذي الكرامات..فكرت مع نفسها:" أنا لم أسألها إن كان هذا الشيخ المبارك موجوداً أم لا..؟..أيمكنني أن أتسلل إلى الطابق السابع وأتجه لشقته وأطرق بابها عله يفتح لي..؟ وماذا يا تُرى أريد منه أصلاً..؟ ماذا جرى لي..؟ هل بدأت أصدق كل هذه الترهات التي كنتُ أسخر منها حينما تُذكر أمامي..؟ هل وصل بي اليأس إلى هذه الدرجة..؟..ما بك ياحواء.. تماسكي..".. وبرغم من تماسكها وإيقاف التفكير في الصعود إلى الطابق السابع لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير بالشيخ المبارك صاحب الكرامات ومدرسته الغامضة على قمة الجبل التي تضم حوالي التسعمائة طالب علم..الذين يتواجدون في النهار ويختفون في الليل..وكم تمنت أن تزور تلك المدرسة..وفجأة سألت نفسها:" لماذا لا أسافر إلى المغرب وأعيش هناك..؟"..ولا إراديا ارتسمت ابتسامة بريئة على وجهها..وكأنها تسخر من هذه الفكرة البريئة الجميلة.. لكنها فجأة وجدت نفسها تتشرب بالفكرة..بل أحست وكأن فكرة السفر إلى المغرب قد تلبستها..وفي تلك اللحظة بالذات سمعت خرمشة ونقرا خفيفا على الباب وصوت ابن صديقتها الكبير ذي السادسة يقول بلغة طفولية وباللهجة اللبنانية:

- طنط حواء..نحن ننتظرك..تعالي افطري معنا..

وسمعت وقع خطاه وهو يركض مبتعدا عن الباب..ابتسمت له مع نفسها.. غادرت السرير دونما استعجال..ارتدت ثيابها..ورتبت شعرها..وقبل أن تخرج وقفت لاإراديا عند باب غرفتها وأخذت تتصنت لما يجري في الصالة حول مائدة الإفطار.. انتبهت إلى أن صديقتها وزوجها يتحدثان بالفرنسية..ربما كي لا تفهم هي ما يدور من حوار إذا ما تسنى لها أن تسمعهما..لكنها انتبهت إلى التوتر والقطع الحاد في الجمل..وكأنهما كانا يتجادلان في أمر ما..أحسّت بالحرج من أن تجالسهما، لكنها لا يمكنها البقاء في الغرفة طول الوقت..حزمت أمرها وإلتحقت بهما..فالتفتا إليها وعلى وجهيهما ابتسامة مشرقة..لكنها أحسّت وكأنها قناع لابتسامة..وسمعتهما يقولان لها معاً:

- بونجور.. صباح الخير ..

حين جلست على كرسيها حول المائدة انتبهت إلى أن هناك توترا خفياً يرتسم على وجهي إيفا سميث وزوجها آدم، لكنها انتبهت إلى أن كلاً منهما مشغول مع نفسه وعالمه..كانت علامات الشرود الذهني على وجهيهما..وكانا يتعاملان بلطف وكأن كلاً منهما يحاول أن لا يشي بما جرى بينهما قبل جلوسها معهما .

كان آدم سميث يشغل نفسه بقراءة صحيفة فرنسية يبدو أنه مشترك فيها،إذْ تصله كل صباح إلى المنزل..وكأنه بذلك يحاول الهرب من إمكانية التواصل من الآخرين..بينما كانت صديقتها إيفا تقف عند أولادها وتعد لهم فطورهم..فجأة.. قال بنبرة يمتزج فيها الغضب المكتوم بمرح عصبي مشيراً إلى مقال قد قرأه للتو:

- ههههه..يا له من عالم مجنون..إلى أين سيقودنا العلم..؟!

نظرت إليه زوجته وقالت وهي تطلي قطع الخبز بالشكولاته للأولادها :

- ماذا هنالك..؟

فرفع رأسه عن المقال ونظر إليهما نظرة شاملة وقال:

- هنا في الصحيفة خبر عن إمكانية تخصيب بويضة أنثى ببويضة أنثى أخرى.. فينتج وليداً أنثى..يعني بمرور الوقت لا تحتاج النساء للرِّجال..وسيختفي جنس الرجال من الوجود حيث لا فائدة منهم ولا حاجة لغرض الإنجاب..!

بل إن المقال يتحدث عن حرب الكروموسمومات الذكورية والأنثوية.. وإن تحديد جنس الذكر والأنثى عند بعض السلاحف والتماسيح لا يتحدد بالوراثة وإنما يتحدد بعامل بيئي هو درجة حرارة المكان الذي حُفظت فيه البيوض..!

واصل آدم سميث القراءة الصامتة في المقال وصاح:

- واو..واو.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه زوجته إيفا سألت بمزاح مشوب بغضب مكتوم:

- ماذا هناك أيضاً حتى تصرخ: واو..؟!

رفع آدم سميث وجهه للحظة عن الصحيفة ونظر إليها ثم نظر إلى حواء ذوالنورين وواصل قراءة الخبر :

- إن كروموسوم "واي – Y" الذكوري يعني السلطة والثروة، وهما، يجذبان النساء حول الذكر بغض النظر عن جمال هيئته أو حتى قوته الجنسية.. وأن هناك دودة بحرية يعيش ذكرها قابعاً داخل رحم الأنثى التي تعوله وتغذيه..وأن الرجال ليسوا في الحقيقة سوى أناث تم تحويرهم وراثياً..!! واو..

خلال ذلك كانت إيفا قد انتهت من طلي قطع الخبز بالشكولاته وصب الحليب في صحون الذرة والقمح المعّد لوجبات الفطور ووضعت أمام كل واحد من أولادها نصيبه، وجلست على كرسيها إلى جانب حواء ذوالنورين بالمقابل من زوجها وقالت له:

- هذه المعلومات ليست جديدة..فقبل سنوات قرأت كتاباً بالعربية لنوال السعداوي بعنوان "الأنثى هي الأصل" تطرقت فيه بهذا الشكل أو ذاك إلى مثل هذا الأمر..

نظر آدم سميث إليها وقال بنبرة تحدٍ خفي:

- لو كان هذا الأمر صحيحا فكيف نتقبل الأديان حينها..؟ ماذا عن الكتب المقدسة التي تتحدث عن أبينا آدم وأمنا حواء التي خلقها الرب من ضلعه.؟!

صمتت إيفا للحظات وقالت بنبرة حازمة لكن بهدوء:

- أنت حر...يمكنك أن تختار بين العلم وبين الأساطير الدينية..

نظر إليها بتمعن كأنما أهانه ردها، ثم نظر إلى حواء ذوالنورين وكأنه يشهدها على رد زوجته ذي النبرة الحاسمة، ثم قال:

- هكذا إذن..تريدين أن توحي بأني شخص تقليدي لا يؤمن بالعلم..!

نظرت إليه زوجته إيفا بدهشة إذ لم تتوقع رد فعله ونبرة العتاب في صوته، وقالت:

- عفواً..لم أقصد ذلك..ثم..أنا أستغرب منك..فمن بين كل تلك الأخبار والأحداث في العالم وبالعناوين الكبيرة لم تجد ما تحدثنا به سوى هذا التقرير عن الكروموسومات الأنثوية..!!..وأؤكد لك أنني فعلاً قرأت عن ذلك سابقاً..وها أن العلماء يؤكدون أن أصل الخلية البشرية من الناحية الجنسية هو أنثوي..أما قصة آدم وحواء فتلك أساطير دينية..أوجدها البشر قبل آلاف السنين..لكن العلم يقول شيئاً آخر..

- لكنك مسيحية..؟!

قال ذلك وكأنه يحاصرها فهو يعرف التزامها بزيارة الكنيسة وإقامة القداس.. لكنها أجابته بهدوء وبنبرة محايدة:

- وماذا في ذلك..؟! أنا أحب سيدنا المسيح..وأحب تعاليمه..ما علاقة القيم الإنسانية التي جاء بها المسيح ومسألة العلم..؟..لا أعتقد أن المحبة والتسامح يتعارضان مع العلم..؟..ثم أنا علقت ببساطة على الأمر..وأنت من بدأ الحديث وقرأت لنا الخبر..

أحس آدم سميث بأنها محقة..ثم أنه لا يريد أن يوتر الأمر على مائدة الإفطار فقال بهدوء وباعتذار مبطن:

- أنا لا أهتم بالسياسة كثيراً كما تعرفين..وأنا أقرأ الصحف يومياً كعادتي لأطالع الأبراج وأخبار البورصة قبل أن أكون في المكتب..

حاولت حواء ذوالنورين أن تتدخل لتغير مسار الحديث فقالت بمرح:

- هل تؤمن بالأبراج..؟

انفرجت أسارير آدم سميث وابتسم لها وهو يصب القهوة لنفسه وكأنه انتظر هذه اللحظة كي يوقف المواجهة اللغوية بينه وبين زوجته فقال بحيوية:

- أنا أؤمن بها جداً..يهمني جداً أن أعرف برجك..فشخصية الإنسان يمكن

فهمها من خلال معرفة برجه..ما هو برجك..؟

كانت إيفا سميث تشعر بالارتياح من تغير مسار الحديث وخمنت أن صديقتها تدخلت في الوقت المناسب بقصدية واضحة فشكرتها بصمت في أعماقها، فهي لا تريد مواصلة الحديث إذ كانت منشغلة مع نفسها وتخطط لزيارة آدم زاباتو في شقته، لذا لم تكترث بالحوار الذي يجري بين زوجها وصديقتها، لكنها كانت مرغمة على سماعه.

- أنا من برج الحمل..كما أعتقد.. قالت حواء ذوالنورين بنعومة.

إلا أن إيفا سميث قالت فجأة وعلى غير توقع حتى منها شخصياً فهي لم تشأ التدخل في الحوار، لكنها تعرف أن موضوع الأبراج من موضوعاته المحببة التي يبرز معارفه فيه:

- دعها تفطر يا آدم..فهي لم تذق لحد الآن شيئاً..ولم تدعها تشرب حتى قهوتها..كلي يا حواء..كلي ودعيه هو يتكلم..

انتبه آدم إلى أن ضيفتهم لم تتناول شيئاً من الطعام فعلاً فقال معتذراً:

- عفوا مدام حواء..لم أدعك تفطرين على راحتك..أعتذر..

ارتبكت حواء ذوالنورين من اعتذاره، كما أنها كانت تتوق فعلا لسماع رأيه في شخصيتها من خلال برجها، فقالت بمودة :

- لا أبداً...لا داعي للإعتذار..أنا أفطر بهدوء..وعادة أنا لا آكل شيئا صباحاً وإنما أشرب القهوة فقط..لكني فعلاً أود أن أسمع رأيك في برجي..

نظر آدم سميث إلى زوجته وكأنه يريد أن يقول لها بأنه يستجيب لطلب صديقتها مرغماً، ثم التفت إلى حواء ذوالنورين قائلاً:

- إذا كان الأمر كذلك فهذا جيد..طيب.إذن، سأخبرك ما يقوله برجك..أنت يا سيدتي..وكذلك كل نساء برج الحمل..مولودات للإبداع..المرأة الحمل صعبة المنال لكنها تذوب حباً وحناناً في من تُحب..ترتسم على وجهها ابتسامة تفيض رقة وعذوبة..وهي شخصية هادئة ومتميزة..ولها إشعاع شخصي خاص بها..هي امرأة واثقة من نفسها..ذكية.. متواضعة، برغم مظهرها الذي يوحي بالكبرياء والأنفة..وهي تعشق الاستقلالية في شخصيتها وترفض الخضوع للرجل سواء في المنزل أو العمل..بل تميل إلى التسلط على

الرجل..رغم إيمانها بمساواة المرأة والرجل. لكنها لا تستطيع أن تعيش بدون رجل وبدون حب..فحياتها فارغة بدون حب ..وإذا ما أحبت فهي تتحول إلى جارية لمن تحب..وهي امرأة طموحة ترفض الخسارة والفشل.. لديها ميول قوية نحو المطالعة والطبيعة والرفق بالحيوانات وحب الطبيعة والاستكشاف..المرأة الحمل عصرية وتسعى جاهدة كي تحافظ على جمالها وحيويتها ومظهرها وحبها للحياة..ربما تتعرض في حياتها لمفاجآت كثيرة لكنها تحب الحياة..فالحياة مدرستها الكبرى..وهي امرأة تحب العمل..فحتى لو كانت ربة منزل ولديها مساعدة أو خادمة فهي تحب أن تقوم بكل شيء أو تشرف على كل شيء بنفسها..هي شديدة الاهتمام بالمنزل تعشق النظام والنظافة، وهي امرأة رومانسية للغاية، الاحلام والخيال يتحدان معا في عالمها العاطفي...هل ما أقول ينطبق على شخصيتك..؟

تبادلت حواء ذوالنورين وصديقتها إيفا النظرات المليئة بالكلام الصامت. كانت إيفا سميث تتلهف لسماع جواب صديقتها ..أحسّت حواء ذوالنورين بالارتباك قليلاً ثم قالت:

- لا أدري ماذا أقول لك..لا تزعل مني أستاذ آدم..لكن هذا الكلام يمكن أن يقال لأية امرأة مهما كان برجها وتاريخ ميلادها..!! قل لي في أي برج من الأبراج لا تريد المرأة أن تعيش بدون حب..؟..وهل هناك في أي برج من الأبراج تجد المرأة تتقبل الخسارة والفشل..؟..وهل هناك امرأة في برج من الأبراج لا تريد أن تحافظ على جمالها وحيويتها ومظهرها وحبها للحياة..؟..صحيح أن هناك بعض التوصيفات القريبة من شخصيتي لكن هذه المواصفات يمكن أن تنطبق على جميع النساء ومن جميع الأبراج.. وحتى الرجال..قل لي برجك..وسأقول لك إن لديك مصاعب في العمل.. وهناك من يحاربك خفية..ويريد الوثوب إلى منصبك..وإنك نبيل ومتواضع.. ومحبوب..وتحب عائلتك..وإنك أحيانا تشعر بالوحدة بالرغم من أنك وسط الآخرين..وإنك تميل إلى المغامرة لكنك تخشى عواقبها ..و..و..

أحس آدم سميث بالإحباط من جواب حواء ذوالنورين لكنه لم يستسلم كلياً، بل أحس بالارتباك لتوصيف حواء ذوالنورين العام الذي جاءت به عفوياً..لكنه ينطبق

على حياته فعلاً..لكنه لم يقل شيئاً ليؤكد كلامها، فلم يتوقع ردة فعلها تلك..ومع نفسه فكر:" إنها امرأة مذهلة..ليست سهلة..كيف قرأت حياتي ببضع كلمات..؟.. أتمنى أن أرى وجهها وهي تلهث تحتي شبقاً..".في تلك اللحظات انتبه لزوجته وهي تبتسم لصديقتها التي بدت وكأنها انتصرت عليه..وتقول لها:

- حذار يا حواء..فهو لا يعرف الهزيمة..فأنا منذ سنين أقول له كلاما مشابها في أن ما يقوله ينطبق على جميع النساء..ومن جميع الأبراج لكنه عنيد..

أحس آدم سميث بالحرج من مساندة زوجته لصديقتها بهذه الطريقة السافرة، لكنه أضفى على الحوار شيئاً من المرح فقال لحواء ذوالنورين موجها بعض غيظه المكتوم نحو زوجته:

- إيفا من برج الجوزاء..ونساء هذا البرج غريبات الأطوار..فالمرأة الجوزاء رقيقة في الكلام..متزنة..ذكية، عملية في تفكيرها..وهي شخصية مزدوجة.. قوية..جذابة..هي حبيبة مخلصة..وزوجة متقلبة المزاج..لكنها أيضاً ربة منزل ممتازة..وهي امرأة تحتكم للعقل أكثر مما تحتكم للعاطفة،..لا تؤمن بالحب.. تعتبره لعبة تسد بها وقت فراغها، فالاستقرار الزوجي والعائلي والأمومة لديها أهم من الحب..لكنها كما قلت مزدوجة الشخصية لذا فهي متأججة العواطف..لكنها أيضاً تكره الروتين، لذلك تحلم بأن تكون متميزة..ومن هنا فهي تحب المغامرة..فهي تغامر..لكنها سرعان ما تنتبه لوضعها..فتجبن ولا تستمر في مغامرتها، لأنها تفضل حياتها واستقرارها على أحلامها.. وهذا ما يجعلها عصبية..برغم قدراتها الدبلوماسية الفذة ومحاولتها التأقلم مع واقعها..

سرت رعشة في جسد إيفا سميث..أحسّت وكأن زوجها يشير إلى علاقتها الغامضة مع الفتى اللاتيني آدم سانتشو ماريا زاباتو.. فكرت مع نفسها " بعض توصيفات برجها لم يكن يذكره سابقاً حينما كان يقرأ لها شخصيتها..فإشارته إلى أنها تحب المغامرة..لكنها سرعان ما تنتبه لوضعها..فتجبن ولا تستمر في مغامرتها، لأنها تفضل حياتها واستقرارها على أحلامها..كأنه يشير بشكل غامض لما جرى معها مؤخراً.. أهو يعرف فعلا ما جرى معها أم أنه مجرد توصيف عام قد حفظه

من كتب الأبراج التي تملأ المكتبات..؟..لا..لا.. يجب أن أرده وأصده.." فقالت بنبرة حاولت جاهدة أن تكون طبيعية، لكنها مشوبة بالتحدي الخفي:

- ها أنت مرة أخرى تقول كلاماً عاماً يمكن أن ينطبق على أية امرأة..فامرأة الجوزاء رقيقة..متزنة..ذكية..عملية في تفكيرها..قوية..جذابة..متقلبة المزاج.. ربة منزل ممتازة..يهمها الاستقرار الزوجي والعائلي والأمومة..إلخ ..هذا كلام عام وينطبق على الجميع..

نظر آدم سميث إلى زوجته نظرة فارغة..فقد كان ذهنه بعيداً عنهما..لم يجد ما يقول..انتبهت زوجته لحالته فاستغربت من ذلك الفراغ المخيف في نظرته..فكرت مع نفسها: "ربما انزعج نتيجة لردهما على تفسيراته..فهو يحاول أن يمنح شخصيته بعض التفرد المرح والأهمية من خلال معرفة قراءة الأبراج..نعم هو عادة ما يتصدر جلسات الأصدقاء والضيوف، لاسيما النساء، من خلال تفسيراته للأبراج..وله شعبية بينهن من خلال ذلك..وربما سعى هذا الصباح ليبرز مواهبه أمام صديقتها وينال إعجابها..لكنها صدته بطريقة حطمت كبرياءه..لن يغفر لها ذلك..".. فجأة سمعته يتوجه لأولاده قائلاً بمودة:

- هيا يا أحبابي..بابا يريد اليوم أن يوصلكم للمدرسة بنفسه..

راودت إيفا سميث مشاعر شفقة ممزوجة بحنان نحوه..صحيح أنهما في حالة توتر منذ فترة لكن بينهما عشر سنوات وحب ولحظات جميلة جداً.. لكن هذه المشاعر الرقيقة نحوه لم تستمر طويلاً..إذ تمنت الآن أن يسرع بالخروج ليوصل الأولاد إلى مدرستهم إذ هو بذلك سيوفر عليها الكثير من الوقت..لكن كيف ستتخلص من صديقتها..؟ ماذا ستفعل معها..؟ كيف ستذهب إلى آدم زباباتو وحواء موجودة هنا في البيت..؟ هي لا تستطيع أن تتركها وحيدة في البيت؟..عليها أن تؤجل ذهابها..أحست بالضيق من فكرة عدم تمكنها من الذهاب إليه.

نهض زوجها عن المائدة..وقبل أن يغادرها توجهت إليه حواء ذوالنورين بالسؤال:

- أستاذ آدم..هل يمكنني أن أقابل محاميك..أقصد محامي الشركة..؟.

توقف آدم سميث عن الحركة مذهولاً ..صُدم من طلبها غير المتوقع..فقال بتلعثم:

- طبعاً..طبعاً..طبعاً.. من المؤكد أنه يمكنك مقابلته.. هل قررت شيئاً بصدد

اللجوء..؟

لم تتوقع إيفا سميث هذا التغيير في مسار الأحداث..فقد كانت قبل لحظات تفكر بصديقتها وكيف ستتركها وحيدة في البيت، وها هي صديقتها تريد الخروج أيضاً..سمعت صديقتها تجيب على سؤال زوجها بحيادية وهدوء:

- لا أعرف بالضبط..عليّ أن أقابله أولاً..ثم بعدها أقرر..ربما سأغادر فرنسا إلى أي بلد عربي لا يحتاج إلى تأشيرة دخول إليه..ربما إلى المغرب.. هل تحتاج المغرب إلى تأشيرة دخول..؟

دهش الزوجان سميث وقالا بصوت واحد مليء بالإستغراب:

- ماذا..؟ ماذا تقولين..؟

ارتبكت حواء ذوالنورين من دهشتهما المشوبة باستنكار نابع عن مودتهم لها. أحسّت بصدمتهما..فأرادت أن تخفف من الأمر فقالت:

- هي مجرد فكرة..أنا لم أقرر أي شيء بعد..

هيمن صمت مطبق للحظات..قطعه صوت انكسار كأس زجاجي وقع من كف الأبن الأصغر على البلاط..فز الجميع.. وكأن ذلك نذير شؤم إذ تعكر مِزاج الوالدين بسرعة.. أسرعت إيفا سميث إلى التأكد من أن أحداً من أبنائها لم يُجرح.. وأخذ الأبن الأكبر يبرئ نفسه مما حدث..احتضنت إيفا ابنها الأصغر الذي لا يزال يذهب إلى الحضانة المجاورة لمدرسة الأبن والبنت الآخرين لتتأكد من عدم تعرضه للأذى. بكى الصغير من خوف ما فعل لكنها احتضنته وأخذت تقبله بحنان كي تذهب عنه الخوف.

في تلك اللحظات التي كانت الأم منشغلة مع أبنائها، كان آدم سميث يستقرئ وجه حواء ذوالنورين باحثا عن إجابة مخفية وراء جملتها عن الذهاب إلى المغرب.. فقد أدرك أنها فعلا تنوي الذهاب إلى المغرب وأنها خففت عنهما حينما قالت بأنها لم تقرر بعد أي شيء.. لذلك قال لها بنبرة مشوبة بزعل مكتوم:

- طيب..ستذهبين معي..وسنقابله وسنسأله عن كل شيء تودين معرفته.. تفضلي جهزي نفسك لأننا سنخرج الآن..

قال ذلك واتجه نحو زوجته وأبنائه ليستعدوا للخروج.

أحسّت حواء ذوالنورين أنها تعجلّت في التصريح عما كانت قد فكرت القيام

به، فربما أزعج ذلك صديقتها التي غامرت دون علم زوجها بالمجيء إلى فلورنسا لتأتي بها إلى فرنسا بينما هي تتنكر لكل تلك المساعي وتقرر مغادرة فرنسا دون أن تناقشها في الأمر على الأقل..وهذا فعلاً ما مرق بخاطر إيفا سميث، لكنها لم تعر الأمر أهمية كبيرة، لأنها تثق بكلام صديقتها حينما قالت بأن ذلك مجرد فكرة..وهي لم تقرر ذلك بعد..فهي لا تستطيع أن تتصور بأن صديقتها يمكنها القيام بذلك..ببساطة لأنها امرأة مترددة وتحتاج لمن يدفعها للقيام بأية خطوة حاسمة.. هكذا هي تفهم صديقتها..ثم أنها تتمنى خروج الجميع من الشقة كي يمكنها أن تستعد للخروج هي أيضا، فهي لا تستطيع أن تفكر بصديقتها في هذه اللحظات.

أسرعت إيفا سميث بإعداد كل حاجات أولادها ورتبت ملابسهم وأعدت الحقائب الصغيرة التي فيها بعض الفواكه لهم، بينما ذهبت حواء ذوالنورين إلى غرفتها لتأتي بحقيبتها. أما آدم سميث فكان يستعجل الخروج كي ينفرد بحواء ذوالنورين ليفهم منها سر قرارها المفاجئ.

الفصل الخامس والعشرون

بين سر الحياة ولغز الموت

ودّع آدم سميث أولاده في المدرسة ودار الحضانة..كانت حواء ذوالنورين تنتظره في السيارة..صعد إلى السيارة وهو أكثر حماساً فلم يستطع أن يتحدث معها طوال الطريق من البيت إلى المدرسة احتراسا من ابنه الكبير الذي رغم أنه في السادسة من العمر إلا أنه قد يفهم شيئاً من حوارهما إذا ما تحدث معها.. لذلك كانت الكلمات بينهما عابرة..لكنه الآن يريد أن يعرف سر قرارها بمغادرة فرنسا..كان يحس وكأنها ملزمة بتقديم توضيح خاص له..وما أن تحركت السيارة حتى بدأ الكلام سائلاً:

- هل لي أن أفهم ما يجري يا حواء..؟..أنت ترغبين بمغادرة فرنسا، هكذا ببساطة لأنك لا تريدين البقاء هنا..لكنّ الأمر لا يتعلق برغبتك نفسها وإنما بدوافعها..نحن في الكثير من الأحيان نعي رغباتنا لكننا لا نعي دوافعها.. وبالتأكيد هناك سبب ودافع وراء هذه الرغبة..هل تعرفين بالضبط لماذا تريدين مغادرة فرنسا..؟.

قال آدم سميث ذلك بنبرة مشوبة بالتهكم والحنق المكتوم، موجهاً كلامه إلى حواء ذوالنورين التي تجلس إلى جانبه في السيارة.. كان ينظر إليها منتظراً جوابها، وفي نظرته شيئاً من الغضب وكأنه ينظر إلى طفلة مشاغبة.. بينما كانت حواء ذوالنورين تستمع إليه ونظرها يشرد بعيداً إلى نقطة غير منظورة في الطريق.. مرت لحظات صمت ..كان هو ينتظر جوابها..ودون أن تلتفت إليه قالت بهدوء وبنبرة تشي بالعناد:

- لنفترض أنني لا أعي دوافع رغباتي..هل يغير هذا في الأمر شيئاً..؟

- نعم..أن نعي دوافع رغباتنا يعني أننا نعي لاوعينا..وهذا شرط التحرر..
- أنت تتحدث مثل الكتب..تتحدث بعمومية وأحكام قاطعة..تتحدث عن الإنسان والبشر عموماً..وأنا لا يهمني ذلك..أنا معنية بحريتي وحرية إرادتي أنا..أنا حواء ذوالنورين..
- ليكن...فأنت تمثلين النساء كلهن..أنت تنتمين للبشر..أنت إنسان..

التفّت إليه وفي نظراتها سخرية مبطنة وعلى وجهها ابتسامة مُرّة وقالت:

- أتعرف يا سيد آدم..لقد تعبت من اللعب بالكلمات والجمل الكبيرة..ومصائد اللغة الناعمة..والمبالغات في مديح الذات ونفخها بالتعميمات..أنا امرأة متعبة..امرأة تعرضت للكثير من المحن والمآسي..وحياتي بسيطة مثل الماء.. ومعقدة مثل السماء.. أبحث عن مكانٍ لا أحتاج فيه لمساعدة أحد..أريد الاستقرار في بلد أنتمي إليه روحياً..وأعرف لغته على الأقل..لست في وضع نفسي يتيح لي تعلم لغات جديدة..ثم قل لي: لماذا يجب علي أن أفسّر كل شيء..؟ وأن أحلل كل شيء..؟ وأن أبحث عن الدوافع الغامضة لكل شيء..؟..هذا الأمر يجعل الحياة جحيماً..يجعلها دوامة بلا قرار..أنا امرأة وحيدة..أحس وكأنني في غابة تلتف الأفاعي على أغصانها الكثيفة.. أحس بالتفاهة تحاصرني..تخنقني..حياتي صارت بلا معنى بعد موت ابني الوحيد آدم..صرتُ أخاف من كل شيء..أخاف المرتفعات..أخاف الحافات الناتئة والحادة..حينما أقف على حافة الأشياء وأنظر إلى أعماق الهاوية أشعر بالرعب..لا أقصد الحافات الجبلية أو حافات الأسطح والبنايات فقط..فالحافات أحيانا ما تكون تجارب ومراحل في الحياة..، قد نخطو عندها خطوة عمياء واحدة حتى ترانا نسقط في أعماق الهاوية..!.. ليس ارتفاع الحافة هو المهم هنا وإنما هول السقطة نفسها..نعم..صحيح أنني هنا في مجتمع أوربي متحضر..لكنني خائفة..لا أشعر بالأمان هنا..أعتقد أنني لم أرَ شيئاً مهماً.. فكل هذا الترف والتقدم الاجتماعي والحضاري لا يساوي لحظة يأس وخوف أمر بها ليلاً..أريد أن أرحل بعيداً عن هنا.. أتمنى لو أكون تلميذة في تلك المدرسة البعيدة على قمة الجبل، التي تحدثت عنها إيفا..حيث السكون والأمان..

- أية مدرسة..وأي جبل..؟

سألها آدم سميث مستغرباً.

التفّت حواء ذوالنورين إليه مستغربة تعليقه الوحيد كان عن المدرسة والجبل وليس عن معاناتها التي عبرت عنها..لم تكن تتوقع ذلك.. أرادت أن تقول شيئا لكنها أجّلت ذلك فقد كان آدم قد وصل باب الكراج الذي يقود إلى الطوابق تحت الأرضية التي تكوّن مرآب السيارات سواء لسكان المبنى أو للعامة..أخرج بطاقة بلاستيكية ووضعها أمام الجهاز الجانبي فارتفعت العارضة وفسحت المجال للسيارة بالمرور..دارت السيارة دورات عديدة وهي تلتف صاعدة، حيث توقفت في المرآب السادس..كانا منذ لحظة دخولهما إلى المرآب صامتين.. إلى أن استقرت السيارة في موضعها المخصص لها..لحظتها التفت حواء ذوالنورين إليه لتقول شيئاً إلا أنه واصل كلامه:

- بصراحة شديدة يا حواء أحس أنك تهربين من نفسك..أنت خائفة من نفسك لا أكثر..لذلك تحاولين أن تقللي من قيمة قدراتك الشخصية.. وتقمعي رغباتك الحقيقة..أنت امرأة هادئة..طيبة القلب..متأججة العواطف.. صافية كالماء..حكيمة كالميزان.. مندفعة كالوعل الجبلي..صارمة كالنسر.. كريمة كالبحر ..

نظرت إليه بتمعن وارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهها وقالت:

- يبدو أنك لا تعرف الهزيمة يا أستاذ آدم..وكما قالت زوجتك إيفا فأنت لا تعرف الاستسلام..وعلي أن أحذر منك.. تحس وكأنك تخوض حرباً لا بد أن تنتصر فيها بأي ثمن..تتحدث معي وكأنك تحدث مراهقة..كلمات.. كلمات..كلمات..تجعل مني امرأة خارقة..أنا لست كذلك يا سيد آدم.. فمهما استخدمت من تعابير شعرية حفظتها من كتب رسائل الحب فأنك لا تستطيع أن تجعلني أنظر لنفسي كما تشاء أنت أن توهمني بها...إنك تخوض حرباً في المكان الخطأ والزمان الخطأ يا أستاذ آدم..

نظر آدم سميث إليها بتوتر وقال وهو يطفىء محرك السيارة :

- لماذا تحملين كل هذه الضغينة ضدي يا حواء..؟ ثم عن أية حرب تتحدثين..؟ تظنين وكأني أخوض حرباً ضدك وأني أسعى إلى تنظيم مسيرات وأرفع

البيارق الخفاقة وأنشد الأغاني الثورية معلنا انتصاري في حربي ضدك..!!
لا.لا. أنت مخطئة بالكامل..أولاً لأن الحرب هي في النهاية للطرفين ليست سوى دماء وأشلاء ودخان وغبار وحفر مليئة بالدم والفضلات والجماجم المهشمة والجثث المتعفنة والجيف الخانقة..ومن بقي منهم فهم جرحى جسديا وروحياً ويثيرون الرعب والشفقة..أنا أكره الحروب..أكره الحروب الحقيقية والحروب الافتراضية والاستعارية..أكره الحرب بين الرجل والمرأة..الحرب بين الأخوة..والحرب بين الأم وابنتها..وبين الزوج والزوجة..أنا لا أبحث عن التناقض وإنما أسعى إلى التوافق..أنا رجل مسكين مثلك..رجل وحيد..يسعى أن يخلق سعادته البسيطة بنفسه..رجل محطم وجد أن أحلامه تكشفت عن أوهام ليست أكثر..وكل طموحاته وأفكاره الكبيرة تكشفت عن معان فارغة..

كانت حواء ذوالنورين تستمع إليه بهدوء غريب..فقد أحست بتعاطف خفي معه لكنها تقنعت بالصمت ولم تكشف عن أية إشارة تشي بتعاطفها..لم ينتظر هو منها تعليقاً إذ واصل كلامه وكأنه يتخلص من عبء ثقيل:

- بعض الناس يسأل: ما هي الحياة..؟ لكن كان يفترض على هذا البعض أن يسأل: ما هو الموت..؟ والعكس صحيح أيضاً ..فبعض الناس يسأل: ما هو لغز الموت..؟ في حين كان يفترض بهذا البعض أن يسأل: ما هو سر الحياة..؟
- وأنت من أي بعض..؟ سألته بشكل مفاجئ، وعلى غير توقع منها هي أيضاً.
- أنا..؟

التفت إليها مستغربا استجابتها للحوار ، منبهاً لنبرة صوتها التي لا تشي بأية ضغينة بل بفضول ودود، فقال:

- أنا..أنا روح منسية بين سر الحياة ولغز الموت..أنا لست سوى كذبة..ظل يمشي حتى في الظلام..أتدرين ما هي مشكلتنا نحن البشر..؟

نظرت إليه مستفسرة دون أن تجيب..لكنه واصل دون أن ينتظر إجابتها:

- مشكلتنا نحن البشر هو أن كل واحد منا..مهما كان وضعه الاجتماعي.. أو مهنته..أو جنسه..قوميته..دينه.. مذهبه..كل واحد منا على وجه الأرض

يضفي على نفسه وشخصه أهمية استثنائية وخاصة جداً..يعتقد أنه مركز الأشياء والأساس الذي تعتمد عليه الحياة البشرية..وأن ما يقوم به مهم للمجتمع والتاريخ البشري، بل وسيسجل في ملفات الخلود..حتى العاطل عن العمل يعتقد نفسه مركز الكون..كل منا عالم صغير بكل تناقضاته.. عالم يرفض التنازل ولو قليلاً عن كبريائه الفارغة..أتدرين..أحيانا يسألونني عن منصبي ومهنتي، خاصة عند التعارف مع أشخاص ألتقيهم لأول مرة في مطاعم وبارات المطارات..وحين أجيبهم بأن مهنتي هي: التفكير..يبتسمون ويظنونني أبلهَ..وفي أحس الأحوال يحسبونني شاعراً رومانسياً..بينما أنا رعدٌ لا برق لي..أو برق بلا رعود..غيومي لا تنزل مطراً وإنما هي قطعان تظلل ما تحتها ثم تتلاشى سريعاً في الهواء..أنا لا شيء..لاشيء يبحث عن شيء ما..أنا..أنا..

اختنقت الكلمات في فمه..أحست بأن كلماته برغم عتمة الحزن فيها قد مست روحها..فقالت له مواسية:

- أنت تقسو على نفسك كثيرا يا أستاذ آدم..

نظر إليها نظرة غريبة..فجأة أمسك كفها..سحبت كفها من كفه..امتدت لحظات صمت بينهما..التفت إليها سائلاً:

- لكنك لم تجيبيني..لماذا تريدين مغادرة فرنسا ..؟

أحست أن عليها أن تجيبه لكنها لم تجد جواباً مناسباً وحقيقياً فقالت بحزن وسرحان:

- لا أعرف.. أريد ببساطة أن أختفي..أتلاشى..

- وإلى أين تريدين التوجه..؟ أين تريدين التلاشي..؟

- لا أعرف..أي بلد آمن..فكرت بالمغرب..لكن عليّ التأكد من شرط استحصال الفيزا من عدمها..

صمت لحظات ثم قال بهدوء:

- أعرف الجزائر..سافرت إليها مع..

فجأة ارتبك وكأنه باح بشيء لا يجب البوح به..لكنه دارى ارتباكه بسرعة مواصلاً كلامه:

- الروس لا يحتاجون فيزا إليها..وأنا لا أعرف إنْ كنت ستحتاجين إلى فيزا كشرط لدخولك المغرب..سنسأل المحامي الذي سيتصل بنفسه ويستفسر من السفارة المغربية..

سحب المفتاح من سيارته ونزل عن مقعده..نزلت هي أيضا واتجها نحو المصعد.

* * *

ما أن صارت إيفا سميث وحدها في الشقة حتى غمرها إحساس صاف وناعم لم تعرفه من قبل.. أعدّت لنفسها فنجاناً من القهوة بشكل سريع..كانت في عجلة من أمرها..أرتدت ثوباً بسيطاً يسهل عليها التحرك فيه..ذهبت إلى الحمام. وضعت مكياجها بشكل سريع..رشت عطراً فرنسيا مثيرا على جيدها وبين نهديها وخلف أذنيها..تمنت لو كان لديها جناحان لتطير بهما إلى حيث يعيش آدم سانتشو ماريا زاباتو..لكنها أحست بدبيب مشاعر توبيخ الضمير تسري مخاتلة في نفسها..شعرت بالارتباك من أحساسها ولهفتها لرؤيته..فكرت مع نفسها محاولة تفسير مشاعرها المتضاربة: " ماذا يجري معي..؟..لماذا أنا متصالحة نفسياً مع هذا الشاب الوقح الذي اخترقني بعنف وبسرعة مذهلة على الدرج في الممر..وتجرأ على تدنيس عالمي البيتي واقتحامه لاغتصابي..؟ صحيح أن كل ما جرى كان بالنسبة لي أشبه برغبات محرمة رأيتها في المنام..إلا أن الحقيقي والواقعي بالنسبة لي هو أني شججت رأسه بمنفضة السجائر التي ضربته بها وسفكت دمه.. وها أنا لا أعرف ماذا جرى له منذ الأمس..!!.. أنا لا أعرف بالضبط طبيعة مشاعري نحوه..أنا على يقين بأني لا أحبه..وفي الوقت نفسه لا أكرهه..لكن هل أنا لا أحبه حقاً..؟ لست متيقنة من ذلك..الشيء الوحيد المتيقنة منه هو أنني من أجل من أُحب مستعدة إلى أن أقوم بكل شيء..كل شيء، ليس أن أمنحه جسدي له فقط..مهلا..مهلاً..أليس هذه محاولة مني كي أبرر لنفسي القيام بكل شيء باسم الحب وفضيلة المحبة..؟!".

كانت تحاور نفسها بشجاعة وقسوة وصراحة..وفجأة..أحست وكأن الغيم يتكشف عن سماء صافية.. الآن..أدركت بوضوح لماذا كانت تذهب أحياناً إلى أي مكان.. لا على اليقين والتحديد..تصعد سيارتها وتذهب إلى أعماق باريس..تركنها أحيانا في مكان قريب من أي محطة لقطار الأنفاق ثم تتجول في الأسواق والشوارع.. أو تنزل إلى قطار الأنفاق..تصعد القطار دونما تحديد الاتجاه..مجرد لرؤية الناس

أو بدقة أكبر لتشعر بالحياة التي تتدفق حولها..الآن أدركت بأن هناك شيئاً ناقصاً في حياتها.. أحست بأن حياتها بروتينها المتكرر تخنقها..وأنها لم تعد تحب زوجها وإنما تحترمه..

فكرت إيفا سميث مع نفسها: " أصحيح ما قاله زوجي من أني أحب المغامرة وأكره الروتين..وأنني حينما أكون على الحافة أحس بالارتباك والخوف والجبن مما يدفعني للإنسحاب..لأعود إلى يقيني العائلي وحياتي المستقرة المضمونة زاهدة بتوهجات الروح وشغف المغامرة..! ..لا..لا.أنا لستُ كذلك..هو لا يعرفني جيداً.. وأنا لست كما يريد أن يصورني أو يوحي لي بأنني كذلك..سبق لي أن خنته مع رجل مسن أكبر منه على الرغم من أن ذلك لم يكن حباً بل نوع من الشفقة والتعود والتعاطف الإنساني..لكني مع هذا الفتى اللاتيني أحس بشغف جديد..مشاعر لم أجربها سابقاً..فأنا المتحفظة والأبية صرت لا آبه لإهاناته المتكررة لي..لا أريد أن أفكر في ذلك..ولا أريد أن أتذكر ذلك..أريد أن أراه..أن أكون قربه..لا أحتاج أن يكون معي، لكني أحتاج إلى أن أراه وأن تطمئن نفسي عليه..سأذهب لأرى ما جرى له وأعود..نعم.. عليّ أن أنتبه لنفسي وإلا سأدّمر كل شيء..نعم..نعم.. فماذا لو عرفت صديقتي حواء دمشقية بالأمر..؟ .. تلك المجنونة ستفضحني في كل باريس بلا خجل..ستخبر زوجي بالتأكيد..وماذا لو حدث ذلك..؟ من المؤكد أن زوجي سيطلّقني وسيأخذ الأولاد..لا..لا..هذا مستحيل..أنا لا أستطيع أن أعيش بدون أولادي.. أنا أتنفس من خلالهم.."..ولم تنتبه إيفا سميث إلى الدموع التي ترقرقت في عينيها حينما كانت تفكر بأخذ أولادها منها.

بعد لحظات من التجلي العاطفي لمشاعر الأمومة رن هاتفها..ذهبت إلى حيث الهاتف الملقى على طاولة الطعام..نظرت إلى شاشته.. عرفت رقمه..أحست بالشلل يسري في جسدها..لم تكن تعرف ماذا تفعل..؟ هل تجيبه أو لا..؟..ظل الهاتف يرن إلى أن توقف.. أخذت الهاتف..أرادت أن تتصل به..لكن في تلك اللحظة رن الهاتف أيضاً..خافت من الاتصال فأعادت الهاتف إلى الطاولة..ظلت تنظر إلى شاشته وهو يرن..فكرت مع نفسها..:" لماذا أخاف من أن أجيبه..؟ ألم أكن أتمنى أن أسمع صوته..وأريد رؤيته..؟ ألا أزين نفسي وأعدّها لملاقاته..؟ فلماذا لا أجيبه.."..ولم تكن تنتهي من تداعيات أفكارها حتى رن الهاتف بنغمة تشير إلى

وصول رسالة.. أخذت الهاتف وفتحت الرسالة..هي رسالة منه..ليس فيها سوى جملة واحدة..: أنتظرك في الشقة.

أحسّت بفرح طاغ..راودها شعور جميل جعل قلبها يخفق سعادة..فكرت مع نفسها وأخذت تحدثها: " هذا يعني أنه يحبني..ويريد أن يراني.وأنه برغم ما فعلت معه يحبني..وينتظرني..حبيبي.."..انتبهت لنفسها حين سمته في أعماقها بكلمة "حبيبي"..لكنها لم تجد في ذلك ضيراً..فهي مندفعة بمشاعرها..وقررت أن تذهب إليه..دخلت غرفة نومها..ارتدت معطفا خريفيا..أخذتْ حقيبتها.. وهاتفها..ألقت نظرة سريعة دائرية طافت أرجاء الشقة..ثم غادرت.

* * *

حين دخل آدم سميث إلى مكتبه بصحبة حواء ذوالنورين دخل أحد المستخدمين عليهما حاملاً فنجانين من القهوة العربية..ولم تمر إلا لحظات حتى دخلت سكرتيرته ذات الأصول الجزائرية وهي صارمة الملامح..وضعت بعض الملفات أمام مكتب مديرها بشكل رسمي جداً دون أن تنطق بأية كلمة..نظرت إلى حواء ذوالنورين نظرة باردة على خلاف المرة السابقة التي أبدت فيها الكثير من اللياقة في التعامل والترحيب والدفء..ثم خرجت دون أن تنتظر أن يقول لها مديرها شيئاً.

انتبهت حواء ذوالنورين إلى أن آدم سميث لم يبد أية ملاحظة على تصرفها، بل كان ينظر إلى وجهها وكأنه يحاول أن يبحث عن جواب مجهول فيه. وحين غادرت أحس بالضيق..ولكي يداري على ما به من انفعالات أخذ سماعة الهاتف وطلب المحامي الذي كان يراه عبر جدران المكاتب الزجاجية، وطلب منه أن يتفضل إلى مكتبه.

بعد لحظات كان المحامي في المكتب..رحب بحرارة بحواء ذوالنورين وجلس على كرسي المداولة الذي قرب مكتب المدير..أخبره آدم سميث عن نية حواء ذوالنورين بمغادرة فرنسا إلى المغرب وسأله عن معلوماته حول الفيزا..لم يتوان المحام في الإجابة وإنما أخرج هاتفه وطلب رقما ..

كانت حواء ذوالنورين متوترة داخليا..بينما كان آدم سميث يسترق النظر عبر زجاج المكتب إلى سكرتيرته..بعد لحظات أخذ المحامي يتحدث بالفرنسية مع الشخص الآخر على الطرف الآخر من الخط..وحينما أنهى مكالمته قال لهما بأنه

اتصل بصديق له صاحب مكتب سياحي وسفريات وينظم رحلات إلى جميع الدول الأفريقية ومن بينها المغرب..وقد أكد له الصديق بأن الجواز الروسي لا يحتاج إلى فيزا..وأنه يستطيع أن يحجز تذكرة السفر والفندق حالا إذا رغبنا..حيث توجد طائرة تغادر مساء.

لا تعرف حواء ذوالنورين من أين جاءتها تلك الإندفاعة الروحية حينما طلبت من المحامي أن يحجز لها على طائرة المساء نفسه وكذلك يحجز لها غرفة في فندق..فوجئ آدم سميث بكل هذه التحولات السريعة والقرارات الحازمة..لكنه لم يكن في وضع نفسي يتيح له المناقشة الطويلة والاعتراض..في تلك اللحظة نهض وغادر المكتب..التفتت حواء ذوالنورين نحوه فرأته يتحدث بعصبية مع السكرتيرة.. انتبه المحامي إلى انتباهها لما يجري بين المدير وسكرتيرته فأراد أن يشغلها عن ذلك فقال لها بأنه لا يعرف سر قرارها بمغادرة فرنسا..ولا يريد أن يناقشها في ذلك، فهو يؤمن بأنه لا يستطيع إنسان ما أن يعلّم إنساناً آخرَ كيف عليه أن يقرر مصيره ويوجه حياته..فالإنسان وحده من يقرر مصيره الشخصي في لحظة حرية الإختيار.. وهو يدرك بأن لديها أسبابها الحقيقية لاتخاذ مثل هذا القرار سواء أعلنت عنها أم لا..ثم أبدى المحامي استعداده كي يذهب معها إلى مكتب صديقه وينجز لها كل شيء، فالمكتب في كل الأحوال سيحتاج إلى نسخة مصورة من جواز سفرها وإلى دفع ثمن التذكرة والفندق..

ابتسمت حواء ذوالنورين له ابتسامة حزينة لكن نظراتها كانت تشع وداً وطيبة وقالت له بنعومة:

- سببي الرئيسي والجوهري هو أنني أحاول أن أحافظ على ما تبقى من إنسانيتي.. صحيح هناك أسباب أخرى لكنها ليست أسباباً بقدر ما هي أعذار أبرر لنفسي بها ما دفعني لقراري هذا..ربما لن تفهم ما أقصد..لكننا حين نكون وسط الحياة فنحن لا نعي بأننا في وسط الموت..وربما إذا ما ابتعدتُ عن هذا الدفق الفوار للحياة في مدينة مثل باريس وأتلاشى في بلاد بعيدة..وأختلي في زاوية ساكنة فأنني سأوفر الأمان والسكينة لنفسي وروحي..لا أعرف كيف أشرح لك ذلك..لكنني في كل الأحوال لا يسعني سوى أن أشكرك بكل ما في قلبي وروحي من مشاعر طيبة.. والآن هل يمكننا أن نمضي..

نهض المحامي بكل أريحية وقال لها بأنه في خدمتها، فمشت أمامه مغادرة المكتب والمحامي خلفها.

فوجئ آدم سميث بخروج حواء ذوالنورين وارتبك لأن حواره مع السكرتيرة في الممر الفاصل بين قاعة الموظفين ومكتبه كان متوترا قليلا..ابتسم لها بارتباك.. وسألهما إلى أين يمضيان..فأجابته بأنها ستمر على المكتب السياحي مع المحامي لترى كيف ستسير الأمور معها.. وقد استغربت أنه لم يبد أي محاولة للمجيء معها..فأدركت بأن ثمة شيئاً ما يربطه بهذه السكرتيرة..ربما هو شأن من شؤون العمل..ولم يذهب ذهنها إلى ما هو أبعد، إذ أن زوجته تعرف هذه السكرتيرة جيداً.

منذ لحظة قرارها بمغادرة فرنسا إلى المغرب ولم يمض من الوقت سوى نصف ساعة تقريبا وهي تشعر بدفق الحياة إلى روحها..ولم تعرف لماذا جاءت صورة الشيخ المبارك أبي الكرامات و طلابه الأشباح إلى ذهنها..ومدرسته البعيدة على قمة الجبل..تلك المدرسة التي تتقد فيها الفوانيس في الليل..مئات الفوانيس.. لكن المكان خال من أي مخلوق سوى الشيخ المبارك في تكيته وحيداً..فكرت مع نفسها بأنها لا بد أن تزوره هناك.. هي أيضا روح منسية ما بين سر الحياة ولغز الموت.

الفصل السادس والعشرون

مرايا الوجوه المقنعة

كانت الإشارة الرقمية الحمراء فوق باب المصعد تشير إلى أنه متوقف في الطابق السابع..كانت إيفا سميث متوترة..أخذت تضغط على زر المصعد بتكرار.. قررت أن ترتقي الدرجات إلى الطابق السابع لترى سبب توقف المصعد عنده.. في تلك اللحظة سمعت هدير حركة المصعد وهو يهبط..فقالت لنفسها :» وأخيراً تحرك..«..أحست بالارتياح وبفضول لمعرفة من أوقف المصعد أو من وجّهه للنزول، لكنها لم تكن تتوقع أن يُفتح باب المصعد لتجد نفسها في مواجهة الشيخ المبارك صاحب الكرامات..فوجئت..ألقت عليه التحية وسألته عن حاله مجاملة..رد عليها بلكنته المغربية المحببة لكن بلغة عربية فصحى بتحية طيبة وترحيب ودعاء لها ولعائلتها بالتوفيق.

أحسّت بشعور غامض أشبه بوخزة ضمير لرؤيتها هذا الشيخ الجليل..وكأن ظهوره أمامها ذكرها بما هي مقدمة عليه.. انتبهت مندهشة إلى أن الشيخ الجليل لم يضغط على أي من أزرار الطوابق..فضغطت هي على زر الطابق الأرضي، لكن الغريب أن باب المصعد لم يغلق.. ضغطت على زر الإغلاق والهبوط..إلا أن الباب لم يغلق..التفتت إلى الشيخ المبارك الذي كان يراقبها بطيبة مع ابتسامة أبوية دافئة.. نظر الشيخ إلى الأزرار فأخذ الباب بالتحرك للإغلاق..لكن قبل أن يغلق المصعد بابه أمتدت كف نسوية فأوقفته..توقف المصعد مرة أخرى وانفتح بابه..ظهر أمام باب المصعد راهبة كبيرة في السن ما إنْ دخلت حتى ظهرت خلفها مباشرة راهبة شابة جميلة جداً فدخلت أيضا..وفوجئت إيفا سميث بدخول امرأة شرقية الملامح تضع على رأسها طرحة خفيفة..وما أن دخلت الثالثة حتى وقفت أمام المصعد امرأة

رابعة..تلبس طرحة على رأسها أيضاً..امرأة شرقية الملامح وفي غاية الجمال.. وما أن دخلت المرأة الرابعة حتى تبعتها امرأة ذات شعر أشقر لكن ملامحها شرقية ..ذهلت إيفا سميث إذ أن النساء الخمس كن يظهرن من مكان لامرئي..فلم يكن جميعهن أمام المصعد..فكل مرة كانت امرأة واحدة تدخل لكن فجأة تظهر امرأة أخرى..!! كان دخول النساء هادئا وبلا صخب..وبرغم أن المصعد يفترض أن لا يتحمل كل هذا الوزن ألا أن المصعد لم يبد أية إشارة لتجاوز الوزن..

ابتسم الشيخ المبارك لهن دون أن يحدثهن..وأومأن هن له برؤوسهن احتراماً.. ذهلت إيفا سميث..فكرت مع نفسها في أنها كانت لدقائق في الممر تنتظر وصول المصعد..، ولم يكن هناك في الممر أي أثر لبشر..فمن أين جاءت هؤلاء النسوة..؟.. هل يعرفهن هذا الشيخ المبارك الذي ابتسم لهن بمودة ورددن على تحيته..؟..هي لم تدخل المصعد إلّا منذ أقل من دقيقة..وأن سكان الطابق يحتاجون لدقيقة على الأقل كي يكونوا أمام المصعد..فمن أين ظهرن..؟ وكيف تجمعن أمام باب المصعد وكأنهن يظهرن من العدم..؟.. فجأة سمعت إثنتين منهن يتحدثن في ما بينهما.. قالت ذات الشعر الأشقر بأنهن يجب أن يسرعن في الوصول إلى صديقتها حواء ذوالنورين قبل أن تتوجه للمغرب.. فهي تريد أن تسألها عن الصغير هابيل وعن المخطوطات..! أومأت الراهبتان برأسيهما دون أن تقولا شيئاً..بينما ابتسم الشيخ المبارك لهن وقال لهن بلهجة أبوية:

- لا تخفن عليها..ستكون في الحفظ والصون في المغرب..لا تقلقن..وهابيل في سلام..وبين أياد أمينة..والمخطوطات ليست معها وإنما مع آدم أبوالتنك..

كانت جميع النساء يستمعن إليه بإحترام شديد وكأنه حسم موضع حواء ذوالنورين..لم تدرك إيفا سميث شيئاً أول الأمر..لكنها سرعان ما التقطت كلمات الحوار وذهلت من أنهن يتحدثن عن صديقتها حواء ذوالنورين التي تنوي السفر إلى المغرب..!! لكن من هو الطفل هابيل..؟ وعن أي مخطوطات تحدثوا..؟ فهي لا تعرف شيئاً عن كل هذه التفاصيل..أيمكن أن يتحدثن عن حواء ذوالنورين أخرى..؟ لا.لا. هذا مستحيل..لا يمكن للمصادفات أن تكون بهذا التطابق..!!.

في تلك اللحظات بالذات تذبذب مصباح كابينة المصعد..وبعد لحظات عمّ الظلام..وهيمن سكون غريب على المكان..أحسّت إيفا سميث وكأنها ليست في

كابينة مصعد بنايتها وإنما في مصعد سماوي يخترق الغيوم هابطاً إلى الأرض..أين هي الآن؟..سرتْ رعشة في جسدها وأحست ببرودة غير طبيعية وكأنها في مجمدة هائلة..، بينما استمر المصعد المظلم نازلاً بسرعة خارقة..!.

قبل أن يصل المصعد إلى الطابق الأرضي..، بدأ ضوء المصباح يتذبذب، وحينما استقر في الطابق الأرضي استقر ضوء المصباح أيضاً..وانفتح باب المصعد..لكن ثمة مفاجأة أذهلت إيفا سميث لحظتها..إذ لم تجد أي شخص معها في المصعد.. كانت كابينة المصعد فارغة..ولا أثر للشيخ المبارك ولا للنسوة الخمس..!.

أحست بخوف حقيقي..وأسرعت الخطى مبتعدة عن المصعد..وجدت نفسها قد صارت في الشارع أمام البناية..تفجرت الأسئلة في أعماقها مرة أخرى: " ما الذي جرى معي هنا في المصعد..؟ هل أنا مجنونة بحيث أرى كل هؤلاء الناس في المصعد..ثم يختفون دون أثر..؟..أنا متأكدة من نفسي بأنني قد ألقيت التحية على الشيخ المبارك فكيف اختفى..؟ ثم..من هن تلك النسوة اللاتي دخلن المصعد بشكل مريب ثم اختفين..؟ لا..لا..ثمة شيء ما غير طبيعي جرى معي..أتُرى أن ما جرى لي ليس سوى وهم من أوهامي..؟ مستحيل.. أترى ما رأيته إشارة تمنعني عما أنا مقدمة عليه..؟ لا.لا..عليّ أن أشعل شمعة للعذراء..نعم.. لم أذهب للكنيسة منذ فترة ليست بالقصيرة..على الرغم من أنني أصلي للعذراء بشكل شبه يومي.. لكن لا بد من تفسير لما رأيته..».

انتبهت إيفا سميث إلى أنها انشغلت بما جرى وخفت حماسها للتوجه إلى شقة آدم سانتشو ماريا زاباتو..صحيح أنها لا تزال تنوي الذهاب إليه وبرغبة وشغف.. لكنها تود أن تفهم هذه الإشارة الغامضة التي تلقتها في المصعد..هل هي إشارة روحية حقاً، عليها أن تتقبلها وتفهمها حقاً، أم هي مجرد وهم أوجده صراعها النفسي حول ما تشعر به نحو الفتى اللاتيني ودوافعها الدينية المترسخة في أعماقها..؟ لكن لو كان الأمر كذلك فلماذا لم تكلمني أية من الراهبات فأنا مسيحية..؟! بينما دار حديث عن صديقتي حواء ذوالنورين وعن أشياء أخرى لم أفهمها..؟ سألت إيفا سميث نفسها..أرادت أن تتحدث مع أمها حول الأمر علها تمنحها شيئاً من السكينة.

اتصلت إيفا سميث بوالدتها تليفونياً..فاستغربت حينما سمعت المسجل الآلي يجيبها بالفرنسية بأن الجهاز مغلق حاليا أو خارج نطاق الخدمة!! حاولت مرة أخرى

فجاء الجواب كالمرة السابقة..!!..ولا إراديا طلبت صديقتها حواء ذوالنورين لتتحدث معها.. استغربت إيفا سميث حينما أجابها الجهاز الآلي وبنفس الصوت السابق بأن الجهاز مغلق حالياً أو خارج نطاق الخدمة..!!.. استغربت إيفا سميث مما يجري.. حاولت مرة أخرى أن تتصل بوالدتها فجاء الجواب كما في المرتين السابقتين.

أحسّت إيفا سميث بالحيرة..لم تكن تعرف ماذا تفعل ولا إلى أين تذهب..!.. كان ذهنها في توهج وحركة هائلة..فكرت مع نفسها:" صحيح أنها تريد الذهاب إلى الفتى اللاتيني لكنها الآن ليست متحمسة بالكامل..!! التوتر الذي بدأ يهيمن على نفسها مما جرى في المصعد ومن غرابة التليفونات المغلقة جعلها في حيرة ولا يقين مما يجري معها..! هي لم تنم الليل من أجل أن ترى عشيقها..لكنها الآن غير واثقة من ذلك..لكن حسمت أمرها بأنه صار عشيقها..؟ ..ها هي الآن تحس بشيء من البرود الذي يكبل حركتها ويحيط بشغفها..لكنها لا تريد أن تفقد ذلك الإحساس الرائع الذي كان يغمرها منذ الأمس..صحيح أنها تعرف بأنها تقترب من الفاكهة المحرمة لكنها تعشق ذلك..تحس أنها كانت سعيدة برغم وعيها بأن ما تفعله لا ينسجم مع قناعاتها الدينية والأخلاقية..لكنها الآن لا تدري ماذا تفعل..!».

كانت طوال تلك الفترة واقفة تتحرك أمام المبنى الذي فيه شقتها..أرادت أن تتوجه إلى المبنى القريب الذي تسكن فيه أمها..لكنها غيرت اتجاهها لاإراديا وتوجهت نحو الساحة الكبرى حيث قوس النصر الجديد..ودون أن تنتبه لنفسها وجدت نفسها تصلي سراً للسيدة العذراء..فجأة..قطع عليها صلاتها السرية صوت يحدثها بفرنسية مهشمة:

- مدام..مدام..هل تريدين شراء أشياء ثمينة بنصف القيمة..؟

التفتت فرأت شاباً أفريقياً طويل القامة في نهاية العشرين من عمره يبتسم لها ويكرر القول:

- بنصف القيمة..

لم تفهم شيئاً..انتبه الشاب الأفريقي إلى أنها لم تفهم..فمد ذراعه وسحب الجاكيت عنها فرأت أنه قد شد على ذراعة خمس ساعات رجالية ونسائية جديدة.. وكرر لها قائلاً بنبرة فيها شيء من الرجاء:

- بنصف القيمة.ساعات جديدة وماركات غالية..

نظرت إيفا سميث إليه بريبة واتهام واضح بأنه لص وأن هذه الساعات مسروقة لكنها لم تقل شيئاً وإنما ابتعدت عنه مسرعة الخطى، فتبعها بنفس السرعة وهو يقول لها:

- بربع القيمة..من أجلك بربع القيمة..يا مدام انتظري..لك بربع القيمة..قولي لي أي سعر تحددين..خذيها بأي سعر تريدين..قولي شيئا..مدام..

لم تلتفت له ومضت في طريقها..أدرك الشاب الأفريقي بأنها غير راغبة في الشراء فلم يتبعها.

حين صارت في الساحة وقفت حائرة..لا تدري إلى أين تذهب..ولماذا توجهت إلى الساحة أصلاً..؟! نظرت إلى تجمع ليس ببعيد عنها.. كان هناك ثلاثة شبان بدا واضحا من ملابسهم ذات الطبيعة الأفغانية أنهم مسلمون لكن سحناتهم لا تشي بأنهم افغان.. كان الشبان يقفون حول طاولة صُفت عليها مجموعة من الكتب..واقتربت قليلاً فرأت أن أحدهم أقبل نحوها وبيده كتاب.. صار أمامها ومده إليها قائلاً:

- هذا القرآن باللغة الفرنسية هدية منا إليك..، عسى أن يهديك الله إلى نور الحق..

نظرت إليه بدهشة ولم تتمالك نفسها، إذ وجدت نفسها تقول له بنبرة فيها غضب مكتوم:

- أنا مسيحية..

فقال لها الشاب وعلى وجهه إبتسامة ماكرة:

- إنما الدين عند الله الإسلام..وقد جاء الإسلام ليكمل بقية الديانات الناقصة التي تعرضت للتشوية والتلاعب..فقال قال نبينا الكريم محمد..صلى الله عليه وسلم..

لم تستمع إيفا سميث إلى ما قال وإنما انتبهت إلى صلاته على النبي التي قالها بالعربية لكن بلكنة شمال أفريقية، فقالت له بالعربية مباشرة:

- أنتم تحاصرون المسيحيين في البلدان العربية وتحاربون أي نشاط لهم خارج الكنيسة..وتعتبرون ذلك تبشيراً بالمسيحية ، بينما توزعون القرآن بالمجان هنا في البلدان المسيحية مستفيدين من التسامح في سياسة هذه البلدان..

فوجئ الشاب حينما تحدثت إيفا سميث معه بالعربية، فارتسمت على وجهه علامات غضب وتحد واستفزاز وقال:

- نحن هنا لننشر الإسلام ينتشر في أوربا..سنجعل من أوروبا بلاد الاسلام بعد عشر سنوات..وسترين ذلك إنْ عشنا إلى ذلك الحين..ولعلمك..نحن نتزوج الفرنسيات المسيحيات..ونأتي بنسائنا العربيات المسلمات أيضاً.. ننجب الكثير من الأطفال الذين سيكونون من أبناء هذا البلد..وسترين كيف ستكون الأكثرية للمسلمين في أوروبا..إنه نصر من الله..وفتح قريب..

أحست إيفا سميث بالغضب يتصاعد في أعماقها فغادرت الساحة إلى حيث تسكن..بينما ارتسمت على وجه الفتى المسلم ابتسامة نصر ساخرة وصاح خلفها:

- سنجعل نساءكم مُلك أيماننا..

التفتت إليه من بعيد غاضبة وبصقت على الأرض..فرفع ذراعه لها بحركة معروفة وكأنه يشير إلى إدخال القضيب..بينما كان القرآن في كفه الأخرى.

غضبت إيفا سميث من نفسها ومن عدم سيطرتها على مشاعرها، وفكرت مع نفسها بأنه ما كان لها أن تتكلم معه أصلاً.. وشتمت في أعماقها الأوربيين على سياستهم التي تحتضن بيوض الأفاعي المسمومة والحاقدة تلك..

فجأة رن هاتفها عن نغمتين متتاليتين تشير إلى وصول رسالتين..توقفت.. أحست بدفق من المشاعر غير الواضحة..أخيرا هناك من تذكرها..!!. فتحت الرسالة الأولى فكانت من أمها تسألها: أين أنت..؟ لماذا لم تتصلي بي..؟..استغربت من الجملة الثانية في الرسالة، فقد اتصلت بها مرتين وكان الهاتف مغلقاً..ثم واصلت فتح الرسالة الثانية فكانت من آدم زاباتو وفيها كلمة واحدة: أنتظرك..!.. أحست بفرح غامض يتجدد في أعماقها..؛ فقررت بما لا يقبل المناقشة الذهاب إلى مرآب السيارات أسفل بنايتها..وجدت المرآب مظلماً ليس كالمعهود..دخلت ماشية عبر مدخله العريض..واختفت في الظلام.

* * *

اتجهت إيفا سميث بسيارتها إلى حيث يسكن آدم سانتشو ماريا زاباتو..وكانت تحاول أن تجد المبررات لإقناع نفسها بعدم الإقدام على هذه الخطوة التي تدرك معناها ودلالتها وما سيحصل هناك..كانت حائرة بين أن تعيش شغفها وأحلام يقظتها

معه التي تمنحها لحظات متعة ممزوجة بألم رومانسي طويل..وبين أن تكون عنده وترتوي من اللذة..لكنها بمرور الوقت ومع توغلها بسيارتها إلى أعماق باريس كانت تجد نفسها أكثر يقينا في قرارها بأن تكون معه..كانت متلهفة وشغوفة لرؤيته!!.

حين وصلت (روي دي برادايس) أوقفت سيارتها أمام المطعم (ناناشي) المجاور للبناية ذات الطوابق الثلاثة التي يعيش فيها الفتى اللاتيني.. أحنت رأسها قليلاً ونظرت من خلال الزجاجة الأمامية إلى المبنى موطئة رأسها قليلا فرأته مطلاً من نافذة غرفة الاستقبال على الشارع وكأنه ينتظر مجيئها..انتبهت إلى أنه لم يعصب رأسه بأية لفافة لتضميد الجرح..إذن لم يكن جرحه عميقا..وإلا لكان قد شد رأسه.. خرجت من السيارة ونظرت إليه..فرأت على وجهه تلك الابتسامة البغيضة..ابتسامة المنتصر التي تُشعرها بالإهانة والسوقية..أحسّت بالضيق من هذه الإبتسامة..وشعرت بأنها شبه مشلولة لا تستطيع التقدم خطوة للأمام..رأته وهو يشير إليها بأن تصعد.. إشارته لأية امرأة رخيصة متأكد من أنها تلهث خلفه كالكلبة في فترة التسافد.. وخلال تلك اللحظات رن هاتفها..نظرت إلى الشاشة فعرفت أن المتصل هو زوجها:

- أين أنت..؟

تجمدت مشاعرها وماتت الكلمات على شفتيها..لكنه كرر سؤاله:

- إيفا أين أنت..؟

فأجابت بصوت مرتبك حاولت أن يكون طبيعياً:

- أنا هنا..خارج البيت..لماذا..؟
- لقد اتصلوا بي من روضة الأطفال وقالوا إن الصغير قد تقيأ..
- ماذا..؟
- لقد اتصلوا بك..لكن هاتفك كان مغلقا..فاتصلوا بي..ذهبت إلى الروضة وأتيت به..ذهبت به إلى الطبيب..لاشيء مقلق..مررت إلى البيت فلم أجدك.. اتصلت بوالدتك فكان هاتفها مغلقاً، لذا جئت به معي إلى المكتب..أردت أن أقول لك لا تقلقي..الصغير معي..فقط الأولاد في المدرسة يمكنك أن تأخذيهم إذ لا يسعني ذلك فلدي اجتماع..لكن من ناحية الصغير لا تقلقي سيكون كل شيء على ما يرام..أحبك...

تجمدت في مكانها..داهمها شلل عاطفي للحظات..أحست أن الدنيا قد انقلبت

وتخلخل نظام الأشياء..فهي لا تستطيع ولو لثانية أن يمس أولادها أي عارض صحي أو أذى..وراودتها خاطرة بأن ذلك إشارة ربانية كي لا تنزلق إلى وادي الخطيئة.. إشارة لعقاب غيبي يظهر في أبنائها..وفي لحظة اختفى كل شوقها وشغفها لهذا الفتى اللعوب الذي من أجله هي الآن في هذا الشارع..وفي تلك اللحظة..وبدون أي تردد صعدت إلى سيارتها..حركت المفتاح في المحرك وانطلقت قاطعة الشارع مغادرة المكان بسرعةٍ كبيرة متجاوزة ما مكتوب من حدود للسرعة في ذلك الشارع الفرعي..بينما نظر آدم زاباتو من نافذته مستغربا من تصرفها.

* * *

بعد أن استكملت حواء ذوالنورين اجراءات السفر من شراء تذكرة السفرِ ذهاباً وإياباً وحجز غرفة في فندق متوسط من أربع نجوم.. توجهت مع محامي الشركة الذي أبدى الكثير من اللطف والتفهم والصبر إلى مقهى قريب..وحينما عادا إلى مكتب الشركة كان آدم سميث قد جاء بابنه الصغير من روضة الأطفال..شرح لهما ما جرى للصغير..وأنه الآن بخير..وحينما أراد التوجه إلى البيت طلبت حواء ذوالنورين أن تذهب معه كي تعد حقيبتها..بل وتأخذها تحسبا لأي طارئ فالطائرة في بداية المساء وعليها أن تكون في المطار قبل ساعتين.

حينما كانا في الطريق إلى البيت رن هاتف آدم سميث..أخذ الهاتف بعصبية.. وقال بصوت عصبي وبنبرة غاضبة:

- ماذا أيضاً..(صمت للحظات) أنا متجه إلى البيت الآن..ماذا تريدين..؟..

انتبه آدم سميث إلى وجود حواء ذوالنورين فأخذ يتكلم بالفرنسية..وبعد لحظات أنهى حديثة بجملة عربية يبدو خرجت منه برغم تحفظه..فقال بنرفزة واضحة:

- قلت لك بعدين..سأرجع ثم نخرج معاً للتفاهم..اتركيني الآن.

قطع الاتصال بغضب ونرفزة واضحة مطلقاً شتيمة بالفرنسية لم تفهمها..أدركت حواء ذوالنورين بأن المتصلة ليست زوجته إيفا..لكنها لم تشأ أن تتوغل في متابعة هذا الأمر مع نفسها، إذ كانت تحس بمشاعر غريبة..فهي مقبلة على رحلة غامضة.. ولم تكن خائفة وإنما كانت تشعر بالرهبة من هذه الرحلة المفاجئة.

حين وصلا إلى البيت لم تكن إيفا موجودة..اتصل بها زوجها إلا أن هاتفها كان مغلقاً أو خارج نطاق الخدمة كما أخبره المسجل الآلي..اتصل بأمها فكان

هاتفها مغلقاً أيضاً..كان آدم سميث عصبياً..متنرفزاً..مستعجلاً..فأخذت حواء ذوالنورين حقيبتها الصغيرة التي فيها القليل من ملابسها وحاجاتها..أخبرته بأنها ستنتظر صديقتها لساعة اخرى فأن لم تأت فأنها ستغادر الشقة..كان هو خارجاً عن حالته الطبيعية.. أدركت بما لا يقبل الشك بأنه يعيش لحظات عصيبة ما..ولم تشأ أن تكون ثقيلة بوجودها معه، لذا حررته من التزاماته الأدبية بأن يكون معها.. قال لها بأنه سيأخذ الصغير معه فماذا لو لم تأت زوجته إيفا..؟ وتأسف لقرارها بالمغادرة..وطلب منها عنوانها هناك فأخبرته باسم الفندق الذي حجزت فيه غرفة لمدة أسبوع في مراكش.. ودعها على عجل وبطريقة ملؤها الارتباك..أحست حواء ذوالنورين أن آدم سميث يمر بأزمة خانقة.

* * *

كانت إيفا سميث تشعر بأنها امرأة تعيسة..كيف حصلت لها كل هذه الأشياء في هذا اليوم بالذات..فكرت في أن تتصل بصديقتها حواء ذوالنورين لكنها غيرت رأيها قبل أن تضغط على زر الإتصال.. لم تتردد في أن تتصل بأمها التي جاء صوتها قلقاً وهي تسألها عن سبب عدم الإتصال بها طوال اليوم.. فأخبرتها بأنها اتصلت بها مرتين لكن هاتفها كان مغلقاً..فاستغربت الأم ذلك لأنها هي نفسها أيضا اتصلت بها وكان هاتفها مغلقاً فأرسلت إليها رسالة..كل منهما استغربت ما تقوله الأخرى..ثم روت لها مضمون اتصال زوجها آدم..وأنها الآن متجهة إلى لمدرسة كي تعيد الأولاد إلى البيت.

* * *

يئست حواء ذوالنورين من مجيء صديقتها إيفا سميث..فتشت عن ورقة بيضاء للكتابة فلم تجد..دخلت المطبخ فوجدت دفتراً أصفر للملاحظات البيتية..استقطعت منه بعض الوريقات وجلست تكتب لها رسالة مودة وشكر وتوضح لها المكان الذي تتجه إليه واسم الفندق وتليفونه خلال الأسبوع الأول من إقامتها في مراكش.. وتعتذر لها لعدم تمكنها من الانتظار أكثر لأن عليها أن تكون في المطار.. وتوجهت إليها بالرجاء كي تعذرها وتتفهم موقفها ووعدتها بأن تتصل بها حينما تستقر هناك.

* * *

كان الغروب قد حل..وكانت إيفا سميث قلقة وهي تتصل بزوجها الذي قد

أغلق هاتفه..وكانت أمها قلقة أيضاً لكنها كانت تحاول أن تهدئ من وضع ابنتها.. لم تستطع إيفا سميث أن تستقر في مكان..كانت تجلس ثم تقوم..ثم تذهب إلى غرفة الضيافة، ومنها تطل على الشارع..ثم تعود إلى الصالة..تنظر إلى ابنها وابنتها.. ويتفطر قلبها على الصغير الذي مرض هذا اليوم..وهو الآن مع أبيه..وهي تعرف بأن الصغير كان يجب أن ينام مبكرا، فهو لا يتحمل التعب.

كانت الأم والابنة لا تتحدثان كثيرا..تتبادلان بضع كلمات..ثم تغوصان في عالميهما الداخليين..كانت كل منهما تتوجس خيفة من كل هذه الظواهر الغريبة التي حصلت في نهار ذلك اليوم..وكان التوتر والقلق يتصاعد مع مرور كل دقيقة بإتحاه الليل.

فجأة..رن الهاتف..ركضت إيفا سميث إلى الهاتف..كان رقما غريبا..أخذته بلهفة وأجابت بالفرنسية..كانت الأم حينما رن الهاتف عند باب المطبخ..وبيدها صحن فيه فواكه قطّعتها لأحفادها..جمدت في مكانها.. انتظرت ما يسفر عنه الاتصال.. كانت تسمع ما يقال من جهة ابنتها..ولا تعرف ماذا يقول الاخر..لكنها كانت ترى ملامح وجه ابنتها التي هوت على الكرسي...وهي تصرخ بالفرنسية:

- لا..

سقط صحن الفواكه من يد الجدة.وركضت لتحضن ابنتها دون أن تعرف ما حصل..لكنها كانت متيقنة من أن كارثة قد حلت بعائلة ابنتها.

تعالى صراخ إيفا سميث منتحبة..أخذت الأم تنتحب معها..وبكى الأطفال على بكائهما دون أن يعرفا ماذا حصل..وبعد دقائق من البكاء والنحيب المر..انتبهت إيفا سميث إلى ابنها وابنتها..وأخذت تحضنهما حينما رأتهما يبكيان..تماسكت قليلاً من أجل أبنائها.. ومسحت دموعهما..وطلبت منهما أن يذهبا إلى غرفتهما الآن..فلم يقبلا.. لكنها حاولت أن تكون قوية ومتماسكة كي لا ينهارا.. وحينما وجدتهما لا يريدان أن يذهبا..طلبت منهما أن لا يغادرا الصالة..وهمست لأمها بأنها تريد أن تحدثها على انفراد..فذهبتا إلى غرفة النوم..وحين حاول الولدان أن يتبعانها نهرتهما بعصبية.

وفي غرفة النوم أوضحت إيفا سميث بأن زوجها تعرض إلى حادث اصطدام سيارته..وهو يرقد الآن في مستشفى الطوارئ الأميركية في باريس..ولم يخبرني رجل الشرطة أكثر من ذلك..وحين سألت عن التفاصيل رفض أن يخبرني لكنه

أكد على ضرورة حضوري فورا..أرادت الأم أن تذهب معها إلا أنها طلبت منها أن تبقى مع الأولاد وأن لا تخبرهما بأي شيء.

* * *

في أروقة الطابق الخاص بمستشفى الطوارئ الأميركية في شارع فيكتور هيغو.. كانت تجري كالمجنونة..لم تكن تعرف كيف وصلت إلى المستشفى..فقد سارت بسرعة جنونية..كانت تنتحب..وتحس بأن ذلك عقاب من الله على سلوكها الشائن.. وأنها هي المذنبة في تعرض ابنها لهذه المصائب..كانت لا تفكر كثيراً بزوجها كتفكيرها بصغيرها.

سألت في الاستعلامات عن مواطن أميركي تعرض لحادث، فسألوها عن علاقتها بمن تعرض للحادث فقالت لهم إنها زوجته..وسألت عن صغيرها..فلم يعطها أحد أي جواب..وإنما أشاروا لها بصمت نحو الجهة التي يرقد فيها زوجها..

توجهت إلى الممر الذي أرشدوها إليه. مضت بما يشبه الهرولة.. حين صارت في الممر استغراب بشدة حين رأت والديّ سكرتيرة زوجها ينتظران بقلق هناك أيضاً..لم تستوعب ما يجري..لم تفهم لماذا هما حاضران هنا..اقتربت منهما وقد تجمدت مشاعرها وسألتهما ماذا يفعلان هنا..وكيف عرفا..؟

صمت الأب، إلا أن الأم أجابت بأن ابنتهما اتصلت بهما..لم تستوعب إيفا سميث ما سمعت..وسألتهما:

- كيف عرفت هي..؟ ولماذا لم تتصل بي لتخبرني أيضاً..؟

سكتت الأم..هيمن صمت ثقيل للحظات..خمنت إيفا سميث بأن ثمة شيئاً ما يخفيانه، فسألتهما بنبرة حازمة:

- ماذا هناك..؟ ماذا تخفيان..؟ كيف عرفت هي..ولِمَ لمْ تخبرني..؟

تقدم الأب نحوها بخطوة وقال لها بهدوء وإنكسار:

- لأنها كانت معه في السيارة أيضا..وتعرضت للحادث معه..وهي في حالة خطرة..

- ماذا..؟ ماذا يعني أنها كانت معه..؟ ولماذا هي معه..؟ وأين ابني..؟

لم يجب الأب على سؤالها..وإنما أجابتها الأم بعد أن سمعت طريقة استنكارها لوجود ابنتها معه..فقالت لها بنبرة صارمة أيضاً وكأنهم نسوا المصاب الذي فيه الجميع:

- لأن ابنتي هي زوجته يا مدام سميث.. هي زوجته على سنة الله ورسوله.. ولم يسجلا ذلك رسميا في المحاكم الفرنسية لأن القانون لا يسمح بذلك..

لم تحاول إيفا سميث أن تصدق ما سمعت، فصرخت بالمرأة:

- ما هذا الهذيان أيتها المرأة..؟

ثم التفتت إلى الأب الذي كان صامتاً والذي لم يشأ أن يواجه مثل هذا الموقف وفي مثل هذا الوضع، وسألته:

- ما هذا الكلام..؟ أصحيح ما أسمع..؟ أصحيح بأن ابنتك التي هي سكرتيرة زوجي كانت زوجته..؟ كيف حصل هذا..؟ ألا تعرفون بأن زوجي مسيحي أيضا..؟ قل لي بأن هذا غير صحيح..!!؟

صمت الأب للحظات وقال لها بتعاطف كي يخفف من توتر الجو:

- نعم يا ابنتي..

- لا تقل لي ابنتي..أنا لست ابنتك..أجب على سؤالي رجاء فقط..

كان الأب محرجا..فتقدمت الأم لتصد هجومها ولتوقف صياحها الذي كان مشوبا بالإهانة المبطنة، وقالت لها بتحد موضحة:

- ابنتي كانت زوجة ثانية لزوجك..وقد تقدم إليها رسميا..بل زار أعمامها في الجزائر أيضا..واشترطوا عليه أن يعتنق الإسلام..ووافق زوجك..وبعد نطقه بالشهادتين وافق أعمامها من تزويجها له..لذلك عليك أن تعامليها بإحترام فهي ليست سكرتيرته وإنما هي زوجته.. مثلك..كما أن عليك الآن أن تترحمي على زوجك..

- ماذا..؟ ماذا قلت..؟ وابني..

صرخت إيفا سميث بذهول

- أحمدي الله أن ابنك حي..بعض الرضوض البسيطة..لكن ابنتنا في حالة خطيرة..في الانعاش.. ونسيبنا توفاه الأجل..

لم تنتظر إيفا سميث بقية الكلام ولم تواصل معهما الكلام.. وإنما ركضت تفتش كالمجنونة بين غرف المستشفى باحثة عن صغيرها..كانت ثمة لهفة وفرح غامض يسري في كيانها كله.. بينما ما سمعته من ضربة زوجها القاضية لها قد جمّدت مشاعرها نحوه.

* * *

في مطار شارل ديغول كانت حواء ذوالنورين قد جلست تشرب القهوة في كافتيريا المطار..أخذت هاتفها واتصلت بصديقتها كي تودعها صوتيا من خلال الهاتف..إلا أن المسجل الآلي كان يجيب بالفرنسية بأن الرقم الذي طلبته إما مغلق أو خارج نطاق الخدمة..

لم يبق أمامها سوى بضع دقائق على موعد التوجه للطائرة..وبينما كانت تنقد النادل ثمن القهوة سمعت صوتاً نسوياً ناعماً يحييها. حين التفتت أصابتها الدهشة.. فقد كانت الكاتبة حواء الذهبي..قبلتا بعضهما البعض على الطريقة العربية وتبادلتا كلمات الترحيب العادية.. أرادت حواء ذوالنورين أن تضيّفها إلا أن المرأة الأخرى شكرتها معتذرة بأنها قد شربت الكثير من القهوة..ولا ترغب في أي شيء..وحين سألتها عن وجهتها، ابتسمت حواء الذهبي بطريقة ملغزة وعلى وجهها نظرة مليئة بالغموض والأسرار وقالت:

- أنا مسافرة معك..إلى مراكش..

أحست حواء ذوالنورين بإرتعاشة باردة تسري في جسدها وسألت بتردد:

- لكنك قلت لي بأنك في فلورنسا..!

ابتسمت حواء الذهبي ابتسامة ماكرة وقالت بمرح:

- نعم..كنت في فلورنسا.. وبالمناسبة..هناك التقيت رساماً عراقيا كان قد رسم لوحة مذهلة لك..؟

فردت حواء ذوالنورين وكأنها لا تعرف شيئاً:

- لي أنا.. ؟

- نعم لك أنت.. رسام اسمه آدم بوناروتي..أما تعرفينه..؟!

ارتبكت حواء ذوالنورين..لم يكن أمامها أن تنكر فقالت بطريقة ملتوية وغير واضحة:

- أعتقد أنني حينما كنت في فلورنسا التقيت رساما عراقيا بهذا الاسم أو باسم مشابه..لكن كيف التقيت به..؟

ابتسمت حواء الذهبي وقالت بنبرة مازحة :

- ألا تعرفين كيف التقيتُ به يا حواء..؟ غريب..؟ ألم تعرفيني بعد يا حواء ذوالنورين..؟

حدقت حواء ذوالنورين في وجهها وكأنها تبحث عن شخص ما وسألت باستغراب مشوب بنبرة خوف:

- من أنت..؟!

- من أنا..؟ اسألي نفسك وستجيبك..

في تلك اللحظات تعالى نداء بلغات عدة يدعو المسافرين المتجهين إلى مراكش أن يتجهوا إلى الطائرة.. ابتسمت حواء الذهبي وقالت لها:

- علينا التوجه إلى الطائرة الآن.

ومشت باتجاه الحاجز الأخير الذي عند بوابة الدخول إلى الطائرة..بينما ظلت حواء ذوالنورين على كرسيها تنظر إلى المسافرين وهم يصطفون طابورا أمام البوابة الأخيرة.

انتهت

تم الانتهاء منها مساء يوم 7-1-2015

في الساعة 19.44 مساء

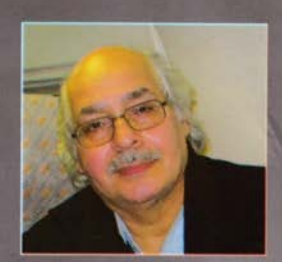
شكر لا بدّ منه ...

وأنا أتأمل متاهاتي وأتابع مصائر هذا الحشد الذي بلغ المئات من الشخصيات من الأوادم والحواءات؛ أجد نفسي ملزماً بأن أتوجه بالشكر لكل هؤلاء الذين حكوا لي تفاصيل حياتهم.. صحيح أن بعض الشخصيات كنت قد شكلتها من خلال تجاربي في الحياة وتأملاتي في النفس البشرية، لكن هناك من روى لي من النساء والرجال قصة حياته بكل شجاعة متجاوزاً كل الحواجز النفسية؛ فتجلّوا في رواياتي من خلال شخصياتهم.. وأخص هنا بالذكر: حواء المؤمن وحواء الصايغ وحواء اللهيبي وآدم التائه وآدم المطرود في (متاهة آدم..) وحواء الزاهد وحواء الكرخي وإيفا أومسك وآدم اللبناني في (متاهة حواء) وحواء ذوالنورين وآدم ذوالنورين وإيفا ليسنج وإيفا جايكوفسكايا وحواء صحراوي في (متاهة قابيل) وحواء بعلبكي وحواء فاكهاني وآدم الغفاري في (متاهة الأشباح) وإيفا سميث وآدم الشامي والدكتور آدم كارثة وآدم بوناروتي وآدم الشبيبي في (متاهة إبليس) وحواء السندسي وإيفا ماريا الذهبي وحواء الذهبي وآدم سميث في (متاهة الأرواح المنسية) وحشد آخر من الحواءات والأوادم الذين رووا لي حكاياتهم التي جاءت عرضاً في متاهاتي.

لكنني هنا، وبعيداً عن الشخصيات الحقيقية التي شكّلت شخصيات متاهاتي من أوادم وحواءات؛ لا بـدّ من أتوجه بالشكر والعرفان لصديقي الغالي الشاعر والمترجم والباحث الموسوعي جلال زنكابادي الذي رافق متاهاتي منذ مخطوطاتها الأولى.. ونقح ودقق جلّها.. وهذا ليس بغريب عليه؛ فأفضاله كثيرة على الكثيرين من الأدباء والكتاب.. وهو يقوم بذلك بمحبة وبفيض على الآخرين دون انتظار كلمة الشكر التي يجب أن تقال في مثل هذا المقام.

بُرهـان شـاوي

متاهة الأرواح المنسية



بُرهان شاوي

شاعر وروائي

صدرت له لحد الآن ثماني روايات: الجحيم المقدس، مشرحة بغداد، متاهة آدم، متاهة حواء، متاهة قابيل، متاهة الأشباح، متاهة إبليس.. كما صدرت له سبع مجموعات شعرية: مراثي الطوطم، رماد المجوسي، ضوء أسود، تراب الشمس، رماد القمر، شموع للسيدة السومرية، خطوات الروح..

ولدية العديد من الكتب الفكرية منها: وهم الحرية، عن الإبداع وسلوك المبدع، سحر السينما، جماليات اللغة السينمائية، نظريات التأثير الإعلامي، الدعاية والاتصال الجماهيري عبر التاريخ - المجلد الأول حضارات الشرق القديم

كما ترجم عن الروسية أشعار كل من: أوسيب ماندلشتام، يوسف برودسكي، آنا أخماتوفا، فلاديمير فيسوتسكي.

رواية "متاهة الأرواح المنسية" هي الرواية السادسة في سلسة متاهات الشاعر والروائي بُرهان شاوي، والثامنة إلى جانب روايتي "الجحيم المقدس" و"مشرحة بغداد".. فمنذ الرواية الأولى في هذه السلسلة "متاهة آدم" مروراً ببقية المتاهات المتسلسلة: متاهة حواء ، متاهة قابيل، متاهة الأشباح، ومتاهة إبليس، والآن في "متاهة الأرواح المنسية"، يقودنا الكاتب في متاهة من الأسماء والأحداث والبلدان والثقافات، مؤرخاً للعنف التاريخي في العراق الجديد.. ولمحنة الإنسان في هذه الحياة من خلال مصائر درامية لشخصيات قلقة وأرواح تائهة ومنسية في متاهة الوجود.. ليدون بذلك أطول رواية كُتبت باللغة العربية إلى جانب ألف ليلة وليلة. ولا تزال المتاهة مفتوحة على متاهات أخرى...

من أجواء الرواية نختار هذا النص:

التفت إليه وفي نظراتها سخرية مبطنة وعلى وجهها ابتسامة مُرّة وقالت:

- أتعرف يا سيد آدم.. لقد تعبت من اللعب بالكلمات والجمل الكبيرة.. ومصائد اللغة الناعمة.. والمبالغات في مديح الذات ونفخها بالتعميمات.. أنا امرأة متعبة.. امرأة تعرضت للكثير من المحن والمآسي.. وحياتي بسيطة مثل الماء.. ومعقدة مثل السماء.. أبحث عن مكانٍ لا أحتاج فيه لمساعدة أحد.. أريد الاستقرار في بلد أنتمي إليه روحياً.. وأعرف لغته على الأقل.. لست في وضع نفسي يتيح لي تعلم لغات جديدة.. ثم قل لي: لماذا يجب علي أن أفسّر كل شيء..؟ وأن أحلل كل شيء..؟ وأن أبحث عن الدوافع الغامضة لكل شيء..؟.. هذا الأمر يجعل الحياة جحيماً.. يجعلها دوامة بلا قرار.. أنا امرأة وحيدة.. أحس وكأنني في غابة تلتف الأفاعي على أغصانها الكثيفة..أحس بالتفاهة تحاصرني.. تخنقني.. حياتي صارت بلا معنى بعد موت ابني الوحيد آدم.. صرتُ أخاف من كل شيء.. أخاف المرتفعات.. أخاف الحافات الناتئة والحادة.. حينما أقف على حافة الأشياء وأنظر إلى أعماق الهاوية أشعر بالرعب.. لا أقصد الحافات الجبلية أو حافات الأسطح والبنايات فقط.. فالحافات أحيانا ما تكون تجارب ومراحل في الحياة.. قد نخطو عندها خطوة عمياء واحدة حتى ترانا نسقط في أعماق الهاوية..!.. ليس ارتفاع الحافة هو المهم هنا وإنما هول السقطة نفسها.. نعم.. صحيح أنني هنا في مجتمع أوربي متحضر.. لكنني خائفة.. لا أشعر بالأمان هنا.. أعتقد أنني لم أرَ شيئاً مهماً.. فكل هذا الترف والتقدم الاجتماعي والحضاري لا يساوي لحظة يأس وخوف أمر بها ليلاً.. أريد أن أرحل بعيداً عن هنا..


ISBN: 978-614-02-1240-4


منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

لوحة الغلاف للفنان الإسباني:خوسيه بيبليوري